الأكاديمية العربية الدولية

المقررات الجامعية

www.aiacademy.info | care@aiacademy.info

أعلام الفلاسفة - كيف نفهم (...)

رقم الكتاب في المكتبة الشاملة: ١٠٢٦٦٢
الطابع الزمني: ٢٠٢٤-٠٥-٠٥-١٩-١٦-٢٣
المكتبة الشاملة رابط الكتاب

المحتويات

١ تقديم بقلم الدكتور زكي نجيب محمود ٥

٢ مقدمة المؤلف ٦

٣ الجزء الأول: حكمة الشرق ٧
٣٠١ الفصل الأول: الفلسفة في مصر ٧
٣٠٢ الفصل الثاني: الفلسفة في فارس ١٢
٣٠٣ الفصل الثالث: الفلسفة في الهند ١٧
٣٠٤ الفصل الرابع: الفلسفة في الصين ٢٤

٤ الجزء الثاني: الفلسفة اليونانية والرومانية ٣١
٤٠١ الفصل الخامس: الفلاسفة اليونان قبل سقراط ٣١
٤٠٢ الفصل السادس: سقراط ٣٦
٤٠٣ الفصل السابع: أفلاطون ٤٢
٤٠٤ الفصل الثامن: أرسطوطاليس ٤٧
٤٠٥ الفصل التاسع: ديوجينيس ٥٥
٤٠٦ الفصل العاشر: أبيقور ٦٠
٤٠٧ الفصل الحادي عشر: أبيكتاتوس ومارقوس أوريليوس ٦٦

٥ الجزء الثالث: الفلسفة المسيحية ٧٢
٥٠١ الفصل الثاني عشر: القديس أوغسطين ٧٢
٥٠٢ الفصل الثالث عشر: القديس توما الأكويني ٧٦

٦ الجزء الرابع: ميلاد الفلسفة الجديد ٨٠
٦٠١ الفصل الرابع عشر: فرانسيس بيكون ٨٠
٦٠٢ الفصل الخامس عشر: رينيه ديكارت ٨٦
٦٠٣ الفصل السادس عشر: باروخ سبينوزا ٩٠
٦٠٤ الفصل السابع عشر: جون لوك ٩٥

٧ الجزء الخامس: الفلاسفة المستنيرون ٩٩
٧٠١ الفصل الثامن عشر: جان جاك روسو ٩٩
٧٠٢ الفصل التاسع عشر: فولتير (فرانسوا ماري أرويه) ١٠٣
٧٠٣ الفصل العشرون: عمانويل كانت ١٠٩
٧٠٤ الفصل الحادي والعشرون: آرثر شوبنهاور ١١٣
٧٠٥ الفصل الثاني والعشرون: هربرت سبنسر ١١٨

٨ الجزء السادس: فلاسفة أوربيون محدثون ١٢٣
٨٠١ الفصل الثالث والعشرون: فردريك ولهلم نيتشه ١٢٣
٨٠٢ الفصل الرابع والعشرون: هنري برجسون ١٢٧

٨.٣ الفصل الخامس والعشرون: بندتو كروتشي ١٣١

٩ الجزء السابع: فلاسفة أمريكيون محدثون ١٣٧
٩.١ الفصل السادس والعشرون: رالف والدو إمرسن ١٣٧
٩.٢ الفصل السابع والعشرون: وليام جيمس ١٤١
٩.٣ الفصل الثامن والعشرون: جورج سانتيانا ١٤٧

١٠ الجزء الثامن: اكتمال الدائرة ١٥١
١٠.١ الفصل التاسع والعشرون: موهنداس ك. غاندي ١٥١
١٠.٢ الفصل الثلاثون: الخاتمة - هداية من الفلاسفة ١٥٧

عن الكتاب

الكتاب: أعلام الفلاسفة - كيف نفهم
المؤلف: دكتور هنري توماس
ترجمة: متري أمين
مراجعة وتقديم: الدكتور زكي نجيب محمود
الناشر: دار النهضة العربية
الطبعة: ١٩٦٤
المصدر: الشاملة الذهبية

عن المؤلف

١ تقديم بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

تقديم بقلم الدكتور زكي نجيب محمود

لمن يؤرخون للفلسفة أساليب شتى؛ فمنهم - وهؤلاء هم الكثرة الغالبة - من يتجرد عن أفكار عصره، ويُسقط من حسابه كل ما قد كسبته المعارف الإنسانية على تعاقب الزمن، ليرتد إلى العصر الذي يؤرخه محايدا، فيغمس نفسه غمسا في الظروف التي أحاطت به، حتى ينظر إلى كل شيء بأعين أهله، فعندئذ يزن الفكرة بميزان زمانها، وفي هذا عدل؛ إذ ماذا يكون الإجحاف بمفكر، إذا لم يكن هو أن تحاسبه بأفكار لم تكن تطرأ لأحد في عصره على بال؟

ومنهم من يقيس القديم على الجديد، ليعرف مدى صلاحية الفكرة القديمة لو أنها انخرطت في زمرة الأفكار القائمة، نعم إن في ذلك إجحافا بالمفكر القديم، ولكنه كذلك نافع للدارسين وللناس أجمعين؛ إذ ماذا تكون الأفكار إلا خططا للعمل؟ ثم ماذا يجدي أن أدرس فكرة لم يعد في وسعها أن تخطط عملا؟ وهل من العدل أن أنصف المفكر القديم على حساب المفكر الجديد؟ وإذن فأصحاب هذه الطريقة الثانية في كتاب تاريخ الفلسفة، لا يتحرجون أن يجلسوا رجال الفكر جميعا - قديمهم وجديدهم - على مائدة واحدة يناقش بعضهم بعضا، كأنما السنون لم تفرق بين عهودهم، وذلك كله ابتغاء الحق، فلئن كانت الطريقة الأولى تحقق العدالة في تناول المفكرين، فالطريقة الثانية تناصر الحق حيثما كان.

لكن الطريقتين معا موضوعيتان في المنهج، لأن المؤرخ في كلتيهما لا يدخل

في المعركة بشخصه، بل كل همه أن يجيء باللاعبين في الملعب، ثم يقذف الكرة بينهم، ليرى كيف يعلمون، دون أن يأخذ هو نفسه ينصيب في الملعب، وإذن فهناك أسلوب ثالث لكتابة تاريخ الفلسفة، يتناول به صاحبه الأفكار من زاوية له خاصة، كأنما هو يجعل من عقيدته الشخصية عدسة تمر خلالها الأشعة الآتية من خارج، فتنكسر هنا وتستقيم هناك، قبل أن يؤذن لها بالدخول، وبعدئذ تدخل الأفكار لتجد نفسها قد انصبت في قوالب أعدها لها المؤرخ، وما يستحيل عليه الاستواء في تلك القوالب، حذف من الحظيرة حذفا.

وهذه الطريقة الشخصية في النظر إلى تاريخ الفكر هي اصطنعها هنري توماس في هذا الكتاب الذي نقدمه إليك، فهو رجل مؤمن بطائفة من القيم الإنسانية - هي نفسها القيم التي نادت بها الديانات العظمى جميعا - وقد أراد أن يبين للقارىء أن أعلام الفلاسفة في مختلف العصور، ومن شتّى المذاهب إنما يختلفون في لغة الأداء، لكنهم يتفقون على المعاني الكبرى التي دعوا إليها، وكلها معان تلتقي في الدعوة إلى كرامة الإنسان وحريته، وإلى الإخاء والصفاء والمحبة بين البشر على اختلافهم لونا وجنسا وموطنا وعقيدة، وإنه لتيار واحد متصل منذ كان على وجه الأرض إنسان، تيار من الأخلاقية التي لم يختلف فيها نبي ولا فيلسوف ولا فنان ولا حكيم. ولكن رجال الفكر الفلسفي قد نظروا إلى هذا التيار الواحد من نقاط مختلفة امتدت على طول المجرى، منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، فجعلهم هذا الاختلاف في مواضع الرؤية ينظرون إلى التيار من جوانب مختلفة، لكن التيار لا يزال تيارا واحدا، والحقيقة المرئية لا تزال حقيقة واحدة يكتبها بوذا بلغة، ويكتبها كونفوشيوس بلغة أخرى، ويكتبها سقراط أو أفلاطون أو أرسطو بلغة ثالثة، وبيتهوفن أو باخ بلغة رابعة، ورفائيل ومايكل أنجلو بلغة خامسة، وهكذا، ولكن هذه اللغات المختلفة ترجمات لأصل واحد.

فلئن قيل: " لا جديد تحت الشمس "، صدق القول بهذا المعنى، وهو أن القيم الإنسانية العليا قائمة منذ الأزل وإلى الأبد، وجهد المفكر هو أن يراها ليصفها بالطريقة التي تلائمه وتلائم

قومه، فكأنما الله يخاطب البشر أجمعين بلغة واحدة، هي هذا الكون العظيم، وكأنما الناس جميعا يستجيبون للدعوة بطريقة واحدة وإن تعددت طرائق التعبير عنها، حتى لقد ذهب بعض الفلاسفة إلى حد القول إن الإنسانية كلها رجل واحد تعددت أطرافه فتعددت وظائفه، لكن التوجيه واحد، والهدف واحد، والمقياس واحد.

ولا عجب بعد ذلك أن نرى الفلاسفة يستقون فعلا بعضهم من بعض؛ فقد تجد الفيلسوف الأوروبي المعاصر - مثلا - قد أخذ عن فلسفة الهند القديمة أخذا مباشرا، دون أن يكون في ذلك مفارقة، لأن الفكرة الرئيسية التي جاءوا جميعا ليعبروا عنها هي فكرة واحدة، ومن هنا كان المبدأ الذي جرى عليه مؤلف هذا الكتاب من حيث تركيزه على أوجه الشبه دون أوجه الخلاف بين رجال الفكر الفلسفي

على مدى التاريخ؛ لأن الشبه كائن في الأصول، وأما الخلاف فلا يمس إلا الفروع. ومن هنا كذلك كانت خطته في اختيار من يكتب عنهم ومن يغض عنهم النظر، لأنه في الحقيقة يريد أن يخدم فكرة معينة فرأى من حقه أن يجند لها من شاء من الفلاسفة، وبالطريقة التي يشاء، ولهذا تراه يتميز دون غيره ممن أرخوا للفلسفة من الغربيين بذكر صفحات مشرفة من عقائد الشرق القديم مصر، وفارس، والهند، والصين؛ كما خصص لخدمة الفكرة نفسها - وأعني بها الرسالة الخلقية التي تدعو إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان - فصلين من كتابه الأصلي: أحدهما عن " فلسفة العهد القديم " (ف٥)، والآخر عن " القديس بولس " (ف١٣). لكننا رأينا حذف هذين الفصلين في الترجمة العربية، لأن الإفادة منهما تتطلب من القارىء قدرا من الإلمام
بتفصيلات العقيدة المسيحية لا نظنه متوافرا عند القارىء العربي بصفة عامة، وهو القارىء الذي نوجه إليه هذا الكتاب.
وكان من جراء تسخير المؤلف للفلسفة في أداء ما أراد لها أن تؤديه من دعوة وتأييد للقيم الروحية العليا، أنه لم يتناول موضوعه تناول الباحث المحترف، فكم من فيلسوف عرض له ولم يمس من صميم فلسفته إلا أهونه وأيسره وأقربه إلى نظرة العابر، لكنه في مقابل ذلك تراه يغوص في باطن الفيلسوف غوصا حتى يضع أطراف أنامله على مراكزه العصبية التي كان من اهتزاز أوتارها أن خرج النغم المسموع، ولذلك تراه يتصيد من أقاصيص الحياة الخاصة للفيلسوف ما يصور تلك الحياة من الداخل تصويرا فيه الأصباغ والألوان والنغمات والمشاعر والخواطر، فإذا الفيلسوف أمام بصرك " إنسان " نابض حي إن امتاز عليك بقوة التفكير وأصالة التعبير، فهو قرينك في آلامه وآماله.
وقد بذل الأستاذ متري أمين في نقل هذا الكتاب إلى العربية جهدًا مشكورًا، فعسى أن ينتفع به القارىء بما يكافىء المؤلف في سمو هدفه، وبما يجزى المترجم عما لقيه من عناء.

٢ مقدمة المؤلف

مقدمة
الفلسفة معناها " حب الحكمة " - وبعبارة أخرى، الرغبة الملحة في حل ألغاز الحياة الأربعة الهامة: من نحن؟ ومن أين نأتي؟ وإلى أين نذهب؟ وما أحسن سبيل للوصول إلى هذا المصير؟ وما الغرض الأساسي من الفلسفة إلا الحصول على راحة البال عن طريق التأمل في عالم الحكمة. ومعرفة الفلسفة تمكننا - بطريقة أفضل - من تعرف أنفسنا ومكاننا الصحيح في هذا العالم.
وما غاية هذا الكتاب إلا أن يجعل من سعينا وراء تفهم حكمة العالم شيئا شائقا ويسيرا على
السواء. وسيكون هدفنا تحويل أسئلة العقل المعقدة إلى إجابات القلب البسيطة.
ولقد وقعت معظم الكتب الشائعة الاستعمال التي تعالج تاريخ الفلسفة في خطأين هامين:
١ - أولهما أنها كتب مبتورة أكثر مما يجب، إذ تظهر جزءا من الصورة فحسب بدلا من الصورة الكاملة. وعند تخطيطها لحكمة العالم، فإنها تحذف حكمة الشرق. وتبدأ هذه الكتب قصتها بمناقشة الفلسفة اليونانية، متجاهلة حقيقة هامة، هي أن المفكرين الشرقيين - من مصر، وفارس، والهند، والصين، وفلسطين - هم الذين فجروا الينابيع التي هبط منها الوحي على الفلاسفة اليونانيين ومن جاءوا بعدهم. ومن المستحيل أن نفهم حكمة أفلاطون، وسبينوزا وشوبنهاور وكانت ونيتشه وبرجسون وإمرسن وجيمس من غير أن نقف على فضل حكمة الشرق عليهم.
٢ - أما الخطأ الثاني فهو أن غالبية تواريخ الفلسفة خلافية أكثر من اللازم، وهي تبالغ في إظهار أوجه الخلاف بين مدارس الفكر المختلفة بدلا
من أوجه المطابقة والربط بينهما. وكثير ما يخرج طالب الفلسفة في نهاية مرحلة دراسته وهو أكثر ارتباكا مما كان في بداية الأمر. ويشعر كأنه قد نقل خلال رحلته هذه ليس عبر طريق محدد المعالم يؤدي إلى هدف واضح وإنما فوق طريق كثير النتوء ذي تعرجات مفاجئة وأجمات يستحيل
اختراقها. وعند كل انحناء يجد نفسه وقد ضل الطريق تماما - ولا يبدو هناك أي ارتباط بين أي جزء من الطريق الجيد وجزء آخر

من الطريق الأقدم كما جاء في تعليق أحد الطلبة الذين حضروا إحدى الدراسات في تاريخ الفلسفة، إذ قال: " إن كل ما تعلمته في هذه الدراسة هو أن كل فيلسوف يختلف عن الفيلسوف الآخر. والنتيجة هي أنني لا أدري فيم كان هذا كله ".

ويهدف هذا الكتاب إلى تجنب هذين العيبين: عيب النقص في السرد، ثم عيب إبراز أوجه الخلاف وتوكيدها بدلا من أوجه المطابقة، ويسرد هذا الكتاب قصة الفلسفة كلها من وقت أن بزغ فجرها في الشرق حتى يومنا هذا، كما يبرز بشكل ظاهر الوحدة الأساسية اللازمة التي تربط بين جميع النظم الفلسفية الهامة، بدلا من أوجه الخلاف السطحية بينها، ويرمي

الكتاب، بالاختصار، إلى إعطاء القارىء صورة كاملة محددة المعالم، لا صورة مبتورة مهوشة، لحكمة العالم وأسلم أفكاره، وما قصدنا بكتاب " أعلام الفلاسفة - كيف نفهم " إلا أن يكون مرشدا واضحًا ثابتًا للحياة اليومية.

ولذا فإننا نبدأ بالفلسفة الشرقية، متتبعين أثر الفكر وانتقاله من اليونان وروما وأوربا الغربية إلى أمريكا، ثم ارتداده مرة أخرى إلى مهده في الشرق. وما إن تتم الدائرة حتى نحاول أن نبين كيف أجمع أعلام الفلاسفة كافة على حقيقة واحدة تماما، كما أجمع رواد الأديان كافة على وجود إله واحد.

وبينما نحاول رسم صورة واضحة لإدراكنا للعالم عن طريق الفلسفة، فإننا

سنكشف العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والعلم من جهة، والفلسفة والدين من جهة أخرى. وسنرى حقًّا أن الفلسفة إن هي إلا جسر يصل بين العلم والدين. وهكذا تثب الفلسفة إلى الأمام مسرعة يتبعها العلم بحذر، بينما يقوم الدين بدور المرشد الهادي. فهي تحاول أن تدفع العلم إلى المخاطرة وتخضع الدين للعقل. ولكن فوق هذا كله فهي تحاول أن تحدد معالم الطريق، بين يقين العلم الناقص وأسرار الدين التي لا عد لها، نحو حياة أكثر حكمة وعقلا وسعادة.

وهذه في كلمات مختصرة هي مادة هذا الكتاب. وتنحصر طريقة العلاج في سرد حياة الأشخاص واستخدام القالب القصصي. ولن نقدم هنا الحكمة المجردة فحسب وإنما سنقدم كذلك الأفكار الحكيمة لمن عاش من الرجال وحلو فكاهاتهم. وعندما نفحص حيوات أحكم الرجال وأفكارهم في مختلف العصور نرى أن الفلسفة ليست كما قال عنها مازح إنها: " عملية بحث عن قط أسود لا وجود له في غرفة مظلمة " وإنما هي جهود العقل البشري للكشف عن نموذج الحياة المقدس ومعنى الحياة الأساسي.

وهكذا سيلحق بنا كتابنا هذا في جولة عقلية فوق عالم الفكر كله. وفي وسعي أن أعدكم برحلة مثيرة بما فيها من عناصر الكشف عن الجديد والمخاطرة وبهجة النفس.

فإلى أجواء المرحلة الأولى من رحلتنا وهيا بنا نحلق حيث يبزغ بهاء الشرق من خلال ضباب

الفجر.

بياض بالأصل

الجزء الأول

حكمة الشرق

بياض بالأصل

٣ الجزء الأول: حكمة الشرق

٣٠١ الفصل الأول: الفلسفة في مصر

الفصل الأول

الفلسفة في مصر

١

ما إن بدأ الإنسان يفكر، حتى أخذ ولا شك يطرح على نفسه هذه الأسئلة المحيرة: من أنا؟ وأي مكان هذا العالم الذي أعيش فيه؟ وماذا أنا فاعل هذا؟ وهكذا من أبعد عصور التفكير الإنساني أخذ أعلام الفلاسفة يتوقفون أمام هذه الأسئلة عينها.

وعلى أرض مصر عاش الحكماء الأوائل العظام في التاريخ. ويمكن أن نعتبر هذا القطر القديم معلم الإنسانية الأول. وعندما كانت الأجناس البدائية تنتقل من مكان إلى آخر سعيًا وراء المأكل والمأوى مر كثير منهم خلال دهليز يعرف الآن باسم وادي النيل. وقد استخدم هذا
الوادي، وهو أرض مصر، مكانا تتجمع فيه آلاف الناس ممن نزحوا من الجبال والغابات والصحارى ومناطق الجليد وشواطىء البحار. وهنا في موطنهم الجديد شحذوا ذكاءهم عن طريق تبادل خبراتهم المنوعة. وهكذا خصبت عقولهم بالآراء والطقوس والعادات الجديدة. ولذلك أصبحت مصر مهد الفكر المتمدين.
وإلى مصر نزح الكثيرون من فلاسفة العالم القديم يستلهمون الوحي ويسعون وراء التدريب؛ فقد كان يضرب بحكمة المصريين المثل بين اليونايين القدماء، حتى إن أفلاطون - أعظم فلاسفة اليونان إن لم يكن أعظم فلاسفة العالم بأسره - اعترف بفضل المصريين عليه كرواده وأساتذته في كل ما هو سام من عمل أو فكر
ويمكن إرجاع أصل كل التفكير الحديث إلى حكمة المصريين، وذلك عن طريق أفلاطون والفلاسفة اليونايين الآخرين؛ فقد أخذ اليونانيون فلسفتهم عن الشرق، ونحن بدورنا أخذنا فلسفتنا عن اليونايين. وهكذا قد انساب تيار الحكمة عبر الأجيال من غير توقف مبتدئًا بالنيل. ولا أفكار جديدة تحت الشمس. فكل فكرة نعتبرها جديدة إن هي إلا مجرد فكرة قديمة ألبست ثوبًا مختلفًا ونراها أضواء مختلفة. وكما يذكرنا بايرون فإن كل ما نطلق عليه أسلوبًا حديثًا في الفلسفة إن هو إلا تكرار وإعادة للقديم منه.
وإن عرضًا مقتضبًا للفكر المصري المبكر سيوضح لنا صدق هذه الملاحظة، فنجد مثلا ما ورثناه إياه أفلاطون وأرسطو، في فلسفة بتاح حتب، وما تركه لنا شوبنهاور وتولستوي من تراث في حكمة أبوور. كما نجد وحي سبينوزا وكانت في رؤى اخناتون.
ولنلق نظرة عابرة على مصادر الفكر الفلسفي القديمة والحديثة التي نبعت في مصر.
٢ - بتاح حتب
لم تصلنا إلا معلومات طفيفة هذا الفيلسوف الذي ظهر قبل أفلاطون بما يقرب من ألفين وثلاثمائة عام، أي حوالي عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد،. وبالرغم من هذا فلدينا من " مخطوط الحكمة " الذي وضعه مقتطفات كافية تعطينا فكرة مناسبة عن فلسفته.
وقد كان بتاح حتب حاكم ممفيس ورئيس وزراء الملك. ولما اقتربت حياته من نهايتها، اعتزل منصبه وكرس نفسه لتعليم النشء - وبخاصة ابنه -
وكان هدفه - باعتباره أبا على هذه الأرض - كما عبر بنفسه: " أن يقلد الأب الحكيم المحب الذي هو في السماء ".
وكان بتاح حتب يؤمن بأن العقاب البدني يحث على الفضيلة، وقال في ذلك: " إن قانون السماء والأرض هو أن نتعلم عن طريق التألم والمعاناة. فقد بدأ الناس حياتهم كالوحوش - وهنا سبق بتاح حتب داروين فيما ذهب إليه - ولم يتعلموا كيف يصبحون آدميين إلا خلال عملية بطيئة مؤلمة.
وكل طفل، في بدء تطوره، ليس إلا حيوانًا أعجم تقريبًا. والنتيجة المترتبة على ذلك أنه إذا أُهملت العصا، فَسَد الطفل، فيجب أن يتعلم الصغير كيف يطيع السوط تماما كالحصان الجموح. وقد كان يطلق على المعلمين في مصر القديمة بحق " اصطبل المعلمين المكي ".
وكثيرًا ما ذكر بتاح حتب أن أحسن درس أو محاضرة هو إلهاب ظهور الأطفال ضربًا " إذ يبدو أن آذان الأطفال في ظهورهم ".
ولكن بالإضافة إلى العقاب فالطفل في حاجة إلى النصح. فعليه أن يتعلم النظرة الفلسفية إلى
الحياة. وقال بتاح حتب في ذلك: " النظرة الفلسفية هي أحسن ميراث أستطيع أن أتركه
لابني ".
ويبدأ مخطوطه في الحكمة بطلب يلتمس فيه إعفاءه من واجباته السياسية: " مليكي ومولاي، لقد اقتربت نهاية الحياة وأخذ الهرم يسدل ستائره علي، خور الطفولة يعود إلي. إن من تصيبه الشيخوخة تقعده في يؤس كل يوم، فقد أظلمت عيناي، وحرمت أذناي السمع، واضمحلت قواي، ولا تجد الراحة سبيلا إلى قلبي ... ولذا أرجو أن تأذن لخادمك أن يسلم سلطة الإمارة إلى ولده ".
ثم يفسر بتاح حتب بعد ذلك كيف أن هدفه من مخطوطه هو أن يمكن ابنه من أن يصبح رجلا

صالحا. وحتى في تلك الفترة المبكرة من التاريخ لم يدَّع بتاح حتب أنه ابتكر جديدًا بمخطوطه، بل لم يفعل إلا أن ألبس الحقائق القديمة ثوبا جديدًا. فقال: دعني أحدث ولدي بكلمات أولئك الذين أنصتوا إلى حكمة الرجال الذين عاشوا في قديم الزمن - أولئك الذين استمعوا مرة إلى كلمات
الله.
وأتبع بتاح حتب هذه المقدمة بمخطوطه عن الحياة الصالحة: " لا تزه بمعرفتك، ولا تحسبن نفسك عالما. تحدث إلى الجاهل كما تتحدث إلى العالم على السواء. فعليكم أن تتعلموا الكثير بعضكم من بعض، فالمعرفة لا حدود لها، كما أنه ليس في الوجود أي فيلسوف يملك الحكمة الكاملة. والحديث المتسامح اللين، كذلك الذي يدور بين من تساووا في المرتبة، أندر من أحجار الزمرد ".
ولكن الأعمال الرقيقة أهم بكثير من الكلمات اللطيفة اللينة. " عش في دارا الرقة والشفقة فيأتي إليك الرجال يحملون الهدايا بأنفسهم ".
وكان بتاح حتب من أنصار " الكلمات اللطيفة، والأعمال الرقيقة، واللسان الذي يعرف متى يحسن السكوت ... لا تتحدث بخشونة أو بتسرع. واحذر من أن تخلق أعداء بكلماتك. لا تتجاوز الصدق ولا تفش كلمات قد اؤتمنت على سماعها، سواء أكان المتحدث فلاحا أم أميرا. وسرد القصص في غير موضعها بغيض إلى النفس ".
وهذه الصورة التي رسمها بتاح حتب للابن الحكيم تشبه إلى حد بعيد - كما سنرى فيما بعد - الصورة التي رسمها أرسطو للرجل الدمث الأخلاق، أو بعبارة أخرى الرجل الكامل. وهذه نصائح بتاح التي يقول فيها: " تعلم أن تختط
لنفسك طريقا متزنا بين عواصف الحياة. ولا تدع شيئا يقلب اتزان شخصيتك فإن الشخصية الصالحة هي أغلى هدية في الحياة ".
وأبحر في خضم الحياة على سفينة مستوية. " فلا تكن نجولا إلى حد ألا تذكر الحق، ولا متهورًا فتنطق زورًا وبهتانا. وعلم ولدك أن يفعل المثل؛ لا تدلله إن كان معوجا، فإن كان طائشًا لا يرعى لقواعد السلوك حرمة، وعنيفا، وإذا كان لا يخرج من فيه إلا كلاما دنيئا، فعليك إذن أن تلهبه ضربا حتى يزداد حرصا على اختيار كلماته، وعناية بأعماله ".
وفوق كل هذا فقد كان بتاح حتب يحث على تعلم وتعليم فضيلة ضبط النفس، هذا المبدأ الذي أصبح أحد أحجار الزوايا في فلسفتي أفلاطون وأرسطو. " لتكن أعمالك في مناسباتها، وكلماتك في موضعها. فالرجل العاقل لا يتحدث بتاتا في أمور لا يعرف عنها شيئا. ودعني مرة أخرى أحذرك: اكبح جماح نفسك، وألجم لسانك ".
وكغالبية حكماء مصر، كان بتاح حتب يؤمن بإله واحد. وليس صحيحا من الوجه التاريخية أن العبرانيين قد ابتدعوا فكرة التوحيد. بل هم قد استعاروا هذه الفكرة من المصريين ومن بعض الشعوب الشرقية الأخرى أيضا، كما سنرى.
ويبدو أن الإيمان بإله واحد، بأب للإنسانية جمعاء، قد نشأ في أماكن كثيرة نتيجة لعلاقة الأب والابن في تطور الأسرة المبكر. وكان للفلاسفة قصب السبق في تعرف وحدة الأسرة الإنسانية تحت ألوهية واحدة. هذا وبينما كان عامة الناس يتحدثون عن الآلهة - كما نتحدث نحن عن الملائكة تماما - كان الرجال الأكثر حكمة يذكرون الله.
وكان هذا الإله الذي آمن به بتاح حتب والفلاسفة الأوائل الآخرون في مصر معروفا باسم أوزيريس.
وعند بتاح حتب كانت أسطورة أوزيريس يمثل الصراع بين الخير والشر. وقد يتغلب الشر لوقت ما، ولكن من المؤكد أن يسود الخير في النهاية. كما صرح هذا الفيلسوف المصري بأبدية الله، وأنه يحمل شعبه مسؤولية أعماله، ولكنه يهدي هذا الشعب إلى الطريق القويم الأعلى حيث جنة الخلد.
فإن روح الإنسان كاللهب تتجه دائما إلى أعلى. " يموت الإنسان، ليحيا مرة ثانية ". ولا يبعد أن يكون المفكرون المصريون هم أول من غرس في نفس القديس بولس - الذي درس العلوم الشرقية بتعمق - تلك الفكرة التي يعبر عنها بقوله: " أين شوكتك يا موت؟ وأين غلبتك
يا قبر؟ ".
وقد كان بتاح حتب والفلاسفة المصريون الأوائل الآخرون هم أول من سجل إيمان الإنسان بالبعث. وهذا الإيمان هو الذي حفز المصريين على الاحتفاظ بأجساد موتاهم، فوضعوا في المقابر أواني من جميع الأنواع، لكي يستخدمها الموتى في أثناء انتظارهم الطويل

ليوم عودتهم إلى
الحياة، وقد هذب الفلاسفة هذه الفكرة الشعبية فأوضحوا أن الأشياء التي توضع في المقابر لم يقصد بها أن تكون رموزًا لراحة الأحياء، وإنما هي وسائل مساعدة للموتى.
وفي مصر القديمة كانت الفلسفة مرتبطة بالدين ارتباطا وثيقا. فمن أكثر الرموز المرسومة على حوائط المقابر إثارة، صورة الميت وهو ينهض على قدميه وذراعاه ممدودتان على هيئة
صليب، وكان لفكرة الصليب هذه - التي ولدت في مصر منذ ثلاثة آلاف سنة مضت قبل العصر المسيحي - من دلالة ارتفاع والسمو أكثر مما تتضمن من حزن أو ابتئاس، وكانت تمثل الجنس البشري وهو يصعد
إلى أعلى نحو الحياة، ولا تمثله وهو يهبط إلى أسفل نحو الموت.
وقصارى القول كان هذا هو الوجه المتفائل للفلسفة المصرية الأولى متضمنا أعمال مؤسسها: بتاح حتب. وبالرغم من ذلك فقد كان لمصر نصيبها من الفلاسفة المتشائمين. وكان أحد هؤلاء الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم توضيح هذا المظهر السلبي للحكمة، رجلا متشككا يمكن اعتباره الأب الروحي الفلسفي لشوبنهاور.
٣ - إبوور
يؤلم هذا الكافر القديم أنه لا يستطيع أن يقدم القرابين لله؛ لأنه لا يعرف أن يمكن أن يجد الله. كما يرثى لموجات جرائم البالغين وانحراف الأحداث، تلك الموجات التي عمت البلاد، ولما كان يبشر بآراء شوبنهاور وتولستوي، فإنه حبذ وضع حد للشقاء الإنساني عن طريق انتحار الجنس
البشري: " من الأفضل أن تنتهي حياة البشر، فلا حمل ولا ولادة. وإذا قدر للأرض أن تتوقف عن جلبتها، وللصراع أن ينعدم، أفلا تكون هذه نهاية جميلة للجميع؟! ".
ثم لا يلبث أن يعدد أوجه الفساد الذي استشرى في عصره في كلمات لها في كل عصر صدى حتى في عصرنا الحاضر:
إلى من أتحدث اليوم؟ الإخو أشرار، يخدع بعضهم بعضا. إلى من أتحدث اليوم؟ قلوب
جشعة، وكل امرىء يغتال متاع جاره. إلى من أتحدث اليوم؟ لقد اختفى الرجل الشريف من الوجود، بينما يعيش الباغي المتعجرف فائزا مظفرا. إلى من أتحدث اليوم؟ ففي الوقت الذي يجب فيه أن يثير سلوك المرء سخطا نراه يبعث السرور أيضًا، وفي الوقت الذي يستحق فيه السارق الجلد بالسوط، نراه يكافأ بالثروة والشهرة.
وبعد هذه الصيحة ضد شرور عصره، ينظم إبوور قصيدة يمتدح فيها الموت - ذلك الإبراء الرقيق من المرض الذي نسميه الحياة.
" الموت أمامي اليوم، ولقاؤه كلقاء رجل مريض قد استرد صحته، ونخروجه إلى الحديقة بعد إبلاله من المرض. الموت أمامي اليوم مثل رائحة أزهار اللوتس الزكية، وكأني جالس تحت الشراع في يوم بليل النسيم. الموت أمامي اليوم كمجرى جدول ينحدر على سفح الجبل، كعودة رجل من سفينة حربية إلى داره. الموت أمامي اليوم كلهفة الرجل إلى رؤية بيته بعد قضاء سنوات طويلات في الأسر والعناء ".
وعلى نقيض المزاولة فقد سجل هذا الفيلسوف ساعات الحياة المظلمة، لا ساعاتها المنيرة المشرقة. وبالرغم من ذلك كان دائم البحث عن الله الذي أنكر وجوده. وكان هذا الفيلسوف القديم الذي يمكن أن نطلق عليه " شبلي عصره " يحمل حملة شعواء على الظلم، إذ كان يؤمن في صدق وحرارة بانتصار العدل في النهاية. ولم تكن الكراهية والحب عنده إلا جانبين في حقيقته. وكان في قرارة نفسه مشتعلا يمثل حماسة المسيح المنتظر، وتنبأ بزعيم روحي يصبح هو الملك الفيلسوف الذي أراده أفلاطون، أو هو " الفادي " الذي تحدث عنه الأنبياء العبرانيون، أو هو " المخلص " الذي ذكره الإنجيل. وكتب إبوور يقول: " ينزل هذا الرائد بردًا على لهيب الظلم، فهو راعي البرية جميعها، وإذا ما افترق أفراد القطيع في مرعاه، وتاهوا وامتلأت قلوبهم بالخوف فإنه يقضي الساعات تلو الساعات يجمع شملهم ويلم شتاتهم، ويضرب الأشرار منهم بالآفات ثم يخلص الأخيار - أين هو اليوم؟ هل صادفه سبات؟ لا، اطمئنوا، فعندما يحين الوقت فمن المؤكد أنه يستيقظ ".
وكان إبوور أول فيلسوف اجتماعي في تاريخ العالم.

ولم يقم إبوور وبتاح حتب إلا بتمهيد الطريق لفيلسوف أعظم منهما، قدر له أن يظهر بعدهما.

٤ - اخناتون

يمكن أن نعتبر هذا الملك المصري واضع نواة أسمى إدراك للفكر البشري: إله واحد، عالم واحد، قانون عالمي واحد - توافق البشر.

وكان الاسم الحقيقي لهذا الملك الفيلسوف، الذي ظهر حوالي ألف وأربعمائة عام قبل المسيح: امنحتب الرابع. ثم اتخذ لنفسه اسم اخناتون الذي معناه " مكرس لله ". وبالرغم من أنه لم يتعد ثلاثين عاما عند وفاته، فقد خلف وراءه ميثاقا للحكمة يصلح لكل العصور.

لقد تأثر بالفلاسفة المصريين الذين سبقوه، كما تأثر " بكتاب طيبة عن الموتى ". وكان هذا الكتاب نوعا من " الاعتراف السلبي " الذي كان من المفروض أن تتلوه أرواح الموتى في يوم حشرهم. وكان إقرارا منهم بأنهم قد أمسكوا عن مخالفة وصايا الله: لك المجد أيها الإله العظيم، إله الحق والعدل، لقد استدعيت لأقف أمامك، يا سيدي، حتى أرى بهاءك وأقدم حسابي ... لم أقم بإيذاء أي إنسان، ولم أظلم الفقراء ... ولم أكلف نفسا عملا فوق طاقتها ... لم أهمل واجباتي، كما لم أرتكب منكرا يغضب الله ... لم أمنع عن الجياع طعاما، لم أسبب لأحد ألما أو أسل له دمعًا ... لم أغش في مكيال أو ميزان، ولم أحرم الرضع لبنهم .. ولم أغتصب شيئًا يخص إنسانًا أو يتعلق بالله ... إني طاهر، طاهر، طاهر ".

وقد كان الإقرار عن الخير - أو قل - نفي الشر، مادة للسخرية عند زمرة الكهنة الفاسقين، فالكهنة - كما هي القاعدة - كانوا متمسكين بمبدأ تعدد الآلهة بدلا من الإله الواحد. وكان همهم المحصور في بيع التمائم والتعاويذ (وكلما ازدادت الآلهة، ازدادت التمائم) أكثر منه في تعليم الفضيلة. ومن تعاليمهم لأتباعهم أنه إذا نسي المرء أن يتلو إقراره واكتفى بعرض التمائم السحرية التي اشتراها من الكهنة، فإن الآلهة تغفر له ذنوبه.

وهكذا انحطت المبادىء الخلقية في مصر وتحولت إلى طقوس من الشعوذة. ولذا كان هدف إخناتون أن يضع حدًّا لهذا الفساد. فبدأ ثورة دينية أخلاقية، ولو أن هذا العمل قصر أجله فمات في سن مبكرة. كان شهيد الحق مثل أشعياء وسقراط وعيسى.

وكان هذا الحق، كما ارتآه إخناتون، يصور إلها واحدًا أعظم، تطل سماؤه حيانة من عل فوق جسم الأرض.

" من هذا العناق المقدس تخلق كل الأشياء بجسم يتكون من طين أرضي وروح أساسها نار سماوية ". وقد أعلن اخناتون أن هذه النار لا تنطفىء لا تحل في المخلوقات البشرية فحسب، وإنما في كل ما يخلق من أشياء - في النخلة التي تمدنا بظلها الظليل، والنهر الذي يروي سهلنا، وعين الماء التي تطفىء ظمأنا، والزهرة العتي تعبق الجو برائحتها الزكية وتدخل البهجة إلى قلوبنا بجمالها، وحتى البصلة الوضيعة التي تجعل لمأدبة الحياة طعمًا شهيًّا.

وما إيمان اخناتون بقوة علوية واحدة إلا أول تعبير رسمي عن التوحيد في التاريخ. ولكن فكرة وجود الإله في كل شيء تجعل فلسفة اخناتون أقرب - نوعًا ما - إلى المذهب الحلولي (ألوهية الكون) منها إلى مذهب التوحيد - وهكذا يمكن أن يعتبر اخناتون المصدر الأصلي لفلسفة سبينوزا الحلولية.

وقد عبر الملك المصري عن فلسفته الدينية في قصيدة شعرية أهداها إلى بهاء الله، وهي أحد أناشيد العالم السامية:

" أيها الإله الحي، يا مبدع الحياة

إشراقك جميل في أفق السماء

لقد خلقت كل الأشياء وتسير كل شيء حسب مشيئتك

إنك تربط جميع الأقطار والأمم برباط محبتك

***
تضيء الأرض عندما يبزغ نور فجرك
فتصحو الأرض من نومها مبتهجة
وترفع جميع المخلوقات أصواتها
بأنشودة العبادة لك يا مصدر النور والضياء
كل الأشياء الحية على الأرض وفي الجو والبحر
تمتلىء جوانبها بلهب مجدك
أنت خالق النبات في الأرض
والبذور في الأرحام
أنت قد غرستها وأخرجتها إلى الحياة
عندما يتحرك جنين الطير في بيضته
تمنحه الأنفاس ليكسر قشرتها
ويخرج إلى ضوء الحياة
كل شيء حي وأنت حياة العالم
***
كم من عجائب تصنعها أيها السيد
الإله الواحد الحي لجميع الكون
أنت الأب المحب للناس جميعًا
في مصر وسوريا وجميع أقطار الأرض "

وهنا نجد أول شعاع للأخوة العالمية التي تضم أعطاء أسرة آدمية واحدة منتشرة في جميع أنحاء العالم. ويذكر اخناتون في هذا الصدد: " أن هناك نيلا للمصرين تحت أبصارهم، بينما هناك نيل آخر من الماء الحي في السماء لجميع الغرباء من الأقطار الأخرى، وللماشية التي تعيش في كل أرض ".

وقال اخناتون إنه على ضفتي نهر الحياة في السماء توجد قصور رحبة كثيرة ينزل الله فيها جميعًا لأن قلب الإنسان هو مسكنه.

وهكذا نرى أن فجر التاريخ لم يكد يبزغ حتى قدم ملك مصر الفيلسوف إلى العالم المذهب الذي هداه تفكيره وخياله إليه: أسرة إنسانية واحدة وإله واحد - الأب الرحيم، إله الحب.

وأمر اخناتون بتحطيم جميع التماثيل المقامة لآلهة المذاهب البدائية التي سبقته، كما أغلق معابدها. وهجر مدينة طيبة الملكية لأنه اعتبرها نجسة، وبنى لنفسه عاصمة جديدة أطلق عليها اسم " مدينة الله ".

ولفترة قصيرة ازدهرت أفكار اخناتون في هذه المدينة الجديدة وجعل منها مركزًا للأدب والفن. ولكن كهنة المذاهب القديمة حنقوا عليه لضياع ما كان يدخل لهم من بيع التمائم والتعاويذ، فكان هلاكه على أيديهم. وهكذا لم يكن عيسى أول ضحية للصيارفة في هياكل العالم.

ويظهر هذا العرض المقتضب للفكر المصري - وهو أول ما سجل من فلسفة في العالم - أقول يظهر هذا العرض حقيقة هامة: القديم إن هو إلا الجديد بعينه، والجديد إن هو إلا القديم بعينه، وما حكمتنا الحديثة كلها إلا تكرار لحكمة المفكرين والأنبياء القدامى.

وسنرى هذه الحقيقة تتكرر في أشكال كثيرة مختلفة، وفي أضواء كثيرة مختلفة أيضًا، عندما نتتبع تيار الفلسفة من منابعها الأولى حتى يومنا هذا.

٣.٢ الفصل الثاني: الفلسفة في فارس

الفصل الثاني

الفلسفة في فارس

١

في كل مذهب فلسفي حديث تقريبًا نسمع صدى صوت حكيم قديم يذكرنا بهدوء قائلاً: " وأنا أيضًا سبق أن ناديت بهذا المذهب ". ومن أكثر المشكلات التي تحيرنا اليوم مشكلة تفسير الصراع بين الخير والشر. وقد حيرت هذه المشكلة الفلسفية نفسها العقول أيام زرادشت - أو إن شئت فاسمه الفارسي زاراثوسترا - الذي ظهر منذ حوالي ألف عام قبل مجيء المسيح.

ولم يكتف زرداشت بصياغة المشكلة، بل حاول أيضًا أن يجد حلا لها، وقد لقي هذا الحل، كما سنرى فيما بعد، قبولا عند كثير من المفكرين العظام وبينهم فيلسوفنا الأمريكي، وليم جيمس.

ولكن مما يجدر ذكره أنه حتى وفي أيام زرادشت كانت مسألة الخير والشر تعتبر مشكلة قديمة في الفلسفة، فقد كتب يقول: " لوقت طويل قبل عصري ظهر أحد الرعاة، وكان اسمه بيما، وأخذ يعلم الناس كيف يمكنهم أن يجعلوا النور يسود عن طريق قهر الظلام ". وكان زرادشت يسمي نفسه مجرد شارح ومترجم لبيما الذي كان بدوره " مفسرًا ومترجما لأوامر الله وكلماته ".

ويحدد هذا التفسير الفارسي المبكر لله، معالم فصل شائق في الفكر الإنساني، وقد وضع زرادشت أساس دين جديد، هو دين التقوى، وفلسفة جديدة هي فلسفة التناغم. ولكن فكرته عن التقوى قد دب في أوصالها الفساد فتحولت

إلى طقوس وشعائر، فكان أنصاره يقدسون الاسم فحسب، بعد أن قلبوا تعاليم رائدهم رأسًا على عقب. أما نظريته عن التناغم التي انبثقت من النشاز فقد بقيت مصدرًا يستلهم الفلاسفة منه الوحي حتى يومنا هذا.

فلنتجه الآن إلى حياة هذا الفارسي الغريبة، وإلى أفكاره الأكثر غرابة، فهي قريبة إلى القصص الخرافية والأساطير.

٢

عندما ولد زرادشت - ولا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده - كانت بلاد فارس مسرحًا للاستبداد والحشية والحروب. وكان الحاكم يسمي نفسه ملك الملوك، وكلمته هي القانون السائد في

البلاد. وكان الموت هو مصير أي فرد من الرعية لو أنه جرؤ حتى على مجرد " التفكير " في الحاكم تفكيرًا معاديًا، وذلك لأن وزراءه - وهم عيون الملك وآذانه - " كانوا مدربين على الكشف عن مكنونات صدور الناس. وحدث يومًا أن أردى الملك أحد الشبان الأبرياء قتيلا بسهمه أمام عيني والده، ثم التفت الملك إلى الوالد ينتظر تعليقه، فما كان من الرجل المسكين إلا أن ألقى بنفسه على الأرض وصاح مهللا: حياك الله أيها الملك لسديد رمايتك "!.

وحدث مرة أخرى أن رجلا فقد أربعة من أولاده الخمسة في المعركة، فذهب يلتمس من صاحب السمو الملكي أن يعفي ابنه الخامس من الخدمة في الجيش، فما كان من الملك إلا أن أمر بقطع جثة الشاب إلى جزأين، ووضع كل منهما على أحد جانبي الطريق حتى يرى الجنود في أثناء سيرهم النتائج العملية لعصيان أحد افراد الرعية أوامر الملك.

أما فيما يتعلق بالنصف " الناعم الرقيق " من البلاط الملكي، فقد حدث مرة أن أمرت إحدى الملكات بسلخ جلد وصيفتها، وهي على قيد الحياة، ثم تنجيد موطىء قدميها بهذا الجلد.

هذا ما كانت عليه الحال في فارس عند مولد زرادشت.

وهناك كثير من الأساطير عن زرادشت، يتصل كثير منها بمولده المعجز: " استمع إله النور إلى شعبه وأرسل إليهم رجلا قويًّا يكون خلاصهم على يديه ".

وطبقًا لإحدى الأساطير دخل زرادشت جسد أمه - وكانت امرأة من سلالة الأشراف - على هيئة وميض من البرق، وكان هذا رمزًا لرسالته في الحياة: " أن يجلب النور لأبناء الظلام ". وما إن خرج إلى العالم حتى انفجر ضاحكا، فولت أرواح الشر التي كانت تحيط بمهده هاربة في اضطراب وانزعاج.

ونتيجة لذلك تهللت الطبيعة كلها، وأخذت أوراق الأشجار ذاتها تنشد بخفيفها نشيد

المجد، وترنمت معها الرياح والأنهار بالنشيد العام الجامع.

وبعد برهة عادت أرواح الشر وحاولت قتل الرضيع، ولما كان في حماية الله الخاصة فقد ذهبت مجهودات الأرواح أدراج الرياح.
وما إن بلغ الرضيع مرحلة الطفولة حتى عاودت الأرواح خططها الشريرة. وذات مرة ألقت به في طريق قطيع حافل من الماشية: " ولكن يد الله الحانية أوقفت أحد النيران حارسًا فوقه إلى أن مر بقية القطيع مندفعًا على كلا جانبي الثور ".
وفي مرة أخرى سجنته أرواح الظلام في أحد أوجرة الذئاب، ولكن " يد الله أيضًا أنقذته وأعادته إلى النور ".
وخلال ضباب هذه القصص الأسطورية يمكننا أن نمسك بشعاع واحد من الحقيقة؛ ذلك أنه يبدو أن زرادشت كان طفلا نشطًا كثير الأذى، ولكنه استطاع أن يتخلص من هذا السوء بطريقة معجزة.
ولما كان في السابعة من عمره ترك في رعاية عدد من الحكماء الذين علموه سبيل التقوى.
وكما جاء على لسان بعض العلماء الأقدمين، كان الحكماء المصريون والأنبياء العبرانيون ممن اشتركوا في تربيته وتعليمه. وكذلك يمكن أن يكون هناك ظل من الحقيقة في هذا الخليط من الخرافات، وذلك أن حكمة زرادشت لابد أن تكون قد تأثرت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بوحي أفكار اخناتون والفلاسفة الشرقيين الآخرين.
وكان على أساتذته، كما وصل إلى علمنا، أن يؤدوا واجبًا مزدوجًا: فقد أنقذوا جسمه من الأشواك السامة، كما حفظوا عقله من أكاذيب أرواح الشر المسمومة. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أتم تعليمه وأصبح آنئذ مهيأ لأن يأخذ على عاتقه " تسطير الحكمة ولبوس الدين ".
وللخمس عشرة سنة التالية. أخذ يهذب شخصيته ويصفيها في " مياه الرحمة المقدسة ". وإذا ما ترجمنا هذا في أسلوب بسيط وعبارة عادية أمكننا أن نقول إنه كرس نفسه للخدمة
الاجتماعية " فقام على خدمة المرضى، وأطعم الجياع، وأراح المسنين، وخفف من أحمال دواب الحمل، وذلل العقبات التي تعترض حياة رفاقه في رحلتهم على الأرض ". وفي عبارة أخرى فقد درس دراسات عليا في علم " الحياة التي تقوم على الخدمات المتبادلة ".
ولما أكمل الثلاثين من عمره كان قد تأهب ليكون نبي دين جديد، وأستاذ فلسفة جديدة " لأنه كان قد أبصر نورًا جديدًا فوق قمة جبل سابالان: وهو النور الذي كان يتألق حول وجه أهورا مازدا، سيد الكون ". وهنا في أحد الكهوف حيث كان زرادشت يقضي الساعات الطويلة وهو يتأمل، " أعلن أهورا مازدا نفسه " الإله الأوحد، بالرغم من الأسماء العديدة التي كان يعرف بها والصفات المتباينة التي كانت تطلق عليه. ولم تكن هذه الصفات لآلهة مختلفة كما اعتقد معظم
الناس، وإنما هي مظاهر مختلفة لإله واحد. وهكذا فسر أهورا مازدا لزرادشت كيف أنه شخصية واحدة ذات سبعة وجوه تمثل: النقاء، والنور الأبدي، والحكمة الفاحصة
العليمة، والقوة العظمى، والورع المقدس، والرحمة التي لا حد لها، والحياة الأبدية.
ولم تكن هذه المظاهر السبعة لله، كما عرف زرادشت، إلا سبع قطرات في محيط بهائه، وقد وقع الاختيار على زرادشت لينشر هذا البهاء في العالم.
وما إن نزل زرادشت من الجبل حتى واجهته أرواح الشر. وتصايحت قائلة: " هلموا نقتله لأنه إذا ما بقي هذا النبي الطاهر النقي على قيد الحياة، مات الشر، فنموت نحن أيضًا إذا انعدم
الشر ".
ومرة أخرى أنقذ أهورا مازدا حياة نبيه، ولكن شكا جديدًا أخذ يراود زرادشت: " ما الحكمة في وجود هذا الشر في عالم تسوسه حكمة الإله؟ وما هو حقًّا معنى الشر في حياتنا هذه؟ وكيف يمكنني أن أفسر معنى الخير والشر حتى يتفهمه حقا إخواني في الإنسانية؟ ".
وبينما هو يفكر مليًّا في هذه المشكلة - يحكى - " أن أهورا مازدا تقدم لمعونته وأعطاه حل السر الغامض لهذا العالم ".
٣
وجمع زرادشت آراءه عن الدين والفلسفة في كتاب أسماه افستا. ويعرف هذا الكتاب في عالمنا الحديث باسم زند - افستا - أي " تفسير الحكمة ". ويبحث هذا الكتاب الذي ليس تحت أيدينا منه سوى شذرات قليلة - أقول إنه يبحث في طبيعة الله وواجب الإنسان والغرض من الحياة. وتشبها بالشاعر براوننج الذي بشر به لحوالي ثلاثة آلاف سنة مضت صرح زاردشت

بقوله: " للحياة معنى، ولكن العثور على هذا المعنى هو ما تجد نفسي في طلبه ".
وبدأ بتعريف طبيعة الله، فأهورا مازدا هو رب الخليقة، والحياة، والمادة، والروح. وهو المحرك الذي لا شكل له، ولا حدود له، ولا نهاية له في القانون الأبدي، نموذج الكون الذي يسري على كل البشرية في كل الأزمنة. وقد حدد شعوبا مختلفة، لأزمنة مختلفة، في أماكن
مختلفة، حتى نتمكن جميعًا من استجلاء طلعته والعمل جميعا معه من مراكز إقامتنا المتباينة ووجهات نظرنا المختلفة. كما غرس في نفس كل منا حبا خاصا لوطننا ولإلهنا. وفي واقع الأمر ليس هناك إلا وطن واحد وإله واحد. ولكن أماكن إقامتنا وتفسيراتنا المتنوعة تمكننا من جمع آرائنا المجزأة المبعثرة في حقيقة واحدة أبدية. وهذه الحقيقة الأبدية هي الدرس الذي علينا أن نتعلمه في مدرسة الحياة. وكل من ينجح في تعلم هذا الدرس فهو المؤمن الحق، مهما يكن لون دينه أو اسم إلهه.
وهناك أسطورة فارسية جميلة عن ملاك أمره الله بالنزول إلى الأرض لكي يبحث عما إذا كان عليها إنسان بار واحد - " نفس تكون صلاتها من أجل العالم أجمع ". فأخذ الملاك يجوب أنحاء الأرض وزار آلاف المعابد والأماكن
المقدسة. وبالرغم من كل هذا فلم ينجح في العثور على ضالته المنشودة - إنسان له عقل راجح وإيمان كامل. وقد لاحظ الملاك: " أن هناك نبلا عظيما في معظم الأديان وحرارة شديدة في كثير من الصلوات، ولكني لم أر في أي مكان إنسانا واحدًا يعتز بإخوته في البشرية ويحفظهم في مكان القداسة من قلبه ".
وبعدئذ بينما كان الملاك في طريق عودته إلى السماء وقع بصره على رجل همجي يصلي لتمثال خشبي، على إحدى الجزر في البحار النائية " فأنعم النظر إلى قلب الهمجي ورأى بداخله صورة للجنس البشري تظللها الرحمة ".
وفي النهاية رجع الملاك إلى ربه وقال له: " لقد اكتشفت رجلا بارًّا واحدا على الأرض ولكن هذا الرجل همجي من عبدة الأوثان ". فأجاب ربه قائلا: " إذن فالخلاص للأرض ما دام على ظهرها يعيش رجل واحد متدين يؤمن
بالله ".
وقد رأى زرادشت أنه لكي نفهم الله ونعرفه يجب أن نتعلم كيف نفهم إخوتنا في الإنسانية، وفي طريقنا إلى هذا الفهم وتلك المعرفة نمر بعدد من علامات الطريق تشير إلى هدفنا. ومن أهم هذه المعالم: العدالة والتعاون والإيمان والسعي وراء الكمال.
والعدالة هي أول معالم الطريق إلى الهدف. وكانت أحد المبادىء التي هدت أفلاطون إلى مذهبه الفلسفي. وكان اليونانيون من كبار المعجبين بزرادشت حتى إنهم اعتبروه " من أحكم رجال العالم القديم ". وتنحصر فكرة زرادشت عن العدالة في التخلص من الخطأ عن طريق المعرفة الحقة لكل ما هو صواب. والنور الذي يكشف عن هذه المعرفة إن هو إلا التناسق الأبدي
الإلهي " فإن تعرف الحق، تعرف الله ". وما العالم أجمع إلا نسيج حي ينسج طريقه متجها إلى الإله الحق.
وكما أعلن زرادشت: " يستطيع الإنسان أن يتحد مع الله باتباع الحق الأسمى، قانون العدالة ".
ويرمز أتباع زرادشت الأتقياء إلى مبدأ العدالة خلال معرفة الحق بما يسمونه " اللهب
المقدس ". ويجب ألا ننظر إلى هذا اللهب على أنه نار مادية، وإنما هو يعبر عن " وجه الله الذي يسكن قلب الإنسان ".
وعلى ذلك فأول علامة في الطريق إلى معرفة الله هي نور العدالة اللامع الذي تغذيه نار الحق.
أما ثاني معالم الطريق إلى الله فهو التعاون. وكما صرح زرادشت فحياتنا كلها إن هي إلا رحلة جريئة نقوم فيها بخدمة بعضنا بعضا. وفي فلسفة زرادشت نجد قصة تشبه تماما قصة آدم وحواء التي جاء ذكرها في العهد القديم. فقبل أن يتمكن أهورا مازدا من صنع الإنسان الكامل، خلق رجلا وامرأة من الطين العادي وأسكنهما جنة على الأرض. ومن الممتع أن نعرف أن كلمة جنة أصلها فارسي، ومعناها " حديقة رجل شريف "، فلما دخل أول زوج آدمي إلى حديقة الشرف هذه، يحدثنا زرادشت فيقول إنهما أطاعا قوانين الخدمة وكانت أفكارهما طيبة وأحاديثهما طيبة وأعمالهما طيبة، وقام كل منهما بخدمة الآخر كما خدما أبناءهما وأبناء أبنائهما.
وما إن توفي الزوجان الأولان حتى دب الخلاف بين ذريتهما. فنسوا

قانون التعاون وانغمسوا في طرق الشر العدوانية. وعقابًا لهم على الخطايا التي ارتكبوها أنزل عليهم أهورا مازاد طوفانا من الجليد الذائب فأفناهم جميعًا عن آخرهم، فيما عدا القليلين الذين كانوا لا يزالون متمسكين بالعدالة والرحمة والتعاون. ثم أعلن أهورا مازدا " أنه من بين هؤلاء القلائل المخلصين سأحاول مرة ثانية أن أشكل الإنسان النقي الصالح ".

وهكذا يستمر أهورا مازدا في تجاربه بهذا الطين الآدمي طوال الأبدية كلها. فإن تطور الإنسان النقي الذي عليه أن يبشر بدرس التعاون ليس مهمة يمكن إتمامها في بعض أجيال أو قرون. إن هذا التطور مهمة أبدية لرحلة الإنسان المتجددة في طريقه إلى الله.

ومن ثم فإن العلامة الثانية في الطريق إلى الله هي خدمة الله خلال خدمة إخوتنا في البشرية.

أما العلامة الثالثة على طوال الطريق المؤدي إلى الله فهي الإيمان " وليس الرجل المؤمن إلا ذلك الذي وصل إلى أذنيه صوت الله الهامس ". ويغرس الله في قلب مثل هذا الإنسان غريزة

الولاء، لبيته، ومجتمعه، وقطاعه، ووطنه، والعالم أجمع.

وما إيمان الإنسان بالله، في كلمات أخرى، إلا حبه للجنس البشري " ويضم أهورا مازدا جميع البشرية في حبه الشامل الجامع ". ولكي تظهر إيمانك بالله فإن أحسن السبل هي أن تقتدي بحبه.

" فخرارة الحب سوف تذيب كل شك في قلبك ".

ولكن هذا الحب، هذا الإيمان، يجب أن يكون إيجابيًّا لا سلبيًّا؛ فيجب أن يظهر في صورة أعمال، لا مجرد أفكار أو كلمات. وقد مهد زرادشت الطريق أمام أفلاطون عندما قال إن الحب يؤدي إلى العدالة والتعاون. كما أوحى أيضًا بفكرة القديس بولس التي ظهرت بعد أفلاطون بزمن بعيد عندما قال إنه لا يمكن أن تسود عدالة أو تعاون أو إيمان من غير أن تسود روح المحبة الشاملة.

وهكذا نجد أن العلامة الثالثة في الطريق إلى الله طبقًا لزرادشت هي الإيمان العملي الفعال خلال أعمال المحبة.

أما العلامة الرابعة في الطريق إلى الله فهي السعي وراء الكمال. وهذه - كما قال زرادشت - هي الغرض من الخليقة ومعنى الحياة. والحق أن السعي وراء الكمال هو لب تعاليم الفيلسوف

الفارسي، ولقد طال به التأمل والتفكير في مشكلة هذا العالم المليء بالعيوب، هذا العالم الذي نرغب بحرارة أن نعيش بين ظهرانيه في كمال. ثم وصل إلى هذا الحل الآتي لتلك المشكلة: علينا وحدنا يقع العبء لنجعل من هذه الأرض عاملا كاملا، فإن هذا هو الغرض الوحيد من حياتنا على الأرض.

ويجرنا هذا إلى نظرية زرادشت الشهيرة عن الصراع بين الخير والشر: وما نحن إلا جنود مجندون مدى الحياة في هذا الصراع. وقد أرادنا الله أن نحارب إلى جانبه لنجعل من العالم شيئًا أفضل ونبطل الشر ونوطد أركان الخير.

وقد شغلت هذه الفكرة أنضج العقول الفلسفية عبر القرون من وقت

زرادشت حتى وليم جيمس. وكما فسر زرادشت هذا الرأي فإن العالم ساحة قتال بين أهورا

مازدا، روح النور، واهريمان، قوة الظلام.

وطبقًا لزرادشت فلكل من النور والظلام والخير والشر أهميته في جعل نمط الكون كاملا. فعالم من غير شر يستحيل وجوده تمامًا كحياة من غير ألم. ولا يجعل الحياة مثيرة شائقة إلا عنصر التنافر بين الاثنين وإسهامنا في خلق جو متآلف من الفوضى الشاملة. وتنحصر قيمة الخير في الانتصار على الشر تمامًا، كما تنحصر قيمة الصحة في الانتصار على الألم. فكيف يمكننا أن نستمتع بالراحة إن لم تكن لنا قط خبرة بالعمل؟ أو كيف يمكننا أن نتذوق جمال النهار إن لم نعرف قط رهبة الليل؟ وليس لحياة النور من غير ظلال طعم أكثر لذة من حالة الأحياء الموتى. ولا يملأ حياتنا نشاطًا وحماسة إلا كفاحنا للخروج من الظل إلى النور. وقد عبر برنارد شو عن هذه الفكرة بقوله: " إن العطلة الدائمة هي أحسن تعريف عملي لجهنم ".

وفي عبارة أخرى لا يجعل لحياتنا طعما أو معنى إلا روح الظلام والإنكار والفوضى. وينحصر معنى الحياة في محاولتنا هزيمة ظلام العالم وإنكاره والفوضى التي تسوده. وقد أخذ جوته هذه الفكرة عن زرادشت عندما صور شخصية مفستوفيليس أو اهريمان - كقوة طبيعتها

دوام
الإنكار. وبالبرغم من هذا يعترف مفستوفيليس بأنه " القوة التي تنتج الخير بيم هي تدبر الشر ".
وطبقًا لزرادشت وجوته فإن هذا الرأي صواب، إذ أن الله يوصينا بأن نحول الشر إلى
خير، ويضع الله في طريقنا العقبات حتى تصبح رحلتنا عبر الحياة أقل رتابة وأكثر قيمة. وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك بلغة عصرنا الشائعة قلنا إننا نأتي إلى الحياة لنجعل من العالم مكانا أفضل نعيش فيه - وما هذا إلا
صدى غاية في الدقة لرأي زرادشت. وقد عبر القديس أوغسطين عن ذلك بقوله: " يسمح الله بالشر من أجل خير أعظم ".
وعلى ذلك فكل منا " عامل في بستان الله "، وإنها الفكرة تجعل للحياة غاية تطمئن لها النفوس " ويتعاون الله معك ومعي لنخرج من الفوضى نظاما، ومن القبح جمالا، ومن الحرب سلاما ". ونحن جميعًا - كما ذكر زرادشت - نبني مصيرنا.
وقد أضاف زرادشت أيضًا أنه عندما تنتهي مهمتنا في الحياة فيسدعى كل منا ليقدم حسابا عن
عمله، فأما الذين فشلوا في تأدية واجبهم - " من أفكار جميلة وكلمات طيبة، وأعمال صالحة " فينالون عقابهم عما ارتكبوا من ذنوب في حياتهم بعد الموت. وما هذا العقاب النهائي لكل ذنب إلا جزء من رأي زرادشت عن عالم يتجه نحو التآلف، نحو موضع تقوم فيه الأخطاء في النهاية.
وأوضح زرادشت أنه ما من عقاب يستمر توقيعه إلى الأبد، ففي النهاية بعد أن نوفي ديوننا الواجبة الأداء تندمج مصائرنا المتحدة في نسيج عالم كامل متآلف نقي. وإذا ما اقتبسنا كلمات تنيسون - الذي كان عقله مشبعًا بفلسفة زرادشت والمفكرين الشرقيين الآخرين - " فإننا نثق أن الخير، بطريقة ما يسكون الهدف الأخير للشر ".
وهكذا - طبقًا لرأى زرادشت - عندما يصلي الناس لله قائلين: " نجّنا من الشر "
يجيبهم الله: " نجوا أنفسكم من الشر. إن عملنا معًا، أعاونكم وتعاونوني، سوف يتحول العالم تدريجيا إلى جنة تضم النفوس النبيلة ".
" هكذا تحدث زاراثوسترا " عن الله والمشاركة الإنسانية في الجهاد من أجل عالم أفضل. وقد تقبل الكثيرون من الفلاسفة القدامى والمحدثين هذا المذهب قبولا حسنا. ولم يثر جدلا في صحته إلا القليلون. وبالرغم من ذلك فلم يجدوا حتى الآن حلا لما أثاوره من جدل، وقد قلب أحد الفلاسفة - وهو نيتشه - عقيدة رزادشت من جهاد يشترك فيه الله مع الإنسان ضد الشيطان إلى مؤامرة يشترك فيها الشيطان مع الإنسان ضد الله. ومع هذا فالكل متفقون قلبا وقالبًا أن زرادشت كان أحد المعلمين العظام الأوائل للجنس البشري. ومن الأساطير التي تميط اللثام قصة موت ذلك المسيحي الذي ظهر قبل المسيح. فيحكى أنه صعد إلى السماء في وميض من البرق، فإذا حاولنا ترجمة هذه الأسطورة إلى لغة سهلة وعبارة عادية قلنا إنه من المحتمل أن يكون هذا الرجل قد أعدمته حرقا جماعة من المتعصبين أشعلوا في منزله
النار. ويبدو أنه قد لاقى نفس المصير الذي غالبا ما يلاقيه مخلصو الجنس البشري، ولكن زرادشت كان قد أوضح أن " الموت ليس هو نهاية الحياة ".

٣.٣ الفصل الثالث: الفلسفة في الهند

الفصل الثالث
الفلسفة في الهند
كان الحكيم الفرنسي، فكتور كوزان، يعتبر الهند " موطن أسمى حكمة " كما كان يرى شوبنهاور أنه في العالم كله " دراسة نافعة تسمو بالنفس مثل دراسة الأوبانيشاد " - أول كتاب في الفلسفة الهندية القديمة.
وتتكون كلمة " أوبانيشاد " من مقطعين: أوبا، ومعناه " بالقرب " وشاد، ومعناها " يجلس ". وهكذا تصف هذه الكلمة الفلسفة التي كان يتلقاها التلاميذ عن معلميهم وهم جلوس عند

أقدامهم. ولنفرض أننا التحقنا بصفوف هؤلاء التلاميذ ولندرس معهم شيئًا عن حكمة معلمهم أو أحرى بنا أن نقول معلميهم. فالأوبانيشاد تمثل آراء فلاسفة عدة قاموا بتلقين دروسهم لفترة تزيد على ثلاثمائة عام - من ٨٠٠ إلى ٥٠٠ ق. م. وقد جمعت هذه الأفكار في سلسلة من الأحاديث محاولة اختراق ضباب العقل، هادفة إلى ما وراء ذلك من حقيقة.

وبالرغم من أننا لا نعرف شيئًا عن حيوات هؤلاء الفلاسفة إلا أننا نعرف يقينا أن امرأة واحدة على الأقل كانت من بينهم. وكان الهندوس الأوائل يعتقدون أن العقل الجميل هو أحسن زينة للجسم الجميل.

وتعالج مجموعة الأوبانيشاد المسعى اللانهائي للفيلسوف وراء تجميع أجزاء لغز الوجود في صورة كاملة يمكن فهمها. وفي إحدى رسائل الأوبانيشاد نقرأ

عن قصة ملك معين سأل " عراف النفوس " أن يفسر له لغز الكون. وجه الملك إلى الفيلسوف هذا السؤال: " في هذا الجسم الزائل، عفن الرائحة، هذا الخليط من الجلد والعظم والعضلات والنخاع والنطف والدم والدموع والمخاط والصفراء والبلغم، ما فائدة إشباع الشهوات؟ في هذا الجسم الذي يموت كالبعوض والحشرات والديدان والحشاش والأشجار، ما فائدة إشباع

الشهوات؟ في هذا العالم الذي تجف مياه بحاره، وتتفتت وتزول جباله، في دائرة الوجود هذه التي تلزمنا أن نولد لا لشيء إلا لنموت، وأن نموت لا لشيء إلا لنولد من جديد، ما فائدة الولادة والموت والشهوة وإشباعها؟ ألا تقودنا هذه لشيء سوى شهوات أخرى لا معنى لها ولا نهاية؟ ".

فهنا في هذا السؤال كان الملك يعبر عن إيمان الهندوس العام بفكرة التجسد، وفي نفس الوقت عن تحولهم ضد هذه الفكرة - فكرة الميلاد الجديد للفرد في سلسلة متكررة من الآلام في صور مختلفة من الحياة. أما إجابة الفيلسوف فكانت ذات وجوه ثلاثة:

١ - أنه لا ينبغي لنا أن نحاول فهم السر الغامض للكون من حيث هو كل بوساطة أداة العقل الذي أعد لإدراك الجزئيات. فأنت وأنا على سواء، ملك مبجل وحكيم متواضع نشبه السجناء وهم ينظرون إلى الخلاء الشاسع خلال شق ضيق في حائط الزنزانة. وما الزنزانة إلى جسمنا. أما الشق الذي نرى خلاله العالم فإن هو إلا نافذة حواسنا. وليس في استطاعتنا أن نرى

- على أحسن الوجوه - إلا قطاعا صغيرًا من دائرة الأفق كلها. وهكذا فإن الخطوة الأولى نحو إدراك كنه العالم، هي أن تدرك أنه لا يمكنك أن تدرك إلا قدرًا طفيفًا.

٢ - ولكن أحسن الطرق لفهم معنى الحياة هي البحث في الداخل وليس

في الخارج. ولكي تعرف العالم، تعلم أن تعرف نفسك. افحص روحك أنت. وعندئذ تحصل على صورة مصغرة لروح الحياة في العالم أجمع. ولكن تكون الصورة واضحة غير مهوشة، طهر نفسك بالتأمل الهادىء، والأعمال الطيبة. ثم تكون الخطوة الثانية لإدراك كنه العالم هي أن تطمئن نفسًا.

٣ - فإذا ما اطمأنت نفسك، وجدت أن الجزء غير الشخصي من روحك - وقد تخلص من الرغبات الدنيوية - قد أصبح على وفاق مع الروح غير الشخصية للعالم، وهكذا عندما نكون أسمى ما يمكن، وأبعد ما يمكن عن حب الذات، فإننا نندمج جميعًا في وحدة حياة واحدة. " وكما تختفي الأنهار المتدفقة في البحر فاقدة أسماءها وأشكالها، فكذلك يتجه الرجل العاقل - بعد أن يتخلص من اسمه وشكله - إلى محيط الحياة المقدس " الذي يطلق عليه مختلف الأسماء كروح

العالم، أو براهمان، أو الله. وطبقا لما جاء في الأوبانيشاد فهذه هي الخطوة الأخيرة نحو إدراك كنه العالم، والهدف النهائي من الحياة. ولذلك يمكن لفلاسفة الأوبانيشاد أن يقولوا مع أحد تلاميذهم رالف والدو إمرسن: " فيم عجلتك أيها الإنسان التافه؟ إلى أين اندفاعك؟ ألإشباع شهواتك؟ فما كل إشباع إلا مجرد انتقال إلى شهوات أُخرى غير مشبعات. ومطالب الإنسان أمر لا نهاية له ولا حد لإشباعه. فإذا نجحت في جمع عشرة آلاف قطعة من الذهب، فإنك تبتغي أن تجعلها مائة ألف. وإذا ما جمعت مائة ألف قطعة، فإنك تتوق إلى زيادتها إلى ألف ألف، وهكذا دواليك ".

أم أنت تحاول أن تهرب من نفسك؟ فإن هذا أيضًا هدف يستحيل الوصول إليه. لأن " من يطير عبر البحر سوف يجد سماء جديدة،

لا عقلا جديدًا ". فإذا ما حاولت أن تهرب من
نفسك " فأنت الأجنحة التي بها تطير "
وستحملك نفسك الحقيقية، نفسك الكبرى، وتواجهك وتعنفك أينما تذهب.
فمن الحكمة إذن أن تعرف قدرتك المحدودة، إذ أنت نفس منفردة، وقدرتك التي لا حد لها، إذ أنت جزء من النفس العامة. فأنت بذرة في غابة من الأشجار الكثيفة، ونقطة في مياه المحيط الذي لا حدود له، وشرارة في نار الحياة الأبدية:
الكل واحد، والواحد هو الكل
ولا تختلف الأشياء إلا اسما
وما ضوء المشعل وضوء الشمس
إلا لهيب سائل مشتعل واحد
وقد كان كتاب الأوبانيشاد الفلسفيون يؤمنون بنوع واحد فحسب من التضحية، هو تقديم رغباتك الذاتية قربانا على مذبح نفسك العامة.
وتتصل هذه النظرية اتصالا وثيقًا بفكرة برتراند رسل عن الأنانية المستنيرة. ويمكنك أن تخدم نفسك على أحسن وجه إذ أنت خدمت الآخرين. وهذه النظرية أوثق اتصالا بالتعاليم المسيحية التي تقول: " إن أضعت نفسك وجدتها ".
ويوضح الأوبانيشاد أن مهمتنا في الحياة تنحصر في التلهف على رؤية هذه النفس الجامعة
الشاملة. فإنك تصبح خالدًا إذا انتزعت من نفسك كل شهواتك الفانية، أي شهواتك الذاتية الأنانية.
وأنت إن حاولت وأخفقت، فلا تيأس. فستولد من جديد لتحاول مرارًا وتكرارًا. ومن المؤكد في النهاية أن تنجح.
وفي عبارة أخرى، لقد بشر كتاب الأوبانيشاد بفكرة تناسخ الأرواح المتجددة - أي انتقال روح الفرد من حياة أخرى إلى أن تتطهر خلال نار الخبرة والتجربة، ثم تندمج نهائيًّا في الروح العامة.
ولا تعني عملية الاندماج هذه أنك تفقد شخصيتك الفردية، وإنما الذي تفقده هو انفصالك الفردي أو المتمركز حول ذاتك عن الله. وهكذا إن أضعت نفسك وجدت الله.
٣
وقد دامت فلسفة الأوبانيشاد كنظرية هامة لسنوات كثيرة إلى أن جاء بوذا
(٥٦٣ - ٤٨٣ ق. م) فوضعها موضع الاختبار العملي. وكانت حياة بوذا كما كانت تعاليمه أيضًا مثلا لإغراق الأنانية الفردية في عام للذوات المفردة، إذ استبدل بالتاج قصعة المتسول، ووجد سعادته العظمى في ارتقائه من الغنى إلى الأعمال البالية.
وما حياة بوذا، في إيجاز، إلا قصة رجل رفض أن يكون أميرًا، وذلك لكي يصبح معلما جوابا يعلم المحبة. ولقد حورت كلمة " المحبة " إلى معان كثيرة تتفاوت في درجتها بين الدعارة
والسمو، وسنجدها في قصة بوذا قد تبدت في أبهى مظهر لها، فحب بوذا للعالم أجمع قد جعل منه رائد الديموقراطية في التاريخ، فكان ينظر إلى جميع الناس وكأنهم ملوك، على حين يعتبر نفسه عبدا لهم بمحض إرادته.
وكان أبوه، شودوثانا، راجا كابيلافاستو - وهي مملكة في سفح جبال الهملايا. وسمي عند ولادته سيدارثا ساكيا - مونى جواتاما تاثاجاتا، الذي معناه " جواتاما أمير ساكيا الذي سيصل إلى هدف الكمال خلال معرفة الحق ".
ثم كان أن عرف فيما بعد باسم بوذا " المستنير " تمامًا، كما أطلق على يسوع الناصري اسم المسيح " الممسوح بالزيت ".
وعلى الرغم من ذلك فكان بوذا يُدعى في طفولته بالأمير جواتاما. وطبقًا للأساطير الهندية فقد كان أميرا بلغ إعجازه أعلى الدرجات، فيحكى أنه قبل ولادته توا حلمت أمه أنها ستلد طفلا لم ير العالم شبيهًا له. وخرج جواتاما إلى العالم " لا تلوثه مياه الولادة النجسة كما تلوث بقية الرضع الآخرين، ولكنه كان يتلألأ كجوهرة فوق قطعة من القماش المذهب ".
وما إن ولد حتى " ومض نور في السماء، ومشى العرج، وسمع الصم، وانحنى الآلهة من السماء ليبتسموا له، وأتى الملوك من أقطار كثيرة ليبجلوه ".
ورِبى على أن يعتبر نفسه الأمير الكامل في قطر كامل في عالم كامل. وحماه والده من الوقوع في تجارب الألم والبؤس التي يقاسي منها

الجنس البشري. ولما بلغ مرحلة الطفولة " احتفل به أربعون ألف راقصة من الفتيات الصغيرات "، ولما بلغ سن الرشد " أقيم له حفل استعراضي ضم خمسمائة سيدة من أجمل سيدات العالم " ليختار من بينهن عروسًا له.

وكان سعيدا في زواجه كما كان في عزوبته. ويبدو أن الآلهة التي تعلم أن يعبدها كانت تعطف على هذا " الطفل المفضل ابن الغنى والسعد "، وكانت الخطة الموضوعة أن يرث مملكة أبيه ويستمتع بحياة نادرة المثال من الصحة والسعادة والشهرة الطيبة.

ولكنه كان قد تأثر بفلاسفة الأوبانيشاد، فتعلم أن السباق ليس وقفًا دائمًا على السريع، وأن المعركة ليست وقفًا دائمًا على القوي، كما أن هبة السعادة ليست

وقفًا على كريم المحتد. فعكف على التجول في شوارع المدينة، حتى تبينت له " القروح المتقيحة على جسد الجنس البشري ". وقد وصف تلاميذه بطريقة مؤثرة هذه الرحلات الجريئة التي قام بها في " مسالك العالم الوعرة المثيرة للأسى ". ويحكى أنه ذات يوم طلب من تشانا سائق عربته أن يقوده إلى أنحاء المدينة المختلفة. وفي ساحة السوق وقع بصره على رجل مسن يتعثر متألمًا وهو يمشي في الشارع، فأخذ قائد العربة يشرح قائلا: " هذه سنة الحياة الدنيا. ومن المؤكد أن نبلغ هذه الحال عندما نقترب من النهاية ".

وفي جولة أخرى وقع بصره على متسول يظهر جسده المقروح خلال أسماله المهلهلة، فكان تعليق تشانا: " إن هذه أيضًا سنة الحياة الدنيا ".

وفي مرة أخرى ثالثة رأى على الأرض جثة لم تدفن بعد، وتنبعث منها رائحة العفن، فما كان من تشانا إلا أن قال: " وهذه نهاية الحياة. إنها العقوبة التي ندفعها وفاء لدين ميلادنا ".

ونتيجة لذلك كتب جواتاما يقول: " وعندئذ بدأت أسأل نفسي: ماذا لو أنني، وأنا خاضع لأحكام الميلاد وقد رأيت بؤس الحياة بعيني، ماذا لو كرست حياتي للبحث عن سعادة من لم يولدوا بعد، والجد في وقف عجلة الحياة كلها والسعي وراء راحة النفس في عالم الخلود؟ ".

كانت هذه بداية البحث الفلسفي عند بوذا.

٣

وحتى ذلك الوقت لم يكن جواتاما قد أنجب ولدا. وكانت حياته الزوجية، بالرغم مما تفيض به من سعادة " مثل جوهرة مزيفة ينقصها جمال الحجر الكريم "، فقرر أن يهجر هذا البهرج

الكاذب، وينطلق باحثا وراء الحقيقة.

ولكنه قبل أن يبدأ رحيله مباشرة " منحته الآلهة هبتهم الأخيرة ". فولد له ابن. وكان هذا رباطا آخر يربطه " بجلال أمير مفضل عند الآلهة ". وبذلك قد حقق أعظم رغبة له وهي إنجاب حياة جديدة من صلبه.

ومع ذلك فلم يكن هذا الرباط قويا إلى الحد الذي يمنعه من المضي في سبيله، ولم يكن إشباع رغباته مقنعًا له بأية حال. فقد كان هدفه أنئذ أن يقف على معنى الرغبات جميعا، وأن يضع حدا لاضطراب العقل الذي يطارد المطامح الخداعة التي لا تؤدي بدورها إلا إلى مطامح خداعة أخرى. صراع لا ينتهي فوق طريق تغطيه عقبات الألم.

ولم يكن قراره بهجر جلاله وعظمته إلى حياة النسك والتعبد، إلاّ هداية مفاجئة، أو قل ميلادا جديدا إلى حياة جديدة. فلما انتصف الليل تسلل إلى مخدع زوجته وأخذ ينظر إليها وإلى طفله منها للمرة الأخيرة. ويعطينا الكتّاب البوذيون لهذا المشهد صورة تأخذ بمجامع القلوب:

" كان مصباح زيت معطر يضيء حجرة النوم، وعلى الفراش المكدس بالياسمين المنثور كانت أم الطفل مستلقية في سبات ويدها على رأس رضيعها. وفي مدخل الغرفة وقف السيد ينظر إلى المخدع مستغرقا في التفكير محدثا نفسه: لو أنني حركت يد الملكة جانبا، وأخذت ولدي، لاستيقظت الملكة وأعاقني هذا عن المضي في طريقي. فلأنتظر حتى أصبح بوذا، وعندئذ أعود

لأراه ". ثم نزل من القصر.

وكان الظلام لا يزال مخيما عندما أمر سائق عربته أن يسرج اثنين من أسرع خيوله. وتقول الأسطورة إنه وهو في طريقه إلى خارج المدينة حاولت روح الشر إغواءه - كما حدث فيما بعد أن حاولت إغواء يسوع - واعدة إياه

بإمبراطوريات قوية وثروة لا تحصى. ولكن جواتاما رفض العرض وأسرع بحصانه إلى داخل
الغابة، " وفي قفزة واحدة عبر مجرى مائيا عريضا ". ولبرهة راودته الرغبة في النظر إلى الوراء. ولكنه كبت هذه الرغبة. وما إن بزغ الفجر حتى كان قد بلغ مكانا يسمى يوروفيلا، فحدث نفسه قائلا: " إنها لبقعة جميلة. مياه النهر تنساب صافية، وأماكن الاستحمام رطبة باردة، كما أن القرى المحيطة هادئة مسالمة ". فوقع اختياره على هذا المكان ليكون أول مدرسة يمارس فيها تأملاته وحيدا. وما هي إلا لحظة حتى خلع مجوهراته الثمينة وسلمها مع سيفه وحصانه كذلك إلى قائد عربته. وما إن بزغ نور النهار بعد ذلك حتى قابل قرويا تبادل وإياه الملابس، ثم سار في طريقه باحثا عن كهف حيث يمكنه أن يستقر ويحيا حياة ناسك كلها تأمل وعبادة.
وقد استقر به المقام هنا ست سنوات كان يرتيد فيها قميصاً من الشعر المجدول، ويقتات بالبذور والحشائش، وبضع حبات من الرز. وكان يقضي ليله مستلقيا على فرش من الأشواك، فلما تهدمت صحته بفعل الرياح والأمطار، أصبح وكأنه شجرة عتيقة ذابلة ذاوية. ومثل الكثيرين من أصحاب مذهب اليوجا في الهند عقد العزم على تعلم الحكمة عن طريق مكابدة الآلام.
ولكن هذه الطريقة لم تجد نفعًا معه، إذ نجده يقول:" أصبح جسمي نحيلا إلى أقصى
درجة. . ففي الوقت الذي كنت فيه أظن أنني أتحسس جلد معدتي، أجدني فعلا قد لمست عظام ظهري .. وكانت عظام عمودي الفقري تشبه صفا من المغازل عند لمسها. وكما يظهر لمعان المياه في بئر عميقة، كذلك كان يظهر لمعان الأسى في أعماق محاجري ".
لا - لم يكن الطريق الموصل إلى الروح هو إهلاك الجسد. ولم يكن
التقشف سبيله إلى الاستنارة. " وبوساطة هذا النوع من الخشونة لم أبلغ الإدراك السامي ". بل على النقيض من ذلك فإن العذاب الذي فرضه على نفسه لم يكن له أثر إلا إضعاف عقله وزيادة جهله. لقد بدأ خلوته لكي يرق فوق معرفة الأوبانيشاد، ولكنه في الحقيقة قد هبط بنفسه إلى جهل كلب يتضور جوعا.
وكانت النتيجة أن هجر حياة التقشف وأخذ ينعش نفسه بالطعام والشراب، وجلس تحت شجرة تين ينعم النظر في حاله، وفي أحوال العالم أيضًا. وساءل نفسه: " ما سبب تبرمي، وسبب تبرم البشر جميعًا؟ وما مصدر الشقاء والمرض وعلة الشيخوخة وبشاعة الموت؟ ".
وقضى الليل بطوله جالسًا تحت الشجرة يتأمل. ثم ما إن أشرقت الشمس حتى " فاض عقله بالحقيقة "، وأدرك أن سبب شقاء الإنسان إن هو إلا التعاقب اللانهائي للولادة والموت في تيار الوجود المضطرب. حياة ورغبة وخيبة وموت - تؤدي إلى سلسلة أخرى من الحياة والرغبة والخيبة والموت - وتتكرر مرارًا وتكرارًا كثيرة من غير توقف أو راحة. " وهكذا بعقل
مركز، مصفى، مطهر ... كنت أرى مخلوقات تقضي وتولد من جديد، مخلوقات رفيعة ووضيعة، خيرة وشريرة، غنية وفقيرة، وبالرغم من ذلك فكلها تعسة، لا يوجد بينها فرد واحد مطمئن
البال ".
فمشكلة الحياة الإنسانية - كما رآها جوتاما حينئذ - كانت تنحصر في لانهائيتها. فكل مخلوق تتجدد روحه ثانية في مخلوق آخر، وهذه عقيدة هندوكية راسخة، ولم تكتب الراحة
لأحد، حتى في النوم الذي ليس إلا انتقالاً من يوم إلى يوم، أو في الموت الذي هو أيضًا انتقال من حياة إلى حياة.
آه لو استطعنا وقف الولادة! (وهذه الفكرة أو الأمنية نفسها تكوّن لبّ فلسفة شوبنهاور) ولكن ما الذي يمنع ذلك؟ السبب، كما كشفت عنه رؤيا بوذا، هو قانون " الكرما "، أي مجازاتنا من أجل ذنوبنا التي نقترفها في حياتنا الحاضرة عندما نولد من جديد ونبعث في حياة أخرى.
ولكن كيف يمكن منع ولادة، أو بالأحرى منع الولادة من جديد؟ والإجابة هي أن تحيا حياة عدل كامل ورحمة كاملة وصبر كامل مع إخوتك في الخليقة. كما أنه عليك أن تقمع رغباتك الذاتية وتجعل هدفك الأوحد أن تقوم لا على خدمة الجنس البشري وحده، بل خدمة الكائنات الحية
جميعًا.
وما ذلك إلا لأننا لا يمكن أن نهرب من الكرما (الجزاء) الذي نستحقه، فكل عمل من أعمال القسوة أو الظلم له عقابه ليس في جهنم مستقبلة، وإنما حياة مستقبلة على الأرض، فحينئذ وحينئذ فقط يمكن أن نخلص أنفسنا من قيود سلسلة الميلاد الجديد المتواصل

ونحصل على رائحة النفس الأبدية.
وبنزول الرؤيا على جواتاما، وهو جالس تحت شجرة التين المقدسة، أصبح بوذا " المستنير ". ثم اتجه إلى حديقة عامة في بنارس، وبدأ يعلم العالم سعادة النفس في عالم الخلود (النرفانا).
٤
وكثيرًا ما شغلت، بل كثيرًا ما حيرت العقل الغربي فكرة النرفانا - وهي النقطة المركزية في الفلسفة البوذية - ولنحاول على كل حال أن نتفهمها كما فهمها بوذا، وعندئذ قد نرى كيف يمكن تطبيقها على مشكلاتنا في الوقت الحاضر.
وأول كل شيء يجب أن نعلخم أن النرفانا ليست حالة سلبية للانقراض، وإنما هي حالة إيجابية للوجود. وقد وصفها ناقد غربي فكه فقال إنها " نوع من اللانهائية التي لا يمكن فهمها متضمنة في أبدية لا يمكن إدراك كنهها ". وقد رسم هذا الناقد صورة روح الفرد إذا ما استوعبها عالم النرفانا بأنها " كسجين قد تحرر بقرع طبول العدم، التي لا وجود لها، في موسيقى السكون اللانهائي ". لكن ما أبعد هذه الصورة الساخرة عن مفهوم النرفانا كما تصورها فلسفة بوذا. فليست النرفانا هي الفناء الأخير، وإنما هي التحرر العظيم " هي إلقاء البضاعة الزائدة من رغباتنا الشخصية حتى لا يعوقنا شيء عن اتحاد أنفسنا مع الكون. أو قل هي التحرر العظيم من الموت الذي يطرأ على الأحياء، إلى الحياة الأبدية، لأنه ما دام سعينا وراء المطالب الأرضية، فإننا نبقى أبد الدهر مرتبطين بالأرض. وننتقل من حياة إلى حياة، ومن زنزانة إلى زنزانة، ولا أمل لنا في خلاص حتى ينتهي جشعنا ". وقد عبر بوذا في أسلوب جميل عن هذه الفكرة في الكلمة الآتية:
" عندما تخمد نار الشهوة فتلك هي النرفانا. عندما تخمد نيران الكراهية فتلك هي النرفانا. عندما يكبح جماح الكبرياء فتلك هي النرفانا. ليس لي أن أعلم إلا شيئًا واحدًا، هو محو
العذاب ".
وفي عبارة أخرى لا يعلمنا بوذا كيف نمحو شخصياتنا، وإنما يعلمنا كيف نضع حدا لأحزاننا الشخصية؛ يعلمنا كيف نبتهج في سمو بوحدتنا مع الله.
أما عن طبيعة الله، فقد اعترف بوذا أنه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع، وكان يعتقد في قرارة نفسه أن هذه المشكلة فوق طاقة العقل البشري. فكيف يمكن للذرة أن تلم بطبيعة المادة التي هي ليست إلا جزءًا منها لا يحسب له
حساب؟ .. وقال في هذا المقام: " لنفرض أن سهمًا مسمومًا قد أصابك بجرح، وأن أقاربك قد أرسوا في طلب طبيب لهم به كل الثقة، فهل يجوز لك أن تسألهم عن طبيعة هذا الشخص ومظهره ورأيه في الحياة الدنيا، وعما إذا كانت بشرته فاتحة أم غامقة؟ لا أظن ذلك، وإنما يكون اهتمامك محصورًا في قدرته على الشفاء ".
وبنفس الطريقة يصيبنا جميعًا سهم الحياة المسموم. فليس لنا إذن أن نكثر من الأمثلة عن طبيعة المعالج. ولنحصر اهتمامنا فحسب في الخطة التي يتبعها في علاجنا.
وكما سبق أن أوضح بوذا، فالخطة المقدسة لعلاجنا تعتمد على الحقيقة التي تتضمن أن وجودنا معناه التعاسة التي تسببها شهواتنا الذاتية، وأن في استطاعتنا أن نكبح جماح هذه الشهوات باتباع طريق السلوك الحسن ذي الوجوه الثمانية وفي عبارة أخرى في وسعنا أن نتجنب ألم
الكرما (الجزاء)، أو تكرار العقاب نتيجة لتكرار الهوى .. في محيط الحياة، إذا ما قمنا بممارسة الوصايا البوذية الثمان:
(١) تعلم كيف تفهم نفسك.
(٢) كن صبورًا.
(٣) تحدث في رفق.
(٤) كن في فعلك نبيلا.
(٥) اعمل بأمانة.
(٦) ابذل جهدك في كل حين.

(٧) كن سريع الاستجابة لحاجات جارك.
(٨) لتكن نظرتك إلى العالم رحيمة.
وقد لخص بوذا هذه الوصايا الثماني في ثلاث كلمات: الشفقة، والتقوى، والمحبة.
فكان بوذا يشفق على كل الكائنات الحية لأنه كان يتحد بنفسه معهم، فقد كان يعتقد أنه خلال عملية التناسخ يمر كل منا خلال أشكال كثيرة من الكائنات: حيوانية وبشرية معًا. " ونتيجة لذلك يربطنا جميعًا رباط مشترك من العذاب ". والقتل خطيئة، وهي خطيئة سواء اقترفت على أخ لنا في الإنسانية، أم اقترفت على أخ لنا في أسرة المخلوقات جميعًا. وقد حدث أن هم براهمي (كاهن هندوسي) بأن يطهر نفسه في مياه الكنج المقدسة، فقال له بوذا: " أحرى بك أن تطهر نفسك في مياه حنوك المقدسة ".
وكان يؤمن بمجتمع يتساوى فيه الجميع، ولا أثر فيه لطبقية أو منبوذين. " اذهبوا إلى كل بقاع الأرض ولقنوا الجميع هذا الدرس. أكدوا لهم أن الفقراء والوضعاء والأغنياء وعلية القوم كلهم سواء، وأن المخلوقات جميعها متحدة مرتبطة في هذا العالم، كما تتحد قطرات الماء جميعها في البحر ". فإذا ما تعلمنا أن نشفق ليس على أنفسنا فحسب وإنما على كل شيء حي، فلا بد أننا في النهاية واصلون إلى راحة النفس في النرفانا.
أما تقوى بوذا فكانت كشفقته نتيجة لإيمانه بالأخوة الجامعة الشاملة. ولم يكن يؤمن بالأديان الرسمية الشكلية، وقد عبر عن ذلك بقوله: إن نقطة الضعف في غالبية الأديان هي تفرقها. إذ يعتقد أنصار كل مذهب مختلف أنهم
وحدهم أصحاب الطريق الوحيد المؤكد الذي يؤدي إلى الخلاص. والنتيجة الحتمية لهذا الشقاق هي الجدال المستمر الذي يقودنا بدوره إلى التعصب والاضطهاد والحرب " فلنضع حدا لخاصماتنا وخلافاتنا، ولنبدأ في تركيز جهودنا نحو ارتباط مشترك بين أعضاء أسرة الحياة ". فلا يقاس مقدار إيمان المرء بشعور الاستعلاء الذي يميز به نفسه من سواه، وإنما يقاس بإحساسه بالمساواة، إحساسًا يضم به نفسه إلى غيره في مجموعة واحدة، لهذا كان مريدو بوذا يصورونه في صورة " من يؤلف بين قلوب المنقسمين ويشجع المتحابين، فقد صوروه صانع سلام، ومحبا للسلام، ومتحمسا
للسلام، ومحدثًا تمهد كلماته الطريق إلى السلام ".
وكان بوذا يبشر بتقوى قوامها إيمان واحد بسيط، هو الأخوة الجامعة. وقد استطاع بهذا الإيمان أن يكون صبورًا مع المشاغبين من إخوته في البشرية. فكان يرد الشر بالخير، ويجيب الإساءة بابتسامة. وذات يوم أخذ شاب سليط اللسان يهجوه ويعنفه فما كان منه إلا أن أنصت في سكون إلى هذا التقريع، حتى أتى الشاب بكل ما عنده، ثم سأله بهدوء قائلا: " يا بني، هب أن إنسانا رفض هدية قدمت إليه، فإلى من تؤول الهدية؟ " فأجاب المعتدي: " إلى الرجل الذي قدمها ". فقال بوذا: " هكذا يا بني، فإني أرفض قبول تعنيفك فاحتفظ به لنفسك ".
وكان قوام إيمانه أن الكل عند الله سواء، ومعاملة الجميع برفق. كما كان يعتبر نفسه معلما، لا مخلصًا. ولم يدع قط أنه يحمل رسالة من الله، وكل ما يعترف به هو أنه عثر على قانون طبيعي جلب لنفسه سعادة عظمى، وبالتالي قد يجلب سعادة عظمى للجميع.
وهذا القانون الطبيعي يمكن أن يعرف في النهاية بكلمة واحدة، هي
المحبة. (وهذا هو ما كشف عنه القديس بولس فيما بعد). وقد ميز بوذا بين نوعين من
الحب: النوع الذي يميل وينحدر، والنوع الذي يسمو ويرتفع.
فالحب الذي يميل هو حب النفس الصغرى؛ إذ يهتم بالأخذ لا بالعطاء. إنه حب الحيوان
لصاحبه، والطفل لوالديه، و في غالبية الأحوال حب الزوجين أحدهما للآخر. إنه نوع من العاطفة تشوه جمالها الغيرة، كما يمكن أن ينقلب هذا الحب بسهولة إلى كراهية.
أما النوع الثاني، الحب الذي يسمو، فهو حب النفس الكبرى. وفي فقرة يطلق عليها " وحي الإصحاح الثالث عشر من رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس "، كتب بوذا يقول:
" وتماما كما تحمي الأم طفلها الوحيد من الأذى، وكأنها تحافظ على حياتها الخاصة، فلتكن أفكارك هي كل الأفكار الحانية التي تحنو على شتى صور الحياة، حب شامل يضم بين جنبيه السكون بأكمله، حب لا تشوبه شائبة ولا تشوه جماله الكراهية ".

حب شامل يضم بين جنبيه الجميع. هذه الفكرة البوذية يمكن أن نجد أحسن تعبير حديث لها في قصيدة " المغلوب على فطنته " للشاعر إدوين ماركام:

خط لنفسه دائرة، وأخرجني منها
أسماني زنديقًا وثائرًا وجديرًا بكيد
ولكن الحب وإياي بالفطنة انتصرنا
فخططنا دائرة ضمته إلينا

إننا جميعًا لنحاول جاهدين أن نلحق ببوذا بعد انقضاء خمسة وعشرين قرنًا من الغيرة والكراهية والصراع. وإذا ما استثنينا القلة النادرة من النفوس - أمثال القديس فرانسيس وسبينوزا ووالت وتمان وألبرت شفيتزر، فإننا لم نصل بعد إلى خلود النعيم خلال معجزة الحب.

٥

وكان بوذا يتبع في تعليمه طريقة تتساوى في بساطتها مع أفكاره. وكان ينتقل من مدينة إلى
مدينة، يتبعها مريدوه، مرتديًا عباءة صفراء ومزودًا بقصعة متسول يجمع فيها من أنواع الطعام ما يمكن الحصول عليه في طريقه. وغالبًا ما كان يدلي بتعاليمه في حديقة أو أرض فضاء وسط
الغابات، وكانت أول كلمة تخرج من فيه هي التحية البوذية التي تعبر عن الأخوة الجامعة: " سلام لكل شيء حي ". ولم تكن أحاديثه إنذارًا وتحذيرًا، وإنما كانت حوارًا وهداية. " لا تقبلوا ما أقوله على علاته، وإنما تبصروا فيه بأنفسكم ".

وفي إحدى المناسبات أقبل عليه ولده ليراه. وكان هذا الشاب قد ربى، وهو يعتقد اعتقادا جازمًا أن إرثًا عظيمًا ينتظره، فبدأ حديثه مع والده قائلا: " لقد أتيت سعيًا وراء الميراث، فالتمس أن تعطيني إياه ".

فأجاب بوذا ولده بقوله: " يا بني، جميل منك أن تطلب ميراثك. فها هو ذا الميراث ". والتفت بوذا إلى أحد تلاميذه وقال: " سلم ولدي عباءته وقصعته وأدخله معنا عضوا في جماعة الأخوة التي تؤاخي كل حي ".

وما إن جاوز بوذا الثمانين عامًا حتى بلغت حياته نهايتها. وكان قد هجر العرش الذي كان ينتظره ليعيش حياة الحرمان والتجرد. وكان آخر عمل قام به
أن بارك رجلا شريدا كان قد أتى إليه يسعى وراء كلمات مطمئنة مريحة. وبينما كان الرجلان يتناولان طعامهما في منزل حداد إذ ببوذا يقع فجأة فريسة للمرض. ثم أخذ يجر جسمه المنهوك متجهًا إلى الحقول، وطلب إلى تلاميذه أن يضعوه على فراش من أوراق الشجر، وتضرع إليهم ألا يوجهوا أي لوم على مرضه إلى الحدّاد.

وبعدئذ، بينما كانت تنحسر حياته إلى نهايتها، استدعى إلى جانبه الرجل الشريد الذي كان قد سعى إليه راجيًا أن يحسن إليه ببضع كلمات رقيقة. وأخذت يد الأمير الذي يعاني سكرات الموت تتحسس يد المتسول، ثم لفظ هامسًا: " لسنا جميعًا إلا قطرات ماء تنساب تجاه محيط السلام
الأبدي. فلنحاول جادين لكي ننال هذا السلام ".

٣.٤ الفصل الرابع: الفلسفة في الصين

الفصل الرابع
الفلسفة في الصين

١

لقد لاحظنا بعد دراسة الفصول السابقة من هذا الكتاب أن آراء الفلاسفة العظام - اخناتون وزرادشت وبوذا - لن يمسها القدم ولن يسبقها جديد. بل قل هي غاية في جدتها اليوم كما كانت منذ عدة آلاف من السنين. وبينما يخطط علماؤنا طرق السفر بين الأرض والفضاء الخارجي، نجد أن فلاسفتنا لا يزالون يحاولون الكشف عن الطرق التي تصل بين قلوب البشر.

ولا غرو فالفلاسفة أكثر الناس صبرًا، فهم يعلمون أن التقدم الروحي لا يقاس بمرحلة حياة فرد واحد، أو قرن واحد أو حتى بألف عام. فالرحلة إلى المودة بين القلوب بالغة الطول، ومعالم طريقها يجب أن ينظر إليها بالقياس إلى الأبدية.

وهذه الفكرة عبر عنها سبينوزا في العصور الحديثة نسبيا بالرغم من أنها قديمة قدم تعاليم فلاسفة الصين الأوائل. فقد قاس حكماء الصين كل نشاط إلى ساعة زمنية تجعل كل ألف سنة بمثابة يوم واحد.

والصينيون القدماء، في رأي ديدرو، كانوا من أكثر الشعوب مدنية في التاريخ. فكانوا يعتبرون العلماء منهم - لا الجنود - أبطالهم المفضلين. وفي عهد كونفوشيوس - الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد - كانوا يفخرون بثقافة لها من العمر عشرون ألف سنة. وتدلنا الأساطير على أن الصينيين عاشوا أولا مثل حيوانات متجولة تسعى وراء الصيد في الغابة. ثم ظهر بالتدريج بينهم

أسرة من " الرجال المفكرين " الذين علموا الناس كيف يعيشون معًا في سلام. ويبدو أن من قصوا تاريخ الدين كانت لديهم فكرة غير واضحة عن نظرية التطور قبل داروين بآلاف السنين.

ولم يدخر الرجال المفكرون " في الصين ذخيرة قيمة من الحكمة فحسب، بل عرفوا أيضًا بروح المرح والفكاهة. فقد حلم أحد الفلاسفة الصينيين الأوائل أنه قد تغيرت هيئته إلى فراشة. وبينما كان يقص على تلاميذه هذه التجربة التي مر بها أضاف قائلا: " والآن يا أصدقائي، لا أستطيع أن أجزم: هل كنت رجلا يحلم أنه فراشة، أو فراشة تحلم أنها رجل ".

ومن الفلاسفة الصينيين رجل صبغت فكاهته بصبغة اجتماعية أكثر منها شخصية، وقد شبه هذا الفيلسوف الديموقراطية السليمة بقطر يعيش فيه " الجميع أحرارا، فالشعراء ينظمون الشعر في غير جوع، والمؤرخون يسردون الحقائق، والفقراء يتذمرون من الضرائب، والمعلمون يدرسون من غير ما رقابة، والشباب يتحدثون عن أي شيء، والكبار يتسقطون الأخطاء في كل شيء ".

وهذا المزيج من الحصافة والحكمة بلغ مرحلة الازدهار الكامل في فلسفة

لاو - تسي، وكونفوشيوس، وهما اثنان من أعلى وأسمى حملة النور في الصين.

٢

ولسنا على علم دقيق بتاريخ ظهور لاو - تسي. ويعتقد بعض الباحثين أنه كان معاصرًا لكونفوشيوس ولو أنه يكبره سنا. ويزعم آخرون أنه ظهر بعد كونفوشيوس بقرنين أو ثلاثة قرون، في وقت كانت آراء بوذا قد بدأت تنهال على الصين. ويشير هؤلاء العلماء إلى أن فلسفة لاو - تسي قريبة جدا في بعض الوجوه من فلسفة بوذا. ولكن يبدو أحيانًا أن حكمة الحياة قد انتقلت

عبر العصور من فم إلى فم. وفي أحيان أخرى قد أتت الحكمة نفوسًا كلا على حدة، على هيئة ومضة تكشف الحجاب عن المستور، ولذلك فإن تشابه آراء أي فيلسوفين لا يعني بالضرورة أن أحدهما قد تأثر بفلسفة الآخر. وكما يحدث تماما عندما ينمو نوع واحد من الأزهار في أماكن متفرقة متباعدة، كذلك يمكن أن يهبط نوع واحد من الإلهام على عدد من الحكماء يعيشون في بلاد وأجواء مختلفة وعصور متباينة.

وعلى ذلك فإننا نأخذ بنظرية العلماء الذين يقولون إن لاو - تسي ظهر مع كونفوشيوس في قرن واحد. وطبقا لأولئك العلماء فقد ولد حوالي سنة ٦٠٠ ق. م، " وبفضل فلسفته الهادئة " عاش حتى سن السابعة والثمانين. ويحكى أنه عندما قاربت حياته نهايتها قام كونفوشيوس بزيارته وسأله النصح عن أضمن سبيل يوصل إلى الريادة الناجحة. فكانت إجابة لاو - تسي غامضة ومقتضبة إذ قال:

" ما إن تدق ساعة الرجل العظيم حتى يرقى إلى قمة الريادة. ولكنني قد سمعت أن التاجر الناجح يخفي ثروته بحذر، وأن الرجل العظيم بالرغم من وفرة أعماله العظيمة بسيط في سلوكه

ومظهره. ألق عنك كبرياءك وطموحك، فلن تربح شيئًا من هذه كلها، وهذه هي النصيحة التي أستطيع أن أقدمها إليك، كيف تظل رجلا صالحا، لا كيف تصبح رائدا عظيما ".

ونذكر أن كونفوشيوس رجع من الزيارة رجلا أفضل وأحكم. وفي حديثه إلى أصدقائه عن هذه الزيارة قال:

" إني أعرف كيف تطير الطيور، وتسبح الأسماك، وتجري الحيوانات. كما أعرف أيضًا كيف يمكن أن يقع العدَّاء في الشرك، وكيف يمكن صيد

السبّاح بالشص، وكيف يمكن إصابة الطائر بالسهم. وبالرغم من ذلك فهناك شيء واحد لا أعرفه - هو: كيف يخترق التنين السحاب ممتطيًا صهوة الريح ثم يصعد إلى السماء؟ وليس في استطاعتي أن أشبه لاو - تسي إلا بالتنين ".

وعلى الرغم من هذا فلم يكن لاو - تسي غامضًا إلا في مناقشاته مع الفلاسفة الآخرين. أما عند تفسير آرائه لعامة الشعب فقد كان في قدرته أن يكون واضحًا منيرًا كالبلور.

والآن هيا بنا نمحص باقتضاب هذه الآراء:

كانت فلسفة لاو - تسي مبنية على إدراكه لمفهوم تاو، أي " طريق الحكمة ". ومن رأي الدكتور " ول ديورانت " في كتابه " قصة الحضارة " أنه يحتمل ألا يكون في الأدب قاطبة قطعة أجمل وأرفع مما قال لاو - تسي في " سر الحكمة ". ويكمن هذا السر في إطاعة الطبيعة برضى وطيب خاطر وقد أوضح لاو - تسي هذه الفكرة بقوله: " كل الأشياء في الطبيعة تعمل في صمت. إنها تخرج إلى حيز الوجود وهي لا تملك شيئًا. ثم تؤدي وظائفها ولا تطالب بحق. وبالرغم من أن كل الأشياء تقوم بعملها على السواء إلا أننا نجد أنها لا تلبث أن تخمد وتهدأ. وما إن تبلغ كل منها عنفوانها وذروة ازدهارها حتى ترتد إلى ما كانت عليه أصلا. ولا يعني الارتداد إلى الأصل سوى الراحة أو تحقيق ما قدر أن يكون. وهذا الارتداد ليس إلا قانونًا أبديًّا. والحكمة هي أن يعرف المرء هذا القانون ويتقبله بنفس راضية، وبال مستريح ".

ولا يحقق راحة البال وهدوء الذهن إلا البحث في الفلسفة والدين وكذلك طوال الحياة. ومثل روسو الذي أعاد كشف هذا السر بعد مرور حوالي ألفين

وأربعمائة عام، فقد وجد لاو - تسي أن التنافس على الثروة أو السلطان لا قيمة له ولا جدوى فيه: " ليس لي ما يثير الكبرياء في نفسي، أو الحسد في نفوس الآخرين ". فالرجل الذي يصل إلى هذه الذورة من الحكمة " بعيد كل البعد عن التفكير في ربح أو خسارة، في مرتبة سامية أو

وضيعة، قل هو أنبل رجل تحت السماء ".

وطبقًا للاو - تسي فإن أنبل إنسان هو ذلك الذي يعتبر نفسه أرفع منزلة من أحد، وأغنى إنسان هو ذلك المتحرر من شهوة الثراء، أما أكثر الناس بركة فهو الذي يرجو بركات متساوية

للجميع. وعند لاو - تسي لم يكن لفعل " ينجح " صيغة للمفرد، إذ كان يؤمن بالنجاح العام لا

الفردي. والسعادة العظمى عند أي إنسان هي أن يفرح ويتهلل لسعادة الجميع.

وما الهدف الأخير من الحياة إلا سعادة الجميع. فطريق الحكمة إذن هو نظرتنا إلى الليل

والنهار، فيكفي النهار ما فيه وما يكفي الليل كذلك ما فيه، فإن هذه الأيام والليالي

تقودنا - ونحن لا ندري في غالب الأحيان - إلى الهدف الأخير الذي هو الابتهاج العام. لأن حواسنا ليست من الكمال بالدرجة التي تمكنها من أن تحيطنا بالقصة كاملة. وبالرغم من هذا فإننا من وقت إلى آخر نظفر بلفحة تكشف لنا الستار عن تاو - الطريق الحق الأوحد. وكما يكشف الليل لأبصارنا عن معجزة النوم التي يخفيها وهج النهار، أفلا يمكن أن يكشف الموت لأبصارنا أيضًا عن معجزة عظيمة مماثلة يخفيها وهج الحياة؟

ويترك لاو - تسي هذا السؤال من غير إجابة. ويكفي يوم الحياة ما نعرفه عنه من معلومات ضئيلة، فإن محاولة استزادة معلوماتنا عبء كبير تنوء بحمله عقولنا الصغيرة.

ويشترك " تاو " لاو - تسي (طريق الحكمة) في الكثير من أوجه النظر مع نرفانا بوذا (سعادة النفس)، ولكي يصل الحكيم إلى راحة البال - وليس من الضروري أن يكون الحكيم متعلمًا - عليه أن يتجنب محاولة مجاراة جيرانه أو سبقهم. فالصراع من أجل الثروة مآله إضعاف القوة الأخلاقية. فإن أحببت نفسك إلى درجة كبيرة جدًّا، فلن تنجح في كراهية نفسك وإن أنت سعيت وراء القوة والسلطان، فلن إلا إلى إضعاف روحك. وكلما ازدادت رغبتك في العفو والارتفاع كان سقوطك في آخر المطاف سحيقًا هاويًا.

وواقع الأمر، كما ذهب لاو - تسي، أن أقوى الأشياء هي أضعفها. فلنأخذ على سبيل المثال تلك المادة البسيطة: الماء، " فالمياة قوية

إلى الحد الذي تكتسح معه الجبال، وبالرغم من ذلك فهي تنحدر إلى أوطأ السهول والمستويات، فليكن لك في المياه مثل. لأن هذا هو التاو ". أما الطموح والطمع والعدوان والسلطان فهذه كلها ليست سوى طرق تؤدي إلى الحرب. أما تاو فهو الطريق التي تؤدي إلى السلام.

فالحكيم إذن يرضى بحياته، ويتقبل إخوته في البشرية " بكياسة تقهر القوة ". ولا يمكن أن نصبح عظماء بحق إلا إذا لم نقم بأي جهد لنكون عظماء.

وكما لاحظ بعضهم، فإن فلسفة لاو - تسي لا تصلح إلا للشيوخ. والدم الجديد في حاجة إلى عمل، فهو قلق إلى درجة لا يحتمل معها التأمل. ولما كان كونفوشيوس متأكدا من هذا فقد حاول أن يطبق حكمة لاو - تسي في الحياة العملية. والسؤال الآن هو: إلى أي مدى يمكننا أن نتبع سياسة القناعة والرضا. " بتعقل واعتدال "، ثم نلعب في الوقت نفسه دورا فعالا في عالمنا المليء بالمنافسة؟ ولما حاول كونفوشيوس الإجابة عن هذا السؤال قاده هذا البحث إلى قلب خطة حياته بطريقة غير عادية، فمن الفلسفة إلى السياسة، ومن السياسة إلى الفقر.

وقد ولد في مملكة لو - وهي إقليم شانتونج الحالي - في عام ٥٥١ ق. م. وكان والده يحترف الجندية وبلغ من العمر سبعين عاما عندما ولد كونفوشيوس. وكما جاء في الأسطورة، كان لهذا الطفل " ظهر تنين، وأذنا فيل، وفم كالبحر ". وأكثر من هذا فإن مجيئه إلى العالم " قد أعلنته أرواح السماء التي طيبت شذى الهواء حول مهده ". ولما ظهرت هذه " الأغراض المبكرة لحياة عظيمة "، أطلق والده عليه اسم كونج فو - تسي - وهو ما يقابل كونفوشيوس بالصينية، والذي معناه أيضًا " السيد حكيم كونج ".

ولما بلغ كونفوشيوس الثالثة من عمره فقد والده. وبينما كان يتلقى علومه في المدرسة كان يعمل أيضًا في وقت فراغه لكي يساعد في إعالة أمه. وهكذا نجد أنه منذ طفولته المبكرة ألم بمشاق الحياة العملية.

بالرغم من ذلك فقد واتته الفرصة لكي يصبح عازف ناي بارعًا. وكما أوضح حكماء الصين " تسير الفلسفة والموسيقى جنبا إلى جنب ".

ولما بلغ من العمر سبعة عشر عاما التحق بعمل مدني كاتبا في المكتب الوطني لتموين الحبوب، ثم تزوج في التاسعة عشرة من سنه. ولما كان في العشرين ولد ابنه الوحيد، ثم ما لبث أن طلق زوجته عندما بلغ الثالثة والعشرين، ويبدو أنه أحس أن الفلسفة لم تستقم مع الحياة الزوجية، إذ أنه حتى في تلك الأيام كان من العسير أن يعتمد الرجل في إعالة زوجته على ما تدره الحكمة عليه.

وما إن ترك بيته حتى أصبح مدرسا رحالا. ولنستمع إليه يقول: " أعيش الآن في الشمال والجنوب والشرق والغرب ". أما المواد التي كان يدرسها فهي: " التاريخ والشعر وآداب اللباقة ". ومثل بوذا حاول أن يتجنب الجدال مع المدرسين الآخرين. " فلنبرز اتفاق وجهات نظرنا بدلا من مناقشة أوجه الخلاف بيننا. وكل ما يراه الجميع متشابها هو الصواب على الأرجح ". وبرغم كل هذا فلم يصل تسامحه إلى حد يجعله يغضي على حماقة بعض تلاميذه أو تمردهم، وكان يؤمن باستخدام العصا لحث العطفل على العمل. وبالإضافة إلى ذلك كان من رأيه معاقبة آباء الأطفال المنحرفين، كما يعاقب الأطفال أنفسهم سواء بسواء. وفي إحدى المناسبات قبض على مراهق بتهمة السرقة، فما كان من كونفوشيوس إلا أن قدم نصيحته إلى القاضي بأن يرسل الأب والابن معًا إلى السجن، " فلو أن الأب قد ربى ابنه جيدا، لكان سلوك الابن جيدا أيضًا ". وكان كونفوشيوس يؤمن بتكامل الأسرة ووحدتها كقاعدة لدولة عادلة قويمة. فالأمانة مثلها مثل البر والإحسان يجب أن تبدأ في البيت.

ومثل جميع أعلام الفلاسفة، كان كونفوشيوس يسبق عصره بمراحل، وكغالبية من يسبقون عصرهم كان يسب وينهر ويطرد من كثير من المدن والقرى، وكان الناس يرجمونه بالأحجار ردًّا على ما يحدثهم به من درر وذهب ويصيحون مع الحكام كذلك قائلين: " لسنا في حاجة إلى آرائه الهدامة ". وما إن وصل بعد ذلك إلى وي حتى جعل منه الملك هدفًا لسخرية شنيعة. ثم اصطحب خليلته من الحاشية إلى نزهة في عربته الملكية وأصدر أمره بأن يركب كونفوشيوس في عربة نقل تتبعه مباشرة وتحمل لافتة ظاهرة للعيان كتب

عليها: " انظروا إلى الفضيلة تجرها الشهوة وراءها ".
ومع هذا فقد عثر كونفوشيوس في أماكن متفرقة على قلة عرفت فيه حكمة
الحكيم ودماثة القديس، فقد كتب عنه والد أحد تلاميذه يقول: " إنه يسير في طريق الوداعة والتأدب. وله علم بكل موضوع وذاكرة قوية، كما يبدو أن معرفته بالأشياء لا ينضب
معينها. ألا نرى فيه رجلا عظيما يظهر في عصرنا؟ ".
وكان أيضًا من بين الأقلية التي فهمت كونوفشيوس رجل مسن تتلمذ أحفاده على يدي كونوفشيوس. وكثيرًا ما استمع هذا الرجل المسن إلى دروس العلم المتجول. ونصح مواطنيه من سكان المدينة أن يجلسوا مثله عند قدمي المعلم. " أيها الصحاب، لماذا تغتمون لنكبة هذا الرجل وسوء طالعه؟ لقد فشل العالم في الاهتداء إلى قيم الحياة الحقيقية. إن السماء تستخدم هذا الرجل كناقوس يعلن رسالة الله ".
ولكن الغالبية العظمى من الناس، مثل حكامهم، استمروا في منازعاتهم الداخلية وحروبهم
الخارجية. فلم تكن لهم آذان ليستمعوا إلى كونفوشيوس. وكان هو كمخلوق آدمي يعيش في وسط غابة من الوحوش. وحدث مرة بينما كان يعبر برية جبلية أن رأى امرأة تبكي وهي راكعة إلى جانب قبر جديد. فسألها قائلا: " فيم حزنك وبكاؤك أيتها المرأة؟ ".
" إني أبكي ولدي الذي افترسه نمر في هذه البقعة. وسبقه زوجي إلى نفس المصير. ومن قبل زوجي لقي أبوه حتفه بالطريقة عينها "
فسألها المعلم: " ولم إذن لم تنتقلوا إلى مجتمع متمدين؟
فما كان من المرأة التي عضها الدهر بنابه إلا أن تسأله بدورها: " وأين يا سيدي يمكن أن تجد مثل ذلك المجتمع؟ "
وهنا ألجم السؤال لسان كونفوشيوس بما فيه من تحد. فقر قراره عندئذ أن يجدّ في البحث عن مجتمع متمدين - أو على الأقل أن يعثر على حاكم تتوافر عنده الرغبة في توجيه شعبه نحو حياة أرقى وأكثر تحضرًا.
ولفترة تقرب من عشرين عامًا قبل هذا الحادث، كان كونفوشيوس معلمًا جوالا للنشء. أما من تلك اللحظة فصاعدا فقد أخذ على عاتقه أن يقوم بتعليم أطفال العالم الكبار.

٤

وهكذا تعهد كونفوشيوس بالقيام بمهمة من أصعب المهام في العالم - ألا وهي تلقين الفلسفة الملوك.
وأول حاكم نظر إلى كونفوشيوس كناصح أمين يبغي تطبيق الفلسفة في فن الحكم كان أمير تشي. ولما سأل الأمير كونفوشيوس عن الطريقة المثلت التي يمكن أن يحكم بها ملك بلاده، أجاب الفيلسوف قائلا: " بإعطاء الفرصة للجميع من الأمير إلى المتسول لكي يعيشوا في تآلف، ثم على وجه التخصيص إزالة الأسباب التي تخلف المتسولين في المجتمع ". وبالرغم من أن الأمير كان ميالا للاحتفاظ به مستشارًا خاصًّا فإن كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة. " هؤلاء العلماء إن هم إلا حالمون غير عمليين، فرؤوسهم مرفوعة في أعالي السحاب لدرجة أن أقدامهم لم تعد تمس الأرض ".
وهكذا حرم كونفوشيوس من المنصب.
ولكنه حاول مرة أخرى في مكان آخر - مسقط رأسه مقاطعة لو - وقد تحسن حظه هذه المرة. فعينه أمير لو رئيس قضاة التحقيق في عاصمته، مدينة تشونج - تو. ويذكر المؤرخون
الصينيون: " أنه نتيجة لذلك استحت الخيانة
والغدر والدعارة وأخذت رؤوسها جميعًا، ولقد أصبح الولاء الهالة التي تزين هامات الرجال، كما أصبحت العفة التاج الذي تزهى به النساء ".
وإن كان علينا أن نقبل هذه الرواية بتحفظ إلا أن هناك ظلا خفيفًا من الشك في أن كونفوشيوس قد بث في الشعب فعلا تقديس الأمانة. كما حاول أن يبني سياسته على شريعة المروءة المتبادلة. فقبل أن يصل تشونج - تو كانت المدينة مسرحًا ومباءة لأحط طبقات اللصوص والنهابين. وما إن تولى سلطته حتى بادره قادة المدينة بالاستفسار عما يمكن عمله لإنقاذ الموقف، فكان أن أجابهم

قائلا: " لا سبيل إلى وضع حد للسرقة والنهب إلا إذا وضعتم أنتم حدا لجشعكم. وإذا ما أقلعتم عن الجشع وحب تملك الكثرة الوافرة، فلن يقاسي الآخرون من الحرمان. ولن يكون هناك ما يغريهم أو يدفعهم إلى السرقة ".

كما ذكر أيضًا أن تكامل الفرد ينبع من العدالة الاجتماعية. " فنحن إن عشنا في بلد تسوده العدالة ففي استطاعتنا أن نتشح برداء الشرف والمجد في تواضع ونتحمل أحزاننا برباطة جأش ".

ولكن للأسف لم يكن العالم مهيأ لاستقبال العصر الذهبي السعيد. فقد حدث أن أمير مقاطعة تثني المجاورة، وقد أكل الحسد قلبه لما رآه من عظمة مقاطعة " لو " تحت سيطرة كونفوشيوس، حدث أن عثر على خطة سهلة يقوض بها منزلة الفيلسوف عند الأمير. فأرسل إلى الأمير هدية قوامها ثمانون فتاة تخصصن في الرقص والغناء. وكان أن نجحت الخطة ووقع أمير " لو " في الفخ، و" فضل الجمال على الواجب والكمال ". حتى بلغ به الأمر في النهاية أن يعجب

بسيقان الحسان الجميلة أكثر من إعجابه بالقلوب الطاهرة، فاستدعى كونفوشيوس وبادره

بقوله: " يا معلم، لقد حان الوقت لك بالرحيل ".

وهكذا حمل الفيلسوف، الذي ترك الزمن آثاره على جسمه، عكازه، وانطلق مرة أخرى هائمًا على وجهه. وأخذ يجمع تلاميذه وهو يتقدم في طريقه وكان يعلمهم في الصباح، ثم يقضي أوقات ما بعد الظهر والسماء في جمع " حكمة الماضي للاستفادة منها في المستقبل ". ولم يدع قط أنه يبتكر شيئًا جديدًا، حتى إنه سمى نفسه " ناقل الأفكار وليس صانعها " وقد كرس سني حياته الأخيرة لإعداد وتحرير العلوم والفنون الصينية العظيمة متبعًا في ذلك طريقة المدرس، لا طريقة المؤرخ. فوقع اختياره على تلك الأعمال التي كان من المرجح أن تلهم النشء، وتزود عقولهم بالمعرفة الأكثر نفعًا، وتشكل قلوبهم لتعي الأفكار الأكثر نبلا ورقة.

وبعبارة أخرى، لم يكن من دعاة إنكار الذات مثل لاو - تسي، وإنما كان يدعو إلى ضبط

النفس. " فإذا ما استطاع الناس أن يتعلموا كيف يحكمون أنفسهم بالعدل ولو لقرن

واحد، لاختفى الظلم من وجه البسيطة ".

وطبقا لهذا الرأي، وضع كونفوشيوس مجموعة من القواعد يعود الناس أنفسهم بها على حب النظام والطاعة. فأخضع كل عمل في الحياة للرعاية الشديدة لقانون آداب السلوك ذي التفاصيل الدقيقة، وقد فضل كونفوشيوس أن يطلق عليه اسم قانون الأخلاق. وكان هذا القانون غريبًا معقدًا، كما كان يبدو للعقل الغربي مجموعة مسلية إلى حد ما من الشعائر اليومية. وقد أشار على سبيل المثال بأنواع مختلفة من الطعام ينبغي أن يتناولها الناس في المناسبات المختلفة والمراحل المتباينة من الحياة، كما أشار بأنواع الملابس التي ينبغي أن يرتدوها في الأيام المقدسة

والأيام الحولية، وكذا عدد الانحناءات التي ينبغي أن يؤدوها عندما يحيون بعضهم

بعضًا، والطريقة التي يجب أن يسيروا بها في الشوارع - " فالرجال على الجانب الأيمن والنساء على الجانب

الأيسر ". وكان صارما بوجه خاص فيما يتعلق بسلوك الأطفال نحو والديهم، ليس أثناء حياة الوالدين فحسب، وإنما بعد موتهم كذلك. ولم يدفع كونفوشيوس للتمسك بتلك الرسميات إلا باعث وجيه. فإن مراعاة هذه الطقوس كانت تجعل من الفلاح في كوخه شخصية بارزة لها كرامتها لا تقل بأية حال عن شخصية الملك في قصره. وهذا النظام الكنفوشي لآداب السلوك المشار باتباعها جعل من الشعب الصيني واحدًا من أكثر الشعوب المدققة في الرسميات في التاريخ، كما أعطى الشعب أيضًا شعورًا باحترام

الذات، وشعورًا باحترام الآخرين. وقال كونفوشيوس في هذا الصدد: " فلتكن وفيًّا لنفسك ومنصفًا لجارك "، وهذه خلاصة الأخلاقيات التي نادى بها كونفوشيوس. فبدلا من الدعوة إلى طابع هزيل من إنكار الذات كان يغرس في نفوس قومه مثلا أعلى من الأنانية الذكية. وكان كونفوشيوس يرى أنه اعتاد الإنسان أن يمد يد الكرم إلى الآخرين فإنه بذلك يدخر من الكرم رأس مال نفسه، ففي آخر المطاف من عمل مثقال ذرة خيرًا يره.

وكان كونفوشيوس يحاول أن يجعل من قومه شعبًا أرستقراطيا، لا أقلية مغترة من المتعالين المتعصبين، وإنما غالبية مهذبة من الأماجد الكرام. وهو نفسه كان يحرص على معاملة الأمير والفقير على حد سواء بالأدب واللطف، الأمير لجلال المركز الذي يشغله، والفقير للبؤس الذي يعانيه.

أما عن الطقوس التي تمارس بإتقان لتكريم الموتى فقد وضعها كونفوشيوس

عوضا عن رجاء البشر في الخلود - أو بالأحرى صورة حقيقية لهذا الرجاء. وإذا ما سأله أحد التلاميذ عن الموت أجابه قائلا: " إذا كنت لا أستطيع حتى أن أفهم الحياة، فكيف إذن تطلب مني أن أفهم الموت؟ " ولكن بالرغم من ذلك فكان يقول: " إن في استطاعتنا أن نحتف بذكرى الموتى من آبائنا حية وذلك بالاحتفاظ بأماكنهم في المجالس العائلية وضمهم في أحضان اللانهائية التي لا تعرف الموت. وبهذه الطريقة يحدونا الرجاء أننا بدورنا سنحيا في ذاكرة أطفالنا ووجدانهم " أليس هذا هو معنى الخلود بشكل ما؟ ".

وكانت فلسفة كونفوشيوس تستهدف دوام علاقة المحبة بين أفراد أسرة الجنس البشري. وكان مثل والت ويتمان، يحب معاشرة " إخوته الأقل منه توفيقًا " ومشاركتهم في أحمالهم الثقيلة. وحدث مرة أن عنفه أحد تلاميذه بسبب هذه العادة " المتطرفة في الديمقراطية "، فما كان من كونفوشيوس إلا أن أجاب قائلا: " من إذن ينبغي على معاشرتهم، إن لم يكن هؤلاء المعذبون؟ ".

ولم يكن شعور الأخوة نحو الآخرين عند كونفوشيوس إلا طابع الإنسان الأعظم الأسمى. وقد تحدث كونفوشيوس عن الإنسان الأعظم قبل أن يجيء نيتشة بنظرية الإنسان الأعلى بما يقرب من خمسة وعشرين قرنا. ولكن هناك اختلافا بين الاثنين، فإنسان كونفوشيوس المثالي كان يرى أن في استطاعة الآخرين كافة أن يصبحوا نظراءه، أما إنسان نيتشة المثالي فكان يحتقر الآخرين كافة وينظر إليهم من عل، على أنهم مرءوسوه وفي خدمته.

والإنسان الأسمى طبقا لكونفوشيوس يرعى أربعة مبادىء: العلم الغزير والسلوك الحسن والطبيعة السمحة والعزيمة القوية، وهذه المبادىء الأربعة يمكن تلخيصها في كلمة واحدة - هي العدالة. وقد قال كونفوشيوس: " أحبوا أصدقاءكم

ولكن أدبوا أعداءكم. ولا تكرهوا أولئك الأعداء، فالكراهية لا تولد إلا كراهية. ومن الناحية الأخرى لا تردوا الكراهية بالمحبة لأن محبتكم هذه سوف تفسر خطأ وتعتبر ضعفًا من جانبكم بل وتشجع أعداءكم على زيادة درجة كراهيتكم لكم. وإنه لمن الوحشية أن تثأروا إذا ما أصابكم أذى ولكنه من الحماقة أيضًا أن تغفلوا الأذى وتصفحوا. فلتقدروا المسألة تقديرًا عادلا ثم لا يكون سلوككم طبقًا لهذا التقدير على أن ترعوا كرامتكم الشخصية وحقوق أعدائكم ".

ولم يكن كونفوشيوس يؤمن بسياسة تحويل الخد الآخر، فقد كان واقعيًّا إلى درجة لا تتفق وهذا النوع من المحبة السامية. " ومن المسلم به أن المحبة يمكن أن تتغلب على الكراهية كما يمكن أن تتغلب المياة على النار. ولكن يجب ألا يفوتنا أن النار القوية المتأججة يمكن أن تجفف بركة من

الماء ". وأن مخزون المحية المتناهي في الصغر والذي يحتل مكانه داخل القلب البشري، ليس من القوة بالدرجة التي تمكنه من أن يفيض على القوة المعتدية ويطفىء لهيب كراهيتها. ولذا ينصحنا كونفوشيوس بأن نلم بهذه الحقيقة وننظر إلى الآخرين، ليس كما نريدهم نحن أن يكونوا، وإنما كما هم كائنون فعلا " وهذا هو المعنى الحقيقي للعدالة ".

ولما طلب منه بإلحاح أن يذكر للعدالة تعريفًا أكثر تحديدا، أجاب كونفوشيوس قائلا: " أليست العدالة وتبادل المثل بالمثل شيئًا واحدًا؟ ".

ثم عرف بعدئذ تبادل العدالة بالقاعدة الذهبية التي نادى بها الفلاسفة الشرقيون الأوائل: " لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعل الآخرون بك ". وما هذه إلا صيغة النفي للقاعدة الذهبية في الديانة المسيحية، بالرغم من أنها

أكثر تمشيا مع فلسفة كونفوشيوس الواقعية. " لا تفسد الآخرين بفرط حبك ولا تقض عليهم بفرط كراهيتك، وخير الأمور هو الوسط بين الطرفين ".

والحكمة في هذا، كما أوضح كونفوشيوس، أننا لا نتعامل مع ملائكة، وإنما مع بشر: نصفهم خير، ونصفهم الآخر شرير. فلنشجع الخير ونقاوم الشر بتطبيق مبدأ العدالة المتبادلة. وقد قال في ذلك كونفوشيوس: " في الوقت الذي يتقرر فيه هذا المبدأ، فإن العالم كله يصير

جمهورية ... فيها يخاطب الناس بعضهم بعضًا بإخلاص، ويظلهم السلام الشامل ... وتكبت مكائد الأنانية أما اللصوص والنهابون والخونة فسوف لا تبتلى بهم الأرض بعد ذلك، وما الهدف من تعاليمي إلا رؤية ما أسميه التآلف العظيم بين الجنس البشري ".

٥

وكان منظر كونفوشيوس وهو يبشر بهذه الفلسفة على قارعة الطريق منظرًا غريبًا. رجل دولة من غير دولة، طويل القامة، نحيف البدن، أصلع الرأس تقريبًا، شوه الحرمان جسمه، وبرزت عظامه كالعقد، وحدث مرة أن ضل الطريق إلى اجتماع له مع تلاميذه فكان أن تمكنوا من العثور عليه بمعونة مسافر قال إنه قد رأى: " رجلا فارعا شاذ الخلقة مظهره كالكلب الضال ". فلما وصل هذا الوصف إلى سمع كونفوشيوس، صاح قائلا: " عظيم. لم يكن في استطاعة أي مصور أن يرسم صورة أدق وأفضل من هذا الوصف ".

وعاش كونفوشيوس حتى سن الثانية والسبعين. ولما اقتربت نهايته أخذ يحدث تسي كونج تلميذه المفضل قائلا: " لن يظهر حاكم ذكي، فليس هناك فرد واحد يحب الحكمة كما يحب الشهوة والجشع، والآن لقد أزفت ساعتي لأنطلق ".

ومات كونفوشيوس وهو مغمور، ولم يبدأ الاعتراف بحكمته إلا بعد مضي قرون على موته. وبعد ذلك سلم قومه بعظمته وبالغوا فيها، وفي النهاية قدسوها. وما قصة كونفوشيوس إلا واحدة من قصص التاريخ المليئة بالسخرية، فهذا الرجل الذي كان لا أدريا طوال حياته (إذ كان يؤمن بعدم كفاية العقل لإدراك كنه الحياة، وبأننا لا ندري ما وراء الظواهر المادية)، ارتفع بعد موته إلى مصاف الآلهة.

بياض بالأصل

الجزء الثاني

الفلسفة اليونانية والرومانية

بياض بالأصل

٤ الجزء الثاني: الفلسفة اليونانية والرومانية

٤٠١ الفصل الخامس: الفلاسفة اليونان قبل سقراط

الفصل الخامس

الفلاسفة اليونان قبل سقراط

١

ينسب كثير من المهتمين بدراسة الفلسفة إلى اليونان فضل السبق في عالم الحكمة، وليس هذا، كما رأينا من قبل، إلا وقوعا في خطأ فاحش، فحب الحكمة، كالشمس تمامًا، بزغ نوره في

الشرق، ثم ما لبث أن انتشر تجاه الغرب. وليس في وسعنا أن نفهم فلسفة اليونان فهمًا تامًّا إلا إذا عرفنا أنها مدينة للفلسفة - أو على الأقل - على صلة بالفلسفة في مصر وفارس والهند والصين وفي العهد القديم. وقد نادى بتاح - حتب بفكرة الإله الذي يهدي الناس على الأرض. ثم ارتقى اخناتون من هذه الفكرة إلى نظرية إله واحد وعالم واحد. أما زرداشت فقد حاول أن يفسر مشكلة الخير والشر باستخدام النظرية التي تقول إننا نعمل سويا مع الله على بناء عالم أفضل. وتصور بوذا رؤية أخوة ديمقراطية ترفرف على الجنس البشري. أما لاو - تسي فقد أثبت حكمة الاتزان، ورباطة الجأش، وتقبل ما هو مقدر لنا في هدوء، من غير غضب أو تبرم، كما قد نادى كونفوشيوس بالقاعدة الذهبية للعدل المتبادل. ثم أخذ أنبياء العهد القديم فكرة العدل الفردي هذه، ووسعوا رقعتها حتى شملتع العدل الاجتماعي، الذي تطور بعد تصفيته إلى رأفة ومحبة.

وهذه الخيوط والآراء الفلسفية وغيرها كثير، انتقلت من الشرق إلى بلاد اليونان، وكان من عبقرية اليونان أن نسجوا من هذه الخيوط ديباجة للحكمة مقبولة عند العقل. وفي بعض الأحيان كانوا يعبرون عن الآراء الشرقية بألفاظ

مختلفة. وهكذا عبروا عن العدل بالتناغم، وعن تبادل المعاملة بالمجاملة، وعن الاتزان بضبط

النفس، وعن الدعة بالتواضع، " إن أسمى أنواع المعرفة هو أن نعرف أننا لا نعرف إلا القليل ".

وأهم من ذلك أن الفلاسفة اليونان كانوا ينظرون إلى الحياة من زاوية فريدة إلى حد ما. فلما كانوا يعيشون في شبه جزيرة بدت كأنها جوهرة قد انبثقت من بحر أزرق تحت سماء زرقاء، فقد أبرزوا مظاهر الحياة البهية بدبلا من المظاهر المعتمة. وكانوا شعراء أكثر منهم أنبياء. ولذلك نقحوا النظرة الشرقية إلى الفلسفة من غير أن يغيروا في معناها. وإذ كان الحكماء الشرقيون قد لقنوا جمال القداسة فإن الفلاسفة اليونان أكدوا قداسة الجمال.

٢

وعلى أية حال فإن الاهتمام بالجمال كان مرحلة متأخرة في الحياة اليونانية؛ إذ أن فلاسفة اليونان الأوائل، الذين عاش العديدون منهم في المستعمرات اليونانية عبر البحار أكثر مما عاوشا في بلاد اليونان نفسها، لم يهتموا بطبيعة الله بالقدر الذي اهتموا به بتركيب الكون. كما أن سعيهم وراء الحقيقة قادهم إلى اتجاه يختلف عن الاتجاه الذي أخذه الفلاسفة الشرقيون. فانتقلوا من التأمل إلى البحث العلمي. وأخذوا يبحثون عن وحدة التركيب في عالم الجمال الخالد.

٣ - طاليس (حوالي ٦٠٠ ق. م)

ولد طاليس أول الفلاسفة اليونان في ملطية، وكانت مستعمرة يونانية في آسيا الصغرى. وقد رحل إلى بلاد كثيرة، وتأثر ببضعة فلاسفة شرقيين، ولكنه بدلا من أن يبحث عن الله ازداد رغبة في تقصي المادة التي يتكون منها عالم الله.

ولكي نكون أكثر دقة نقول: إن طاليس كان يؤمن بالآلهة لا بالله، فقد تقبل من غير مناقشة مذهب تعدد الآلهة الذي كان يدين به اليونان. وكان ينظر إلى الآلهة عندهم على أنهم جنس رفيع المنزلة من البشر غير مخلد. ولكنه، تشبها بالفلاسفة الشرقيين، حاول أن يكشف عن الجوهر الأوحد الذي خلقت منه السماء والأرض.

وفي النهاية استنتج أن هذا الجوهر هو الماء. فقال: إن الرطوبة هي الحياة، وعدم وجودها هو الموت. وكل الأشياء الحية تخرج من البذرة الرطبة، أما الأشياء الميتة فتتعفن وتتحول إلى تراب جاف. وعندما يتبخر الماء فإنه يصبح هواء ونارًا، وإذا ما تجمد أصبح ثلجا وصخرا. ومن هنا صرح طاليس بأن الماء هو الجوهر الأساسي المركزي الذي منه تتكون كل الأشياء - من الأثير الرقيق في السماء إلى الجبال الصلدة على الأرض.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان طاليس من القائلين بالمادة الحية " هايلوزويست " - وهي كلمة يونانية معناها الشخص الذي يعتقد أن كل الأشياء حية. ومن المحتمل إلى حد كبير أنه قد أخذ فكرة وجود الحياة في كل شيء عن الفلاسفة المصريين.

وكان طاليس شخصية عالمية في الفلسفة والحكمة على السواء. وبالرغم من أنه يعتبر أحد حكماء اليونان السبعة، إلا أنه كان يتميز بعقلية عملية، بالإضافة إلى عقليته النظرية. وحدث ذات يوم كما يحدثنا أرسطو: " أن وجه إليه اللوم لفقره، ذلك الفقر الذي كان من المفروض أن يثبت أن لا نقع وراء الفلسفة ". ويضيف أرسطو طبقًا لهذه القصة " أن طاليس كان يعرف بمهارته وخبرته بالنجوم أن محصول الزيتون في العام المقبل سيكون محصولا وفيرا، بينما كان الوقت لا يزال شتاء، وترتب على ذلك أن اقتصد قليلا من المال، دفعه تأمينا

لاستغلال جميع معاصر الزيت في خيوس وملطية لحسابه، وقد تمكن من الحصول على العطاء بسعر منخفض؛ إذ لم يكن هناك من له بعد النظر ما يمكنه من أن يعرض سعرا أعلى. وما إن حل وقت الحصاد واشتدت الحاجة إلى معاصر كثيرة دفعة واحدة حتى أجرهم بالسعر الذي ارتضاه. ولم يفعل هذا لأنه كان يحب المال، وإنما لأنه أراد أن يثبت أن الفلاسفة في وسعهم أن يكونوا أغنياء إن هم رغبوا في ذلك. أما هدفهم فهو جمع الحكمة لا الثروة ".

٤ - أناكسيماندر (حوالي ٥٧٥ ق. م)

كان معظم الفلاسفة الأولين الذي جاءوا بعد طاليس لا يزالون يهتمون المبدأ العلمي

للوحدة، فيبحثون عن مادة بسيطة أو قاعدة تفسر الوجود كله. وهكذا رأى

أناكسيماندر، تلميذ طاليس، أن المادة التي خلقت منها كل الأشياء ليست هي الماء، وإنما مادة دقيقة أطلق عليها اسم " اللامتناهي ". ومن هذا اللامتناهي دائم الحياة ودائم الحركة، خرجت السموات إلى أعلى، والمحيطات إلى أسفل. ومن المحيطات، إذ تبخرت تحت

الشمس، خرج أول المخلوقات المائية الحية. ومنه تطور النسل إلى الطيور والحيوانات، حتى بلغ آخر خليفة أرضية، ألا وهي الإنسان.

وهنا نجد أول إشارة أوروبية إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء. ولكننا سبق أن لاحظنا إشارة مبكرة إلى هذه النظرية بين ما ردده الفلاسفة الصينيون، ومرة أخرى نرى أن نسبة كبيرة مما نسميه آراء حديثة، إن هي إلا مجرد إحياء لحكمة الشرق القديمة.

٥ - أناكسيمانز (حوالي ٤٧٥ ق. م)

وواصل الفلاسفة اليونان الأقدمون الآخرون البحث عن جوهر الكون الأولي. وفي رأي أناكسيمانز، الذي ظهر بعد أناكسيماندر بحوالي قرن من الزمان، أن هذا الجوهر الأولي ليس إلا الهواء. فالهواء - كما رآه - حي، لا محدود، لا موقوت. وقال فيه أيضًا إنه خلال حركته اللانهائية يتكاثف فتتكون منه أشياء مادية، كالنار، والريح والسحاب والماء والتراب والمعدن والصخر. وكل هذه الصور الصلبة لتكاثف الهواء تكون مادة العالم. أما مظهر الهواء الأكثر رقة فهو نفس العالم. وكان أناكسيمانز، شأنه في ذلك شأن الفلاسفة الشرقيين، يؤمن بأن العالم يتكون من مادة وروح. " وأن روح العالم حية إلى الأبد ".

٦ - هرقليطس (حوالي ٤٧٥ ق. م)

اعتقد هرقليطس، وهو معاصر لأناكسيمانز، أن جوهر الكون الأصلي ليس هو الماء، أو اللامتناهي، أو الهواء، وإنما هو النار. " فالعالم كان أبدا وهو الآن، وسيكون نارا حية أبدية ". وهذه النار الأزلية تستمر في تغير متصل إلى كل أنواع المخلوقات والأشياء. " فالنار هي المبدأ الأساسي، والتغير هو القانون الأبدي ".

وقد أعلن هرقليطس أننا لا نرى إلا تغيرا لانهائيا - انقساما مستمرًّا في البخار المتصاعد من النار المستمرة. فهذا اللهب الأبدي هو البذرة التي تخرج منها كل الأشياء، وإليها تعود كل الأشياء أيضًا، " فليس لشيء ما صفة الثبات على حال ". وحتى أكثر الأشياء صلابة نجدها زائلة، شأنها شأن صور في سحب البخار تدفعها الرياح.

وما الذي يسبب كل هذه الصور الزائلة؟ إنه الصراع - شقاق الأضداد لكي تتحد من جديد في صور متشابهة. وفي عبارة أخرى إن الحياة انسجام فريد، تكونه نغمات متضاربة، إذ أن الانسجام - أي إدماج النغمات المتنافرة في نغمة متآلفة واحدة - إن هو إلا هدف الطبيعة الأخير. وقد قال هرقليطس: " إذا ما استمعتم إلى صوت الحق لا إليّ، فإنه من الحكمة أن تعترفوا بوحدة الوجود ".

وهنا نجد نفس البحث وراء الوحدة وهو الذي كان يسيطر على تفكير الفلاسفة الأولين، اليونان، والشرقيين. كما نرى هنا أيضًا كيف عبر اليونان لأول مرة عن العدل، أو التكيف، بكلمة " التناغم " - وهي فكرة سنجدها سائدة في فلسفة أفلاطون.

فالوحدة والعدل والتناغم - وهي قانون واحد يتحكم في نظام العالم الذي نعيش فيه - لم تكن إلا هدف كل الأفكار الفلسفية والعلمية الممتازة التي ظهرت في القرون الأولى. ولا يزال هذا الهدف قائمًا من غير أن تمسه يد التغيير في عالم القرن العشرين، عالم ألبرت أينشتين وبرتراند رسل. وقد كرس أينشتين حياته، شأنه في ذلك شأن أوائل الفلاسفة، للبحث عن معادلة واحدة ثابتة تفسر الوجود كله. كما لاحظ رسل أن " البحث عن شيء ثابت دائم ما هو إلا غريزة من أعمق الغرائز التي تقود الناس إلى طريق الفلسفة ".

٧ - أمباذوقليس (حوالي ٤٤٥ ق. م)

اتفق أمباذوقليس مع من سبقه من الفلاسفة على وحدة الوجود، فالصراع يشتت الأشياء إلى أضداد، ثم لا تلبث المحبة أن تجمع بينها ثانية في وحدة. فالمحبة إن هي إلا " ملاط التناغم " الذي يربط أوصال العالم بعضها ببعض. وفي هذا " الترابط المتناغم " ليس هناك خلقٌ من عدم أو فناء نهائي، إذ أنه لا يمكن أن يخلق من لاشيء، كما لا يمكن أن يتحلل شيء إلى لاشيء. فما نسميه خلقًا أو فناء، حياة أو موتا، إن هو إلا مجرد إعادة تنظيم المادة الدائمة الحياة في شكل جديد.

وقد ذكر أمباذوقليس أن هذه الميادة الحية تتكون من أربعة عناصر هي: النار، والهواء، والماء، والتراب. وما هذه العناصر إلا " أصول

" الأشياء، ومن اتحادها في صور مختلفة تنشأ جميع الأشياء في العالم.
وإنما تنشأ هذه الأشياء بوساطة الانتخاب، وهنا نتقدم خطوة أخرى نحو نظرية داروين. فالطبيعة تجرب عند تطويرها جميع المخلوقات الحية، حتى إن بعض المخلوقات في أثناء هذه العملية التجريبية " ظهرت برءوس من غير رقاب، كما ظهر بعض المخلوقات بوجوه مزدوجة وصدور مزدوجة، وأجسام ثيران، ووجوه آدميين، أو العكس، أي آدميين لهم رءوس ثيران ".
وقد استطاعت تلك الكائنات الحية التي كيفت أنفسها للبيئة أن تعيش، بينما انقرضت من الوجود تلك التي فشلت في تكييف أنفسها، لأنه لا خير فيها. وهكذا أصبحت قاعدة البقاء للأصلح هي العاملة الحاسم في تنازع البقاء، حتى
جَبلَت الطبيعة في النهاية من الحيوانات ومن الآدميين ما هو أكثر ما يكون تآلفًا مع العالم الذي يعيش فيه.
وبالرغم من ذلك فإن كل هذا الانتخاب الطبيعي لا يتم حيثما اتفق. بل على النقيض من
ذلك، فإنه يتم بشكل معين طبقًا لمبدأ التوحيد في التكيف، أو العدل، أو الحب، " وهو جامع الأشتات بعد تفرق ".

٨ - ديمقريطس (حوالي ٤٣٠ ق. م)

واصل ديمقريطس البحث عن الوحدة، وكان تلميذًا لعالم اسمه لوقيبوس هو الذي وضع أساس النظرية الذرية. وقامت هذه النظرية على أساس فكرة " المادة الأصلية " التي نادى بها الفلاسفة اليونان السابقون. إذ أنه في تلك الفترة كان الفلاسفة والعلماء يعملون جنبًا إلى جنب في
تعاون، وبينما كان العلماء يهتمون إلى حد بعيد بطريقة التحليل، أي تفكيك الأشياء
وحلها، نجد أن الفلاسفة كانوا يحصرون اهتمامهم الأكبر في عملية التركيب أي جمع الأشياء وضمها معا.
وهذا هو الذي دعا لوقيبوس أن يصرح بأن المادة التي تدخل في بناء العالم لا تتكون من جوهر واحد، أو حتى من أربعة جواهر. وإنما تتكون من عدد لانهائي من " الذرات "، وهذه الكلمة مأخوذة من اليونانية ﷺtoms ومعناها " ما لا يمكن شطره ". والذرة طبقًا للوقيبوس، إن هي إلا جزيء من المادة يتناهى في الصغر، لدرجة أنه لا يمكن أن يشطر أو ينقسم إلى جزيئات أصغر.
وقد طور ديمقريطس لوقيبوس عن الذرة حتى أصبحت شيئا أشبه ما يكون بفكرتنا الحديثة عن عالم الذرة المادي. ويمكن أن نصف هذين
المفكرين اليونانيين، لوقيبوس العالم الطبيعي وديقمريطس بأنهما الجدان اللذان يرجع إليهما عصرنا الذري.
وعلى الرغم من ذلك فإن العالم الذري، كما رآه ديمقريطس، لم يكن عالما ماديًّا بأكمله. فمع أن هذا الفيلسوف تمسك بالرأي القائل إن الذرات لا يمكن تنقسم، إلا أنه أصر على أن كل ذرة منها فيها حياة - إي إن " لها روحا تهيمن على حركتها ". وبعبارة أخرى فلم يكن ديمقريطس بعيدًا عن الكشف الذي أثبت أن النواة الثابتة في الذرة طاقة وليست مادة.
وقد كانت هذه الفكرة متضمنة في مادية الفلاسفة العلميين جميعًا، وهي المادية التي ناقشناها في هذا الفصل، ولم يكن اعتقادهم بأن " روحًا حيَّة " تخلل المادة إلا فاتحة نظريات الفلاسفة اليونان، الذين جاءوا بعد ذلك، وهكذا نجد أن مادة ديمقريطس لا تبتعد كثيرً عن مادية أفلاطون.
وجنبا إلى جنب مع الماديين ابتداء من طاليس حتى ديمقريطس ظهر فريق من الفلاسفة اليونان كانوا أقرب ما يكونون في تفكيرهم إلى حكماء الشرق فهؤلاء أيضا ساهموا مساهمة ممتازة في فلسفة أفلاطون. ولندرس بإيجاز اثنين منهم - هما: أكسانوفان، وفيثاغورس.

٩ - أكسانوفان (حوالي ٥٠٠ ق. م)

كان الفلاسفة الماديون في اليونان القديمة يعتقدون أن المادة كلها حية. وبالرغم من هذا فقد كانوا يتحدثون عن خليقة حية بدون خالق حيّ. فحاول أكسانوفان أن يسد هذا النقص. والتقط الخيط من الفلاسفة الشرقيين ثم رجع إلى فكرة العالم الواحد في رعاية الإله الواحد، وقد قال في
ذلك: " إن مصدر
الكون الأصلي هو الله " وهنا نجد كيف بدأ اليونان يسلمون بالفكرة الشرقية عن

التوحيد. " الله واحد، لا بداية ولا نهاية له ". فهو العقل الذي يهيمن على العالم، والجسم الذي يكون العالم.
وتقوم فكرة التوحيد على مذهب وحدة الوجود، التي نادى بها الفلاسفة الشرقيون، وقد أصبحت بدورها أيضًا أساسًا لمذهب وحدة الوجود (المذهب الحلولي) التي نادى بها سبينوزا. فالله موجود في كل شيء، لأنه هو كل شيء. وقد كان أكسانوفان يسخر من تمثيل الله في صورة مكبرة معظمة للإنسان، كما كان شائعًا بين الناس. " فلو أن للماشية أو الخيل أو الأسود
أيديا، ولو أن في وسعها أن ترسم بأيديها، لرسمت الخيولُ صور للآلهة على هيئتها، ورسمت الماشية آلهة على هيئتها، وكل منها يصور جسم الإله على شاكلة جسمه ". وبعد ستة عشر قرنًا فسر سبينوزا هذه الفكرة الخاطئة التي تصور الإله في شكل آدمي فقال: " أعتقد أن المثلث لو أمكنه التعبير عن نفسه لصرح بأن الله مثلث الشكل عظيم القدر، ولصرحت الدائرة بأن الطبيعة الإلهية دائرية الشكل عظيمة القدر، وهكذا كان كل واحد يصف الله بصفاته ".
وإن هذا الذي نطق به أكسانوفان ورددد سبينوزا من بعده، هو الذي أوحى إلى فولتير بإحدى ملحه الشهيرة التي قال فيها: " خلق الله الإنسان على صورته، فما كان من الإنسان إلا أن أجاب برد الجميل ".
كلا، فإله أكسانوفان - مبدأ الخليقة الأول - لا يشبه البشر " في الشكل أو الملبس أو الصوت أو العقل ". بل الأمر على نقيض ذلك، فهو الأشكال جميعها، والأردية جميعها، والأصوات جميعها، والعقول جميعها. وليس البشر أقرب من الحيوانات إلى صورة الله الحقة. فهو الكل في الكل، والكل في واحد.
وفكره يضم جميع أفكار المخلوقات كلها في جميع العصور. وما الكون إلا صورة محسوسة
لفكره، كنبت في مقاطع من حيوانات متطلعة، ونجوم وهاجة، حتى يتمكن كل ذي عينين أن
يرى.

١٠ - فيثاغورس (حوالي ٥٠٠ ق. م)

كان فيثاغورس، شأنه في ذلك شأن أكسانوفان، مؤمنًا " بالوحدة غير المرئية " لله. أما العالم المرئي فقد قال عنه إنه صورة مشوهة لنور الله، كما نراها خلال سدم حواسنا المعتمة.
وقد كان فيثاغورس أيضًا، من أتباع العقيدة الهندية التي تؤمن بتناسخ الأرواح. ومن تصريحاته أن الروح خالدة تنتقل من مخلوق إلى آخر، ومن حياة إلى حياة، في رحلتها العلوية إلى
الله. " فكل المخلوقات الحية تمت لنا بصلة القرابة، وينبغي أن تعامل على أنها لحمنا ودمنا ". ويحكى أن فيثاغورس، مثله في ذلك مقل القديس فرانسيس، كان يعظ الحيوانات كما كان يعظ
البشر، سواء بسواء.
وتقوم فلسفة فيثاغورس على الديانة الروحية السرية والرياضيات، ولقد أطلق عليه برتراند رسل تلميذه في الرياضيات، إن لم يكن تلميذه في الروحانيات أيضًا، أنه مزيج من " ماري بيكر إدي " و" ألبرت أينشتاين ". ولكنني أعتقد أننا نكون أكثر دقة لو أطلقنا عليه أنه مزيج من بوذا وبرتراند رسل. ومع ذلك فقد كان فيثاغورس يميل إلى العلم أكثر من بوذا، ويميل إلى الدين أكثر من رسل. فالعالم، كما أدركه، إن هو إلا نظام مبهم من الأعداد أو الأنغام، أو قل هو وحدة من الأجسام السماوية تتحرك سويًّا بنظام إيقاعي، وتحدث ألغامًا
(هي موسيى الأجسام الكروية) في أثناء حركتها هذه.
أما فلسفة الرياضيات - فلسفة العلاقات المتبادلة بين الأرقام جميعها - فقد كانت، عند
فيثاغورس، الإجابة عن النظام للكون وجماله.
والنظام والجمال معناها توافق الكون. وطبقا لفيثاغورس فإن مبادىء الرياضيات هي مبادىء الموسيقى. ولنستمع إليه يقول: إن علاقة الأعداد المتناسقة هي عين علاقة الأنغام المتناسقة
حقًّا: " إن الرياضيات هي أعلى مراتب الفلسفة، كما أن الفلسفة هي أعلى مراتب الموسيقى " وذلك لأن هذه المواد الثلاث معا تهدف

إلى فهم أفضل لعالم كامل النظام تام التناسب.
وفي محاولته للوصول إلى فهم أفضل، والمعاونة في بناء عالم يقوم على أساس من الفلسفة والرياضيات والموسيقى، أنشأ فيثاغورس فرقة الأصدقاء الحق وكانت الفرقة مفتوحة للرجال والنساء على السواء، وكان كل ما يملكون مشاركا بين الجميع؛ إذ أن فيثاغورس كان يعتبر الملكية الخاصة أس كل شقاء. كما حاول أعضاء الفرقة أن يعيشوا باعتدال وشجاعة وإخلاص وطاعة وإيمان. وكانوا يعتبرون هذه الفضائل معبرًا يوصلهم من مرحلة التجسد السفي إلى مرحلة التجسد العليا في رحلة الروح من حياة إلى حياة، ومن " حب بعضنا بعضا " إلى " التشبه بالله ".
وكان فيثاغورس يرى أن جميع الأعمال الصالحة تمزج وتوفق في معادلة من الأرقام المتناسبة ونظام من الأنغام المتناسقة. " وهذا المزج المتوافق المتناسق لكل النشاط البشري ما هو إلا أعلى مراتب الخير ".
وما كان فيثاغورس إلا أعظم الفلاسفة اليونان قبل سقراط وأفلاطون. ولم يكن ما تركه من أثر عميق مقصورًا على هذين المفكرين اليونانيين، وإنما تعداهما إلى عدة فلاسفة دينيين ممن ظهروا بعد ذلك، أمثال القديس
أوغطسين وديكارت وسبينوزا وكانت وإمرسن ووليام جيمس. وكما لاحظنا من قبل فإن برتراند راسل، الرياضي المتشكك، قد اعترف بفضل فيثاغورس الرياضي الورع عليه.
وإن هذا الوصف المقتضب لبعض حكماء اليونان الأولين ليعيننا حتما على فهم تيار الفلسفة الذي بدأ في الشرق باللاهوت أو تأملات في البحث عن الله، ثم انتقل إلى أوروبا حيث أضيف إليه ما أسهم به العلم أو البحث في الطبيعة. ولسوف ترى كذلك مساهمة أخرى أضيفت إلى تيار الحكمة الآخذ في الاتساع، وهي دور " علم النفس "، أي دراسة النفس البشرية.

٤٠٢ الفصل السادس: سقراط

الفصل السادس
سقراط
(٤٦٩ - ٣٩٩ ق. م)
١
أنزل سقراط الفلسفة من السماء إلى الأرض. فقال: " إن جل اهتمامي ليس بأسرار الله، وإنما بعقل الإنسان " وكان كلما حادث أحدًا سأله: " (To (Ti ما هذا؟ ماذا تعني تماما بما تقول؟ حدد عباراتك، فإنك تتحدث بغير حساب عن موضوعات كالعدالة والشرف والحق والشجاعة والخير والوطنية والصداقة والمحبة. فما الذي يدور بخلدك عندما تلفظ هذه الكلمات؟ أفصح عن
نفسك، ولكي تفعل ذلك، حاول أن تعرف نفسك ".
وقد أطلق على نفسه اسم الذبابة اللاذعة في صورة بشرية، إذ كان يحفز الناس على التفكير
حفزًا، فأحبه الشباب، لأنه كان يحبّهم، بينما كرهه الشيوخ، لأنه كان يحرجهم، ويجلب سخطهم عليه. فهؤلاء قوم قد جمدت أفكارهم، ولم يعودوا يحتملون ما يؤرق جبونهم.
وبالرغم من ذلك، فلم يكن في وسع أحد أن يبعد عن مخيلته هذه الشخصية، أبهى وأجد شخصية بالتصوير في تاريخ أثينا. فكان نصفه مخلوقًا غريب الهيئة، ونصفه الآخر قديسًا. وإذا نظرت إليه من قمة رأسه الأصلع حتى أخمص قدميه الحافيتين بدا وكأنه تمثال مقرفص من البرونز. وكانت عباءته غاية في البساطة، أما لحيته فكانت شعثاء، في حين بدا أنفه البصلي على أهبة
الاستعداد دائمًا للتدخل في شؤون الآخرين، أما عيناه الثاقبتان فكانت تشع منهما نظرة
رحيمة، وكانت شفتاه الغليظتان تفتران عن ابتسامة ساخرة، وإن كانت ودية في نفس الوقت.
وهاتان الشفتان البليغتان كانتا في شغل دائم، تجادلان الناس وتقضان مضاجعهم وتظهران جهلهم على الملأ. وكان هو أيضًا مستعدًّا أن يعترف بجهله. فبالرغم من ذيوع شهرته " كأحكم رجل في أثينا " إلا أنه كان يصرح أن ما يسمونها حكمة سقراط كانت تنحصر في

هذا الشعار
فحسب: " إني أعرف أني لا أعرف شيئًا ".
وكانت قوة احتماله الجسيمة، مساوية لقوة عارضته وشدة مراسه العقلي. فبينما كان يخدم في الجيش وهو شاب صغير، كان يمشي فوق الثلج والجليد، حافي القدمين، في الوقت الذي كان يتذمر فيه الجنود الآخرون ويرتجفون، وهم ينتعلون أحذية مبطنة بصوف الغنم. ولم يكن من سقراط إلا أن يعنفهم على شكواهم، ثم يستمر في سيره وهو يغني.
وكان رفاقه يعجبون من قوته ويهيمون به لرقته. فقد كان متأهبًا دائمًا لخدمتهم إذا سقطوا صرعى المرض، وتضميد جراحهم، بل وإنقاذ حيواتهم ولو كان ذلك على حساب حياته.
وحتى في شبابه كانت تحوطه هالة من الغرابة والشذوذ، فكان يقص على أصدقائه أنه كثيرًا ما يسمع صوتًا من السماء - كما كان يدَّعي الأنبياء العبريون من قبل - وإن هذا الصوت كان يوحي إليه بما ينبغي أن يفعل، أو بالأحرى ينهاه عما ينبغي ألا يفعل. وكانت تنتابه حينا بعد حين نوبات غيبوبة
فقيف في بعض لأحيان على عدة ساعات متسغرقًا في أفكاره. وقد وصف أفلاطون في " محاوراته " أحدى هذه النوبات فقال:
" في صباح أحد الأيام بينما كان في خدمة الجيش شغلت باله مشكلة لم يجد لها حلا، ولكنه لم يستسلم لهذا الفشل، بل أخذ يقدح زناد فكره منذ بزوغ الفجر حتى وقت الظهيرة، حيث بقي واقفًا وهو مستغرق في التفكير. وعند الظهيرة اتجهت الأنظار إليه، وسرت الإشاعة بين الحشد الذي تملكته الدهشة، أن سقراط قد بقي مستغرقًا في التفكير في شيء ما، منذ بزغ نور الصباح. وفي النهاية ما إن حل المساء، وتناول الجنود وجبة العشاء، حتى أخرج بعضهم فراشهم يدفعهم حب الاستطلاع، وناموا في الهواء الطلق، يبغون مراقبته والتأكد من إمكانه قضاء الليل بطوله واقفًا. وبالفعل بقي على قدميه هناك حتى الصباح التالي؛ إذ ما إن ظهر النور مرة ثانية حتى رفع يديه إلى الشمس مبتهلا، ثم سار في طريقه ".
٢
كانت الأفكار التي تشغل باله معظم الوقت تنحصر في موضوعين هما: الإنسان والدولة. فمن هو الإنسان الأكمل؟ وما الدولة المثلى؟ وقد كرس حياته كلها لدراسة وبحث هاتين المسألتين. ولفترة وجيزة اشتغل سقراط بالسياسة، ولكنه اكتشف أن " الرجل الأمين لا يعمر طويلا في مجال السياسة (الأثينية) ". وقد وجد فيه الأحرار رجلا محافظًا متطرفًا، بينما عرفه المحافظون رجلا حرًّا متطرفًا. ثم أصبح معلمًا للناس. أو بالأحرى مجادلا لهم، يتجول في الشوارع بحثًا عن رجل حكيم واحد.
ولكنه لم يجد أثرًا لمثل ذلك الرجل. فكل أولئك الذين تحدث إليهم لم
يكونوا يعرفون شيئًا، ولكنهم كانوا يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. ومن قوله: " إنني في الصدد بالذات أتفوق عليهم قليلا، لأنني لست أعرف ولا أعتقد أنني أعرف ".
وبالرغم من ذلك فلكي يتم رسالته في حض الناس على معرفة أفضل، جمع حوله حقة رائعة من الشباب المفكر - من متفائلين ومتشائمين ومتشككين وساخرين واشتراكيين وفوضويين وأرستقراطيين وثوار وأحرار، وكانوا يتحاورن في مشاكل الساعة والمشاكل العامة الدائمة كذلك - مثل الأخلاق الشخصية المسؤولية والوطنية. وقد أوضح سقراط أنه لم يكن يهدف إلى إجابة أسئلة، وإنما كان يوجه أسئلة تقوده هو وتلاميذه على السواء إلى تفكير أعمق
وأبعد. " فإنه خلال المعرفة وحدها يمكننا أن نصل إلى فضيلة فردية وعدالة جماعية ".
ولم يكن يتناول أجرًا عن هذه الرسالة التي عين نفسه راعيًا لها. ولكي يعول زوجته وأطفاله اتخذ من نحت التماثيل حرفة، ولو أنه لم يكن مثَّالا نابغًا، كما أنه لم يجد سوى نفر قليل يبتاع إنتاجه. أما حاجته الخاصة فكانت في غاية البساطة، فكان في وسعه أن يعيش على كسرة من الخبز، وقلة من ثمر الزيتون، ورشفة من النبيذ.
وكان يشعر بلذة ومتعة وهو يتناول أقداح الشراب، كما كان في وسعه إذا ما دعي إلى وليمة أن يفوق جميع المدعوين الآخرين في كمية الشراب التي يتناولها، على أن الخمر لم تلعب برأسه أبدا. ويعطينا أفلاطون صورة حية لحفل فلسفي أسكرت الحكمة والخمر كل من فيه

ما عدا
سقراط، وقد استمر الحفل طوال
الليل، فلما كان الفجر وجد جميع المدعويين أنفسهم تحت المائدة فيما عدا سقراط الذي طرح ثوبه على كتفيه وغادر القاعة التي أقيمت بها الوليمة، ثم خرج إلى قاعة الطريق ليعاود حواره اليومي مع تلاميذه.
وفي محاوراته العقلية الصريحة لم يكن يبقي على أحد. هل أنت معلم؟ هل انتصرت على جهلك قبل أن تحمل على جهل تلاميذك؟ هل أنت طبيب؟ هل شفيت نفسك لتثبت أن في وسعك أن تشفي مرضاك؟ هل أنت رجل سياسة؟ هل في استطاعتك أن تضبط مشاعرك وأنت تحاول أن تسيطر على مشاعر الآخرين؟ أجو أن تكونوا أقل كبرياء وأكثر تواضعا. تعلموا أن تعرفوا أنكم لا تعرفون إلا القليل.
وكان لاذع النقد بوجه خاص فيما يتعلق بنظام الديمقراطية الذي يتبعه الأثينيون، وهو انتخاب طغمة باغية على أيدي الغوغاء الجاهلة من أصحاب الأصوات.
ولم تكن نتيجة هذا النقد لصريح العلني لحكومته منه سوى سجنه وإعدامه، إذ اتهمه القادة السياسيون بالعمل على قلب نظام الحكم في الدولة، وإنكار الآلهة. وفي الحقيقة كان هو يحاول إصلاح حال الدولة عن طريق تربية أفضل، ومحو خرافة تعدد الآلهة، وإقامة دعائم دين الإله الواحد.
ومع هذا يجب علينا أن نتفهم من وجهوا إليه الاتهام قبل أن نحكم عليهم. فقد حاول سقراط نفسه أن يجادلهم بالحجة من غير أن يوجه إليه أي لوم غير لائق لحكمهم عليه بالإعدام. وشأنه في ذلك شأن شهيد آخر استشهد بعد انقضاء أربعة قرون، غفر لقضاته لأنهم لم يعرفوا ما كانوا يفعلون. إذ كان
على يقين من أنهم قد مروا بمرحلة من أرهب مراحل التاريخ. هزيمة مريرة بعد حرب دامت سبعة وعشرين ضد إسبرطة، وثورة قام بها حزب الأقلية (وهو ما يطلق عليه اليوم اسم الحزب الفاشي) ثم ثورة مضادة قام بها الحزب الديمقراطي ولم يستتب لها الأمر بعد. وكانت الأعصاب
ثائرة، والمناصب مزعزعة، والحياة نفسها غير مستقرة ولا آمنة. ونظر القضاة إلى سقراط، ذلك الرجل الذي حاول أن يفكر ويحض غيره على التفكير، على أنه خطر يهدد الدولة. بل حبسوا أنه من الكفر الصريح أن يعلن أن أثينا ينبغي أن تحكمها أحكم العقول، لا أصخب الأصوات.
ولذلك لم يفاجأ سقراط عندما خرج يوما إلى الميدان العام فوجد ورقة الاتهام التالي نصها معلقة على حوائط المباني الرئيسية:
" لقد أذنب سقراط بارتكابه جريمة مزدوجة: فهو متهم أولاً بإنكار الآلهة التي تعبدها المدينة وتقدسها، ومتهم ثانيًا بإفساد الشباب. وعقوبة هذه الجريمة هي الإعدام ".
وكان المحركان الأصليان لدعوى الاتهام ضده هما مليتوس، وهو شاعر متعصب، وأنيتوس، وهو زعيم يساسي كان ابنه ممن تأثروا بتعاليم سقراط.
٣
وقد حوكم سقراط أمام محلفين بلغ عددهم خمسمائة من الفلاحين والتجار، تم اختيارهم
بالقرعة. وكان معظم هؤلاء من غير المتعلمين الذين لم يعرفوا عن سقراط إلا أنه مجرد مهرج
هزلي " يعلم الصغار كيف يثبتون أنهم مصيبون حينما
يكونون مخطئين، وأن يضربوا والديهم إذا ما ضربهم هؤلاء ". وقد احتبست أنفاس أولئك المحققين أمام حجج سجينهم الفصيحة.
ومنذ البداية عرف فيلسوفنا أنه مقضي عليه. وبالرغم من ذلك فقد صمم أن يقول كلمته.
وقد وصلتنا كلماته في أثناء المحاكمة، وفي المدة التي قضاها في السجن بين المحاكمة والإعدام، في محاورات أفلاطون الثلاث الخالدة - دفاع سقراط وأقريطون وفيدون. وكان أفلاطون أحد تلاميذه سقراط الصغار الأثرياء. وقد حضر المحاكمة، وبعد مرور بضعة أعوام كتب وصفًا لما حدث. وأسلوب هذه المحاورات هو أسلوب أفلاطون، أما الأفكار فهي أفكار سقراط؛ إذ تتميز بخشونة الرجل من أبناء الشعب حافي القدمين، دون صقل الرجل الأرستقراطي أنيق الملبس. وكان سقراط يختار تشبيهاته واستعاراته مما يجري حوله

في الحياة اليومية، مفضلا الحِرَف الوضيعة على المهن المهذبة، وما تتصف به هذه المحاورات من عدم تكلف وخشونة تجعلها سقراطية أكثر منها أفلاطونية.

ولنعد الآن إلى محاكمة سقراط وإدانته ثم إعدامه، وهي من أنجع وأروع القصص في العالم.

***

خاطب سقراط قضاته قائلا: " إنكم توجهون إليّ تهمة إفساد الشباب لمغنم شخصي. ولكن تعاليمي هذه لم تجلب عليَّ غير الفقر المدقع. إنني أسعى وراء الحق، وأدعو الآخرين لمشاركتي في الجد في هذا المطلب، وذلك إطاعة مني لله. فأنا أطيع الله بوصفي فيلسوفًا، تمامًا كما كنت أطيع قائدي بوصفي جنديا.

" أما عن تهمة إفساد تلاميذي، فردي على ذلك هو أنني بلغت من العمر حدًّ يؤهلني لأن أدرك أنني إذا كنت سببًا في ضرر الآخرين، فلن أصيب بالأذى سوى نفسي. وليس هناك إنسان في كامل قواه العقلية يرغب في أن يجلب الأذى لنفسه. ولذلك فأنا أنكر أنني قد سببت الأذى يوما ما عن قصد لأي فرد في هذا العالم.

وحقيقة الأمر، أيها القضاة، هي أنكم تقفون مني هذا الموقف العدائي لأنني قد كشفت للملأ ادعاءكم المعرفة وادعائي الشخصي كذلك سواء بسواء، كما أنني قد خلعت النقاب عن جهلكم المستور. ولم أفعل ذلك لأحط من قدركم، بل على النقيض لأرفع من هذا القدر. ولأرشدكم إلى حكمة أعظم، ثم القيام بعمل أفضل، نتيجة لحكمتكم السامية.

وقد يسألني بعضكم قائلا: ألست نجلا يا سقراط مما قمت به من أعمال من المحتمل أن تنهي أجلك في غير أوانه؟ وردي على هذا السؤال، هو أنكم مخطئون، فالرجل الذي يجد في نفسه الكفاية للقيام بعمل ما، ينبغي ألا يأخذ في اعتباره مسألة موته أو حياته، وألا ينظر إلا إلى شيء واحد بعد: هل كان مصيبا أو مخطئا. " إنني أخشى العار ولكنني لا أهاب الموت ".

لأن خشية الموت إن هي إلا حكمة كاذبة، لا حكمة حقيقية. ونحن ندعي كذبا إذا قلنا إننا نعرف المجهول، فليس هناك من يعرف حقيقة الموت الذي نرهبه على أنه أعظم الشرور، فقد يكون هو الخير كل الخير.

ولكني أؤكد لكم أنني أعرف - أن عصيان ولي الأمر، سواء كان إلها أم إنسانًا، هو الشر بعينه، ولن أتجنب خيرا يمكن أن يصيبني، ألا وهو الموت. كما لن أرضى عن شر مؤكد ألا وهو العصيان.

أيها الرجال الأثينيون، إنني أبجلكم وأحبكم. ولكنني أطيع الله قبل أن أطيعكم. والله يأمرني أن ألقِن مواطنيَّ الفلسفة، فإذا ما أطلقتم سراحي فإني مواصل إرشاد الناس وطاعة الله. وسأبلغ كل من أقابلهم أنه من العار أن نكدس الثروة بدلا من أن نكتسب الحكمة، لأن هذه هي الإرادة الإلهية التي أوحى بها إلي.

ولكن إذا كنتم تفضلون أن تحكموا بإعدامي بدلا من إطلاق سراحي، فإنكم بذلك تنزلون بأنفسكم، لا بي، ضررا جسيما، إذ أن القتل أكثر شرا من الموت. فرجائي إليكم أن توفروا على أنفسكم مغبة الوقوع في خطيئة إغضاب الله بقتلي. أما وقد بلغت من العمر سبعين عاما، فلم يبق لي في الدنيا على أية حال إلا وقت قصير. وليس من الأهمية بمكان إذا أنا قضيت الآن أم السنة التالية، ولكن للأمر أهميته العظمى إذا ما قر قراركم على إعدامي، أو أمسكتم عن هذا الإعدام.

ولذلك فإني أفوض أمري إليكم وإلى الله. وقبل أن تصدروا قراركم فإني أطالبكم بأن تراجعوا مصالحكم ومصلحتي على السواء ".

وما إن انتهى سقراط من دفاعه حتى اقترع المحلفون، وكانت النتيجة أنه مذنب يستحق الإعدام. وكان القانون يخول المتهم حق اقتراح العقوبة التي يرتضيها بدلا للعقوبة المطلوبة. وكان الأمر بين أيدي المحلفين يقررون أي العقوبتين تنزل بالمذنب: عقوبتهم أم عقوبته المقترحة.

فلما وقف سقراط ليقدم اقتراحه البديل، أبى حتى تلك اللحظة أن ينثني أو يلين، واستأنف كلامه قائلا: " لقد كرست حياتي لخدمتكم. ولما كنت رجلا أمينا إلى درجة لا أصلح معها أن أكون سياسيا، فقد آثرت أن أسلك طريقة خاصة لأعظكم، وأحثكم على الصلاح، فهو خير من الغنى. فماذا أثاب على هذا العمل؟ أيكون ثوابي أقل من أعيش على نفقة

الدولة حتى أعاود سيرتي وأقنعكم بما فيه صالحكم.
إنني أعرف مع ذلك أنكم لن تمنحوني ما أطلب من جزاء، ولذلك أقترح أن أؤدي غرامة مقدارها ثلاثون وزنا من الفضة " ماينا " (وتعادل الآن ١٥٠٠ دولار). وفي الحقيقة لست أدخر شخصيا أي مال، ولكن أفلاطون ومعه ثلاثة من تلاميذي الآخرين عرضوا بسخاء أن يدبروا هذا القدر من المال ".
وكما توقع سقراط، رفضت هذه الكفالة توا. فقد بلغت من التفاهة حدا لا تصلح مع أن تكون بديلا لعقوبة الإعدام. وكانت النتيجة أن صدر الحكم بإعدامه بتناول السم.
فما كان منه إلا أن قال: " إنني أقبل الحكم، فأنا أفضل أن أموت وقد قلت ما يبدو لي أني
أنه حق، على أن أعيش لأقول مضطرا ما ترون أنتم أنه حق. هذا وإن الصوت الإلهي الذي كثيرا ما أسمعه، والذي ينهاني دائما عن الاقتراب من الشر، لم يحذرني من شيء في هذه المحاكمة. فكيف يمكن تفسير هذا الصمت؟ دعوني أوضح لكم. فما هذا الصمت إلا إشارة بأن ما أصابني هو الخير، وأن أولئك الذين يحسبون الموت شرا لفي ضلال مبين.
ذلك أن الموت حالة من اثنتين: فهو إما حالة لاوعي كامل، وإما هو رحيل الروح من هذا العالم إلى عالم آخر. فإذا ما افترضتم أن الموت سبات لاوعي فيه ولا أحلام، فهو إذن نعمة فائقة، لأنه ليس هناك حتى في حياة الملوك أمتع من قضاء ليلة في سبات عميق، لا تعكر صفوه الأحلام. وأبدية الموت إن هي إلا ليلة
واحدة. أما إذا كان الموت رحلة إلى عالم آخر يقيم فيه الموتى، فأي خير يمكن أن يكون أعظم من هذا؟ أهناك ما يرفض الإنسان أن يبذله حتى تتاح له فرصة التحدث إلى أرواح الماضي النبيلة؟ وإذا كان هذا هو الحق فدعوني أمت مرة بعد مرة. فعندئذ سأتمكن من معاودة البحث وراء المعرفة الحقة والزائفة. وفي ذلك العالم الآخر لن يحكموا بإعدامي لأنني أجادل أو ألقي أسئلة ".
وذهبت كلمات سقراط مع الريح؛ إذ تغاضى عنها المدَّعون، أو قل لم تَلْقَ من يعيها. ولكنه قبل أن يقتادوه إلى سجنه ألقى أمام المحكمة بقول أخير جاء فيه: " إنني لست خائفا عليكم أيها
القضاة، فإنكم لم تفعلوا بي ضررا على الرغم من أنه لم يكن في نيتكم أن تفعلوا بي خيرا. لقد دنت ساعة الرحيل، وليذهب كل منا في طريقه - أنا للموت وأنتم للحياة. ولكن أي الطريقين
أفضل، هذا ما لا يعلمه إلا الله ".
٤
وبينما كان ينتظر تنفيذ عقوبة الإعدام قام بزيارته في سجنه نفر من أصدقائه، فحضر إليه أقريطون ومعه خطة كاملة لفراره، وقد أكد أقريطون لسقراط أن حراس السجن وحتى القضاة سيغمضون أعينهم ويتهللون فرحا، فهم قد أدوا واجبهم إصدار الحكم على الفيلسوف، ولكن لا شك أنهم يفضلون له أن يموت في المنفى، لا في أثينا.
ولكن سقراط رفض هذا الإغراء، وصمم على إطاعة قوانين الدولة؛ فهذه القوانين التي كانت تحميه عندما كان حرًّا، عليه أن يحميها وهو في الأغلال.
فلا تقوم لدولة قائمة إذا ما ترك القانون جانبًا ولم يطبق. " وحتى إذا حكم
على الإنسان بالإعدام ظلما، فعليه أن يذعن حبا لوطنه، تماما كما ينبغي عليه ألا يسيء إلى
والده، حتى إذا ما ضربه أو سبه ". وكان ينصح سقراط دائمًا بألا تقابل الشر بالشر، وكأنه بذلك يبشّر بموعظة الجبل. كما كان يقول: " حثوا بلدكم لينتقل إلى حال أفضل كلما كان إلى ذلك سبيلا، ولكن أطيعوا أوامر هذا البلد إذا لم يكن في وسعكم إصلاحه ". ولهذا رفض سقراط أن يستهين بالقانون - أو يصبح خارجا عليه إذا ما فر من أثينا. " إن هذا يا عزيزي أقريطون، هو الصوت الذي أسمعه يرن في أذني، رنين صوت الناي في أذن الصوفي ". وهكذا استسلك الفيلسوف لحكم الإعدام.
٥

ولنرجع الآن إلى آخر يوم في حياة سقراط، فإنه أحد الأيام السود في التاريخ، ومع ذلك فإن رباطة جأش سقراط المتألقة كانت تتوهج وتنير كالمشعل في الليل البهيم.

وقد قدم إلى السجن بضعة أصدقاء ليقضوا معه الساعات القليلة الأخيرة. وكان سقراط أقل أولئك الحضور فزعا، حتى إنه أمر زوجته بالانصراف لأنه لم يرغب في بقاء نساء ينتحبن حوله. وفضل بقاء الرجال الذين يمكنه أن يتحدث وإياهم في الفلسفة. وفي أثناء المناقشة اعترف بإيمانه بخلود النفس. ولنستمع إليه يقول لأصدقائه: " تشجعوا وابسطوا أساريركم وتذكروا أنكم لن تحرقوا أو تدفنوا سوى جسدي. أما أنا نفسي فسوف أترككم لأحادث أصدقاء آخرين في عالم آخر ". كما صرح أيضًا أن الفيلسوف الحق يغتبط الموت؛ إذ يحرر الموت نفسه من مطالب الجسد الدنيئة.

أما المنظر التالي فيعتبر من أروع الروايات التمثيلية في التاريخ. وها هي ذي

فقرة من فيدون لأفلاطون كما ترجمها الأستاذ جوويت (إلى الإنجليزية): " ولما انتهى سقراط من حديثه نهض واقفًا واتجه إلى إحدى الغرف ليستحم .. وتركنا وراءه نتجاذب أطراف

الحديث، ونفكر في هول المصاب، فقد كان منا كالأب الذي دنت ساعة رحيله عنا إلى الأبد، ولم يكن لنا إلا أن نقضي بقية حيواتنا أيتاما ...

" ولما آذنت الشمس بالمغيب، خرج إلينا وجلس بيننا مرة أخرى ... وسرعان ما دخل السجان وخاطبه قائلا: إنك، يا سقراط، يا من عرفت كأنبل وأرق وأفضل من ساقهم القدر إلى هذا المكان، لم تغضب مني قط، على خلاف الآخرين الذين يثورون عليّ ويسبونني عندما آمرهم إطاعة للسلطات، بتجرع السم. وفي الحقيقة، إنني على يقين من أنك لن تحنق علي، فآخرون

سواك، كما تعلم هم الملومون ". ثم انفجر باكيًا وهو يبتعد.

" فنظر إليه سقراط ثم قال: " يا الله من رجل ساحر ممتاز! فطيلة إقامتي بالسجن كان يأتي إلي ليراني ويحاذبني أطراف الحديث أحيانا، كما كان شفوقا بي إلى أقصى حد ممكن. والآن انظروا كيف يتجلى فيض كرمه في الطريقة التي يبكيني بها فلنطع تعليماته إذن ... إليّ بالكأس إذا كان السم معدا، أما إذا لم يكن قد تم إعداده بعد، فليقم التابع بذلك ".

فرد أقريطون قائلا: " ولكن الشمس ما زالت مشرقة فوق هامات الجبال ... ولا تتعجل فأمامنا متسع من الوقت ".

" فأردف سقراط يقول: " لا أظن يا أقريطون أنني أفيد شيئًا إذا ما تأخرت قليلا في تجرع السم. وكل ما هنالك أنني أصبح موضع سخرية في نظر نفسي لمحاولة

إطالة حياة ضاعت ولم يبق منها شيء، ولذلك أرجو أن تقدم إليّ الكأس الآن بغير وناء ".

" فما كان من أقريطون إلا أن أومأ بإشارة إلى التابع فخرج، ثم عاد بعد لحظة يحمل كأس السم. فقال له سقراط: " إنك يا صديقي العزيز خبير بمثل تلك الأمور. فخبرني ماذا ينبغي أن

أفعل؟ " فأجابه التابع: " ما عليك إلا أن تتمشى حتى تشعر بثقل في ساقيك وعندئذ تستلقي على ظهرك إلى أن يتم فعل السم " ثم قدم الكأس إلى سقراط، فتناولها سقراط بيديه بكل هدوء ورقة ورفعها إلى شفتيه، وتجرع السم بفرح وبلا تقزز.

" وحتى تلك اللحظة، كان في وسعنا أن نضبط عواطفنا ونمسك عن البكاء، أما وقد رأيناه يفرغ الكأس في جوفه فلم نعد نحتمل. وانهارت دموعنا مدرارًا، لا بكاء على سقراط، وإنما على النكبة التي نزلت بنا بفقد صديق كهذا. ولم يحتفظ أحد بهدوئه إلا سقراط الذي صاح

قائلا: " ما هذا الصخب الغريب؟ لقد صرفت النساء من قبل حتى أتجنب منظرًا كهذا، كما سبق أن أحاطوني علمًا بأن الإنسان ينبغي أن يموت في سلام. فالزموا العهد، وتذرعوا بالصبر ".

" وما إن سمعنا هذه الكلمات حتى خجلنا من أنفسنا وأمسكنا عن البكاء. وأخذ سقراط يذرع المكان حتى شعر بثقل في سايه فاستلقى على ظهره كما أوصاه الرجل الذي أعطاه السم، وبدأ هذا الرجل يحس قدميه وساقيه من حين لآخر. وبعد لحظة ضغط قدمه بشدة

وسأله: هل تشعر بشيء؟ فأجاب سقراط بالنفي. ثم أخذ الرجل يضغط ساقه متدرجا من أسفل إلى أعلى ويوضح بهذا لنا أن جسم سقراط أخذ يبرد ويتصلب .. ثم قال لنا: " في اللحظة التي يبلغ السم فيها القلب تكون النهاية ".
" وبعدئذ كشف سقراط عن وجهه (لأنه كان قد غطى نفسه من أخمص قدمه حتى قمة رأسه) ثم قال: " يا أقريطون، عليّ أن أقدم ديكًا إلى اسكلبيوس فتذكر أن تقوم بذلك نيابة عني ".
فأجاب أقريطون قائلا: " سأفعل ذلك يقينًا. أهناك شيء آخر؟ " ولكنه لم يتلق أية إجابة من سقراط الذي اعترته رجفة بسيطة، أسلم بعدها الروح.
ولم تكن كلمات الفيلسوف الأخيرة سوى رجاء إلى أقريطون بتقديم ذبيحة إلى
اسكلبيوس - إله الشفاء - كقربان يقدمه شكرا على خلاصه من حمى الحياة.

٤٠٣ الفصل السابع: أفلاطون

الفصل السابع
أفلاطون
(٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م)
عرفنا كيف كرس سقراط حياته للجدل وإلقاء الأسئلة. أما أفلاطون فقد جعل مهمته في الحياة أن يهتدي إلى الإجابات ويصل إلى الحلول.
وكما ذكر إمرسن: " فإن سقراط وأفلاطون يكونان نجمًا مزدوجًا يستحيل على أقوى الآلات شطره شطرًا كاملا ". وقد كتب أفلاطون ثلاثين محاورة تمثيلية شرح فيها فلسفته. ولكن يلاحظ في جميع هذه المحاورات ظهور سقراط على مسرحها كأهم شخصية. وفي الحقيقة أنه من الصعب أن نحدد أين تنتهي فلسفة سقراط، وأين تبدأ فلسفة أفلاطون. وكقاعدة يمكن أن نطمئن إليها، لنا أن نعتبر سقراطا " الباحث العظيم "، وأفلاطون " النبي العظيم ".
٢
ولم تصل إلينا إلا معلومات ضئيلة عن تاريخ حياة أفلاطون الظاهرية، أي قصة حياته. ولكننا مزودون بصورة كاملة لتاريخ حياته الباطنة، أي قصة أفكاره وحياته العقلية. فلنلم أولا بشيء عنه كواحد من مواطني أثينا القديمة، ثم نحاول بعد ذلك تفهمه كمؤلف للإنجيل الفلسفي الذي يدين به العالم.
وكما مرَّ بنا من قبل، كان أفلاطون أحد تلاميذ سقراط الثلاثة الذين تطوعوا
بدفع كفالة لإطلاق سراح معلمهم. وكان أفلاطون في حالة من اليسر تمكنه من تقديم نصيبه من الغرامة في سهولة؛ فهو ينتسب إلى أسرة ثرية أرستقراطية، كما كان على درجة من الجمال تعادل درجة ثرائه. وكان طويلا، أشقر، قويًّا، ورياضيًّا يشبه أبولون إله النور، وقد نزل من
السماء، وليس هذا بالغريب؛ فكلمة: Plato (أفلاطون) معناها " عريض المنكبين ". وقد فاز بجائزتين حلبة المصارعة، كما نظم عددًا من القصائد الشعرية، وكتب عددًا من التمثيليات.
ولذلك كان ينظر إليه كواحد من الشباب الصاعد في أثينا. ولنسمع إليه يقول: " أحمد الله أن ولدت يونانيًّا لا أعجميًّا، حرًّا لا عبدًا، رجلا لا امرأة، ولكن الأهم من ذلك كله، أنني ولدت في عصر سقراط ".
وبالرغم من ذلك فإن إعجابه بسقراط كان يؤدي به إلى الهلاك. ولذا فما إن صدر حكم الإعدام على معلمه الشيخ حتى اضطر أن يغادر أثينا حرصًا على سلامته، وكان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاما وقت رحيله، وأربعين عاما عند عودته. وفي أثناء الاثني عشر عاما التي انقضت بين رحيله وعودته، جاب أقطارًا كثيرة في أوروبا وآسيا. فاتجه إلى إيطاليا حيث انخرط في سلك الجماعة الفيثاغورية التي تضم أصدقاء الحق. ثم ذهب إلى مصر وفارس والهند غالبًا والصين وفلسطين، حيث استوعب الفكرة الشرقية التي تنادي بإله

واحد، وقانون واحد للعدالة بين الجميع. كما قام بزيارة أقطار مختلفة، حيث درس جميع أنواع الحكومات التي تنشأ في شتى الظروف الاجتماعية والمذاهب السياسية. وهكذا عاد إلى أثينا وهو رجل العالم المجرب بكل ما يحمل هذا التعبير من معنى.

ولما كان في الأربعين من عمره أسس أكاديمية علمية - هي أول جامعة

في العالم القديم. وكان هدف أفلاطون الأساسي من إنشاء هذه الأكاديمية هو إرشاد تلاميذه إلى التوافق والتجانس القوي عن طريق التربية الفردية. وقد صرح متفقا في ذلك مع سقراط، بأن قادة الدولة ينبغي أن يكونوا خيرة رجالها المتعلمين.

وقد توقف عن التعليم في أكاديميته فترتين سافر خلالهما إلى صقلية ليكون مستشارا للملك ديونيسيوس الثاني. وفي هاتين المحاولتين لم يحرز نجاحا أكثر مما أحرز كونفوشيوس لقرن مضى من قبله. فلما أصر أفلاطون على نشر العدالة اعتبرها الملك إساءة موجهة إليه، فما كان من أفلاطون إلا أن هرب بحياته بأعجوبة.

وكان آنئذ قد بلغ من العمر سبعة وستين عاما، فكرس آخر ثلاثة عشر عاما من حياته للتعليم ولنشر محاوراته.

وما هذه المحاورات إلا طريقة مثلى لإظهار الحق والتعبير عنه بلغة الجمال. وقد كتب أحد المؤرخين القدماء يقول: " لو أن زيوس نزل إلى الأرض لما استخدم غير أسلوب أفلاطون في الحديث ".

وتضم محاورات أفلاطون الثلاثون جميع المشكلات والموضوعات التي كانت تحير العقول في أيامه والتي لا زالت تحير عقول المفكرين في أيامنا هذه. وهكذا نجده يناقش الخلود في " فيدون " والحب في " المأدبة " واللاهوت في " تيماوس ". أما الدكتاتورية والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ومساواة المرأة بالرجل وتحديد النسل وتحسين النسل والتربية والأخلاق والفن والموسيقى وتحليل النفس فيناقشها في كتبه الأخرى. وفي الحق، إذا ما استشهدنا بما

ذكره إمرسن مرة ثانية: " فما أفلاطون إلا الفلسفة، وما الفلسفة إلا أفلاطون ".

ولكن الغالبية العظمى من آراء أفلاطون نجدها مجملة في أعظم إنتاج له - كتاب الجمهورية. وقد صرح إمرسن بقوله: أحرقوا المكتبات، فما بها من نفائس يضمها هذا الكتاب وحده ".

ولذا نرى أن نسبر غور " الجمهورية " لكي نصل إلى أعماق فلسفة أفلاطون ولبابها.

٣

والمنظر أو المكان الذي يجري فيه هذا الحوار هو منزل كفالوس أحد أثرياء أثينا. أما الشخصيات فهي ثراسيماخوس أحد السفسطائيين أي " معلم الحكمة المحترف "، وأديمنت وأغلوقون شقيقا أفلاطون، وكفالوس الأرستقراطي وابنه، ثم سقراط وهو لسان حال أفلاطون.

وتبدأ المناقشة بسؤال عن ماهية العدالة، وقد وجه السؤال سقراط كالمعتاد. وبعد بضعة تعاريف قوض أركانها سقراط بمنطقه اللاذع يدخل ثراسيماخوس في الحوار مقاطعا بقوله: " لم لا تنير لنا الطريق يا سقراط بدلا من أن تحير ألبابنا؟ فأي إنسان يستطيع أن يسأل، ولكن قلائل من يستطيعون الإجابة ".

ولكن سقراط، رابط الجأش، يلقي سؤالا آخر: " وهل أنت أحد أولئك الذين في وسعهم أن يجيبوا "؟.

" نعم، أنا أحدهم ".

" حسنا، فلنستمع إذن إلى الإجابة ".

فيصيح ثراسيماخوس العجول قائلا: " العدالة إن هي إلا مصلحة الأقوياء. وفي عبارة أخرى القوة هي الحق ". ثم يستطرد بشير نيتشه فيقول: " يشرع الأقوياء القوانين لحماية أنفسهم. أما الضعفاء فينعتون القوانين بالظلم لأنهم يقاسون من الإذعان لها ". أما الأخلاق والعفة والفضيلة طبقا لهذا السفسطائي فهي شريعة الجبان، وأعني الرجل الذي يعد نفسه صالحا ما دامت تنقصه الشجاعة لينتهكها. والرجل القوي يفعل كل ما يستطيع أن يفعل، أما الرجل الضعيف فيعاني ما لا بد له من معاناته. ثم يختم ثراسيماخوس حديثه بقوله: " وهذه هي العدالة ".

ولكن سقراط يبدي رأيه بلسان أفلاطون فيقول: " إن العدالة قد لا تكون حماية الأقوياء من الضعفاء، ولا حتى حماية الضعفاء من الأقوياء، بل ربما من الأفضل أن يقال إنها تنسيق بين جميع أفراد المجتمع، واتفاق متبادل بين الفرد والدولة. إذن أليست هي فكرة جيدة أن نصور دولة عادلة حتى نستطيع أن نفهم من هو الفرد العادل؟ ".

ثم نجده يشرع في رسم صورة دولته المثالية - الجمهورية - أول ثورة عظيمة للكمال البشري في الأدب العالمي. ويصرح أفلاطون بأن هذه الدولة المثالية ليست دولة دكتاتورية ها رجل واحد حرّ والآخرون عبيد. كما أنها ليست دولة الأثرياء حيث يطأ الواحد منهم الآخر في سبيل الوصول إلى القمة للحصول على القِدْر المليئة بالذهب. وليست هي دولة ديمقراطية يحكمها أكثر الناس شعبية لا أكثرهم كفاية. " فالديمقراطية هي حكم الغوغاء ". وقفز إلى ذهن أفلاطون المصير الذي انتهى إليه سقراط على أيدي المحلفين الذين تم اختيارهم بالطريقة
الديمقراطية. " فعامة الشعب تعوزهم الفطنة، إذ هم يرددون
ما يصل إلى أسماعهم ويعطون أصواتهم طبقا لما يملى عليهم ".
فما العلاج إذن لهذا الداء العضال - داء دولة الظلم؟ هو جمهور أكثر فطنة وذكاء. وعلى ذلك يكون الهدف الأول لدولة المثالية هو تربية أفضل للمواطنين كافة؛ إذ من الضروري أن تكون جمهورية أفلاطون دولة من الحكماء يقوم على الحكم فيها أكثر المواطنين حكمة وينصب ملكا
عليهم. " ولن يتحرر الجنس البشري حتى يصبح الفلاسفة ملوكا والملوك فلاسفة وحتى تجتمع المعرفة والقيادة في شخص واحد ".
ولهذا صرح أفلاطون بأنه يجب أن نبدأ بتربية النشء. فبادىء ذي بدء: " علينا أن ننفي إلى الخلاء جميع سكان (المدينة المقترحة) ممن تزيد أعمارهم على عشر سنوات. ولنحتفظ بالأطفال الذين يتلقون بهذه الطريقة، شر عادات والديهم المرذولة ".
أما وقد أفسح الآباء لنا الطريق فإنه في وسعنا أن نسير قدمًا في تربية الأطفال وتدريبهم، ففي السنوات العشر الأولى من حيواتهم، تقوى أجسامهم، فالجسم السليم وحده مأوى العقل السليم. وعلى ذلك فالمدرسة الأولية ينبغي أن تشمل قاعة للدرس والمحادثة وفناء لممارسة الألعاب.
وعندما يبلغ الأطفال سن العاشرة فعليهم أن يضيفوا إلى منهج دراستهم مادة واحدة
أخرى - هي الموسيقى. وعند أفلاطون كانت الموسيقى تعني التناغم - وكانت هذه المادة تشمل الرياضيات، وهي علم الأعداد المتناغمة، والتاريخ وهو قصة التقدم المتناغم، والدين وهو روح الإيمان المتناغم.
وذلك لأن أطفال الدولة المثالية يجب أن يلقنوا فن الاشتراك في الحياة،
وعليهم أن يتعلموا أن كل الأفراد أجزاء لا تتجزأ من جسم الإنسانية، شأنها في ذلك تمامًا شأن الرأس واليدين والقدمين فهي أجزاء لا تتجزأ من جسم الفرد. وقد أخذ أفلاطون هذه الفكرة عن الفلاسفة الشرقيين ثم سلمها بدوره إلى القديس بولس والعالم الغربي. ولنستمع إليه
يقول: " يجب أن نتعهدوا الأطفال بتربية يتبينون خلالها أن جميعنا أعضاء جسم واحد يكمل بعضنا بعضًا ".
وهكذا فعلى جميع الناشئة حتى سن العشرين أن يمارسوا الرياضة البدنية حرصًا على صحة
أجسامهم، وأن يدرسوا الموسيقى من أجل تآلف أرواحهم. وينبغي أن تكون التربية مشتركة بين الجنسين. فيدرس الأولاد والبنات معًا كما يلعبون سويًّا. وعليهم أن يتجردوا من ثيابهم عند تأدية تمريناتهم. ويجب أن يكون من شيمهم العزوف عن التهكم إذا ما وقعت أبصارهم على الجسم الآدمي. ولن يكون في الدولة المثالية حياء مصطنع، لأن الناشئة يجب أن ينشأوا على النظر إلى أنفسهم وكانهم " قد اكتسوا بما فيه من الكفاية من رداء الفضيلة ".
وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يربون معًا كأطفال أسرة واحدة - هي الدولة. ويكون هذا الشعور العائلي حقيقة واقعة لا نظرية فلسفية، إذ أن من يولد من الأطفال في الجمهورية إن هم إلا نتاج التزاوج على الشيوع؛ فأفضل الرجال يتزوجون بأفضل النساء، ثم يتزوج الرجال الأقل درجة النساء الأقل درجة، وهكذا حتى نهاية المطاف. ويعلن أفلاطون أن هذه الفكرة تطبق بنجاح لتحسين نتاج الماشية، فينبغي أيضًا تطبيقها على الآدميين للحصول على نسل ممتاز.
ولتحقيق هذه الفكرة يجب ألا تتم زيجات فردية أو تتكون أسرات خاصة في الجمهورية فللمواطنين البالغين كافة حق تملك جميع الأطفال شيوعًا من غير

تحديد. ويكون لهذا المجتمع من الأطفال ميزة عظيمة فيتفادى تحاسد الآباء وتخاصمهم، فلن يستطيع أحد أن يفخر بأن أبناءهم خير من أبناء شخص آخر، وذلك لأن الأطفال ينتسبون إلى جميع
الآباء - أخوة عامة من التفاهم والمحبة.
وهذه باقتضاب هي الفكرة التي يجب أن تغرس في نفوس الأطفال حتى سن العشرين. ثم يأتي بعد ذلك دور " التنقية والفرز " حيث تجري عليهم جميعًا اختيارات جسمية وعقلية وروحية غاية في الشدة، ومن يرسب في هذا الاختيار الثلاثي يبعد ويضم إلى الطبقة الدنيا التي تتكون من الفلاحين والعمال والتجار - " المعادن الرخيصة في الدولة مثل النحاس والحديد ".
أما الذين يجتازون الاختبار بنجاح فأولئك يسمح لهم بإتمام تعليمهم لمدة عشر سنوات أخرى ويتكون منهاج دراستهم أساسًا من العلوم التي تشمل قياس الأرض وتأمل النجوم. وفي نهاية هذه المرحلة يعقد امتحان فرز آخر أصعب وأقسى من الامتحان الأول بدرجة كبيرة. وكل من يرسب في هذا الامتحان الثاني يحول إلى الطبقة الوسطى التي تتكون من الحراس أو العكسريين. ويمثل هؤلاء " معدن الفضة في الدولة ".
وأولئك الذين يجتازون اختبار العزل والفرز الثاني يكونون قد بلغوا الثلاثين من أعمارهم.
وهم " معدن الذهب " في الجمهورية. ومن الواجب أن يدربوا ليكونوا حكام الدولة
مستقبلا - رجالا ونساء على السواء - وذلك لأن أفلاطون كان يؤمن بمساواة النساء والرجال في الحقوق والقدرة على الريادة، وعلى من يقع عليهم الاختيار للتدريب على الوظائف العليا أن يقضوا مدة تزيد على خمس سنوات في دراسة الفلسفة. والغرض من هذه الدراسة أن يكون الطلبة على بينة تامة بالفرق بين العالم المادي والعالم المثالي.
وينقلنا هذا إلى لب فلسفة أفلاطون - ونظريته الشهيرة عن المثل. وكم من بحور من المداد قد استنزفت في تسطير المناقشات التي دارت حول هذا الموضوع: " وما الذي كان يعنيه أفلاطون تماما بعالم الأفكار الذي نادى به إذا ما قورن بعالم الأشياء؟ " فهل في وسعنا أن نوضح الفرق الأساسي بين العالمين في فقرات قصيرة معدودة؟
قال أفلاطون: إن كل شيء زمني في هذا العالم هو صورة لمثال أبدي موجود في عقل الله. وهكذا لست أنا وأنت إلا صورة بشرية للمثال الإلهي عن الإنسان. وكل شجرة إن هي إلا صورة للنموذج الذي يهيمن على شكل الأشجار جميعا ونموها. وكل عمل صالح إن هو إلا صورة للمثال الأبدي للصلاح. ويخرج الشخص أو الشيء أو الصفة إلى عالم الوجود كلما اتصل النموذج الأبدي بالمادة - تلك المادة الأولى الخام التي يحول بها مَثَّالُ الكونِ مثله الدائمة إلى أشياء زائلة.
ولتوضيح هذه النقطة فلنتصور مثال الرجولة نورا لامعا تحيط به آلاف المرايا - بعضها محدب وبعضها مقعر، بعضها غير مصقول وبعضها أملس، بعضها مكسور وبعضها سليم. وكل هذه المرايا تعكس صورة الرجولة ذاتها التي تتوسط المرايا. وبالرغم من ذلك لا نجد انعكاسا يطابق انعكاسا آخر تماما؛ إذ أن كل صورة تعتمد في تكوينها على طبيعة السطح العاكس. ومن هنا ينشأ الاختلاف بين الرجال، أو تنشأ صورة الرجولة المختلفة فيكون رجال أخيار أو
أشرار، أقوياء أو ضعفاء، مستقيمون أو منحرفون، حكماء أو أغبياء، عجلون أو متوانون. وفوق هذا فإن جميع الصور المنعكسة ليست حقيقة، بل هي مجرد مظاهر؛ فهي صور للضوء اللامع، أشياء تبدو حقيقية
ولكنها مجرد أشباح وظلال للحقيقة الواحدةت الكاملة في وسط المرايا.
ولنفرض الآن أن إحدى هذه المرايا العاكسة قد تهشمت فيترتب على ذلك أن الضوء - في تلك المرآة - قد اختفى، أو بمعنى آخر أن حياة ذلك الرجل قد انتهت. وكما اعتدنا أن نقول: " إنه قد مات ".
ولكن مهلا فإن من يبدو أنه قد مات ليس إلا واحدًا فحسب من انعكاسات الضوء الأبدي. فالمادة التي كانت تشكل الانعكاس مؤقتا قد انتهت، أما الضوء الذي سبب الانعكاس فإنه يبقى لامعا بهاء إلى الأبد. وما هذه إلا طريقة أخرى للتعبير عن عقيدة الفلاسفة الهنود بأن روح الفرد إن هي إلا صورة جزء متناه في الصغر من روح العالم.

ويصرح أفلاطون بأننا لا نوفق إلى فهم هذه الحقيقة؛ لأن حواسنا تخدعنا. فالعقل وحده هو الذي في استطاعته أن يعلمنا إدراك الحقيقة، أو بمعنى آخر دائرة الأفكار والمثل التي تعمل كأساس دائم لكل المظاهر المؤقتة.

ويستطرد أفلاطون بعدئذ موضحا هذا الإدراك في أحد تشبيهاته الخالدة؛ فيقول إن أولئك الذين يعتمدون على بينة حواسهم، مثلهم في ذلك مثل أناس سجنوا في كهف يتجه مدخله ناحية الضوء. ولكن السجناء لا يمكنهم أن يروا الضوء: " فقد أوثقت أرجلهم ورقابهم بالسلاسل وأديرت وجوههم بعيدا عن الضوء حتى لا يستطيعوا القيام بأية حركة. وهكذا لا يملكون النظر إلا أمامهم، إذ تحول الأغلال بينهم وبين تحريك رؤوسهم إلى اليمين أو اليسار ... وخلفهم وفوق رؤوسهم نار متأججة، وأمامهم حائط لا كوة فيه ".

وبين النار عند مدخل الكهف وظهور السجناء الذين يرسفون في الأغلال

يتحرك " موكب لا نهاية له من الرجال يحملون كل أنواع الموجودات ... ويلقى هذا المواكب على الحائط أمام عيونهم ظلالا متحركة وأشباحا ". ولما كان مقضيا على السجناء أن يثبتوا عينوهم على الحائط، فإنهم بذلك لا يستطيعون رؤية شيء سوى أشباح هذا الموكب الدائب الحركة، أما الموكب نفسه الذي تصدر عنه هذه الأشباح فليس في وسعهم أن يروه.

بل إنهم لا يستطيعون أن يروا حتى ذوات أنفسهم؛ إذ ليس في وسعهم أن يروا إلا أشباحهم مع الأشباح الأخرى على الحائط، وهم يتوهمون هذه الأشباح جميعها أعيانا، إذ لا يعرفون سواها أو خيرا منها.

ويؤكد أفلاطون أنه بين حين وآخر يهرب فيلسوف من كهف الأشباح فيشهد وهو منشرح الصدر العالم الخارجي، عالم الأشياء في ذواتها، وهو عالم المثل الأزلي.

وهذه في صورة مقتضبة هي مادة الفلسفة التي ينبغي أن يُلَقِّنها الدارسون في جمهورية أفلاطون على مستوى عال، فعليهم أن يعرفوا الفرق بين عالم المحسوس وعالم المعقول. وهم يلقنون هذه الدراسة ليفهموا جوهر الأبدية الذي هو المثل في العقل الإلهي، وهي التي يعبر عنها في شكل ناقص، بأعمال الناس الحادثة في مجرى الزمن.

وإن هذه المثل الإلهية لتنسج في تناغم، مثلها في ذلك مثل نغمات الأغنية وتكون نموذج الحياة. ولا يستطيع أن يفهم هذا النموذج سوى من يتمتع أكبر قسط من الحكمة بين طلبة أفلاطون في الجمهورية، فهؤلاء وحدهم هم الذين يصلحون حكاما للدولة.

وبالرغم من ذلك فإن تدريبهم حتى الآن يعد ناقصا، فيجب أن ينزلوا من

علياء الفلسفة ويزج بهم ثانية في كهف حياة التنافس والتزاحم. فهم الآن في الخامسة والثلاثين من أعمارهم، وعليهم في مدى الخمس عشرة السنة التالية أن يضعوا فلسفتهم موضع الاختبار. فيحلقوا وسط أعاصير من الكراهية والطموح والغيرة والعدوان والطمع، ويجب أن يتعلموا كيف يرتفعون فوق دنايا جيرانهم الذين يتخذون من النضال والقتال سبيلا للسبق والتقدم.

والقلائل الذين يجتازون بنجاح الدراسة النهائية في التربية العملية يختارون آليا حكاما للدولة.

فإن جمهورية أفلاطون يجب أن يحكمها رجال ونساء يمتازون بأثبت العقول وأرق القلوب، فهم وحدهم الذين يدركون أن المثال هو الشيء - وبخاصة مثال العدالة، لأن العدالة تناغم - أو قل هي قانون توازن أخلاق ورياضي بين الجزء والجزء، وبين الجزء والكل. وإن هذا التكيف

الدقيق - الذي يطلق عليه أفلاطون روح العدالة ذاتها - والذي يسود معاملات الرجل الصالح يجب أن يسود أيضا طريقة هداية ومعاملة الشعب الصالح وحكومة العالم الصالح. وهذا المثال نفسه، هذا القانون نفسه الذي يدفع الأجرام السماوية إلى الحركة معًا في وحدة متناسقة - أقول إن هذا المثال نفسه يحمل في النهاية أفراد المدينة والدولة والجنس البشري كافة على الحركة معًا في وحدة من الصداقة المتناسقة، وذلك لأن الناس والنجوم متماثلة في موسيقاها وحركاتها

وقوانينها. فجميعهم على السواء صور للمثل السامي للإله.

٤

ولنكتف بهذا القدر إذن عن تربية الملوك الفلاسفة والملكات الفلاسفة في جمهورية أفلاطون. فإن هؤلاء الحكام يشتركون معا في امتلاك كل شيء، وهكذا يتجنبون كل ما من شأنه أن يغريهم رغبة في كسب خاص.

أما فيما يتعلق بعامة الشعب فهؤلاء يكيّفهم التدريب والتعليم ويرشدهم الحكام لكي يعيشوا في عالم يستمتعون فيه بأجور كافية ومساواة وإنصاف. فيمسك التجار عن جمع أرباح
باهظة، ويكف العمال عن المطالبة بأجور مرتفعة غير معقولة، ويعامل المجرمون على أنهم مرضى يقاسون من أمراض عقلية، فيرسلون إلى مستشفيات حيث يقيمون بعيدين عن السوء والأذى إلى أن يشفوا من عللهم.
ويقضي النظام بألا يكون في الجمهورية محامون، بل يكتفي بعدد يسير من القوانين. وقد صرح أفلاطون بقوله: " كلما ازداد عدد القوانين التي تسنها ازداد إغراؤك للناس بالخروج عليها ". وبهذه الطريقة يكون من حق كل فرد أن يهتم بشؤونه الخاصة على شريطة ألا يتعدى على حقوق الآخرين.
ويقول أفلاطون إن هذا هو التعريف الصحيح للعدالة - تشابك ودي للمصالح المتبادلة، بدلا من تأهب عدائي لقتال دائم.
وفيما يلي أيضًا إجابة أفلاطون عندما كان يسأله أصدقاؤه عن ماهية العدالة، فلنستمع إليه
يقول: العدالة ليست مراعاة مصلحة الأقوياء، وإنما هي تناغم الجنس البشري كله في موكب الكون المنتظم. وهكذا يضيف أفلاطون إلى فلسفة الشرق عنصرًا هامًّا - هو التناغم أو الجمال. ويقوم العالم على دعائم من العدالة والفضيلة والمحبة، وخلق أفكار جميلة تنبع من مثال الجمال الموجود في عقل الإله.
" فالجمال هو الخير والخير هو الجمال. وإذا ما استمعنا حياة ملؤها الجمال، فإننا على الموت لمنتصرون ".

٤٠٤ الفصل الثامن: أرسطوطاليس

الفصل الثامن
أرسطوطاليس
(٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م)
كان أرسطو أحد تلاميذ أفلاطون، كما كان أفلاطون أحد تلاميذ سقراط. وكثيرًا ما اختلف أرسطو في الرأي مع أفلاطون، كما كان يخالف أفلاطون أستاذه سقراط الرأي أحيانًا. وبالرغم من ذلك فإن كلا التلميذين قد أخذا كثيرًا من عظمتيهما عن أستاذهما. وقد تدفق تيار
الفلسفة - أو فكرة وحدة الحياة - في طريق مباشر مبتدئًا بأقدم هؤلاء المفكرين اليونان الثلاثة حتى وصل إلى أحدثهم سنًّا.
وقد سار تيار الفكر بعينه مارًّا بمصفاة عقول الرجال الثلاثة المختلفين، فبينما كان سقراط ناسكا فقيرًا بعيدًا عن الحياة اللينة كان أفلاطون شاعرًا ثريًّا أرستقراطيًّا، أما أرسطو فكان زوج ابنة ملك ومثقف أمير.
٢
وقد عاش أرسطو في عصر من أشد العصور اضطرابا؛ إذ نشبت أول " حرب عالمية " في
التاريخ. وكان على صلة وثيقة بأهم شخصية في تلك الحرب. كما قام بتثقيف
الإسكندر - ذلك الطائش الذي تقبل فكرة معلمه عن وحدة العالم، ولكنه حاول أن يحتفظ بهذا العالم متحدًا وهو يرسف في الأغلال.
ولد أرسطو في اسطاغيرا، وكانت مستعمرة يونانية تبعد حوالي ٣٢٠ كيلومترا إلى الشمال من أثينا. ولكنه قضى معظم حداثته في بيلا، عاصمة مقدونية في
شبه جزيرة البلقان، وهي بمثابة منطقة " الغرب الحوشي " في العالم القديم (*) وكان أبوه قد عين طبيبًا في بلاط الملك أمينتاس والد فيليب وجد الإسكندر.
وكثيرًا ما كان أرسطو وفيليب يلعبان معًا وهما لا يزالان طفلين. وكان يكشف فيليب عن غطرسة الأمير ووحشية القط البري. أما مواطن اسطاغيرا الصغير فقد تعلم كيف يضبط مشاعره إبقاء على حياته، كما استخلص أن القدرة على ضبط النفس هي أحسن وسيلة لحماية الإنسان من غوائل العالم. وكان أن صبحت هذه الفكرة فيما بعد مبدأ أساسيًّا في فلسفته.

وما إن بلغ الثامنة عشرة من عمره حتى غادر مقدونية ليلتحق بأكاديمية أفلاطون في أثينا. وكان الطلبة الآخرون ينظرون شزرًا إلى هذا " الأجنبي المتحذلق لصغير. فقد كان دمث
الأخلاق، لطيفًا، رقيقًا، أنيقًا، مؤدبًا، يرتدي من الأزياء أحدث طراز، ويتحدث بلثغة. حتى إنه عندما وقع نظر أفلاطون عليه لأول مرة بادره بقوله: " لعله من صواب الرأي أن تقلل من عنايتك بملابسك وتزيد من اهتمامك بعقلك ". ولكن لم تنقض بضعة أيام على التحاق الطالب الصغير بالأكاديمية حتى أثبت لأفلاطون أنه يمتاز بعقلية من أخصب العقليات الموهوبة في العالم. فقد كان مستعدًّا لتقبل كل أوجه المعرفة الممكنة - من علم الفلاسفة الأقدمين، وتأملات سقراط، إلى آمال أفلاطون، بالإضافة إلى فروع العلم المختلفة الأخرى
مثل: السياسة، والشعر، والقصص التمثيلي، وعلم النفس، وعلم الأخلاق، والتاريخ الطبيعي، والبيان، والطب، والرياضيات، والفلك. وفي النسوات التالية لاحظ أفلاطون أن أكاديميته تتكون من جزأين - أولهما جسم طلبته، وثانيهما عقل " أرسطو ".

(*) قياسا على الغرب الحوشي في الولايات المتحدة.

وقد كان كل من المعلم وتلميذه المفضل يحمل للآخر قدرًا كبيرًا من المحبة والود. وبالرغم من ذلك فلم يكن هذا الوئام ليخلو من عراك المتحابين. ومن رأيهما أن الجدل الفلسفي بين الأصدقاء المتفاهمين يثير دفئًا محببًا إلى النفس، لا نارًا مهلكة مدمرة. وإنا لواجدون أنه بالرغم مما كان بين هذين الفيلسوفين من اختلافات فإنهما كانا يشتركان في اعتناق الكثير من الآراء الجوهرية.

وفي مدى بضع سنوات أصبح أرسطو خريج الأكاديمية معلمًا بها. ولكن ما إن توفي
أستاذه (٣٤٧ ق. م) حتى اكتشف التلميذ أن أثينا لم تعد تصلح مكانًا يعيش فيه أجنبي مثله. فكان فيليب، زميل اللعب في صباه وملك مقدونية آنئذ، قد شرع في إخضاع جميع الولايات اليونانية. وبالرغم من أرسطو كان يقف من الصراع موقفا محايدا دقيقا فإنه وجد نفسه محل ريبة وشك كأجنبي غريب. فاضطر أن يغادر المدينة.

ولكنه لم يتمكن من العودة إلى موطنه الأصلي، إذ كانت اسطاغيرا قد التهمتها النيران وجعلت عاليها سافلها كضحية أولى من ضحايا طموح الملك فيليب. ولحسن حظ الفيلسوف الشاب تلقى عند ذاك دعوة لزيارة هرمياس، أحد زملاء الدراسة السابقين، وكان آنئذ حاكما لإحدى المقاطعات في آسيا الصغرى.

وسارت الأمور بين الملك والفيلسوف على خير ما ينبغي، حتى إن هرمياس أذن لأرسطو بالزواج من ابنته (المتبناة) ووهبه مالا طائلا هدية بمناسبة الزواج.

وبعد ثلاثة أعوام قضاها في هدوء وبهاء في بلاط هرمياس تلقى أرسطو دعوة أخرى كانت هذه المرة إلى حيث يفيض البهاء بدرجة أعظم، ولكن ينعدم الهدوء. فقد دعاه الملك فيليب ليكون مثقف شبله الصغير المتوحش - الإسكندر.

فقبل أرسطو الدعوة، وكان المعلم آنئذ في الواحدة والأربعين من عمره، أما التلميذ ففي الثالثة عشرة. وكان البيت المالك في مقدونية أشبه ما يكون بغابة مليئة بالوحوش الضارية؛ فالملك فيليب كان ذا حالة نفسية مريضة ليس عليه أية تبعة أخلاقية. وأما الملكة أوليمبياس فكانت نمرة، في حين كان الإسكندر مجنونًا بأمر واحد فحسب، هو اعتقاده الراسخ أن الناس جميعًا قد خلقوا ليكونوا عبيدًا في خدمة نزواته الطائشة. وقد حاول الفيلسوف مرارًا أن يتوسط لفض منازعات القصر العاصفة ولكن بدون جدوى. فكانت أوليمبياس تعير فيليب دائمًا بأن الإسكندر ليس ابنه، وإنما هو ابن غير شرعي لأحد الآلهة. فيرد فيليب الإهانة بقوله إن له كثيرًا من الأبناء الآخرين ليس لها علم أو شأن بهم. أما الإسكندر فكان يعامل كلا من فيليب وأوليمبياس باحتقار فاحش.

وكثيرًا ما اتخذت المشاجرات الملكية طابع العنف. وفي أحد اجتماعات البلاط التي يصبغها الفسق والفجور، اشتبك الأب والابن في مشاجرة بدنية. فسب الولد أباه وحاول الأب أن يطعنه، ولكن فيليب كان مخمورًا إلى درجة أنه لم ينجح في إصابة الهدف، إذ سقط على الأرض وهو يوجه الطعنة إلى ابنه، وهكذا أنقذ الإسكندر ليشهد العالم فسقه وفجوره ويقاسي ويلات حروبه.

وفي مثل هذا الجو حاول الفيلسوف أن يعلم الحياة الصالحة. إلى أن اقتنع أكثر من ذي قبل أن هدف التربية هو ترويض القلب وتثقيف العقل سواء بسواء. كما استنتج أن الناس هم أكثر الحيوانات رغبة في القتل، لأنه ليس في وسعهم فقط أن يدبروا أفكارًا خبيثة مؤذية، وإنما يمكنهم أيضا أن يحسنوا استعمال الآلات القتالة المبيدة.

ولذلك بذل جهده في أن يطبع روح تلميذه الفظة بطابع فلسفة الكياسة

والدماثة التي ينادي بها. وكان الإسكندر في بعض الأحيان يتظاهر بأنه يستمع إلى تعاليم أستاذه. فقال مرة: " إني أفضل أن أكون ممتازًا في معرفة الحق على أن أكون ممتازًا في توسيع سلطاتي ".

ولم يكن ذلك إلا مجرد نفاق. فلما قتل فيليب بيد واحد من السفاحين استأجرته الملكة لهذا

الغرض، لم يكن من الإسكندر إلا أن طرد أرسطو كما لو كان كمًّا مهملا لم يفعل شيئا سوى الوقوف عقبة في سبيل طموحه. ومن أول الأوامر الملكية التي أصدرها أمر بشنق ابن أخت

أرسطو، كاليثينيس، لأنه رفض أن يعتبر الإسكندر إلها يعبد. فقر رأي أرسطو على أن الوقت قد حان ليرحل عن مقدونية.

٣

وعاد إلى أثينا حيث الطمأنينة النسبية، عاد بعقل خال من الأوهام والغرور، وكيس مليء بالنقود. فبالإضافة إلى الهبة التي منحها عند الزواج كان يتقاضى مرتبا ضخما مقابل خدماته التثقيفية. ولكنه مع ذلك لم يختزن هذه النقود، بل على النقيض صرفها عن آخرها - وكانت تبلغ ما يوازي ٥٠٠٠٠٠٠ دولار تقريبا - أقول صرفها في بحوثه الفلسفية والعلمية.

وهكذا في ذات الوقت تقريبا قامت شخصيتا العصر البارزتان بمغامرتين على طرفي نقيض: الإسكندر يقتل، وأرسطو يعلّم. وبينما كان رجل الحرب يعبئ جيشا من الرعاع السفاكين نجد أن الفيلسوف قد استخدم بضع مئات من الرجال، جنود العلم، ليجمعوا شتى أنواع الأشياء الحية وغير الحية للقيام بدراسة شاملة للعالم. ونظم أرسطو كل ما أسهم به من تعاونوا معه في عمل موسوعة جامعة شاملة للمعرفة في أرجاء الكون.

وأنشأ حديقة للحيوان، ومتحفا للتاريخ الطبيعي، كما فتح مدرسة جديدة للفلسفة في أثينا. ولما كانت هذه المدرسة تقع وسط أحد المتنزهات فقد أطلق عليها اسم " مدرسة المشائين " الذي

معناه " مدرسة من يعلم وهو يتمشى ومن حوله التلاميذ ". وكان الطلبة يستمعون إلى محاضرات معلمهم وهم يتشمون معه بين الأشجار والأزهار التي تغطي أفنية المدرسة وملاعبها.

وكان أرسطو يبلغ من العمر في ذلك الوقت حوالي خمسين عهاما. ولم يعمر أكثر من عشر سنوات أخرى. ولكنه خلال هذه الحقبة الفريدة أمكنه أن ينتج عددا من الكتب والرسائل يقدر بما يقرب من الألف، وتعد هذه المصنفات حتى يومنا هذا أروع ما أنتجه العقل البشري.

وتبحث هذه الكتب في كل ما يتعلق بالدين والعلم والفن تقريبا. ولا نملك في الوقت الحاضر من هذا الإنتاج إلا النزر اليسير، وفي رأي الكثير من الباحثين أن ما وصلنا من هذه الكتب إن هو إلا ما دونه تلاميذ أرسطو من إشارات وتعليقات على آرائه، وليست هي الآراء الأصلية ذاتها. وبالرغم من ذلك فإن هذه المجموعة من الأجزاء الصغيرة شاملة واسعة المدى إلى درجة أنها كانت ولا تزال قوة مسيطرة على الفكر العالمي خلال القرون المتعاقبة. وحتى وقتنا هذا فإن كل فيلسوف تقريبا ينعت بأنه إما أفلاطوني أو أرسطوطالي.

فلنفحص إذن أعمال أرسطو بمقارنتها أعمال أفلاطون، فهما " أعظم فليسوفين أنجبهما الدهر ".

٤

كانت دائرة التأمل عند أرسطو أوسع وأشمل وأعم منها عند أفلاطون،

إذ أن مواطن اسطاغيرا كان عالما إلى جانب كونه فيلسوفا. فلنلق نظرة سريعة إلى ما قدمه من عون للعلم قبل أن نتجه إلى النصيب الأعظم الذي أسهم به في الفلسفة.

فبادىء ذي بدء وضع أرسطو أسس علم جديد، هو المنطق أو قوانين التفكير الصحيح. وكان سقراط وأفلاطون قد أصرا على تحديد

ألفاظهما، أما أرسطو فقد ابتكر صيغة نصل عن طريقها إلى التعاريف كافة، وسمى هذه الصيغة " بطريقة القياس ". والقياس معناه جدل مبني على تفكير منطقي. ويتكون مثل هذا الجدل من قضايا ثلاث: مقدمة كبرى، ومقدمة صغرى، ونتيجة. فمثلا: المقدمة الكبرى، ينتمي أفلاطون إلى صنف الحيوان.

ولكن كيف يتميز عن الحيوانات الأخرى مثل الثعلب أو الأسد أو الحصان؟

فهذا يجرنا إلى:

المقدمة الصغرى: أفلاطون عاقل. ومن هنا نصل إلى:

النتيجة: أفلاطون حيوان عاقل.

ومع ذلك فإذا ما استعملنا القياس وجب أن نكون حريصين على عدم إساءة استخدامه، فيجب أن تكون لدينا مقدمة كبرى تنطبق على صنف أو نوع بأكمله، ومقدمة صغرى تميز فردا عن بقية النوع، وذلك حتى يمكننا أن نصل إلى نتيجة صحيحة. فالقياس الآتي مثلا مثير للضحك لأنه مبني على مقدمتين كبريين من غير أي تمييز نوعي:

المقدمة الكبرى: كل الناس حيوانات.

المقدمة الصغرى: كل القرود حيوانات.

النتيجة: كل الناس قرود.

وما هذه إلا واحدة من المغالطات المضحكة الكثيرة التي تنشأ من سوء استعمال المنطق. وقد صنف أرسطو هذه القضايا المغلوطة بطريقة علمية طبقا لقواعد ورسوم رياضية كان لها فضل هداية التفكير البشري السليم حتى يومنا هذا. ولنستمع إلى فولتير يقول في هذا الصدد: " إن أردت أن تتحدث إليَّ فتعلم كيف تستخدم منطق أرسطو ".

أما عن نظرية أرسطو الفلكية فمع أنها أصبحت اليوم غير ذات موضوع، إلا أنها بقيت مقدسة مرعية لما يقرب من ألفي عام، فكان يعتقد أن الأرض هي مركز الكون الثابت، وأن الشمس وجميع الأجرام السماوية الأخرى تدور حول الأرض، كما يفعل الأتباع حول العرش الملكي. ولم يبدأ الناس في نبذ نظام أرسطو الفلكي إلا عندما نشر كوبرنيق في عام ١٥٤٣ نظريته الشهيرة عن دوران الأرض حول الشمس. وهكذا شأن الكثير من آرائه العلمية الأخرى - في علم الحياة وعلم الحيوان وعلم الطبيعة وعلم الأجناس البشرية - وبالرغم مما أصابها اليوم من إهمال بصفة عامة، كانت تمثل في أيامه أعظم تقدم وصل إليه التفكير التحليلي. ويجب أن نذكر أن أرسطو لم يكن مزودا في الواقع بأي جهاز علمي يساعده على إجراء تجاربه، وإنما كان يعتمد فحسب على ملاحظته الشخصية للأرض والسماء. وبالرغم من ذلك فإنه مهد الطريق لعدد من الاكتشافات العلمية التي ظهرت فيما بعد، مثل التقارب بين المادة والطاقة، وانبثاق الحياة التدريجي من أشياء غير حية، وتطور وارتقاء الكائنات الحية خلال سيطرتها على البيئة التي تعيش فيها.

ومهما نقلب الأمر على جميع الوجوه فإن مرتبة أرسطو في العلوم ثانوية

فالنسبة لمقامه في الفلسفة. فلا يزال هو وأفلاطون يوحيان إلينا بأنبل الأفكار عن طبيعة الله والحياة الصالحة.

٥

حاول أرسطو أن يفند آراء كل من سبقوه من المفكرين. وقد علق فرانسيس بيكون على ذلك بقوله: " كان يعتقد أنه لا يستطيع أن يسود وهو آمن مطمئن إلا إذا قضى على إخوته جميعًا قضاء مبرمًا ". ونعني بهذا سلوكه من ناحية الفلسفة، فقد بلغت به الدرجة أن تناول حتى آراء أستاذه الحبيب بالتجريح العنيف والنقض، فهو القائل: " أحب أفلاطون، ولكنني أوثر الحق عليه ".

وبالرغم من ذلك فقد أخفق أرسطو في محاولته التضحية بأفلاطون في سبيل الحق. وفي الحقيقة فأن كل ما أثبته في فلسفته هو أن كلا من الأستاذ والتلميذ رأى الحق نفسه ولكن من زاويتين مختلفتين. ويهدف هذا الكتاب، كما سبق أن بينا، إلى كشف دائرة اتفاق وجهات النظر التي تضم وتوحد بين الأساليب الفلسفية العظيمة، بدلا من تسليط الأضواء على نقط الخلاف التي تؤدي بنا إلى حيرة وارتباك لا حد لهما. فهناك درجة كبيرة من الاتفاق، كما سنرى، بين أفلاطون وأرسطو وبين المحدثين من الأفلاطونيين والأرسطوطاليين.

وقد حاول أرسطو أن يؤكد أنه خرج على أفلاطون لعدم اتفاقه معه على ثلاثة موضوعات

هامة، ألا وهي: نظرية المثل، وطبيعة الله، وواجب الإنسان. ومع ذلك فإذا ما قارنا مؤلفات كل من الأستاذ والتلميذ في هذه الميادين وجدنا فرقًا طفيفًا بين آرائهما.

١ - نظرية المثل:

وعلى الرغم من تصريح أرسطو بانه لا يوافق على نظرية المثل الأفلاطونية فإن اختلافه هذا كان - إلى حد بعيد - اختلافًا على اللفظ، فهو جدل حول المعاني والأفكار. فكان يستبدل كلمة بأخرى: " الصورة " بدلا من " المثال ". وبينما كان مثال أفلاطون نموذجًا خارجيًّا يحتذيه الناس فقد كانت صورة أرسطو محركا داخليًّا يتبعه الناس.

وهكذا نجد في فلسفة أرسطو أن الشخص البالغ هو الصورة - أو الهدف الغريزي للنمو - أما الطفل فهو مادة هذه الصورة، والطفل بدون صورة، ومادته الجنين، والجنين بدون صورة والنطفة مادته، وهكذا دواليك. فكل شيء له غريزة دافعة - وهي ما يسميها العلم الحديث وظيفة طبيعية - لاكتمال النمو.

وحتى بالرغم من هذا التمييز بين المثال والصورة فإن أرسطو يتفق وأفلاطون على نقطة غاية في الأهمية: فسواء احتذينا نموذجًا خارجيًّا: (المثال) أم اتبعنا دافعًا داخليًّا: (الصورة)، فإننا نحاول جاهدين الوصول إلى تغيير مثالي من عالم أدنى إلى عالم أسمى، وكان كلا الفيلسوفين يعتقد أن كل شيء في العالم في حركة وتغير مستمرين لكي يصبح شيئًا أفضل. وهكذا فإن العالم الواقعي في تطور دائم لكي يصبح عالمًا مثاليًّا. وقد أكد أرسطو أن الحياة كلها تحركها رؤى داخلية، أما أفلاطون فقد صرح بأن الحياة كلها توجهها هيمنة خارجية، للسير متدرجة نحو النصر.

وفي عبارة أخرى فقد اشترك كل من أفلاطون وأرسطو في الاعتراف بقوة علوية محركة، أو باعث أصلي، أو إله.

٢ - طبيعة الله:

إله أفلاطون إن هو إلا مصمم نماذج العالم أو مُثُله. أما إله أرسطو فهو محرك أفعال العالم أو تغيراته، وبمعنى آخر صوره.

وهنا نعثر عند أرسطو على فكرة فريدة لم نر لها أثرًا عند أفلاطون. فإله أفلاطون متحرك، أما إله أرسطو فثابت، وبالرغم من أنه يحرك العالم بأكمله إلا أنه يبقى غير متحرك بذاته. وقد قال أرسطو في هذا: " إن الإله يوجه العالم كما يوجه المعشوق من يعشقه ". ولنفرض أن سيدة جميلة تجلس في حجرة الاستقبال، وقد استغرقت استغراقًا كاملا في أفكارها. وهي لا تنظر إلى أحد، في حين يوجه الجميع أنظارهم إليها، فإن جمال السيدة في الحجرة، قد لفت الأنظار، ودفع القلوب لتخفق، والعقول لتفكر. هذه طبقًا رأي أرسطو هي طبيعة الله. فمن غير أن يتحرك هو بشخصه، فإن " حبنا له يدفعنا جميعًا من الداخل إلى الحركة ".

ولعل أرسطو قد وصل إلى فكرته هذه عن إله عديم الحركة والانفعال خلال نظريته الفلكية غير الصحيحة. وطبقًا لهذه النظرية فإن الأرض هي المحرك غير المتحرك للكون. ولما كانت ملكة السموات تتخذ موقعها في مركز الكون، فهي الباعث الأصلي لدوران الكواكب والنجوم. فيبدو أن إله أرسطو لم يكن إلا الملك الفلسفي لهذه الملكة العلمية.

والإله في فلسفة أرسطو إن هو إلا القوة المغناطيسية التي تبعث في العالم الحياة وتنشطه، وهو ليس شخصًا وإنما قوة - مبدأ طاقة خالصة - قوة لم تخلق ولكنها خالقة، تحول المادة كلها إلى صورة، والحياة بأكملها إلى نموه وقصارى القول، فهو صفة رياضية لا تنفعل بعاطفة، ومجردة لا يحدها زمن أو مكان، وليست هي بالذكر أو الأنثى.

وبالرغم من ذلك كانت تصادف أرسطو لحظات ينسى فيها علمه ويذكر أفلاطون. وفي أثناء تلك اللحظات كان يناقض التي ينادي بها عن إله غير مشخص. وفي أماكن متفرقة من كتاباته، نراه يتصور الإله كنفس تشعر بذاتها وتشعر بالعالم. وهو كلما أماط فيها اللثام عن رأيه في الإله لا نرى إلا الصورة المألوفة لإله أفلاطون والفلاسفة الشرقيين.

وقد رأى أفلاطون " أن ألوهية الإنسان إن هي إلا صورة من ألوهية الإله. وقد أودع فينا هذا المثال لدفعنا من الأرض إلى السماء

". ثم نجد أن أرسطو الذي اشترك كما رأينا، مع أفلاطون في عقيدته بأن كل شيء في العالم يوجه إلى شيء أفضل، يصرح قائلا: " إن روح الله تحركنا لكي نغيّر أنفسنا ونصبح أمثلة لله " - أي نصبح قومًا عليهم أن يتعلموا كيف يعيشون معًا أكثر انسجاما.
ويجرنا هذا إلى علم الأخلاق عند أرسطو إذا ما قورن بعلم الأخلاق عند أفلاطون.
٣ - واجبات الإنسان:
وفي هذا المجال أيضًا بدأ التلميذ بهجوم عاصف على أستاذه، ثم انتهى بما يشبه الاتفاق التام معه في الرأي.
فقد صرح أرسطو بقوله إن الأخلاق عند أفلاطون من الجائز تطبيقها على شعب يعيش في مكان ما في السماء. وإنما نحن في حاجة إلى نظام أخلاقي يصلح للمخلوقات التي تعيش على
الأرض؛ لأن الناس أقرب ما يكونون إلى
الوحوش، لا إلى الملائكة. ولذا يحق لأرسطو أن يردد مع الشاعر الحديث
..... عجبي لإنسان إلى السماء يتوق
تسعة أعشاره طين وعشره نار، هذا هو المخلوق
كما أوضح أرسطو أيضًا أن فكرة أفلاطون عن الأخوة من الممكن تطبيقها بين أفراد
أسرة، ولكنها لا يمكن أن تتعدى هذه الدائرة إلى أفراد شعب كامل. فإذا ما حاولت أن تطبق الفكرة على مثل هذا النطاق الواسع، فإنك لا شك تحول العلاقة الوثيقة الحارة إلى شيء مفكك لا حرارة فيه. وكذلك فإن فكرة الملكية العامة لا يمكن تطبيقها في مجتمع كبير. فإن أنت قسمت الثروة كلها بين الناس جميعًا، فإنك بذلك تضعف المسئولية الشخصية لكل فرد.
وقد اعترض أرسطو كذلك على نظام أفلاطون الشيوعي الذي يسلب الحياة أحد مباهجها
العظيمة، ألا وهي حرية الخلوة؛ إذ أنه في ظل هذا النظام يعيش كل واحد وكأنه سمكة الزينة الذهبية التي تعرض ليشاهدها الجميع، مما يثير اشمئزاز كل عضو آخر في المجتمع. وتحت هذه الظروف المكشوفة المفضوحة فإنه يستحيل على الإنسان أن يمارس حكمة العدالة أو حتى فضيلة الصبر. فكل واحد يجد نفسه مضطرًّا لأن يتظاهر بما ليس فيه أمام الآخرين. ولهذا السبب قال أرسطو إنه علينا أن ننسى الأخلاق النظرية التي لا يمكن تطبيقها إلا في مكان خيالي للكمال البشري (يوتوبيا)، ثم نركز جهودنا على الأخلاق العملية التي تصلح لهذا العالم الذي نعيش
فيه. " فيجب ألا نفرض مستوى من الفضيلة لا يمكن أن يصل إليه الفرد العادي، أو نظامًا للتربية بعيدًا عن متناول الدولة العادية. بل من الواجب علينا أن نهتم بنوع الحياة التي في وسع غالبية
الأفراد أن يدركوها وبأنواع الحكومات التي في متناول غالبية الدول أن تحصل عليها ".
ولو أن الفرصة قد أتيحت لأفلاطون لرد على هذه الاعتراضات ردًّا سريعًا قوله: " ليست جمهوريتي مشروع خطة لدولة تبلغ أوج الكمال اليوم، وإنما هي تطلع وطموح إلى دولة أفضل
للغد. وإني لمتفق معك في كل ما تعرض، وهذا ما حدا بي أن أطور نظامًا أخلاقيًّا، مأخوذًا من القواعد الأخلاقية السامية المرعية في مدينة الملائكة، لكي يكون صالحًا لطبقة عادية من الناس ".
ويشبه قانون الأخلاق الذي وضعه أرسطو إلى حد بعيد قانون أفلاطون، فقد قال أرسطو إن الهدف من سلوك كل إنسان ما هو إلى السعادة خلال التناغم. " فنحن نتخير معايير
خاصة - مثل الشرف والبهجة والمعرفة - لأننا نعتقد أن هذه المعايير ستقودنا إلى السعادة ".
ولكن ما طبيعة هذه السعادة؟ وما الذي يعين " الغاية والهدف من وجودنا؟ " فيحدد أرسطو هذا الهدف بكلمة بسيطة - هي الشعور بالغبطة. ولكن أرسطو يستطرد فيقول إن الشعور بالغبطة نتيجة للعمل الطيب. والسعادة في عبارة أخرى ليست حالة سلبية، وإنما هي حركة فعالة. فنحن لا نتقبل السعادة وإنما يجب أن نسعى للحصول عليها. فالهدف من الحياة إذن، هو الحصول على السعادة عن استحقاق، وذلك بالقيام بأعمال صالحة " بإرشاد العقل وهدايته ".

ويرى أرسطو أنه لكي نعمل بهذه الطريقة للوصول إلى هدف الشعور بالغبطة، فإنه من الضروري بادىء ذي بدء أن يكون في حوزتنا قدر معقول من الثروة المادية. وما هذا المستوى المعيشي المناسب لكل إنسان إلا واجب
الدولة كما هو حق الفرد أيضًا. " إذ أنه من الصعب أن تطلب من الرجل الفقير أن يكون سعيدًا أو صالحا ". كما أنه من الخطورة بمكان على الدولة أن تعج بمواطنين تغلي نفوسهم ضجرا وتبرما. ومن هنا كان التوزيع العادل للملكية الخاصة، هو الطريق السليم الذي يؤدي إلى ما فيه الخير الأعم للجميع، شعبا وحكومة.
ولم تكن هذه الفكرة التي تنادي بتنظيم الدولة للملكية الخاصة إلا تهذيبا وتحسينا، لا ابتعادا عن الفكرة الأفلاطونية، باشتراك الجميع في تملك كل أنواع الثورة. كما أن أفلاطون لم يحبذ تطبيق نظامه الشيوعي إل بين طبقة الحكام الممتازين فحسب - الرجال والنساء الذين يشغلون أعلى مناصب الدولة، والذين أثبتوا عن طريق تربيتهم وسلوكهم وقدرتهم على السيطرة على أنفسهم وعلى الآخرين سواء بسواء. فهؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يستمتعوا بمزايا الملكية المشتركة ويتجنبوا أخطارها. أما فيما يتعلق بالجماهير في جمهورية أفلاطون , فإنه من حقهم أن يكونوا ملكيات خاصة، ولكن بشرط أن تكون تحت إشراف وتوجيه الدولة. ومع أن أفلاطون كان قد خطط نظامه الأخلاقي كمثل أعلى للقلة وللكثرة على السوء، نجد أن أرسطو حاول بعد ذلك أن يضع هذا المثل في قالب عملي يصلح معيارا للجميع.
ولنترك ذلك جانبا، ولنعد إلى الأخلاق عند أرسطو، فنستمع إليه يصرح بأنه ما إن نتأكد بأنفسنا من حالتنا المادية الطيبة حتى يكون في وسعنا آنئذ أن نوجه اهتمامنا إلى سلوكنا
الحقيقي، أي أن نحول شعورنا بالغبطة إلى عمل صالح. والطريق الذي نسكله إلى هذا التحويل ينبغي أن يكون الطريق الوسط العدل، فيجب أن نبذل جهدنا لنتجنب الوقوع في الأخطاء البشرية
المتطرفة التي يعبر عنها أحيانا بهذه الكلمات المشئومة (أكثر مما ينبغي، بأسرع مما ينبغي، أو أقل مما يجب أن يكون، متأخرا أكثر مما يجب أن يكون). فعلينا أن نتخير دائما الطريق المعقول الذي يقع في الوسط بين النهايتين المتطرفتين: الإفراط والتفريط.
فعلى سبيل المثال: إذا ما صادفنا خطرٌ ما، فإننا نواجهه بسلوك طريق من ثلاثة: فيمكننا أن نلجأ إلى النهاية القصوى من التهور، هذا طريق، أو إلى النهاية القصوى من الجبن وهذا طريق آخر، أو نستطيع أن نتخير أسلوبا وسطا من الشجاعة التي لا هي بالتهور ولا هي بالجبن. وكما لاحظ أرسطو فإن كل فعل بشري وكل صفة بشرية يمكن أن توضع موضع هذا الاختبار ذي الوجوه الثلاثة - وهي التفريط والإفراط (النهايتان المتطرفتان المتضادتان) والوسط العدل. وعلى هذا القياس فإن الصداقة وسط بين الملق والشراسة. والسخاء وسط بين التبذير والبخل. واحترام النفس وسط بين التعاظم والخنوع، وضبط النفس وسط بين الإفراط في شرب الخمر والتفريط في الإمساك.
وما ضبط النفس أو التعفف أو الاعتدال في كل الأفعال، طبقا لأرسطو، إلا أسمى فضيلة عند الإنسان، كما أنها أسلم طريق إلى السعادة.
ولكن من الواجب أن نسلك هذا الطريق كل حين؛ فضبط النفس ينبغي أن يكون وسيلة التعامل العادية بين الإنسان وأخيه الإنسان " وإنجاز أعمال صالحة كل يوم هو الذي يصنع الشخصية الصالحة ... إذ أن عصفورا واحدًا لا يبشر بالصيف، كما أن فعلا صالحا واحداًلا يخلق الحياة السعيدة ".
فالحياة السعيدة، إذن، إن هي إلا حياة يسودها ضبط النفس بتطبيق
الوسط العدل تطبيقا عمليا. فنحن في حاجة إلى الحكمة التي ترشدنا إلى السلوك القويم. وكما أشار أرسطو فإنه ليس من السهل دائما أن نميز بين الوسط والتفريط والإفراط. وكل إنسان يعتقد لاشعوريا أنه في الوسط السوي، وأن أي فرد آخر سواه إلى يمينه أو إلى يساره إن هو إلا في الناحية العكسية. وهكذا " نجد أن الرجل الشجاع يسميه الجبناء متهورا، ويسميه المتهورون جبانا ".
(وفي السياسة الحديثة يسمي الرجعيون الشخص الحر أو مستقل الرأي شيوعيا، ويسميه الشيوعيون رجعيا).
ولكي نتفادى هذه الحيرة بين الوسط والإفراط والتفريط، علينا أن نوجه اهتمامنا إلى تربية أفضل. وفي عبارة أخرى، فالحياة الصالحة لا تقوم على الفعل الصواب فحسب، وإنما على العلم الصحيح أيضا. ومرة أخرى نجد أن أرسطو يتفق هنا مع أفلاطون، بالرغم من

محاولته الخروج عليه. فيؤكد المعلم والتلميذ كلاهما - بالرغم من اختلاف ألفاظهما إلى حد ما - أن الشقاء ما هو إلا نتيجة السلوك السيء الذي هو بدوره نتيجة العلم. ويصرح أرسطو بأنه من واجبنا أن نتعلم حتى يمكننا أن نسيطر على أنفسنا، ونعتدل في رغباتنا الذاتية، وسلوكنا مع إخوتنا في البشرية. وما هذا إلا أسلوب آخر للتعبير عن تصريح أفلاطون: بأن من الواجب أن نتعلم لكي نتمكن من تعديل وتكييف أنفسنا، وتخفيف حدة رغباتنا المتضاربة، وتلطيف علاقاتنا بإخوتنا في البشرية. وهكذا يعبر كل من الفيلسوفين عن فكرة واحدة بذاتها، أرسطو بلغة العالم، وأفلاطون بأسلوب الشاعر.

وفي الحقيقة إن أرسطو يشبه أفلاطون كثيرا عندما يوجز قواعد الأخلاق التي وضعها، فلنستمع إليه يقول: " ليس السعيد حقا والذي يستمتع بنعمة الصحة والثروة والصداقة إلا من يعمل طبقا لمعرفته بالفضيلة الكاملة المتناغمة، طوال
حياة كاملة متناغمة أيضا ... فهو يقوم بالعمل في الوقت المناسب مستشهدا بالأشياء
الصحيحة، متعاملا مع العادلين من الناس، مسترشدا بدافع حق، وسالكا طريق الصواب ". وما هذه إلا صورة جيدة متقنة للإنسان العادل عند أفلاطون والإنسان البار عند أشعياء، والإنسان الكامل الأسمى عند كونفوشيوس. وهكذا لا يتوقف تيار الحكمة المركزي عن سيره، ولا يعوقه عائق مهما كانت طبيعة الأرض التي ينساب فوقها. فليس فلسفة أرسطو إلا استمرارا للوحدة الجوهرية التي تربط الفلسفة ككل. " فالإنسان السعيد حقا هو الإنسان الفاضل حقا ".

وقال أرسطو في هذا الصدد أيضا: " إن الإنسان الفاضل الكامل يجد متعة في فعل الجميل وتقديم المعونة، ولكنه يشعر بالخجل إذا أسدي إليه جميل أو قدمت إليه معونة ... وهو لا يذم أحدا حتى أعداءه، إلا إذا كان في مواجهتهم، ويتميز كلامه دائما بطابع الصدق والمشاركة الوجدانية
الحانية ". فإن هو إلا موثق الصداقات. ومن ملاحظات أرسطو قوله: " إذا ما وقع نظرك على صديقين فأنت لا ترى إلا روحا واحدة في جسدين ". والإنسان الفاضل الكامل شخص سخي لأنه حكيم. " فاهتمامه بالآخرين ليس إلا انعكاسا لاهتمامه بنفسه ". وذلك لأنه يعرف جيدا أن كل إنسان ما هو إلا عضو في جسم الجنس البشري.

٦

والصورة التي يرسمها أرسطو للإنسان الفاضل الكامل ما هي إلا صورة أرسطو نفسه، فقد احتفظ برباطة جأشه وسط فتوح الإسكندر وغزواته التي ملأت سمع الدنيا وبصرها، إذ أن هذا التلميذ السابق قد أخفق في تعلم الدرس الذي لقنه إياه أستاذه. وأذعن كلية لشهوة الحكم والسلطان، فكم من قصص مذهلة عن هذا المجنون المقدوني رواها اللاجئون الذين نزحوا من الأقطار التي حل بها الدمار والخراب. فقد كانت حياته إعصارا عاتيا من النزوات. ولم يكن
غريبا أو عجيبا أن يهب أحد أصدقائه إحدى الممالك، ثم لا يلبث أن يحطم رأس ذلك الصديق في إحدى نوبات سكره. ويحكى أن أحد ضباطه مات بسبب رفضه اتباع أوامر الطبيب. فما كان من الإسكندر إلا أن أمر بصلب الطبيب لأنه أخفق في إنقاذ حياة الضابط. ثم رأى بعد ذلك تكفيرا عن جوره أن يذبح سكان مدينة بأكملها. وحدث مرة أن طلبت إحدى الراقصات مشعلا يضيء لها طريق العودة إلى بيتها بعد أن انتهت من دورها في تسلية الإسكندر، فما كان منه إلا أن أشعل النار في قصر الملك الفارسي، ثم أردف قائلا: " أظن أن هذا يعطيك فيضا من النور، يا عزيزتي ".

وكان أرسطو يسمع مثل هذه القصص عن الإسكندر الذي يحكى أنه بكي عندما لم يجد أمامه غير عالم واحد يغزوه. وقد علق أرسطو على ذلك بقوله: " يا للحسرة، إنه لم يتعلم كيف يغزو جشعه الشخصي ".

فلما وصلت هذه الكلمات إلى مسامع الإسكندر شعر أن معلمه كان يبغي قلب النظام الذي يتبعه، فقد جرؤ على نقد سلوكه الدكتاتوري نحو العالم. وقد أعلن أرسطو ذلك بقوله: " إن الدكتاتوريات هي أردأ أنواع الحكومات قاطبة ". فاعتقد الإسكندر أن هذا البيان قصد به طعنه طعنة مباشرة، فأعلن عزمه على التخلص من أرسطو حالما ينتهي من غزواته.

ولم ينقذ حياة أرسطو من هذا الخطر الداهم إلا موت الإسكندر فجأة (عام ٣٢٣ ق. م) وهو غارق في خمره وفسقه وفجوره. ولكن خطراً آخر واجه الفيلسوف آنئذ، إذ اتهمه الأثينيون بإرسال معلومات سرية إلى خليفة الإسكندر، أنتيباتير، وأعدوا العدة للقبض عليه كما فعلوا بسقراط من قبل، متهمين إياه " بالإلحاد وخيانة الدولة ".

وقد أفلت أرسطو في آخر لحظة قبل أن يلقوا القبض عليه، وصرح قائلا: " لا حاجة بي إلى أن أهيىء لأثينا فرصة ثانية للإجرام ضد الفلسفة ".
وهرب أوبا - وهي جزيرة في بحر إيجه - حيث قضى بعد بضعة أشهر؛ إذ ترجع كأسًا من السم أعدها لنفسه، فهكذا اعتقد الناس بعد أن صرح بقوله: " إذا كنت لم أعد أستطيع ممارسة التعليم فإنني لم أعد أعير الحياة أي اهتمام ".
وقبيل أن يلقي حتفه سطر ما يمكن أن يوصف بأنه أعظم عمل قام به - ولم يكن هذا سوى وصيته التي حرر فيها عبيده - وهكذا سجل التاريخ لأرسطو إعلانه تحرير العبيد، قبل إعلان إبراهام لنكولن بما يقرب من ألفين ومائتي عام.

٤٠٥ الفصل التاسع: ديوجينيس

الفصل التاسع
ديوجينيس
(حوالي ٤١٢ - ٣٢٣ ق. م)
قال ديوجينيس: إن إنسان أفلاطون الذي هو كامل العدالة، أو إنسان أرسطو الذي كامل السعادة، إنسانٌ يندر وجوده، هذا إذا كان له وجود قط.
وكان ديوجينيس - شأنه في ذلك شأن أفلاطون وأرسطو - واحدًا ممن تخرجوا في مدرسة سقراط الفلسفية، فقد كان تلميذًا للفيلسوف أنتستانس الذي كان تلميذا لسقراط، وعلى النقيض من أفلاطون وأرسطو، نجد أن أنتستانس وديوجينيس كانا ساخرين بالعالم، أي فيلسوفين
" كلبيين "، إذ كانا " ينبحان " على العالم (يسخران منه) لأنه يضم تسعة وتسعين وغدًا مقابل كل إنسان واحد مهذب.
وكان ديوجينيس يعيش في عصر خال من الأوهام والخيال خلّفه قرن من الزمان ظلت طواله تستعر نيران الحروب. ونقلا عن الأستاذ س. ف. أنجوس في كتابه تاريخ كمبردج
القديم، فالفلسفة آنذاك " لم تعد عمود النار والنور الذي يقتدم العدد الضئيل من البواسل الباحثين عن الحق ". وإنما كانت الفلسفة أشبه ما تكون " بعربة إسعاف تسير في إثر يقظة من الصراع من أجل البقاء، وتلتقط الضعفاء والجرحى ". ولكن ديوجينيس لم يأبه حتى بالانضمام إلى قوة عربة الإسعاف لكي يقدم يد المساعدة إلى ضحايا الحطام، وإنما نراه قد اكتفى
بمشاهدة المأساة والتنفيس عما يشعر به مخن مرارة نحو عالم سمح لنفسه أن يتحطم.
وكان يرى أنه ليس هناك مسوغ لوجودٍ وظيفتُه الأساسية هي السلب، وهدفه النهائي هو الموت. ولم يكن يحترم الغزاة ولا فتوحاتهم.
ويحكى أن الإسكندر الأكبر قدم يوما ما لزيارة الفيلسوف الذي كان قد اتخذ دنّا مكانًا يؤويه. فسأله ديوجينيس قائلا: " ما هي أعظم أمنياتك في الوقت الحاضر "؟
فأجاب الإسكندر بقوله: " إخضاع بلاد اليونان "
" ثم ماذا؟ "
" إخضاع آسيا "
" ثم ماذا؟ "
" إخضاع العالم؟ "
" ثم ماذا؟ "
" أهدأ وأستريح وأمتع نفسي "
" ولم، إذن، لا تهدأ وتستريح وتمتع نفسك الآن؟ "
ويروى أن الإسكندر شكر ديوجينيس على نصيحته ثم سأله: " هل من عون أقدمه لك؟ "
فأجاب الفيلسوف: " نعم، يمكنك أن ترحل، فإن ظنك يحجب عني الشمس. كما أنني مثلك راغب في الاسترخاء ومتعة النفس ".

فاستغرق الملك في الضحك واستطرد قائلا: " لو لم أكن الإسكندر لفضلت أن أكون
ديوجينيس، لا أي رجل آخر ".
فرد الفيلسوف الساخر قائلا: " ولو لم أكن ديوجينيس لفضلت أن أكون أي رجل آخر سوى الإسكندر ".
ولم يكن ديوجينيس يهاب أحدًا، أو يخشى شيئًا، فلم يكن له ما يفقده سوى حياته. " وقد ضاعت حياتي منذ اليوم الذي ولدت فيه؛ فالمسألة عندي سيان، سواء استوفيت أجلي الآن أم فيما بعد ".

٢

كان هم ديوجينيس تمهيد السبيل للأخذ بفكرة البحث عن القيم الحقيقية، أي فهم أفضل للفرق بين قيمة الشيء الحقيقية وما يتكلفه من ثمن، فكان يود أن يرى السعادة، ولكن من غير أن يكون ثمنها البغي والعدوان، يرغب في العدالة من غير أن ندفع للحصول ضريبة الانتقام والثأر، ويرغب في القناعة التي لا تقاس بتكديس الفضة أو الذهب، وإنما بامتلاك عقل رصين. وكان يهدف
إلى " سك العملة من جديد "، كما جاء على لسانه: أن ارفضوا العملة الزائفة وقدموا العملة الصحيحة. سكوا أفكاركم وأفعالكم من المعدن الممتاز الذي تصنع منه الشخصية الأفضل.
وكان ديوجينيس حساسًا من ناحية العملة الزائفة، فقد سجن أبوه، وكان صاحب
مصرف، لضربه عملة مصنوعة من معدن رخيص. كما أن ديوجينيس نفسه نفي في شبابه خارج مسقط رأسه مدينة سينوبي على البحر الأسود لاشتباههم فيه كشريك في الجريمة.
ومن المحتمل أن هذا الاشتباه لم يكن له أساس من الصحة؛ إذ المعروف عن ديوجينيس أنه كان يحتقر النقود وما يشترى بالنقود من أدوات الترف أيما
احتقار. ولم يأسف على مغادرته موطنه الأصلي حتى إنه عندما أصدر القضاة حكمهم عليه بالرحيل عن سينوبي رد الإهانة ساخرًا بقوله: " وأنا بدوري أحكم عليكم بالبقاء في سينوبي ".
واتجه إلى أثينا، وهناك تقدم طالبًا الالتحاق بمدرسة أنتستانس الفلسفية. وكانت طريقة طلبه مثيرة للعواطف. فبينما كان الأستاذ يحاضر طلبته إذا بهذا الشريد الأشعث، رث الثياب، يدخل الحجرة وهو يدك الأرض بقدميه دكا، ويصمم على أن يتخذ لنفسه مكانًا بين الطلبة. وعندئذ قوبل بصيحات الغضب والسخرية: " اخرج أيها الكلب الأجرب "! " غير مرخص للمتسولين بالدخول هنا "! " عد إلى الوحل، مكانك الطبيعي "!
ثم حاول أنتستانس في رقة، ولكن في حزم، أن يخرج الدخيل: " أظن أنك لو عدت إلى بيتك وهندمت نفسك قليلا " - فأجاب ديوجينيس قائلا: " لا بيت لي، وإني مصمم على البقاء هنا وأنا على هذه الحال. يدعونني كلبًا، حسنًا جدًّا، إني أتفق معهم، فقبضتي على الفلسفة كقبضة الكلب تمامًا. ولن تلين قبضتي، بل سأبقى متمسكًا بها "!
وعندئذ أخذ يضربه بعض الطلبة ممن يميلون إلى العنف بدرجة أشد. ولكنه كان يصرخ فيهم قائلا: " استمروا، اضربوني كما يحلو لكم. فلم تخلق بعد قبضة اليد الصلبة التي يمكن أن تبعدني عن الفلسفة "!
وهكذا سمحوا له بالبقاء. ولم تمض مدة طويلة حتى تحول احتقارهم لديوجينيس إلى درجة من الاحترام، فلم يكن في استطاعتهم إلا أن يعجبوا شاب رفض أن يسير في ركاب العرف
والتقاليد، لأنه كان يجدّ في طلب الحق.

٣

كان سقراط وأنتستانس وديوجينيس يشتركون في الكثير من الآراء، فثلاثتهم كانوا يؤمنون بالمذهب القائل: إن معرفة الناس هي بداية المعرفة كلها. ولكن أنتستانس ترك سقراطا وراءه وتقدم خطوة إلى الأمام. كما أن ديوجينيس سبق أنتستانس بعدة خطوات. وقد قال سقراط: " اعرف نفسك ". أما أنتستانس فقد صرح بقوله: " تقدم من معرفة النفس إلى السيطرة على النفس ". وبالرغم من أنتستانس كان يعد أرستقراطيا حتى وفاة سقراط، إلا أنه كرس نفسه بعدئذ لحياة بسيطة يظللها الخير والصلاح؛ فقد انتابته حالة

من الضجر والاشمئزاز نتيجة لأحكام القضاة الظالمة. ونحن نجد أن سقراطا باستسلامه لعقوبة الإعدام قد أعلن أنه يؤمن بقوانين أثينا التي سنها الإنسان. على حين كان أنتستانس يحاول أن يحدد إذا كانت قوانين أثينا التي هي من صنع الإنسان تتفق وقوانين الكون التي هي من صنع الإله.

وأمكنه في النهاية أن يجد أنه في بعض الأحيان تتضارب هاتان المجموعتان من القوانين. ولذلك قرر أن ينبذ عرف بلده الاجتماعي ويلجأ إلى الطبيعة مسترشدا بها. وفي عبارة أخرى، قرر أن يقيم مدينة أفلاطونية مثلى من إنشائه - هي مملكة السماء على الأرض.

وكانت الفلسفة المسيحية لأربعة قرون قبل ظهور المسيح، تصر على رفض الثروة المادية، وتقبُّل الحكمة الروحية، فقام أنتستانس - شأنه في ذلك شأن فيثاغورس - يعلن أنه لا ينبغي أن تكون هناك ملكية خاصة من أي نوع

إذا أنه كان يؤمن بشيوعية الملكية، ومشاركة النفوس في وحدة واحدة. كما كان من أنصار إلغاء الرق، وبألا يكون للسادة حياة مترفة وبألا يعاني الجوع عامة الشعب، وبألا تسنَّ القوانين في صالح الأقوياء على حساب الضعفاء.

وكان التلميذ ديوجينيس أكثر تطرفا من معلمه، فلم يعارض الملكية الخاصة فحسب، وإنما رفض كل أنواع الملكية. وعاش على التسول، يدفع ثمن ما يحصل عليه من صدقات " أثمن

العملات - ألا وهي الفلسفة ". وسمى نفسه أخا الجنس البشري كله، وكل الأشياء الحية

كذلك. وهكذا صار مواطنا عالميا شريدا. وبتجريده نفسه من كل متاع فقد عثر على أعظم

عطية - ألا وهي التحرر من الخوف من سرقة العالم؛ إذ لم يكن لديه ما يستحق أن يسرق. وكان يعتبر نفسه كامل الحرية والاستقلال. ولنستمع إليه يقول في هذا الصدد: " يأكل أرسطو عندما يشاء الملك، أما ديوجينيس فإنه يأكل عندما يشء ديوجينيس ".

وبالرغم من ذلك فقد كانت تمر بالفيلسوف لشريد أوقات يعضه فيها الجوع. فإذا ما سأل بعضهم كسرة من الخبز ألقموه عددا من الحجارة. وذات يوم رأوه وهو يسأل أحد التماثيل إحسانا. وكان إذا ما رغب بعضهم في معرفة السبب الذي من أجله يسلك هذا السلوك الغريب يجيبهم بقوله: " إنني أتلقى دروسا في كيف أَطْلُبُ فأردُّ خائبا ".

وقصارى القول أن شخصية ديوجينيس تتلخص في أنه كان متواضعا كأنه متسول، ومتشامخا كأنه ملك. أما نظرته المقلوبة إلى العالم، نظرة الهازىء، فقد كشفت الستار عن حقائق كثيرة في هذا الضوء الجديد. وحدث مرة في أثناء تجواله أن أسره بعض القراصنة. فلما عرضوه للبيع في سوق العبيد ابتدر المشترين الذين وقع اختيارهم عليه بقوله: " أيها العبيد، تقدموا لشراء

سيد ".

وكان على أهبة الاستعداد دائما لتطبيق فلسفته وتلقيها سواء بسواء. ويروى أنه أمسك مرة بتلابيب صبي كان قد ارتكب حادث تخريب، فصحب المذنب إلى بيته، وهناك صفع والده وهو يقول: " إنني لا أوجه لوما إلى الابن على سوء فعلته، فهو لم يتعلم شيئا أفضل، ولكنني أصب لومي على الأب الذي لم يعلم شيئا أفضل ".

وهكذا كان يتجول في عباءته الرثة، يقابل الكثير من الصدمات، ويلقي قدرًا ضئيلا من

الاحترام، ولكنه يستمتع بالاطمئنان الناتج من فهم صادق لغرور الحياة. ولنستمع إليه يقول في هذا الصدد: " إذا ما صادفت رجلا أنيق الملبس فأنا الذي أقر عينا لا هو، إذ يقع نظري على أبهته بينما يقع نظره على رث ثيابي ". وحدث في إحدى الليالي أن لفت نظره فأر يجري في حرية، من غير ما حاجة إلى مسكن، ولا خوف من الظلام. فعلق على ذلك قائلا: " لست أنا والفأر إلا روحين متجانسين. ينام هو في جحره وأنا في دني. وإلى أن نقع في فخ القدر فكلانا قانعان بالانطلاق في أرجاء العالم، من غير ما عائق يقف في سبيلنا ".

ولم يكن يقلق باله شيء، فقد كان خاوي الوفاض لا يملك من طعام الدنيا شيئًا. أما حاجاته الضرورية القليلة فكان يحملها في جعبة يعلقها على كتفه، وكان إذا ما قسا الجو يقرفص في

دنه، وإذا ما صحا الجو مدد جسمه في العراء، ملتحفا بالسماء. " فأي مسند للرأس أكثر ليونة من حزمة من السمار؟ وأي رياش أفخر من الأزهار والأشجار؟ ".

وكان دائم الأسفار مشيا على قدميه من مكان إلى مكان، ولكنه اتخذ من أثينا المركز الرئيسي لإقامته. وهنا كان يحاضر الناس في الشوارع، كما كان يفعل سقراط. وكانت دعاباته تقابل بالسخرية من الغالبية العظمى، ولم يكن يقهقه لها
إلا نفر قليل، إذ أنها لم تكن دائمًا من النوع الرفيع. ومع ذلك فقد يحدث أن ينصرف عنه أحد المستمعين وقد ازداد علمه ورق قلبه. وذلك لأن ثياب ديوجينيس الرثة ولسانه الساخر كانت تخفي وراءها قلبا من أكثر القلوب العامرة بالدفء والحماسة في العالم القديم.
٤
كان ديونيجيس يهاجم الحماقة بمرارة، وذلك لأنه كان يرثى لحال الحمقى. فكان يرد من صميم قلبه أن يجد الناس جميعًا سعادة أعظم، باستمتاعهم بحكمة سامية. وكما قال فإن الحياة في ظل هداية الحكمة لا بد أن تؤدي إلى البساطة والحرية والأمان.
١ - البساطة: تنشأ السعادة، كما صرح ديوجينيس، نتيجة لإشباع الرغبات. وكلما كانت الرغبات أبسط، كان إشباعها أسهل. وأضاف يقول: " إن أعظم لذة هي أن تحتقر كل لذة ". ففي استطاعتك أن تربح العالم إذا أنت نبذت العالم. وما مصدر الشر كله إلا الرغبة في الحصول على أكثر مما ينبغي. فحتى في الأساطير نجد أن الله عاقب بروميثيوس البطل الأسطوري الذي اكتشف فائدة النار، لأن " عطية النار هي الطريق إلى الرفاهية والكسل وكل الويلات الأخرى في الحياة المتحضرة " وكان إذا دخل أحدهم معه في جدل عن طبائع الناس، وكيف أنهم على نقيض الحيوانات يتميزون برقة أجسامهم وتجردها من الفراء أو الشعر كما أنهم في حاجة إلى دفء صناعي، يرد ديوجينيس بأن الضفادع وشعرها أقل من شعر الإنسان في استطاعتها أن تعيش من غير ما منغص في أكثر أنواع المياه برودة. وقال في ذلك: " إن الحكم في هذا الموضوع كله للعادة وحدها ".
وقد صرح ديوجينيس بأن أقصر طريق إلى القناعة هو تجنب الرفاهية. ولما سئل أن يلخص سر الحياة الصالحة أجاب قائلا: " يمكنني أن ألخص هذا السر في ثلاث كلمات: الجَلَد بدون ثروة ".
وحدث مرة أن انضم إلى جمع غفير من الناس كانوا في طريقهم إلى مباراة في ألعاب القوى. فسأله أحدهم: " هل أنت أيضا ذاهب متفرجًا؟ "
" لا: إنني ذاهب متباريا ".
فتهكم الغريب متسائلا: " وأي نوع من الألعاب تنوي أن تشترك فيه؟ " فما كان من ديوجينيس إلا أن أجاب بقوله: " العدْو والمصارعة. فإنني أسرع عدَّاء فرارا من اللذة، وأقوى مصارع
للألم ".
وقد بلغ ديوجينيس، شأنه في ذلك شأن هنري ثورو، تلميذه الأمريكي، ما كان عليه من جرأة خلال ما قاساه من شدة وضيق. وذكر ابكّاتوس الفيلسوف الرواقي " أن هذا الكلبي البار عثر لنفسه على السعادة، بالتدرب على الحرمان ... ولم تكن بساطته الكاملة وضعا مصطنعا وإنما كانت تربية عملية لرجل بلغ من رقته وحبه لخير البشر أن آلى على نفسه عن طيب خاطر أن يعيش فقيرا لمنفعة البشرية العامة ".
طوبى للفقراء لأنهم يرثون الأرض. فإن إحدى القصص التي تروى عن ديوجينيس تشبه إلى حد كبير مثلا من الأمثال التي جاءت في العهد الجديد. قال ديوجينيس: " تأملت عطايا هؤلاء الذين قدموا إلي خبزًا، فمن انتفع بتعاليمي قبلتُ عطيته ورفضت عطايا الآخرين، لأنني رأيت أنه ليس من العدل أن آخذ شيئًا ممن لم أستطع أن أعطي له شيئًا ... وذات مرة ذهبت إلى منزل شاب
ثري جدًّا وقادني إلى غرفة مزخرفة بالذهب، ومزينة باللوحات الملعقة في جميع أرجائها، فأظهرت له بتصرفي وسلوكي أنه لم يكن موضع احترامي، لا شخصه ولا متاعه ... وعندئذ قال
الشاب: " إن تصرفك هذا لدليل على أنني جلف غير متعلم، ولكني أؤكد لك أنه لن تتهيأ لك فرصة أخرى لتعيّرني. فمن هذه اللحظة سأكون إلى جانبك ". وبالفعل لم يمر اليوم التالي حتى كان قد تخلص من جميع أملاكه بتركها لأسرته، ثم حمل جعبة الكلبي (الساخر) وتبعني ".
ومضى ديوجينيس يقول: إن تلميذه الجديد تذوق طعم راحة البال الحقيقية لأول مرة في حياته. فإنه بارتقائه من الأبهة والغنى إلى

رث الثياب، تبرأ من طغيان الملكية، ووجد الحرية.

٢ - من البساطة إلى الحرية: كان ديوجينيس يحتقر قيم الحياة الزائفة، وقد مكنه هذا الاحتقار من أن يصبح " السيد الكامل الأوحد في عالم العبيد ". ويعتبر ديوجينيس مبشرًا بالقديس بولس عندما صرح بقوله: " إن الله قد جهَّل حكمة الإنسان المزعومة ". وذات يوم أخذ يتجول وفي يده سراج منير، فلما سئل عما دعاه إلى هذا السلوك؟ أجاب قائلا:" إنني أبحث عن رجل تتوافر فيه الأمانة والحكمة والحرية ".

كما قال: إن الحرية ليست إلا ثمرة الاكتفاء الذاتي. وعندما سأله أحد الأصدقاء عن الوقت المناسب للزواج أجابه قائلا: " إذا كنت حديث السن كان الزواج مبكرًا أكثر مما ينبغي، وإذا كنت أكبر سنًّا كان الزواج متأخرًا أكثر مما ينبغي ". ولما كان هو عزبًا فقد كان دأبه الاعتراض على الزواج، بحجة أن عائل الأسرة عبد للثروة. كما كان من رأي ديوجينيس أن الانتحار الجماعي يعتبر حلا سعيدًا وتحريرًا أسمى من الألم - أو قل هو نوم هادىء

نهائي بعد كابوس من الوحشية والكراهية والظلم، وشهوة المنصب والشهرة والثروة. ولما كان الانتحار الجماعي يستحيل إنقاذه فقد اقتنع ديوجينيس بأن أحسن حل، إذن، هو تحرير الفرد من شهواته المحمومة التي تسبب كابوس الحياة التقليدية.

وقد نصح ديوجينيس بأننا لكي نكون أحرارًا علينا أن نطرح أغلال الشهوات وقيود

المخاوف، وألا نكون عبيدًا للقلق على مستقبلنا أو الندم على ماضينا. فما كان قد كان، وما يكون سيكون. وما علينا إلا أن نؤكد تحررنا واستقلالنا في وجه القدر وفي حضرة الناس جميعًا.

ولم يظفر ديوجينيس بحريته إلا باستقلاله وتحرره الشخصي. فحتى أثناء فترة عبوديته لما أسره القراصنة ظل كما وصف نفسه رجلا حرًّا. " إنني متحرر من المعاناة التي تفرضها النفس. فالمعاناة إن هي إلا حالة عقلية. ولا يسبب لك الألم سوء طالعك وإنما رثاؤك لنفسك ". ففي رأي ديوجينيس أن موت سقراط الإرادي لم يكن إلا فعلا من أفعال العبودية. إذ استسلم سقراط لقانون غير عادل، ولكن على النقيض من سقراط فقد اعتبر ديوجينيس نفسه حرا مطلق

الحرية. " وذلك لأنني أرفض أن يستعبدني العرف الأخرق أو القوانين الظالمة ". وقد بلغ أعلى مراتب السيطرة بأنواعها - السيطرة الكاملة على نفسه. حتى إنه قال في ذلك: " إن السيطرة على النفس هي الحرية الوحيدة التي يقام لها وزن ".

٣ - من الحرية إلى الطمأنينة: اعتبر ديوجينيس نفسه حرًّا لأنه كان بسيطا، وآمنا مطمئنا لأنه كان حرا. ولنستمع إليه يقول: " يمكنك أن تخفف من وقع صدمات القدر بتهيئة نفسك

سلفا ". فكلما قل ما تتوقعه

من الحياة، قل ما تصادفه من خيبة الأمل. وكلما ضاقت رقعة أملاكك، خفت خسائرك. فإن كنت لا تملك شيئا فليس هناك ما تخشى أن تفقده ولا ما يثير فيك الخوف. والأمن الحقيقي لا يتوقف على إحراز أملاك وإنما يقوم على رفضها. وإن تطلب كثيرا فلن تقف شهوتك عند

حد، ولكنك إذا لم تطلب شيئا فمن المؤكد أن تحصل على روح هادئة حرة. ويتفق ديوجينيس في هذه الفلسفة مع كتاب العهد القديم قلبا وقالبا. " يعطى الكثير من يقنع بالقليل ". وقد عبر ديوجينيس عن هذه الفكرة بقوله: " إذا لم يكن في وسعك أن تملك ما تريد، فاقنع بما تملك ".

كما أثبت ديوجينيس أن القناعة إن هي إلا أقصر طريق إلى الطمأنينة. أما عدم الرضا فهو الطريق الطويل الملتوي الذي لا نهاية له؛ إذ يتراجع الهدف أمامك باستمرار قبل أن تصل إليه مباشرة. بينما أنت تقول: " لم يبق أمامي إلا منعرج واحد في الطريق ثم أصل إلى الهدف ". ولكن ما إن تجتاز هذه الشدة حتى تجد أنه لا يزال أمامك منعرج آخر وثالث ورابع ... وهكذا يستمر

الإغراء - وأنت مضطرب جائع خائف، لا تشبع أبدا ولا تقنع ولا تطمئن.

" فلنقف، إذن، سعينا في طلب المستحيل، ولنهيىء أنفسنا لملاقاة الأشياء كما هي. حتى إذا نزلت بنا النكبات فعلينا أن نقاسي منها بالطريقة التي يتبعها الممثلون في مأساة الحياة. ولكن لنتعلم كيف نسخر من آلامنا كأنما نحن مشاهدون لها من بعيد، فنحن إذا ما

قابلنا الصعاب بقلب شجاع أمكننا أن نصمد آمنين وسط عالم يترنح، بل يهبط إلى الدرك الأسفل ".
٥
ولم تكن فلسفة ديوجينيس - القائمة على البساطة والحرية والطمأنينة -
سوى محاولة لإيجاد سلام داخلي وسط اضطراب عالم مزقته الحروب. وخلال موجة الإسراف في التشاؤم أصبح هو من المتفائلين. ولما كان يتوقع أسوأ الفروض فقد أقام لنفسه درعًا من السخرية يصد بها الظلمات بأنواعها. وخلف هذه الدرع وجد الأمن الذي يتمثل في الفكاهة اللاذعة
المرة، فكان يضحك لكي يمنع نفسه من البكاء.
وذلك لأنه في قرارة نفسه كان محبًّا للبشر، وقد ابكّاتوس في هذا الصدد " وكما يليق بخادم الله كان ديوجينيس دائم الاهتمام مشغول البال بالعالم ". وقد سلك في حياته طريقًا خاصًّا جعل منه طبيبًا يعالج النفس. وبالرغم من أن طرق علاجه كانت مؤلمة في بعض الأحيان، إلا أنه كان يقصد بها الشفاء دائمًا. وكان يردد قوله: " انظروا كيف حصلت أنا شخصيًّا على راحة البال وهدوء النفس. فاقبلوا دوائي، ومن المؤكد أن تحصلوا أنتم أيضًا على هذا الهدوء ".
وكان من الممكن أن يجد بوذا ولاو - تسي في ديوجينيس الرفيق الذي يسير على هواهما، كما نادى به بعض أساقفة الكنيسة الأوائل، من أمثال أثناسيوس وجريجوري، ملكا روحانيا. وإذا ما أوجزنا التيار الفكري العظيم في العالم قاطبة، أمكننا أن نعد ديوجينيس تلميذ الفلاسفة
الشرقيين، ومعلم القديسين المسيحيين.

٤٠٦ الفصل العاشر: أبيقور

الفصل العاشر
أبيقور
(٣٤٢ - ٢٧٠ ق. م)
١
كان ديوجينيس يجدّ في طلب الطمأنينة بازدرائه متاع الدنيا؛ وكانت فلسفة الشكاك تعارض مذهبه الكلبي، والشكاك جماعة من المفكرين الذين كانوا يشكون حتى في وجود متاعهم الدنيوي. والشاكّون يسعون بشكّهم إلى الهناءة واللذة.
وقد وضع أصول هذا المذهب بيرون، وكان ضابطا في جيش الإسكندر. وصرح بيرون - شأنه في ذلك شأن سقراط - بقوله: " لست أدري إلا شيئا واحدا، وهو أنني لا أدري شيئا ". وكان بيرون يعتقد أننا لا نلم بما يحيط بنا في العالم إلا عن طريق حواسنا، وأن هذه الحواس خداعة. فلا يتفق اثنان إذا ما نظرا إلى شيء واحد. بل إن الشخص الواحد لا يرى الشيء نفسه مرتين متتابعتين أو من زاوتين مختلفتين. فما يبدو لنا ثلجا اليوم قد يبدو لنا ماء غدا. وما يبدو لنا ربوة إذا نظرنا إليه من الوادي، قد يبدو لنا واديًا إذا ما نظرنا إليه من فوق الجبل. ومن ثم لا يمكننا أن نعوّل على معرفتنا، ويجب أن نرتاب في جميع معتقداتنا، ونشك حتى في إيماننا بوجود الله. وما دمنا لا نعرف شيئا فلنكن هادئين في جهلنا. والشاك، كما وصفه بول إلمر، كان
يتميز " بعدم مبالاة طبيعي بالقدر ". ففيم القلق على المستقبل؟ فقد
لا يأتي ألبتة. وحتى إذا أتى، فقد يختلف اختلافا كاملا عما نتوقعه. فلم، إذن، نفسد يومنا بالتفكير في غدنا؟
وقد دخل الشكاك مع الكلبيين في نقاش مرير، ولكن، كما هي الحال في غالبية المناقشات الجدلية الفلسفية الأخرى،، كان هذا النقاش يدول حول الكلمات أكثر منه حول الأفكار. وفي واقع الأمر كان الكلبيون والشكاك على وفاق تام. فبينما كان أتباع ديوجينيس " النباحون " يبحثون عن الطمأنينة، كان تلاميذ بيرون " المتشككون " يسعون وراء الهناءة، وهما كلمتان تختلفان لفظا ولكنهما تتفقان في المعنى إلى حد كبير.
وبالإضافة إلى الكلبيين (الساخرين) والشكاك الذين حاولوا أن يجدوا الهدوء في عالم يضطرم بنار الحروب، كانت هناك فئة من الفلاسفة

- عرفوا بالمتشائمين - وكانوا يعتقدون أن أسهل طريق لوضع حد لاضطراب الحياة هو أن نضع حدا للحياة نفسها. وكان رائد هذه الفرقة - هيجسياس - يلقن تلاميذه أن الانتحار هو أحسن عمل يقوم به الشاب. ومن الممتع أن نلاحظ أن هذا الرائد نفسه مات ميتة طبيعية بعد أن بلغ من العمر ثمانين عاما. ولما سألوه أن يفسر السبب الذي رفض من أجله القيام بفعل ما يعظ الناس أن يفعلوه، أجاب بأنه رأى من الضرورة أن يعيش خاضعا لبؤس الحياة لكي يمكنه أن يعلم الآخرين سعادة الوقت.

٢

وفي وسط هذا الميدان الذي تتطاحن فيه المذاهب الفلسفية، ظهر شاب أخذ يعلن عن طريق آخر يؤدي إلى الهناءة والاطمئنان. وهذا الشاب - واسمه أبيقور - هو الذي وضع أصول مذهب اللذة والسرور والسعادة. وكانت
فلسفة اللذة تستهدف وتحبذ الحياة الموقوفة على السرور كأحسن سبيل للتخلص من الأكدار
والمحن.

ولد أبيقور في جزيرة ساموس، إحدى جزر بحر إيجة، بعد مولد الإسكندر بأربعة عشر عاما. وكان أبوه معلما أثينيا، يحصل على مرتب هزيل، إلى حد اضطرت معه زوجته أن تعاون في إعالة الأسرة، بأن تطوف بالمنازل لبيع الأحجبة الدينية، والأدوية الزائفة المقلدة؛ إذ كانت تدجل بطب الروح. وكثيرا ما اضطر أبيقور بعد عودته من المدرسة أن يساعدها في بيع ما تنتجه من ضروب الدجل. وهكذا بدأ يحتقر الخرافات الدينية من كل قلبه في وقت مبكر من حياته.

كما أظهر، وهو لا يزال صبيا صغيرا، ميلا عظيما إلى الرياضة العقلية فحدث ذات يوم - وكان يبلغ من السن حوالي اثني عشر عاما - أن ذكر معلمه أن العالم خلق من الهيولى أو المادة الأولى.

فقال أبيقور: " حسنا، ولكن من خلق الهيولى؟ ".

" خلقها الله ".

" ومن خلق الله؟ ".

فأجاب المعلم قائلا: " لا أدري. وليس في وسع أحد أن يجيب عن ذلك السؤال سوى
فيلسوف ".

وفي تلك اللحظة قرر أبيقور أن يدرس الفلسفة لكي يكشف عمن خلق الله، الذي خلق بدوره الهيولى، الذي منه خلق العالم.

ولما تقدم في السن قليلا حدث أن حير أحد معلميه الآخرين بأسئلته، فلنستمع إليه يحاور معلمه قائلا: " خبرني، هل لله السيطرة على كل شيء؟ "

" نعم، على كل شيء ".

" إذن فهو مسئول عن آلامنا ولذاتنا على السواء؟ ".

فأجاب المعلم بقوله: " لا. إن الله غير مسئول عن آلامنا ". وعندئذ قال أبيقور في إصرار:

" أما والأمر كذلك، فهل لله القدرة على أن يمنحنا اللذة، وليست له القدرة على أن يبعد عنا
الألم؟ ".

فرد المعلم قائلا: " أظن ذلك ".

" إذن فماذا يفعل الله إذا ما انتابتنا الآلام؟ ".

" أظن أنه يدير ناظريه بعيدًا عنا ".

" وهل معنى هذا أن الله لا يستطيع أن يفعل كل شيء، أو يرى كل شيء أو يهتم بنا في كل
وقت؟ ".

فأجاب المعلم في حيرة وارتباك: " لست أدري حقًّا. وعليك أن تسأل الفلاسفة إن أردت إجابة لهذه الأسئلة ".

وهكذا ازداد أبيقور تصميما وعزمًا عن ذي قبل في البحث وراء إجابة أسئلته في مدارس الفلسفة المختلفة. فلما بلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، اتجه إلى أثينا حيث انغمس في تعاليم المفكرين اليونان ولم يعجب إلا بالقليلين منهم؛ إذ كان النزاع بينهم شديدً فيما يتعلق

باختلاف وجهات نظرهم، بينما كانوا يبذلون مجهودًا غاية في الضآلة للوصول إلى اتفاق جوهري. ولذلك غادر أثينا متجهًا إلى الشرق، وقضى بضع سنوات يجوب الأقطار المختلفة، باحثًا عن لب الحكمة الشرقية. وما إن شعر أنه أشبع وتثقف بما حصل عليه من علم وبما عثر عليه من حكمة حتى عاد أدراجه إلى أثينا، وكان آنذاك في الخامسة والثلاثين. فاشترى منزلا وحديقة في إحدى الضواحي وأنشأ أكاديمية خلوية يلقن فيها فلاسفته. كانت الأكاديمية مفتوحة للرجال والنساء، للأغنياء والفقراء، للسادة والعبيد. لأنه - كما أوضح أبيقور - ليست هناك فروق جنسية أو طبقية في دولة العلم. وكان يهدف من وراء الفلسفة التي يلقنها إلى إيجاد عالم مثالي، لا جمهورية من الكمال البشري يستحيل وجودها، مثل مدية أفلاطون، وإنما مجتمع يظلل الود أفراده وينحصر همه في ترويح اللذة ومحو الألم.

وأول شيء صرح به أبيقور أنه لا يؤمن بوجود مستقبل؛ " فاليوم نحن على قيد الحياة. وهذا وحده هو أمرنا المتحقق. فلنستمتع إذن بحاضرنا ".

وعن طريق هذا المذهب البسيط الذي ينادى " بجنى مباهج اليوم "، أصبح أشهر فيلسوف في اليونان إلى درجة أن أولئك الذين لم يكن في وسعهم أن يستمعوا إلى محاضراته كانوا يقبلون على شراء كتبه التي لا يقل ما نشر منها عن ثلاثمائة كتاب.

ولم يصل إلينا معظم إنتاجه؛ ولكن لحسن الحظ تحت أيدينا ملخص كامل لفلسفته، كما جاء في ملحمة لوكريشيوس بعنوان: " في طبيعة الأشياء ". وكان لوكريشيوس فيلسوفًا أبيقوريًّا ظهر في روما بعد أبيقور بما يقرب من ٢٥٠ عامًا. وكانت قصيدته عن طبيعة الأشياء من أعجب المصنفات في تاريخ الأدب. وما هذه القصيدة إلا دفاع عن قضية المنطق البارد، ومع ذلك تشعر بين سطورها بثورة غضب متقدة وانفعال ثائر. وهي إنتاج كافر لا يؤمن أن في العالم شيئًا مقدسًا سوى السعادة البشرية. ويمكن أن توصف بأنها أحد أناجيل العالم العظيمة - أو قل هي عهد لغير المؤمنين.

فلنَدْعُ لوكريشيوس لزيارتنا بضع دقائق لكي يجمل لنا المعالم الأساسية في فلسفة أبيقور.

٣

إن الهدف من الحياة، طبقًا لأبيقور، هو الاستمتاع بهذه الحياة، فليس لنا عمل آخر، وليس علينا واجب آخر في هذا العالم سواه. ولسنا أبناء إله خيّر، ولكننا ربيبو طبيعة لا تكترث ولا تبالي. وما الحياة إلا حادث في كون آلي، ولكن في استطاعتنا إذا عزمنا أن نجعل من الحياة حادثًا سعيدًا أو حادثًا مسليًا على أقل تقدير.

فعلينا من البدء إذن، أن نسلم بالحقيقة التي تقول: إننا يجب أن نعتمد على أنفسنا، وليس على قوة خارجية، للحصول على السعادة التي ننشدها؛ فالكون ليس من فعل الآلهة، وإنما هو نتيجة لحركة الجواهر الفردة في خلاء لامتناه.

ويجرنا هذا إلى نظرية أبيقور الذرية. وقد أخذ هذه النظرية عن الفيلسوف اليوناني القديم، ديمقريطس الذي سبق فقدم بتفسيره الآلي لنشأة العالم، كشفًا من أهم الاكتشافات في علم الطبيعة الحديثة.

وقد تبنى أبيقور نظرية ديمقريطس عن الجواهر الفردة جاعلا منها الأساس الذي أقام عليه بنء فلسفته الشخصية. فكان يردد أننا لسنا إلا مركبات من الجواهر الفردة تدور بسرعة خارجة من الهيولى إلى العالم، ثم لا تلبث أن تعود مباشرة في دورانها السريع إلى الهيولى. وهذه الجواهر الفردة التي تتكون منها

كل الأشياء تتحرك إلى الأبد من أعلى إلى أسفل في خلاء لامتناه. ومن آونة إلى أخرى تنحرف إلى هذا الجانب أو ذاك فتلتقي، شأنها في ذلك شأن الذرات في شعاع الشمس. والجواهر ذوات أحجام مختلفات، وأشكال متباينات، وبانحرافها المستمر والتقائها، فإنها تركب بالتدريج، وتؤلف مادة النجوم والأراضي والأقمار والشموس وعوالم الكون.

وكوننا - في رأي أبيقور - ليس هو الكون الوحيد في الوجود. فهناك عوالم أخرى لا تقل اتساعا وروعة عن كوننا وكل كون له أيضا أرضه بجبالها ومحيطاتها وأجناسها البشرية، وفصائل الحيوانات المتوحشة. وهكذا فلسنا وحدنا الحصباء التي تغطي شاطىء محيط الفضاء اللامتناهي، وذلك لأن الجواهر الفردة تدخل في تركيب نفس الأنواع من المركبات في نفس الأنواع من الظروف والأحوال، وتتكرر هذه العملية باستمرار، إذ أن هذه الجواهر تدور بسرعة وبلا توقف من أعلى إلى أسفل في مسارات الخلاء اللامتناهية.

وطبقا لأبيقور فإن كل هذه الحركة التي تقوم بها الجواهر تلقائية. فلا تقودها أو ترشدها يد
إلهية، وحتى الآلهة إن هم إلا نتاج دوامة الجواهر، وتتكون أجسامهم من مركبات ذرية ألطف وأرق من تلك التي تدخل في تركيب الإنسان. ولكن الآلهة أيضا غير مخلدين، فهم يعيشون في الخلاء الشاسع بين العوالم، ولا يبالون بتاتا بوجودنا البشري. وهم يجولون في السماوات، كما نجول نحن تماما على الأرض، في انتظار تحلل أجسامهم في النهاية إلى الجواهر الفردة المنفصلة التي منها قد أتوا. ولما كانت الجواهر في حركة دائمة، وتخل من الأجسام الواحد بعد الآخر. فيستتبع ذلك حتما أن العالم يسير
تدريجيا إلى الفناء، ولن تكون الأرض في النهاية إلا كتلة من الرماد البارد، سابحة من غير
هدف، إلى أسفل، حيث تستقر على كومة أنقاض العوالم ورمادها.

٤

وليس لدينا صورة واضحة عن مكان الآلهة في نظام الأشياء الذي وضعه أبيقور. فقد كان يؤمن إيمانا راسخا بالآلهة كجنس من الكائنات، يتميز بالترفع والسمو. فيبدو أنهم لا يعيروننا أي
اهتمام، ولذلك ينبغي ألا نعيرهم اهتمامنا. وبالرغم من ذلك فلعل أبيقور كان يرى أن الجنس البشري في حاجة إليهم كنماذج تحتذى، فهم مثلٌ للسعادة الفائقة في السماء، تلك السعادة التي ينبغي أن نصل إليها على الأرض. وتشبه آلهة أبيقور إلى حد بعيد المثل الأفلاطونية للإنسان
الكامل. " فليس لديهم ما يكدر صفوهم، كما أنهم لا يكدرون صفو بعضهم بعضًا " وهم يستمتعون بسعادة متصلة في دائرة من اللذة المشتركة. وقد صرح أبيقور بقوله: إن مثال حياتهم الإلهية السعيدة ينبغي أن يكون دافعا يحثنا نحن البشر للجد في طلب السعادة. وحاول أبيقور أن يحول حديقته إلى صورة يحاكي بها الجنة.

وهكذا اعترف أبيقور بوجود الآلهة كمثل عليا للناس يحتذونها. ولكنه أنكر أن لهم أية علاقة بخلق العالم الذي نعيش فيه، أو هدايته. فالحياة، كما قال: إن هي إلا مهزلة، فيها من الخبل ما يستحيل معه أن يكون قد أبدعها عقل إلهي. فلا يوجد إله عاقل يأمر ببناء معبد تمجيدا له، ثم لا يلبث أن يهدمه من أساسه بضربة صاعقة ينزلها به. وليست هناك عناية إلهية خيرة تنقذ حياة صبي صغير من مرض خطير من غير ما سبب، اللهم إلا لتبعث به إلى ساحة القتال
ليموت ميتة أشنع. فَلْيُعْنَ الآلهة إذن بأنفسهم ولنحاول نحن أن نقلدهم، من غير أن نطلب منهم عونا. أما خلاصنا فيتوقف على أنفسنا فحسب، لأننا نعيش في عالم خلق نفسه خلال التقاء الجواهر الفردة اتفاقا، تلك الجزئيات من المادة التي تتحرك في أشكال لا حد لها، ولكن من غير ما ترتيب أو تخطيط.

وبالرغم من ذلك فنحن نتساءل: كيف حدث أن أدى تجمع هذه الجزئيات غير الموجهة من المادة معًا إلى خلق عالم من الأشجار والأزهار، والطيور والحيوانات والبشر؟! وما نوع هذه العملية التي وفقت الجواهر خلالها في أن تخرج إلى حيز الوجود عالمًا مثل ديمقريطس، أو فيلسوفًا مثل أبيقور؟ وقد أجاب أبيقور عن هذا السؤال بقوله: إن ذلك يتم بجهل وبغير قصد خلال طريقة المحاولة والخطأ، خلال تطور المادة التدريجي من الأشكال الأولية إلى الأكثر تهذيبًا، خلال التخلص الطبيعي من غير الصالح والبقاء للأصلح. وقصارى القول: خلال عملية النشوء والارتقاء.

وهكذا نرى أن أبيقور قدم نظرية النشوء والارتقاء لألفين ومائتي عام قبل داروين. ولكننا سبق أن لاحظنا لمحات مبكرة عن هذه النظرية عندما تحدثنا عن الفلسفة المصرية عند
بتاح - حتب، وعن الفلسفة الصينية عند كونفوشيوس. ففكرة " النشوء والارتقاء " إذن يمكن إرجاعها لا إلى أبيقور فحسب، وإنما إلى الفلاسفة الشرقيين الذين عاشوا قرونًا عدة قبل ظهوره. فكما قال الملك سليمان: لا جديد تحت الشمس.

٥

ولنرجع الآن إلى نظرية أبيقور عن النشوء والارتقاء كما جاءت في قصيدة لوكريشيوس. يعلن أبيقور أن الجواهر في حركتها الدائرية اللانهائية تعرضت
لجميع أنواع المركبات والتحلل، حتى التقت في النهاية واتحدت، مكونن ما نسميه " بالعالم ". وفي البدء لم تكن أرضنا سوى كتلة من

الطفل لا حياة فيها. ولكنها بدأت تخرج بالتدريج الحشائش والشجيرات والأزهار، ثم لم تلبث أن ظهرت الحياة الحيوانية وأخذت الطيور تطير في الجو وهي تصدح بموسيقاها والحيوانات تجوس خلال الغابات وهي تملأ أرجاءها بالجؤار والزئير. ود تكيفت بعض هذه الفصائل لبيئاتها، وأمكنها أن تبقى وتعيش، إما نتيجة لجسارتها وإما لدهائها. على حين خلقت فصائل أخرى تعاني من نقص في البصر، أو السمع، أو وسائل التنقل والحركة، ولم تكن تلك الفصائل إلا فلتات من الطبيعة، بل ضحايا تجربة عمياء في عالم لا خطة له. وهكذا كان مآلها إلى الانقراض. أما الإنسان - وهو الممثل الأول في هذه المسرحية التي لا حبكة فيها - فكان آخر من ظهر على مسرح الأحداث. ولما كان جسورًا همجيًّا عاريا فقد جال في أنحاء الأرض، شأنه شأن الحيوانات الأخرى، يعيش على الأعشاب والفواكه وثمار البلوط، وينام ليله في الحقول والعراء.

وبعد فترة من الوقت اضطر أن يتخذ من الكهوف مأوى عندما وجد أن الحيوانات الأكثر ضراوة تهاجمه. ثم استتبع تجمع عدد كبير من الآدميين الوحوش في قطيع يعيش في كهف واحد لدفع الأذى المشترك، أقول استتبع ذلك تطورًا تدريجيًّا في الكلام والعطف ومشاعر الصداقة البدائية غير الناضجة. ولما رأوا صورًا غريبة في أحلامهم أضفوا على هذه الصور قوى فائقة، وحياة أبدية، وبدأوا يتخذونها آلهة لهم يعبدونها.

وشيئًا فشيئًا عندما تعلموا كيف يقفون ممدودي القامات وحولوا أرجلهم الأمامية إلى
أذرع، أخذوا يكتشفون كيف يمكن استعمال المعدن في صناعة
آلات وأسلحة أفضل. وهكذا أصبحوا أكثرة قدرة على حماية أنفسهم وقتل أعدائهم. وبدأت بعض الجماعات تتبادل البضائع والأفكار - بل واللطمات - مع جماعات أخرى. وبهذه الطريقة تعلموا شيئًا فشيئًا فنون المقايضة، والتجارة، والملاحنة، والزراعة، والشعر، والموسيقى
وهندسة البناء، والسياسة، والدبلوماسية، والمقاضاة، والحرب. وقصارى القول فالمدنية بقضها وقضيضها إن هي إلا عملية نشوء وارتقاء، تمكن الإنسان من أن يكيف نفسه لعالم غير
مضياف، ويعيش لفترة قصيرة في تنازع أبديّ على البقاء. فليست الحياة كلها إلا قتالا متواصلا لا هدنة فيه لأحد إلا بالموت.
٦
وهكذا نترك علم أبيقور ونعود إلى فلسفته. فلنستمع إليه يعلن أننا نستأجر الأرض التي نعيش عليها لفترة قصيرة، فإذا ما حان وقت رحيلنا فإننا نجرد من كل شيء من غير ما إنذار سابق ولو للحظة.

ولكن إذا لم يكن في وسعنا أن نقهر الموت فلا أقل من أن نتغلب على الخوف من الموت. فلنقلع عن الأسى والكدر من أجل قصر الحياة الآدمية. ولنفرح ونهلل بالموت، فإن الشعور ينعدم
بعده. " فالموتى في راحة من الألم ". ولا ينتظرنا عقاب في جهنم لأي خطأ نكون قد ارتكبناه أثناء حياتنا على الأرض، ويمكننا أن نقول: إن يد الموت البيضاء تقودنا بلطف إلى نوم لذيذ لا تعكر صفوه الأحلام. فما الموت إلا الحارس المحب الذي يوقِّع الإذن بإطلاق سراحنا من عالم المجانين الذي هو هذا العالم، ألا أن الموت لهو الطبيب الرقيق الذي يشفينا من أشد الأمراض
فتكا - وأعني به مرض الحياة.

ومع ذلك فحتى إذا كان بعض الناس يجدون في لحياة مأدبة متصلة من النعم فهل من المرغوب فيه أن نستمر في الازدراد من غير ما حساب أو توقف؟ أليس من الأفضل أن نترك المائدة قبل أن يطفح كيلنا، وأن نأوي إلى فراشنا وعلى شفاهنا ابتسامة ونستمتع بنوم لذيذ، كما يفعل الداعي إذا تعب بالرغم من السعادة التي تغمره؟ وإنك لتبكي وتنتحب لأن يومًا واحدًا مشئومًا سوف يسلبك أرباح الحياة ونعائمها كلها. ولكنك تنسى أن تضيف أن هذا اليوم المشئوم عينه سوف يحررك أيضًا من شهوة الحصول على هذه المغانم.

وفي أثناء هذا النوم الذي ينتظرك لن تقلقك الرغبات، ولن تعتريك المخاوف. ولكن ما قولك في الفزع العظيم الذي ينتابك وأنت لا تزال على قيد الحياة؟ أليست فكرتك الراهنة عن فنائك في لحظة آتية أو قل هذا الإشفاق على نفسك من أن تهوي إلى " هاوية العدم "، أليس هذا في حد ذاته سببًا لأعظم ضيق يمكن أن يحيق بك؟

يقول أبيقور إن شيئًا من ذلك لن يقع، إذ قال: ولم تغتمُّ على جثة هامدة لا تشعر بشيء على الإطلاق؟ فأنت لا تنزعج لعدم وجودك قبل أن تولد. فعلام تنزعج، إذن، لعدم وجودك بعد أن تموت؟ إن حياتك ما هي إلا حلم لحظة تمر بين نوم ونوم. والنوم الذي لا تعكر صفوه الأحلام أحلى من الأحلام.

وبالإضافة إلى ذلك فالنوم مهما يكن طوله لا يستغرق إلا لحظة واحدة. ألم يحدث أبدًا أن استيقظت بعد نوم عميق لبضع ساعات وأنت تشعر أنك لم تكد تغمض عينيك؟ إننا نجد في نوم الموت أن هذه اللحظة العابرة من فقدان الشعور تصلح قياسًا لمليون من السنين ولليلة واحدة على السواء.

وفي لحظة الموت الأبدية هذه فأنت لا تعي ذاتك نفسها ولا قيمة عندك لشيء لا يعي ذاته. فنفسك الميتة لن تكون لها أية علاقة بنفسك التي على قيد الحياة. كما أنها لن تهتم برغباتك السابقة، ولن تأسف أو تندم على آمالك التي لم تتحقق.

فلتسمتع، إذن، بحياتك الحاضرة وكأنها رقصة فاتنة في وضح النهار، بين لحظتين خالدتين من النوم اللذيذ. ولتشارك الجواهر الفردة (الذرات) في رقصاتها غير الهادفة عبر لانهائية الفضاء.

٧

كان هذا ما تستهدفه الفلسفة الأبيقورية: رقصة تظللها اللذة بين أحضان الود والمحبة. ولكم أسيء تفسير تفسير هذه الفلسفة الأبيقورية. حتى لقد رسم أبيقور في صورة شيطان الفسق

والفجور، وأصبحت الصفة " أبيقوري " مرادفة لهذه الصفات: " جسدي " و" داعر " و" خليع " حتى إن آباء الكنيسة الأوائل حكموا على فلسفة أبيقور بأنها " دعوة إلى زريبة الخنازير ". وعند الأتقياء من السابقين لم يكن من يتبع مذهب أبيقور سوى ملحد، وغد، مهرج، لا، بل إنه حتى بين الكثيرين من أنصاره اختلطت فلسفة اللذة عند أبيقور بالشهوات الجسدية في العالم المادي.

لكن هذا في حقيقة الأمر بعيد كل البعد عن المعنى الذي قصد إليه الفيلسوف الرقيق، من فكرته عن اللذة. فما كان أبيقور يرمي للوصول إليه ليس إلا حالة من الهدوء وراحة البال " فليكن عقلك، شأنه في ذلك شأن أكاديميتنا، جزيرة من الهدوء والسلام وسط خضم العالم

المضطرب ". ولم تكن مدرسته الفلسفية إلا حديقة تحرسها الصداقة في عالم تنقصه الصداقة، وكان يحدد

اللذة بأنها تبادل الوئام المشترك - أو قل هي " مصادقة لطيفة " تستخدم درعا واقية من غوائل الحياة.

وأهم من هذا كله فقد كان أبيقور يعارض الانغماس في لذة الجسد بإفراط. ولنستمع إليه

يقول: " إن لحظة من اللذة قد تؤدي إلى الشقاء مدى الحياة ". بينما الغاية من نوع اللذة التي نادى بها أبيقور كانت زوال الألم وإقامة دعائم الحياة السعيدة. " فحالة هادئة من السعادة المتصلة أكثر أهمية من إثارة صاخبة لمسرات وقتية ".

وهكذا نادى أبيقور بنوع جديد من الابتهاج - ابتهاج عقل لا يكدر صفوه شيء وهو يرقب عن بعد متاعب العالم واضطرابه. ومما لا شك فيه أن حياتنا ما هي إلا هبة مريرة - مريرة حقًّا إلى درجة أننا ندخلها ونخرج منها ونحن نصرخ من الألم. ومع ذلك ففي وسعنا أن نحوّل حتى ألمنا إلى مصدر اللذة، لأنه من أعظم اللذات أن نتخلص من الألم.

فلنفلح، إذن، حديقة مسراتنا البسيطة، ولنحي في هدوء، ونأكل ونشرب باعتدال، ونستمتع بصحبة هؤلاء الذين يشاركوننا حياتنا الهادئة. " فإذا كان من المهم أن تعرف ماذا تأكل وتشرب فإنه من الأهم أن تعرف مع من تأكل وتشرب ".

وكان أبيقور نفسه أبسط الناس سجية. فوجبة من الخبز الشعير كانت كافية لسد رمقه لو أنه تناولها في حضرة أحد الأصدقاء. وكان يمتاز بمقدرته الفائقة على صنع الصداقات. " فلنهتم بأعظم النعم علينا كافة. ولنجعل منها دينًا لنا. لنتعبد لها؛ فالصداقة شيء لذيذ وجميل

ومقدس. إن التعاطف الذي

يصحب الصداقة الحقة لهو الموهبة الوحيدة المؤكدة التي نملكها في هذا العالم ذي القيم المشكوك

فيها. وإذا كانت متاعب الحياة توفق بيننا وبين الموت فإن مباهج الصداقة توفق بيننا وبين الحياة ".

وهكذا فإن فلسفة أبيقور عن " اللذة المنعزلة التي يشارك فيها الفرد أصدقاء مخلصين " لم تكن مجرد هروب الذات نفسها من العالم. وإنما كانت مجهودًا مدبرًا لتهدئة حمى العالم والإقلال من ألم الحياة. وكثيرًا ما كان أبيقور يتحدث عن مدرسته بقوله: " شركتنا المقدسة ". وقد كرَّس أعضاء هذه المدرسة أنفسهم لقداسة التعاطف المشترك، والبهجة المتصلة بسرور الآخرين وسعادتهم.

وكان أبيقور يقضي الكثير من وقته في كتابة رسائل إلى أصدقائه، وإلى أطفالهم بصفة خاصة. وكان يرمي إلى أن يشب الأطفال في عالم من " الأنانية المستنيرة " - أي إنهم يمنحون الرحمة إلى الآخرين فيستردونها عرفانًا بالجميل. ولم تكن حياته الخاصة إلا سلسلة من الكلمات الرقيقة والأفعال الكريمة. وكانت لذته الكبرى أن يعطي ويأخذ إحسانًا بإحسان.

وقد ساعده علمه، بما كان يحوطه من حنان، ويغمره من عطف، على تحمل كل ما صادفه من آلام وعناء. وقد حول الفقر والحرمان والمرض " حلم حياته " إلى كابوس. وبالرغم من ذلك فقبيل موته كتب إلى أحد أصدقائه يقول: " إنني أجتاز الآن آخر يوم في حياتي. فقد تملكني مرض الحصاة (انسداد مؤلم في المثانة بسبب تقطر البول) وحطمتني الآلام المبرحة التي لم يعد يقوى الجسم على احتمالها. ولكنني بالرغم من كل هذا أجد سعادتي في استعادة ما كنا نتبادله من أفكار وأحاديث فيما مضى ".

كان يستعيد أفكار الماضي البهيجة ولا يخشى من المستقبل شيئًا. وبعد أن قضى طوال حياته في مأدبة في الطعام البسيط والمحبة الحانية كان على أهبة الاستعداد للرحيل في هدوء إلى ليل لا يعسكر صفو النوم فيه شيء. ألم يكن من الأفضل له أن ينام إلى الأبد بدلا من أن يستيقظ على آلام يوم آخر.

ولم تكن فلسفة أبيقور إلا محاولة للهروب من الألم (خلال تقبلنا للعيش في كون مادي) إلى التحرر من الخوف من الموت. وقد تأثر بهذه الفلسفة اللاأدرية الهادئة بعض مفكرينا المحدثين من الصف الأول، ومن بينهم كانط وشيلي ومبل وشوبنهاور وبرتراند راسل. كما دفعت هذه الفلسفة حتى الفيلسوف الكاثوليكي سانتيانا، إلى ملاحظة أن أبيقور قد نادى: " بما يمكن أن يعد أعظم فكر وصل إليه الجنس البشري إطلاقا ".

٤٠٧ الفصل الحادي عشر: أبيكتاتوس ومارقوس أوريليوس

الفصل الحادي عشر

أبيكتاتوس (حوالي ٦٠ - ١٢٠ م)

مارقوس أوريليوس (١٢١ - ١٨٠ م)

إلى هنا نجد أن معظم الفلاسفة، من بتاح - حتب إلى أبيقور يشتركون في الاعتقاد بأن: " الحكماء وحدهم هم السعداء ". وقد تقبل الرواقيون هذه الفكرة بعد أن أدخلوا عليها تعديلا واحدًا

فقالوا: " الحكماء وحدهم هم السعداء، ولكن الشجعان وحدهم هم الحكماء ".

وكان واضع أصول المذهب الرواقي School Stoic وهو زينون (٣٤٠ - ٢٦٠ ق. م) يعلم تلاميذه في رواق يدعى السقيفة ذت النقوش (ستوي بوكيلي Poikile Stoa باليونانية) ومن هنا أصبحت كلمة الرواق تعبر عن " فلسفة السقيفة ".

ومن العجيب أن الرائدين اللذين أوضحا الفلسفة الرواقية كان أحدهما عبدًا والآخر ملكا. فأما أبيكتاتوس العبد، فقد كان يرسف في أغلال العبودية. على حين كان أوريليوس الملك وثيق الارتباط بعرشه. وبالرغم من ذلك فقد حاول كلاهما أن يرتفع فوق هذه القيود إلى المرتبة التي تظهر فيها شجاعة الروح الحرة.

٢

وكان أبيكتاتوس أسعد الاثنين حظا، إذ وجد أنه من الأسهل أن يحتفظ بروح حرة بينما يرسف جسده في قيود العبودية. وكانت آراؤه تتفق وديوجينيس

عندما صرح بقوله: " ليس لي ما أفقده سوى حياتي ". كما أن قيمة الحياة عنده كانت أقل وزنا من قيمة العرش عند أوريليوس.

ونحن لا نعرف الكثير عن حياة أبيكتاتوس، ولكننا واثقون من أنه كان أعرج، بالإضافة إلى كونه عبدا. وبالرغم من هذه العقبات

فقد كان من أسعد الناس، لأنه قد تعلم كيف يتبع هداية العقل لا إثارة الجسد. " فإذا كنت لا تستطيع أن ترتفع بأعمالك إلى مستوى طموحك. فلتنزلن بطموحك إلى مستوى ما يمكن أن تنجز من أعمال ". وفي عبارة أخرى: تعلم أن تكون قانعا.

وهكذا تقبل من مركزه الوضيع بهزة من كتفه وابتسامة على شفتيه. وكان في خدمة سيد فظ يتلذذ بتعذيب عبيده. وذات يوم أخذه سيده ومالكه يعذبه تعذيبا بدنيا. فما كان من أبيكتاتوس إلا أن قال: " من الأفضل أن تقلع وإلا تسببت في كسر ساقي ".

ولكن السيد واصل التعذيب حتى كسر الساق. فعلق الفيلسوف بقوله: " ألم أنبهك إلى هذا؟ والآن عليك أن تتحمل ما تسببه لك تكاليف علاجي الطبي من ألم ".

وبالرغم من هدوء أبيكتاتوس فقد نزلت به النكبات الواحدة تلو الأخرى. فما إن تحرر من عبوديته بعد موت سيده حتى حاول أن يعلم الفلسفة في روما. ولكن لم يلبث الإمبراطور الروماني، دوميتيان، أن طرده من المدينة بحجة أنه " خطر يتهدد الدولة لأنه جعل الناس تفكر ".

وبعدئذ أنشأ أبيكتاتوس مدرسة في بلاد اليونان، حيث سمحوا له بالبقاء على

أنه " رجل فقير مجنون ". ولكنه تقبل الفقر كما سبق أن تقبل التعذيب بلا مبالاة رواقية.

وحدث ذات يوم أن سرق مصباحه، ولكن ما إن قبض على اللص حتى رفض الفيلسوف أن يقيم الدعوى ضده، أو يطالبه بشيء: " لقد دفع الرجل ثمنا للمصباح أكثر مما دفعت أنا. فقد كلفني بضعة بنسات فحسب، فبينما كلف اللص نفسه ".

وكانت حرية الروح عند أبيكتاتوس أعظم متاع في العالم. ولنستمع إليه يقول في هذا

الصدد: " في وسعك أن تقيد جسدي بالأغلال، في وسعك أن تجوعه، وفي وسعك أن تقتله أيضا، ولكن ليس في وسعك أن تمس بضرر أو أذى الجزء الجوهري عندي - ألا وهو نفسي الخالدة ". ولكي يحتفظ باستقلال روحه لم يتزوج على الإطلاق.

ومع ذلك أبى أن يعيش بمفرده، فقد تبنى طفلا كان والداه ينويان التخلص منه بقتله عندما عجزا عن إعالته، كما استأجر مربية لتعيش في البيت وتهتم بشئون الطفل. وكان يعامل كلا من الطفل والمربية بكرم معتدل، ويمدهما بكل ما يحتاجان إليه، من غير أن يشجعهما على الجشع.

وهكذا كان يُعنى " الرجل الأعرج المسن " كما كان يسمي نفسه، بالطفل اليتيم الذي كان يعلم تلاميذه أن جميعهم كانوا أبناء الله. وأمكنه أن يطبع في عقولهم طبيعة وجودنا - مذهب التعلم عن طريق التعاطف الذي معناه المشاركة في آلام بعضنا بعضًا، لأننا أعضاء في أسرة بشرية

واحدة. وقال إن مهمتنا تنحصر في أن نعيش متآلفين في عالم متحد من الأخوة - أي أن تشبه إلى أبعد حد ممكن بالله خالقنا.

والله، كما أعلن أبيكتاتوس، هو القوة كلها، والحكمة كلها، والخير كله. ثم يردد أبيكتاتوس هنا رأي الفلاسفة الشرقيين فيقول: إن الألم الذي نعانيه في هذه الحياة إن هو إلا مجرد حاجز أو عائق يقوي أرواحنا. وفي إحدى المختارات الممتازة في الأدب عبر أبيكتاتوس عن دستوره الفلسفي إذ قال: " لما كانت غالبيتنا العظمى تسير في الظلام، أفلا ينبغي أن يكون هناك من يسبح بحمد الله نيابة عنا جميعًا؟ وما الذي يستطيع أن يفعله رجل أعرج مسن مثلي سوى الترنم بحمد الله؟ فلو أنني في الحقيقة كنت بلبلا، لصدحت كالبلبل، ولكنني مخلوق عاقل، ولذلك علي أن أسبح بحمد الله. هذه هي مهمتي، أقوم بها ولن أهمل هذا الواجب، ما دام الواجب منوطًا بي. وإني لأدعونكم جميعًا للاشتراك في الترنم بهذه الأنشودة عينها ".

ومن العجيب أن هذا الفيلسوف الرواقي كان يمارس الديانة المسيحية، بالرغم من أنه لم يكن قد سمع بالمسيح. فنجده يقول: " إن الحق، شأنه في ذلك شأن أشعة الشمس، يصل إلينا خلال نوافذ عديدة - أي في أوقات مختلفة، وفي أماكن مختلفة، وفي كلمات مختلفة. ولكن المعنى ثابت على الدوام - رعاية الإله، وأخوة الإنسان، والوصية العامة بالعطاء والغفران. فلتعط بوفرة من نفسك، ولتغفر لأولئك الذين لا يستطيعون أن يفعلوا مثل ذلك ".

وفوق كل هذا فقد كان أبيكتاتوس رجل سلام. فلنستمع إليه يقول: " الحياة معركة، ولكنها ليست ضد عدو، وإنما هي ضد روح

العداء ". وفي رأيه أن أحسن سبيل للتغلب على العدو هو تحويله إلى صديق. ولكي يوضح لنا هذه الفكرة ذكر قصة مشوقة عن ليكرجس، مشرع اسبرطة الشهير. ففي أثناء إحدى الفتن التي قام بها الغوغاء هوجم ليكرجس وفقد إحدى عينيه. وألقى القبض على المعتدي وسلم إليه تمهيدًا لإنزال العقاب المناسب به

فما كان من ليكرجس إلا أن أبقى على الشاب ولم يمسه بسوء، بل وقبل أن يكون أحد تلاميذه. وبعد انقضاء بضعة أشهر اصطحبه إلى المسرح. فلما أظهر الأسبرطيون دهشتهم حدثهم

قائلا: " كان العقاب الذي وقعته على هذا الشاب منطقيًّا وعادلا، فقد سلمتموني إياه

وغدًا، وهأنذا أعيده إليكم سيدًا فاضلا ".

وهذه القصة الخاصة بليكرجس تطابق شخصية أبيكتاتوس نفسه؛ إذ أنه كان يرد ما يلاقيه من سوء المعاملة على أيدي الأشرار في هذا العالم بمحاولة هدايتهم وتحويلهم إلى سادة وُدَعَاءَ أفاضل.

٣

أما مارقوس أوريليوس فعلى الرغم من أنه كان يختلف مع أبيكتاتوس في المركز إلا أنه كان يتفق وإياه في الفكر إلى حد بعيد. والفرق الوحيد بينهما هو أن العبد وصل إلى الفلسفة الرواقية عن طريق تفاؤله، في حين وصل الملك إليها عن طريق تشاؤمه.

ومما يثير العجب أن يقدر لأوريليوس مهنة لم يكن يتذوق لها طعما. فكان إمبراطورًا يمقت

الحرب، ولكن هكان يحكم أمة جعلت من الحرب شغلها الشاغل، ومنذ حداثته كان يرغب في أن يكون فيلسوفًا لا جنديًّا، حتى إنه لولوعه بأمثال سقراط والكلبيين - أولئك المفكرين البواسل الذين آثروا الحق على الغنى - كان يرتدي عباءة مهلهلة وينام على دكة خشنة. وكان سعيدًا بفقره. ولكن ما إن بلغ الثامنة عشرة حتى نزلت به الطامة الكبرى - أو هكذا اعتبرها هو - إذ ارتفع قدره من صعلوك إلى أمير. وهكذا اختطف من بين أحضان الفلسفة وأصبح على غير رغبته وارث العرش الذي وقع عليه اختيار عمه الإمبراطور الروماني أنطونيوس. فلما مات الإمبراطور (عام ١٦١ م)

ورث أوريليوس ثروة لم يكن راغبًا فيها، وحربًا لا أساس لها من الحق.

وكان أمينًا إلى حد أنه كان يمقت الثروة، ولكنه لم يكن شجاعًا إلى الحد الذي يتمكن معه من رفضها. ولما جرَّه بلده لخوض غمار سلسلة من الحروب بدافع البغي والعدوان، جعل من سرجه عرشًا ومن خيمته قصرًا. وهنا في أثناء حملاته الحربية وعلى ضوء مشعل يتراقص أمام الريح كتب تأملاته الفلسفية عن الحياة والموت. فكانت ومضات من الحكمة تبهر النظر وسط خطط مظلمة لمذابح اليوم الثاني.

ومما كتبه عن خبرته المريرة: " إن الحياة كلها ليست إلا حربًا ونزالا في أرض غريبة ".

وكان الضحية البائسة لطموحه الشخصي، ولكنه كرواقي مخلص أذعن لكرامته كإمبراطور ولقسوته كجندي. وذكر أنه إنما فعل ذلك لأن الواجب قد حتم عليه أن يقوم به كإنسان، ولو أنه واجب كريه إلى نفسه كما جاء في اعترافه، إذ أنه في قرارة نفسه كان بسيطًا وأمينًا وشفيقًا.

ويتمكن هذا الجانب الطيب من طبيعته على صفحات كتابه، حيث يضرب صفحا عن العالم. في حين ينعم النظر في أعماق قلبه. وهنا أيضا يجد راحة وهدوءا وسط زحمة المجالدين والسفاحين واللصوص الذين يكونون غالبية جيشه: " إن مدى حياة الإنسان أشبه ما يكون بنقطة

واحدة ... والشهرة بعد الحياة كذلك تطويها يد النسيان. فما هو، إذن، الشيء الذي مصيره الدوام والبقاء؟ شيء واحد فحسب هو الفلسفة. وتتضمن الفلسفة هذه القواعد - فلكي يحفظ الإنسان روحه التي بداخل نفسه من كل حالات التعاظم والكراهية، ولكي يحررها بصفة خاصة من الألم واللذة، فعليه ألا يقوم مطلقا بعمل شيء في رعونة أو كذب أو رياء، وعليه كذلك أن يتقبل بسرور وقناعة كل ما يصيبه من أحداث، باعتبارها من صنع الله الذي هو من صنعه أيضا.

" وغاية المخلوق العاقل وهدفه إن هو إلا الامتناع عن القيام بأي عمل في رعونة، ومشاركة الآخرين وجدانيا، وعدم المبالاة كلية لما هو

مقدر له، ثم الإذعان بنفس طيبة لمشيئة الله في كل شيء ... "
والفلسفة باقتضاب ينبغي أن تجلب لك راحة البال بطريقة يتلجى فيها كرم الأخلاق، فلا تتيه زهوا بنجاحك، ولا تثبط عزيمتك لإخفاقك. " فلتذكر أنك على أحسن الفروض، كما يذكرنا أبيكتاتوس، لست سوى جثة تحملها وتحركها روحك خلال رحلة حياتك. وعلى أسوأ الفروض لست سوى روح تظل ظاهرة بالرغم من الفساد الذي قد ينزلق إليه جسدك ".
وكذلك عليك أن تحيا بما يتفق وطبيعة روحك الطاهرة. وليكن سلوكك سلوك بحار هادىء متزن وسط بحر عاصف. وبينما كان أوريليوس مستغرقا في فلسفته إذا بعض الرومان المشبعين برغبة زائدة في العدوان يقومون بمحاولة لإبعاده عن الحكم، بعد أن تحققوا من أنه لم يكن ميالا من كل قلبه لخوض غمار غزواته. فبدأوا بإشعال نيران ثورة كان على رأسها أحد قواده، وهو أفيديوس كاسيوس، وكان يروي على سبيل المزاح " أن أفيديوس كان متعطشا لاعتلاء العرش بدلا من أوريليوس ".
ثم بلغت الدرجة أن كان يدور على ألسنة الناس هذا التعليق الصريح: " بل والفِراش أيضا ". وكان في النهاية أن وصلت هذه الشائعات القبيحة إلى مسامع الإمبراطور. عرش يهتز وزوجة خائنة. ومما زاد الطين بلة أن المتآمرين أشاعوا كذبا أن الإمبراطور قد مات، كما أن فيالق كثيرة كانت على استعداد لأن تجلس أفيديوس على العرش بدلا منه.
ولكن رد الفعل عند أوريليوس كان الصمود أمام الأزمة كرواق صحيح
فقد سبق أن نصحه معلموه في شبابه بقولهم: " تقبل مصيرك، اتبع النموذج الذي اتخذته
لحياتك، وكن وفيا لطبيعتك ". وكان يعرف جيد المعرفة نموذج حياته، وهو أن يقابل الطوارىء كملك بما يتصف من بعد النظر والثبات، ولكن بدون حقد أو كراهية. وكما سبق أن كتب في تأملاته: " إن الطريقة المثلى للثأر من فعل شرير ليست بتقليد فاعل الشر ". فما كان منه إلا أن أمر بجمع جنوده وخاطبهم قائلا: " أيها الرجال، بلغني أن أفضل صديق لدي بعد مؤامرة خلعي من العرش. لذلك أراني مضطرا أن أنزل إلى الميدان ضده .. وإني لا أخشى إلا شيئا واحدا: فقد يقتل أفيديوس كاسيوس نفسه في لحظة خزي، أو قد يقتله أحد في لحظة تهور. وفي أي الحالين فإنني سأحرم من أعظم انتصار يمكن أي ظافر أن يحصل عليه، وهو العفو عن الرجل الذي أساء إلي، والإبقاء على صداقتي لرجل نقض عهود الصداقة معي ".
وكما كان يخشى أوريليوس تماما، فقد حرم من لذة النصر، إذ أن أحد أتباعه - وقد كان عجولا حاد الطبع - أسرع باغتيال أفيديوس، منافسه. وكان جنود الإمبراطور كذلك قد أخذوا على عاتقهم القضاء على جميع المتآمرين الآخرين. ولكن أوريليوس وأد الخطة في مهدها. " فليرجع المبعدون إلى الوطن. وليسترد المسلوبون أملاكهم. وكم أتوق أن أستدعى من بين الموتى الضحايا المساكين الذين أخذوا جزاءهم من قبل ".
وبعدئذ سافر تصحبه زوجته في زيارة شخصية إلى المقاطعات المتمردة، فقد كان جل اهتمامه أن يهدىء النفوس المضطربة الثائرة ويشملها بالرحمة. وفي أثناء هذه الرحلة ماتت زوجته، فتعرض بذلك لنكبة من أشد النكبات التي نزلت به.
وبالرغم من الشائعات التي سمعها عن خيانة فاوستينا - وكان لديه من الأسباب ما يؤكد هذه الشائعات - فقد كان يحبها بإخلاص طوال حياتهما الزوجية. ثم استمر هذا الإخلاص لها حتى بعد موتها، فصنع لها تمثالا ذهبيا كان يأخذه معه في حملاته. وإحياء لذكراها أنشأ كذلك دارا للمعوزات، كما كان يؤدي صلاة يومية على روحها.
ولكن لما كان صادقًا ووفيًّا لمذهبه الرواقي فقد حاول أن يسيطر على حزنه وكمده. " ولتكن سياستنا دائمًا عدم المبالاة باللذة أو الألم، وعدم الانزعاج من فضائح الاشرار، وما يدرو على ألسنة الحمقى ".
أما عن فاوستينا، " فهي أسعد حالا الآن، وقد استيقظت من حلم حياتها الذي كان يغلقه
الضباب ".
وهكذا لم يلبث أن عاد إلى معاركه. ثم حاول أن يجد معنى لحلمه المبهم. وأخذ يقاتل الغرباء الأبرياء حفاظا على ممتلكاته، ثم يشعر بالأسى والرثاء لهؤلاء الذين قتلهم. وقد قال في
كتابه: " إن الجنود أشبه ما يكونون بالعناكب أو الحيوانات المفترسة. فما الذي يقومون به معظم وقتهم سوى مطاردة الفريسة ".

وتحت وطأة كابوسه العجيب الذي يخيم على فيلسوف قُضِيَ عليه أن يكون ملكا، وكان ينطق بالحكمة، ويرتكب الحماقات في سياق غير منطقي لعقل يحاول أن يوقظ نفسه من نوم عميق. وها هو ذا يقول: " إننا جميعًا إخوة في الحزن. فلا يسعني أن أغضب من إخوتي، أو أقطع صلتي بهم، لأننا جبلنا بحكم الطبيعة - أو إن شئت فقل بحكم العناية الإلهية - على أن يعين بعضنا بعضًا كالإخوة ". ومع ذلك نراه قد أخفق في تعرف الإخوة المسيحيين
بين إخوته، إذ أن هؤلاء المسيحيين كانوا يؤمنون " بمملكة غريبة في السماء " - ولم يكن
ذلك، كما اعتقد أوريليوس، إلا تحديا للمملكة الرومانية على الأرض. ولقد أدرك أوريليوس أن صراعا لا بد أن يقوم، عندما تتسع رقعة هذا الدين الجديد، بين المثالية المسيحية والسياسة الاستعمارية الرومانية. كما أحس في داخل نفسه بصراع مماثل. فقد كانت بساطته الرواقية في جانب المسيحيين، وكان طموحه الملكي في جانب روما.

وقد حفزه طموحه لكي يتخذ موقفًا مضادًّا من نفسه الخيرة، فنراه وقد أمر بصلب الرواد المسيحيين.

وكانت هذه الفعلة أسود نقطة لطخت شخصيته، بل أعظم مأساة في حياته، فقد كان من الصعب على الجندي الملكي، أو الرجل الغني سواء بسواء، أن يدخل ملكوت السموات.

٤

وهكذا نرى أن أبيكتاتوس وأوريليوس وصلا إلى الرواقية عن طريقين مختلفين، وكان لكل منهما فيها وجهة نظر مختلفة عن الآخر. ففلسفة العبد كانت إيجابية، إذ يقول: امزح بالقليل الذي في حوزتك. أما فلسفة الملك فكانت سلبية، إذ يقول: لا تحزن على الكثير الذي ليس في حوزتك.

وقد ذكر أبيكتاتوس: " أننا جميعًا ملوك بأرواحنا المتحررة ". أما أوريليوس فقد أعلن: " أننا جميعًا عبيد بخضوعنا لشهوات أجسادنا ". وكان أبيكتاتوس يتقبل الشر على أنه جزء لازم وضروري في حياتنا. " فلا نعرف حلاوة الحلو إلا بمقارنته بالمر، ولا يجعل شروق الشمس جميلا إلا بزوغها من بين الظلام ". ولكن أوريليوس كان يحاول أن يغمض عينيه عن شرور العالم. " فإذا كان الخيار مرًّا، فألق به بعيدًا، وإذا اعترض طريقك العُلَّيْق فأعرض عنه.

ولا تسل لم خلقت مثل تلك الأشياء أصلا؟ بل تجاهلها، وفي هذا الكفاية ".

ويتجلى هذا الاختلاف في طريق الوصول إلى الرواقية خلال فلسفة كل من أبيكتاتوس ومارقوس أوريليوس. فأبيكتاتوس - وقد شرب كأس البؤس حتى الثمالة - يشدد من عزيمتنا، ويملأ قلبونا أملا بأن الغد لا بد آت بشيء أفضل. " كن قانعًا، فما اختاره الله لك خير مما تختار أنت لنفسك. ولتطمئن أن الله سيمنحك غدًا، مثل اليوم، كل ما هو أصلح لروحك ". أما أوريليوس، وقد شرب كأس العظمة والمجد عن آخرها، فيحذرنا من الثمالة المتبقية في القاع. " فعلى هؤلاء
جميعًا - كاميلوس وسكيبيو وكاتو وقيصر وأوغسطس وهادريان وأنطونيوس - مرت يد النسيان. وكل الأشياء تسرع إلى نهايتها، وسرعان ما تبدو وكانها خرافات قديمة، نتشدق بها لحظة، ثم لا يلبث أن يطمرها النسيان ". وهكذا يعلمنا كلاهما أهمية العقل المطمئن الهادىء، لأن الحياة في أسوأ الحالات، كما يقول أبيكتاتوس، مليئة بالخير، ولأنها في أحسن الحالات، كما يقول أوريليوس، مليئة بالشر. فللفلسفة الرواقية إذن غاية مزدوجة، إذ هي تحصن الفقراء ضد الخنوع، وتلطف من حدة التعاظم عند الأغنياء. كما تمكننا جميعًا من إيجاد طريق وسط نسلكه، معتمدين على منهج الكون الطبيعي. ومهما يكن فهو الحق والصواب. فقد خلقنا جميعًا متساوين، لنا أجساد مآلها إلى
الموت، وأرواح باقية إلى الموت.

إنه عندما رأى والت ويتمان: " الدعوة إلى دين جديد " لم يفعل أكثر من ترديد صدى مذه الرواقيين: " الهدوء ورباطة الجأش، راحة العقل وخضوعه للطبيعة ... الاتزان أمام
الطوارىء، وملاقاة الليل والعواصف والجوع والتهكم والحوادث والصدمات .. في ثقة ورزانة "

وبإصرار الرواقيين على قدر متكافىء للجميع، فقد كانوا أوائل الفلاسفة الديمقراطيين في التاريخ. إذ أن الناس جميعهم ينتمون إلى "

المتوسط المقدس " في خطة الإله. فسواء أكنت غنيًّا أم
فقيرًا، إمبراطورا أم عبدًا، مشهورًا أم مغمورًا، فلست أفضل من المتوسط، ولكنك لست أردأ أيضاً، لأن المتوسط مقدس. ولذلك عليك أن تتقبل ما قدر عليك بثقة تامة في الطبيعة وراحة بال كاملة.
تقبل ما يخبئه لك القدر، واعلم أن هذا القدر، مهما يكن، مقضي به لخيرك. ويقول أبيكتاتوس في كتابه: " إنني قانع بهذه الفكرة، راض بأن الله قد منحني روحي لنفسي وجعل إرادتي في طاعة قوتي المقدسة وحدها ". وإنا لنجد مارقوس أوريليوس يصرح برأي مشابه عندما يقول: " ألقوا القبض عليّ واطرحوني حيثما تريدون، فستبقى ثقتي المقدسة هادئة في دخيلتي ".
وبعبارة أخرى في وسعك أن تضم بين جوانحك أفضل صديق أو أسوأ عدو. والأمر بين يديك. فلترفض أن تكون روحا صغيرة تحاول أن تحمل جسدًا كبيرة. ولتعش طبقًا لقدرتك. وقد قال أبيكتاتوس في هذا الصدد: " إننا نولد ولنا إذنان ولسان واحد، وذلك لكي يمكننا أن نسمع ضعف ما نتكلم ". ولتكن معتدلا في حديثك وأفعالك وعواطفك وأفكارك. ولتتجنب الإسراف في الطموح، فهو خطر كالإسراف في الخمر. فأول كأس - من الطموح أو الخمر - تؤدي إلى اللذة، والكأس الثانية إلى الثمل، أما الثالثة فإلى السورة والعنف.
ولتحتفظ بقبضة قوية على زمام نفسك، ولتتقبل كل ما يجيئك به القدر، سواء بدا خيرًا أم شرًّا بروح الجرأة والشجاعة. وليطمئن بالك إلى أن وليك
أعلم بأمرك. فاعتمد على قضاء الله وإحسانه ورحمته. وكل ما يصيبك، حتى موتك، فهو للخير. ولنستشهد مرة أخرى بما ذكره والت ويتمان الرواقي: " هل افترض أحد أن الحظ يحالف من يدخل هذا العالم؟ إذا كان الأمر كذلك فإني أبادر وأطمئنه أو أطمئنها أن هذا الحظ نفسه يحالف من يخرج من هذا العالم أيضًا " فما الميلاد والموت إلا الدوران اللذان قدر عليك القيام بهما في مسرحية حياتك الجليلة. كما أن إشارتي دخلوك وخروجك قد حدد وقتهما بدقة وفطنة، من غير ما لبس أو خطأ.
وما الدور الذي تضطلع به على المسرح إلا دور ممثل على صلة وثيقة بالجمهور، فتعلم كيف تخرج كلماتك وتؤدي حركاتك في تناسق مع إخوانك في البشرية. وليكن سلوكك كعضو شجاع نافع متفائل في مجتمعك، مجتمع الجنس البشري. وإليك ما قاله أبيكتاتوس في هذا الصدد: " سر في حياتك طبقًا لما يمليه عليك العقل، لا من حيث أنت عضو في أسرتك أو مدينتك، أو أمتك فحسب، بل من حيث أنت مواطن في عالم الجنس البشري كله ". وإن أوريليوس ليردد هذه الفكرة عينها في كتابه فيقول: " ما دمت إمبراطورًا فمدينتي هي روما، ولكن ما دمت إنسانًا فوطني هو العالم ".
ويؤكد الرواقيون أن هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكننا أن نسلكه في حياتنا وفاقًا لطبيعتنا وتناسقًا مع الله، فنقلب الغلظة إلى حنو، ونحول الشهوة إلى محبة.
وكان كل من أبيكتاتوس وأوريليوس يصر على تعاوننا جامعًا شاملا نحو غاية مشتركة. وقد استخدم الرواقيان تشبيها واحدًا بعينه، عندما أوجزا فلسفتيهما، فشبها الجسم الآدمي المنظم بنظام الجنس البشري. " لا يخطرن ببالك
أن هناك شيئًا يمكن أن ينفصل عن المجتمع وينتسب إليك وحدك. ولتسلكن كما يمكن أن تسلك يدك أو قدمك لو أن لهما عقلا يدركان به علاقتهما برأسك وقلبك ".
ومما يضفي أهمية زائدة على هذا التشبيه الذي استخدمه كل من أبيكتاتوس وأوريليوس أننا نجد أن القديس بولس قد عبر عنه، وهو يدعو إلى العقيدة المسيحية. وهذا ما كتبه القديس: " إن الناس على كثرة أفرادهم لهم أعضاء بدن واحد شامل، فكل منا جزء من أخيه لا ينفصل عنه ".
وكما لاحظ أحد الشعراء الشرقيين، فإن نور الحق ينعكس بصور مختلفة تظهر في آراء مختلف الناس فبالرغم من أن الصور متعددة إلا أن النور واحد.
الجزء الثالث
الفلسفة المسيحية

بياض بالأصل

٥ الجزء الثالث: الفلسفة المسيحية

٥٠١ الفصل الثاني عشر: القديس أوغسطين

الفصل الثاني عشر
القديس أوغسطين
(٣٥٤ - ٤٣٠ م)
١
ليست فلسفة القديس أوغسطين سوى مزيج من التصور اليهودي - المسيحي لله، والتعبير الرواقي عن القانون الإلهي في صورة الواجب الإنساني، بالإضافة إلى المثال الأفلاطوني لعالم أفضل. وقد أعلن أوغسطين أن كل فرد منا إن هو إلا جزء من الله. ولما كنا مسيرين بما قدر علينا فنحن ملزمون باتباع مشيئته، أي أن علينا أن نحول أنظارنا من عالم الظواهر الذي هو عالم من ظلال إلى عالم المثل الذي هو عالم الجواهر، ومن اضطراب الحياة الدنيا إلى ملكوت السموات.
ولم يكن الطريق الطويل من الحيرة والتخبط الذي سار فيه أوغسطين إلا السبيل المؤدية به إلى نهاية بحثه الفلسفي.
٢
بدأ أوغطسين حياته حدثا منحرفا. وقد ولد في مقاطعة نوميديا (الجزائر الآن) الرومانية من أب وثني وأم مسيحية، ولذلك تعرض من البداية لنفوذين متناقضين، فأبوه يحثه أن يكون مدرسا وتتوق أمه أن يكون كاهنا. أما هو شخصيا فلم يكن يبغي أكثر من أن يستمتع بالحياة، ويضيع عمره - كما سجل بعد سنوات عديدة في اعترافاته - " بارتكاب العديد من الخطايا ". ويقص علينا أنه في دور المراهقة كان " كذوبا، عربيدا، مخادعا " ولكن صورة الشيطنة هذه التي رسمها لنفسه هي فيما يبدو أكثر قتامة من الحقيقة. فقد بالغ في رذائله لما كان يسببه له وخز ضميره المرهف الحساسية، متأثرا بلذعات لسان أمه المتزمتة.
وعملا بنصيحة والده، أعد لنفسه ليمتهن تدريس البلاغة - " وهي العلم الذي يمتدح الكذب والزور في كلمات لطيفة كيسة ". ولكنه في غير ساعات الدراسة انغمس في شهوات
البدن " متمرغا في وحل بابل؛ فعاشر امرأة من غير زواج رسمي، وولد له ابن غير شرعي. ولما بلغ السابعة عشرة مات أبوه، وأخذت أمه تعنفه على سلوكه، وتصلي من أجله، ولكن دون جدوى.
" فلم يجد تعنيفها أو صلواتها عندي مصغية أو قلبا واعيا ".
وهكذا ظل يرتكب جرائم الزنا، ويدنس زوجات الرجال الآخرين، ثم بعلل النفس بالطهر والعفة والورع - في النهاية، ولكن لم يحن الوقت بعد. وبلغت به الدرجة أن كره نفسه لاستمتاعه بهذه الفواكه المحرمة. وبالرغم من ذلك كان يأبى أن يقلع عن هذه العادات. وسمى نفسه " النفس الضالة في بحر من الوحل ". ثم لم يجد في نفسه القدرة على الجهاد للوصول إلى الشاطىء. ولعدة سنوات أخذ يدرس البلاغة في موطنه بأفريقيا، واتجه بعدئذ إلى روما، ثم ميلان سعيا وراء " الرفعة والربح والثناء ". وبالرغم من ذلك كان يسائل نفسه مرارا: " وما الغاية من هذا كله؟ ".
وبعدئذ حدث أن رأى الحق لأول مرة، فما إن انتهى من إلقاء كلمة يثني به على الإمبراطور الروماني في حفل عام، حتى قوبلت الخطبة المليئة بالأكاذيب بالتصفيق ممن كانوا يعرفون أنه يكذب. فبعد أن ملأه هذا النصر زهوا، أخذ يختال عجبا مع بعض أصدقائه في شوارع ميلان عندما اقترب منهم متسول " يستمتع آنئذ بمعدة مملوءة " فيحاهم بالمزاح وإنشاد أغنية بذيئة.
وقد ترك هذا اللقاء العارض أثرًا عميقًا في نفس أوغسطين " فالمتسول قد أسكرته خمر الطعام، في حين أسكرتني أنا خمر الشهرة. وما حصل عليه هو ببنسات لم يبذل مجهودًا في كسبها، كنت أحاول الحصول عليه عن طريق الثناء الذي لم أبذل مجهودًا في كسبه. وبينما كان المتسول مبتهجًا بثمله كنت أنا مبتهجًا بمجدي. فهل كان هناك فارق بيننا؟ ".

ولذا قرر أوغسطين ألا يتسول المجد بعد تلك اللحظة. وأدرك أن الربح الذي يستحق أن يحرزه الإنسان ينبغي أن يكون نجاحًا روحيًّا، لا نجاحًا ماديًّا. فسعادة الإنسان لا تقوم على لذة الجسد وإنما تقوم على نشوة الإيمان.

فأساس السعادة إذن، هو الإيمان بخيرية الله، وبالرجاء في خلاص النفس. وفي هذا المقام استعاد أوغسطين إلى ذاكرته الدعاء الذي دعاه كلينثيس أحد الفلاسفة الرواقيين:

اهدني يا زيوس، وأنت يا قدر
اهدياني سواء السبيل
فمهما تكن الرسالة التي ترسلاني من أجلها
فاهدياني في أدائها سواء السبيل
إني صادع بأمركما في غير خوف، وحتى إن تزعزع إيماني
فتلكأت خطاي عن السير، فليس لي مندوحة عن الصدوع بالأمر.

وكان هذا الدعاء أشبه شيء بالترانيم الإنجيلية التي كانت أم أوغسطين تنشدها له عندما كان صبيًّا إذ تقول: " اهدني سواء السبيل ". فرأى أن يحدد معرفته بالإنجيل، وبهداية الله وإرشاده. وحاول أن يتخذ لنفسه منذ تلك اللحظة فصاعدًا فلسفة جديدة.

٣

لكنه لم يكن قد تبين بعد، نهاية طريقه " لقد أمكنني أن أسيطر على كبريائي ولكني ما زلت عبدًا لشهوتي ". وطبقًا للتقليد الذي كان يتبعه المسيحيون الأولون، قام بتنظيم جماعة تعيش على الشيوع، ودعا أصدقاءه للانضمام إليهم في مقاومة " كفاح الطموح واضطراب الحياة " وانتقل جميعهم إلى بيت واحد ووحدوا كل ممتلكاتهم، جاعلين منها ملكا مشتركا. ولكن حدث أن أكلت الغيرة قلوب النساء فتشتت شمل المجتمع الصغير.

وكان أوغسطين لا يزال مكبلا في أغلال الجسد. ولنستمع إليه يقول: " وتوانيت في الاتجاه بكل نفسي إلى الله .. فقد ظننت أنني سأكون في غاية البؤس إذا لم تضمني امرأة بين ذراعيها ". ولذا حاولت أمه أن تخفف من حدة عاطفته، وأخذت تحثه على الزواج. فكان أن أتم خطبته إلى فتاة صغيرة تخيرتها أمه له، ثم طرد خليلته. وجاء في كتابه: " عندما افترقنا كان قلبي يتمزق ويقطر
دما ". أما القران فقد تأجل لمدة عامين بسب صغر سن الخطيبة؛ فما كان منه إلا أن اتخذ لنفسه خليلة جديدة. ومرة أخرى، كما حدث فيما مضى، أخذ يستمتع بأحضان محظيته، ثم عاد يقرع نفسه لما يحظى به من متعة.

ولم يتم زواجه من خطيبته، لأنه تحول تحولا كاملا في أثناء فترة الخطبة، واختار العزوبة منهجا يسلكه بقية حياته. وكان أوغسطين وقت تحوله يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما.

٤

وما كان تحوله الأخير إلا نتيجة إصرار أمه على إرجاعه من " صحبة الشيطان إلى طريق الله ". وقد وصف " نبذه للجسد من أجل ترويض الروح "
في فقرة من أبلغ الفقرات تأثيرا، في كتابه (الاعترافات). فحدث أنه كان يجلس في حديقته مع صديق حميم، وجرهما الحديث إلى ذكر أمبروز المسيحي الورع الذي كانا قد قابلاه في ميلان. وما إن بدأ أوغسطين يفكر في أمبروز الذي هو أتقى الناس وأفضلهم، حتى هاجت أشجانه بطريقة غير عادية. " فوجدتني أتأرجح قبل أن أتخذ قراري النهائي، أتأرجح بين نزعتين متناقضتين تتصارعان من أجل امتلاك روحي. أسمع نداء الجسد الصاخب، وصوت الله الذي كان لا يزال ضعيفا ". فلما رأى صديقه الحال التي كان عليها من القلق والاضطراب لم ينبس ببنت شفة خشية أن يشتت أفكاره.

وفي النهاية انفجر أوغسطين باكيا. ولما نجل من مظهره وهو يبكي كالمرأة استأذن واتجه إلى ركن منعزل من الحديقة، وهناك تحت ظل شجرة ارتمى على الأرض وأطلق لعاطفته المكتومة العنان.

ومكث هناك حينا، تماما كما مكث بوذا من قبل تحت شجرة التين، تبحث نفسه عن الحق.

ثم حدث أن أتاه الحق في صوت كصوت الطفل، يترنم بهذه الكلمات: " أخرج الكتاب واقرأ

أخرج الكتاب واقرأ ". فاعتبر هذا الصوت أمرا من السماء، وأخرج الإنجيل الذي كان يحمله في إحدى ثنيات عباءته وفتحه كيفما اتفق فكانت " فقرة من إحدى رسائل القديس بولس ". وكان هذا ما قرأه: " لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، وليكن بالله
إيمانك ".
ولم يكن في حاجدة إلى مزيد من القراءة، كما يخبرنا، " لأنني ما إن بلغت
نهاية الجملة حتى شعرت توا أن كل ظلال الشك قد انقشعت، إذ انسكب في قلبي نور هادىء صاف ".
ولم يكن تحول أوغسطين الأخير نتيجة الإعلان الإلهي المفاجىء الذي ظهر له خلال رسالة القديس بولس فحسب. وإنما كان أيضا نتيجة لدراسته الطويلة للأفلاطونيين. وقد كان أفلاطون، شأنه في ذلك شأن بولس، يصر على أن " النفس إذا ما بدأت ترقى إلى الله فإنها يجب عليها أن تتخلص من شهوات الجسد ".
ولما تم عماده في عيد الفصح قفل راجعا إلى شمال إفريقيا حيث أصبح (في عام ٣٩٦) أسقفا لهيبو وهي مدينة لا تبعد كثيرا عن قرطاجنة. واستمر يشغل ذلك المنصب حتى وفاته. ووهب حياته آنئذ " لمجد مدينة الله الذي يقابله سقط المتاع في مدن الناس (مدن أهل الدنيا) ".
٥
وبينما كان أوغسطين يكتب عن مدينة الله، كانت روام - مدينة الإنسان - مسرحا لسلب القوط ونهبهم. ولذا كان لفلسفته وضعها، بل قيمتها العملية أمام الناس الذين كانوا يعيشون في أيامه. فقال إن مدينة الإنسان إن هي إلا صورة عابرة لمدينة الله (تماما كما كانت أثينا صورة عابرة لمدينة أفلاطون المثلى).
وأخذ أوغسطين يردد قوله: إننا ضيوف في مدينة الإنسان، ولكننا مواطنون في مدينة الله. ومن الممكن أن يدمر الأعداء مدينة الإنسان كما حدث فعلا أن دمر القوط مدينة روما، أما مدينة
الله - وما هي إلا ملكوت السموات - فإنها باقية خالدة إلى الأبد لا يقتحمها أو يعتدي عليها أحد. وليس لأحد أن
يحزن إذا ما دمر منزله المؤقت، فمنزله الدائم معد له وفي انتظار لقائه بشرط واحد هو أن يحيا حياة فاضلة. وليس في السماء موعد ينتهي بعده حق الإنسان الصالح في مكانه هناك. فإن كنت قد فقدت متاعك وأموالك وحياتك، فلا تهتم - وهنا نسمع صدى الفلسفة الرواقية - لأنك لم تفقد روحك؛ فالروح لا يمكن أن تفنى أو تهلك. وإن كانت ابنتك العذراء قد تعرضت للاغتصاب عندما وقعت مدينتك في قبضة العدو، فإن الله غفور رحيم ما دامت لم تذعن للاغتصاب أمل افي لذة. فالخطيئة التي يقع فيها الإنسان مجبرًا من غير ما تلذذ ليست خطيئة على الإطلاق.
وعلى كل حال وفي مختلف الظروف، اعتمد على هداية الله. ولتحاول أن تغمر الجانب المادي من نفسك ليستطيع الجانب الروحي أن يطفو. ولتطهر جسدك من أجل خلاص روحك، فإن روحك تحاول دائما أن تعود إلى المصدر الإلهي الذي منه قد خرجت.
ولقد انتقلت هذه الفكرة التي نجد جذورها في فلسفة المفكرين الشرقيين عن طريق أفلاطون إلى الفيلسوفين المسيحيين: بولس، وأوغسطين.
وقد ذكر أوغسطين أن روح الإنسان إن هي إلا جزء من الله - وهذه فكرة طورها سبينوزا بعد مضي قرون عدة. فالروح توجد في الجسم لعلة هي أن تقيم على الأرض مثالا للكمال الذي تستعيد صورة غير واضحة له من وجودها السابق في السماء.
وذلك لأن الروح كانت تعيش قبل حياتنا الأرضية وستظل تعيش بعدها. وهذه العقيدة الأوغسطينية بخلود الروح يعبر عنها الشاعر وردزورث بأسلوب جميل في " قصيدته عن الخلود "
ما مولدنا إلا إغفاءة ونسيان
إن روحنا التي تشرق معنا، وهي نجم حياتنا
يأتي من بعيد، من مكان آخر قد غرب فيه:
فلا هو نسيان خالص
ولا هو نصوع خالص

بل نأتي كسحائب من مجد سابحة
قادمة من عند الله، وإلى الله يكون المصير
***
فإذا ما سكن الجو
وكنا بعيدين عن الشاطىء
فإن أرواحنا تلمح البحر الخالد
الذي أتى بنا إلى هناك.
***

وإذا ما استعرنا تشبيهًا من عالم الموسيقى أمكننا أن نقول إن الروح أشبه ما تكون بملحن تلقف سيمفونية عظيمة في إحدى الرؤى. وإن هذه الرؤيا سوف تقض مضجعه إلى أن يترجم الفكرة الإلهية إلى أصوات بشرية. وتنحصر علة المجهود المتواصل الذي تقوم به الروح في خلق عالم أقرب ما يكون إلى الرؤيا التي ظهر على مسرحها، أو قل تهدف الروح إلى السمو بالمادة، حتى تبلغ درجة المثل الأعلى. وقد أوضح أوغسطين أن المادة توجد في الزمان، أما المثل الأعلى فهو أزلي.

ويجرنا هذا إلى أحد الوجوه الشائقة للغاية من فلسفة أوغسطين - ألا وهو بحثه في معنى الزمان - وبهذا البحث سبق أوغسطين أينشتين في إدراكه لنظرية النسبية. قال أوغسطين في هذا الصدد: إن إدراكك للزمان يتناسب ومكانك في الكون.

وقد يبدو هذا غامضًا، ولكن يمكن إيضاحه في هذه الكلمات القليلة:

الزمان كما نفهمه في عالمنا يقاس بالساعات والأيام والشهور والسنين وما إلى ذلك. وما هذا القياس إلا نتيجة التغير المتواصل لموقعنا بالنسبة للشمس والقمر. ولذا فلا بد أن للأجرام السماوية الأخرى مقاييس أخرى خاصة بها، فالسنة عندنا على وجه الأرض قد لا تكون إلا دقيقة في حركة نجم بعيد.

والزمان في عبارة أخرى، كما صرح أوغسطين، مسألة ذاتية لا موضوعية، إذ ينشأ داخل العقل البشري لا خارجه. وفي الحقيقة ليس الزمان مسألة مدة وإنما هو إحساس مؤقت. فنحن لا يمكن أن نحس إلا باللحظة الحاضرة. أما ما نسميها بالأمس والغد فليسا في الحقيقة إلا قسمين من اليوم. والأمس إن هو إلا ذكرى اليوم عن الماضي، أما الغد فهو أمل اليوم في المستقبل. ولما كان للعقل البشري حدوده النسبية، فقد طور العقل إدراكا للحاضر له وجوه ثلاثة. فنتحدث عن الماضي والحاضر والمستقبل. وأضاف أوغسطين: إن ما نعنيه حقًّا هو أن كل هذه الوجوه الثلاثة للزمان تمثل الحاضر. ولنستمع إليه يقول: " هناك حاضر للأشياء الماضية وحاضر للأشياء الحاضرة وحاضر للأشياء المستقبلة.

ولكي نزيد هذه الفكرة إيضاحًا فلنقارن بين شخص يراقب الزمان ورجل يركب طائرة متجهة من واشنطون إلى نيويورك، مثلا. ولنفرض أن الراكب يحلق هذه اللحظة فوق بالتيمور، فتكون واشنطون خلفه، تمثل
الماضي، ونيويورك أمامه تمثل المستقبل. فمن الخطأ أن نقول إن واشنطون كانت وإن بالتيمور كائنة وإن نيويورك سوف تكون، إذ أن ثلاثتها هذه اللحظة كائنة، بالرغم من أن الراكب قد ترك واشنطون ويحلق فوق بالتيمور ولم يصل بعد إلى نيويورك.

فالزمان، إذن، صورة ذهنية محددة لأزلية لا حدود لها. وما العالم الإنساني إلا صورة ذهنية مؤقتة للعالم الإلهي الأزلي.

ذلكم هو العالم الأزلي للإله الأزلي الذي ليس له ماض أو مستقبل، وإنما حاضر لانهائي. كما أن كلمة " الزمان " ليس معنى بالنسبة لوجود الله لأن الله خلق الزمان - أو قل خلق مفاهيم مختلفة للزمان في الأماكن المتباينة - وذلك عندما خلق العالم. أما الله نفسه فليس له زمان ولا مكان. ولقد أدرج الله أرواحنا وكأننا تلاميذ لوقت ما في سجل مدرسة الخلود، وزودنا بالكون كله ليكون لنا كتابا مدرسيا، كما وهبنا كل الأشياء التي في العالم بما فيها أبداننا الفانية لاستعمالها كوسائل تعليمية، فإذا ما انتهت مرحلة تعليمنا هذه فإننا نلقي بكتاب حياتنا الحاضرة وأدواتها جانبا إذ أن أرواحنا لا تكون بعد في حاجة إليها، كما أننا نكون على أهبة الاستعداد للعودة مرة ثانية، مثقفين مطهرين، من أهل الدنيا إلى مدينة الله.
٦

وقد عاش أوغسطين في عصر كله ظلم وبغي وكراهية، وبالإضافة إلى هذا الاضطراب الشامل فقد أصيب بخسارة شخصية فادحة هي موت ولده الذي كان مشغوفًا به ومتعلقًا أيما تعلق. وبالرغم مما كان يعانيه من عذاب نفسي نجد أنه كان يحلق بالمعذبين مثله إلى أجواء عليا سامية يمكنهم فيها أن يدركوا فكرة الخلود، بعيدا عن ضباب الزمان. " فما حيلتنا، إذا كان العالم كله مهددا بالموت؟ فلتنصرف إذن إلى عملك خاشعا راجيا، فيحبك الناس ويرضى عنك الله ".

٥.٢ الفصل الثالث عشر: القديس توما الأكويني

الفصل الثالث عشر
القديس توما الأكويني
(١٢٢٧ - ١٢٧٤)
١
إن فلسفة الأكويني، مثلها مثل فلسفة أوغسطين، إن هي إلا مزيج من علم الأخلاق عند فلاسفة العهد القديم والمسيحية وعلم ما وراء الطبيعة عند اليونان. ولكن بينما يقيم أوغسطين أخلاقه على دعائم نظرية المثل عند أفلاطون، نجد أن الأكويني يتخذ من نظرية الصور عند أرسطو دعامة لأخلاقه.
ولنحاول تفسير ذلك؛ فكل من أوغسطين والأكويني يعتقد أن أسمى مراتب الخير الذي يفعله الإنسان هو الجهاد في سبيل الوصول إلى الكمال الإلهي ولكنهما يسلكان سبلا مختلفة نوعا ما لبلوغ هذا الكمال. فبينما يؤكد أوغسطين مع أفلاطون أن الرجل الصالح يقلد مثال الخير الموجود في السماء لنقتدي به جميعًا، نرى أن الأكويني يذهب مع أرسطو إلى أن الرجل الصالح يتطور طبقا لصورة الخير الحالة في كل شيء، والتي تساعدها أعمالنا الخيرة على بلوغها مرحلة أسمى.
ولنأخذ على سبيل المثال عملية غرس بذرة البلوط. فإن هذا الغرس عند أفلاطون (وعند أوغسطين كذلك) ليس إلا محاولة لتقليد مثال شجرة البلوط الكائن في العقل الإلهي. وكل شجرة بلوط على وجه الأرض ما هي إلا صورة غير كاملة لشجرة البلوط الكاملة التي في السماء. أما عند أرسطو (وعند الأكويني كذلك) فإن عملية الغرس إن هي إلا محاولة لكي نخرج من بذرة
البلوط إلى عالم الوجود شجرة البلوط التي توجد صورتها داخل البذرة.
وما كل هذا إلا جدال لفظي - أو قل هو اختلاف على الألفاظ. فالحقيقة أن كلا من أفلاطون وأرسطو وكلا من أوغسطين والأكويني لا يعنون إلا شيئًا واحدًا. فعندما تغرس بذرة البلوط وتموت تولد شجرة البلوط، أما مثال الشجرة وصورتها فكلاهما مستقران داخل البذرة. وهكذا أيضًا إذا مات الإنسان، ولد المَلَك. وبعبارة أخرى ففي أعماق كل إنسان نجد الدافع والصورة وكل ما يلزم من صفات الملائكة، وفيما يتعلق بوجهة النظر هذه، يتفق كل من أوغسطين الأفلاطوني والأكويني الأرسطاليسي. كما يتفق الاثنان كذلك في إصرارهما على أخلاق الكتب المنزلة كضرورة لازمة للحياة الصالحة، حياة البر التي هي وسيلة للحصول على الصورة المثالية للخير المقدس والجمال المقدس والحب المقدس.
وهنا أيضا نجد نفس الفكر الفلسفي الذي انساب كتيار ماء حي من عهد المفكرين الشرقيين الأولين حتى عصر الأكويني. فالخير هو الغاية أو العلة التي تستهدفها الطبيعة كلها، وما هذه العلة سوى التناسق الجوهري الذي يضم وجهات النظر المختلفة ظاهريا في العالم كله.
ولنصوب النظر إلى الأكويني الذي يعدونه الفيلسوف غير منازع بين رجال الكنيسة الكاثوليكية إلى يومنا هذا.
٢
ولد الأكويني في إيطاليا لأسرة كريمة المحتد من العسكريين ولكنه رفض أن يسير في ركابهم وفضل أن يحيا حياة أخ راهب. ومنذ طفولته المبكرة كان يأخذه العجب من سر هذا العالم. ولما كان في الخامسة من عمره بدأ يسأل قائلا:
" ما هو الله؟ ". ثم قضى كل حياته فيما بعد وهو يحاول أن يجد الإجابة عن هذا السؤال.
أما أبوه الذي كان ينتمي إلى أسرة الإمبراطور الروماني فقد عارض بشدة في أن يشغل الصبي باله بعلم اللاهوت. فإخوة توما قد

خاضوا المعارك بجدارة، كما كان جده الذي سمي باسمه قائد القوات الإمبراطورية من قبل. ولكن توما بالرغم من أنه كان يعيش في قرن مليء بالاضطراب أصر أن يعيش في تأمل هادىء.

وظن أبوه أن حالته تدعو للرثاء، إذ كان حتى وهو صبي صغير جبلا من القوة - جسم ضخم ورأس ضخم، وذراعان كفكي المنجلة إذا ما ضماك بينهما - فلو أنه التحق بجيش الإمبراطور فردريك لكان جنديًّا رائعًا! ولكن الصبي لم يعر نصح أبيه أذنًا مصغية بل على النقيض كان يجلس عند أقدام الرهبان المستجدين الذين كانوا يقصدون قلعة أبيه في أكوينو. فاستمع إلى قصصهم عن عالم الروح في الباطن وكيف يقابله عالم البدن في الظاهر. وكان الأكويني قلما يتكلم، حتى إن رفاقه كانوا يتندرون قائلين: " صبي أبكم كالثور " في حين كان يستوعب كل ما يسمعه ويعجب لقداسة الله ووحشية البشر. فلم كل هذا الجور والحرب في عالم نستطيع أن نجد فيه كل جمال وسلام؟ هذه هي المشكلة التي كان عليه أن يبذل كل مجهود ممكن لإدراكها.

وشعر أن المكان الوحيد الذي فيه يمكن أن يدرك كنه هذا الموضوع هو صومعة في دير.

وفي النهاية أذعن الأب لحجج ابنه ورجائه، فألحقه بجامعة نابولي. وكان

أمل الكونت أكوينو أن يدرس توما ويتدرب في هذه الجامعة ليصبح رئيس دير مونت كاسينو ومن هذا المنصب يمكنه أن يرقى إلى مرتبة أسقف أو كردينال - ومن يدري - فقد يصل إلى مرتبة بابا روما.

ولكن للمرة الثانية عصى توما أمر والده: إنني لست راغبًا في شرف المناصب الجليلة وأبهتها، إنني لا أبغي أكثر من دعة راهب بسيط ".

ولكي يخلصه والداه من " جنونه " هذا أغلقا عليه أحد أبراج الحصن. وكانا يقدمان إليه حيث حجزاه طعامًا متبَّلاً وكتبًا غرامية. ولكنه كان لا يقرب تلك المشهيات البدنية والعقلية، إذ أنه قد رأى في إحدى الرؤى القديس فرانسيس - " الأبله الحبيب عند الله " وأراد أن يتشبه إلى أبعد حد ممكن بهذا القديس " مهرج السماء " الذي حكى أنه كان في وسعه أن يفهم لغة الطيور، لأنها مثله تمامًا لم تعرف سوى أغنية واحدة - هي أغنية المحبة الشاملة.

وذات مرة، في محاولة لرده إلى حواسه وعقله، أدخل والداه غانية جميلة إلى البرج الذي يقيم فيه. وكانت ليلة باردة تلك التي أدخلت فيها إلى غرفته، ولكن نار المدفأة كانت تتأجج. وفي ضوء تلك النار التي وقع نظره عليها، وكان شعرها الذهبي الأحمر وحده كافيًا لإثارة شهوة أي رجل. ولكن توما اختطف كتلة مشتعلة من الخشب واندفع بها نحوها. فما كان منها إلا أن فرت هاربة من الغرفة.

ثم أغلق توما الباب خلفها ورسم بالشعلة المتأججة علامة الصليب على حائط غرفة سجنه.

وكان هذا " الثور الأبكم " يتمتع بعاطفة قوية في دخيلة نفسه، ولذا كان يستنفذ عاطفته ويفني نفسه في حب الله.

وبمساعدة بعض أصدقائه أمكنه أن يهرب من برجه ويتجه إلى كولونيا، وهناك أتم دراسته في اللاهوت والفلسفة على يد الأستاذ الراهب ألبرت الكبير الذي تحدث عنه علماء ذلك العصر

قائلين: " إن هذا المعلم الرائع يحمل الكون كله في رأسه ". وقد ألف ألبرت كتبًا في علم الحيوان وعلم النبات وعلم المعادن والطبيعة والكيمياء والفلك. كما تقدم بنظريات غير مستقيمة عن استدارة الأرض وجاذبيتها وعن تجمع النجوم البعيدة في شكل عنقود يبدو كسحابة درية عبر السماء وهي ما نطلق عليه اليوم اسم " درب التبانة ". وكان الكثرون من معاصري ألبرت يعدونه ساحرًا. في حين أخذ توما يجله معتبرًا إياه رجلا عظيما طاهرًا.

كما حدث أن اعترف ألبرت أن توما كان أكثر تلاميذه تعمقًا في العلم. ووراء جبهة تلميذه الشاب هذا - يقول إن وراء هذه القبة الضخمة كانت الأفكار الجبارة تتبلور وتحلل وتستوعب وتهضم في سكون. وقد تنبأ المعلم أنه إذا ما حان الوقت لتوما أن يتكلم فإن العالم كله سوف ينصت إليه.

وبالرغم من ذلك كان توما لا يزال، عند زملائه الطلبة، الشخص البطيء الحركة، المتلعثم اللسان، البليد التفكير. حتى إنهم كانوا يسمونه " الثقيل الفهم " كما جعلوا منه موضع سخريتهم الدائمة وفكاهاتهم. ولم يحدث أن ثار لنفسه منهم إلا في مناسبة واحدة؛ فبينما

كان جالسًا في غرفة مكتبة إذا بجماعة من زملائه في الفصل ينادونه من ساحة الجامعة صائحين: " انظر يا أخ توما، أقبل وانظر! إنه ثور يطير! " فأسرع إلى النافذة وأطل برأسه، فما كان منهم إلا أن قابلوه بعواء الهزء والسخرية. " لقد صدق المجنون! لقد صدق فعلا! " أما توما فواجه الطلبة من غير أن ينزعج قائلا: " إنه لخير عندي أن أصدق أن ثورًا يطير من أن راهبًا يكذب ".

٣

وما إن أتم توما دراساته حتى أصبح كاهنًا، وكان الهدف الذي يطمح إلى تحقيقه هو إقامة كاتدرائية - على دعائم الفكر من الفكر لا من الحجر - أو قل بناء يضم سرَّ الإله ومعنى الحياة.

وكان همه أن يصل إلى حقيقة الحياة. فقد سأله معلمه ألبرت مرة قائلا: " ما هي أهم القدرات العقلية؟ ".

فأجاب توما: " إنها القدرة على إدراك الحقيقة ".

" ولكن هناك من يزعمون أنه ليس في وسع الإنسان إطلاقا أن يدرك الحقيقة ".

" إن أولئك الذين يأخذون هذا الزعم إنما يناقضون أنفسهم، وإنهم يقررون " حقيقة ما " ألا وهي زعمهم بأنهم لا يدركون الحقيقة ".

فقال معلمه والابتسامة تعلو شفتيه: " إن لك يا توما عقلا ثاقبًا يستطيع أن ينفذ إلى لب الموضوع فاستخدمه في تثقيف إخوتك في البشرية، وإنارة طريقهم ".

وقد اتخذ توما من هذه النصيحة نبراسًا له في حياته. وتسلم ثوب الكهنوت ذا اللونين الأسود والأبيض، وكرس حياته لتعليم الفلسفة والكتابة فيها. ولما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره عين أستاذًا للاهوت في جامعة باريس، وبدأ يبني كاتدرائية فكره في سلسلة من الكتب تحوي من الحجج ما يقيم بناء هائلا يرتفع من الأرض إلى عنان السماء.

ويقوم هذا البناء على أساس المعادلة التوماوية التي يقول فيها: " يجب

ألا تقوم العقيدة على النقل، وإنما يجب أن يقوم العقل على العقيدة ". ولا يمكن أن تنبثق العقيدة من المعرفة , وإنما تنبثق المعرفة من العقيدة، ولتبدأ بعقيدة راسخة في خير الله، ومن هذه القاعدة يمكنك أن تثبت التناسق بين الكون وخلاص نفسك.

ويمكن أن نعبر عن هذه المعادلة بالرسم، فنمثلها بهرم قاعدته العقيدة وضلعاه العقل، ويلتقي ضلعا العقل عند رأس المثلث الذي يمثل الحقيقة.

والحقيقة - كما يراها القديس توما - تمكنك من أن تدرك كيف تعاقدت روحك للقيام برحلة متجهة إلى الله ومتخذة من بدنك مركبا تحل فيه أثناء الرحلة. وإذا ما استخدمنا كلمات أرسطو قلنا إن روحك هي صورة نفسك الحقيقية، وبدنك هو مادتها، وروحك - وهي القسم المقدس منك - كائنة في داخل بدنك. وإن هي إلا الكلمة في صورة الجسد، وهي على استعداد على أن تزهر بمجدها الكامن فيها بالقوة، شأنها في ذلك شان الشجرة الكائنة داخل البذرة والتي تنتظر اللحظة التي تخرج فيها حتى يتم نموها الكامن فيها بالقوة.

وهكذا يصرح الأكويني بأنه لا بد لكي تعقل أن تعتقد. ابحث تجد.

فالله قد خلقك لكي تنمو بنعمته وتسير في طريقه. ولكي تدرك الغرض من الحياة، ولكي تعرف المثال إلهي الذي ينظم كيانك.

وما الغاية من حياتنا إلا الله. ولكننا لا نمنح هذه الغاية منحا وإنما يجب أن نصل إليه ببذل الجهود المتواصلة. والطبيعة إن هي إلا مركب من مادة ناقصة وصورة كاملة. والصراع لازم لتحويل المادة إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكمال؛ فالنبات يجب أن يصارع التربة قبل أن تنبت البذرة وتخرج أوراقا وأزهارا.

ويجرنا هذا إلى بحث الأكويني في آلام العالم وشروره، وهو العالم الذي يؤكد هو أن الخير أساسه. ويخبرنا أن الخير ليس حالة سلبية وإنما هو عمل إيجابي. فإذا ما تساءلنا: لماذا يسمح الله بالشر فإننا لا نعني حقا إلا هذا السؤال: لم يسمح الله بوجود ما نحكم عليه بالشر؟ وجواب ذلك هو أن الله يرى، ونظره أصوب من غير ما حدود من النظر البشري، إن الشر نتيجة الابتعاد - ابتعاد الإنسان عن الله. كما أن الخير نتيجة الاتحاد - اتحاد الإنسان مع الله.

وهكذا فإن الشر لا يقوم بذاته، بل هو خير ناقص لم ينضج، أو ظل يطمس ضوء الشمس. والشر إن هو تحد لروح الإنسان. فلنتغلب

على النقص ولنزل العقبة التي تلقي بالظل. والبدن الشرير هو بدن مريض، وما الآلام التي تصدر عن المرضى سوى ألم نفس مشطورة. فإذا ما انتصرنا على الشر فإننا نعود أصحاء كاملين مرة أخرى.
فالقداسة، إذن، تعبير آخر عن الكمال والصحة، والخير تعبير آخر عن التقوى والصلاح. ولكن السؤال الذي لا يزال في حاجة إلى إجابة هو: لماذا
يرى الله أنه من الضروري أن ننشطر أولا لكي نتحد ونكمل فيما بعد؟ وأن نقع صرعى المرض لكي نشفى ونصبح أصحاء مرة ثانية؟ وبعبارة أخرى ما الغاية من العناء والألم؟ والإجابة هي أنه بدون عناء وألم يصبح العالم الذي نعرفه، عالما بغير معنى. ولو تخيلنا حالة فيها الصحة الدائمة وضوء الشمس المتواصل والهناءة الخالدة، لكانت هذه حالة من السأم المقيم غير المحتمل. إن التناقض هو الذي يجعل لحياتنا طعما. فنحن نقدر النجاح لأننا نذوق ألم الفشل. وليس هناك لذة أعظم من شعورنا بالإبلال من المرض والتخلص من الألم. وهكذا نجد أن خيرنا الأعظم هو في صراعنا الدائم مع البشر. وما حياتنا إلا رحلة تبدأ بألم الابتعاد وتستهدف سعادة الاتحاد.
ولكن الأكويني يصرح بقوله إن هذا الاتحاد مع الله يستحيل أن يتم كاملا على الأرض، بل يجب أن ينتظر المرحلة التالية من الرحلة فيما وراء هذا العالم. فحياتنا على الأرض ليست إلا جزءا من خبرتنا، ولكن هذا الجزء يحدد بقية الخبرة التي علينا أن نمارسها في الحياة الآتية.
٤
وجدير بالذكر أن التناقض بين أطراف العالم المختلفة هو الذي يهيء الطريق لوحدة الكل. فيجمع بين اللذة والألم، فتنتج السعادة، وبين الرجاء وخيبة الأمل فتولد الرحمة، وبين الحياة والموت فيتم الخلود.
وما هذه المناقضات إلا العناصر التي يخلق منها العالم، إذ لم تكن عملية الخلق حدثا منعزلا تم في الماضي، وإنما هي عملية متصلة على طول الزمان. وبالرغم من ذلك فالزمان كله حاضر مستمر بالنسبة للعقل الإلهي العليم بكل شيء، فالله لا يحده
زمان - وهنا نستمع إلى صدى ما كان يردده القديس أوغسطين. قالله إذن عليم بكل ما كان وبكل ما هو كائن، وبكل ما سيكون. وكما أن التمثال كائن في عقل المثال قبل أن ينفذ على الرخام، كذلك أجيال البشر كائنة في عقل الخالق قبل أن تخرج إلى الوجود لحما ودما.
ويخلق الله الأشياء كلها لأنه يحب الأشياء كلها. وفكرة خلق العالم هذه نتيجة لحب الله إن هي إلا فكرة أفلاطونية أكثر منها أرسطاطاليسية. فقد كان الأكويني شخصية أكثر حرارة وحماسة من أرسطو، ومن ثم نجد أن إله الأكويني كائن أكثر عطفا ورحمة من إله أرسطو. وجميع الفلاسفة يتمثلون آلهتهم على صورهم الذاتية. فبينما إله أرسطو هو المحرك الثابت نجد أن إله الأكويني (مثل إله أفلاطون) هو المحب الخلاق. ولا يخلق الله الإنسان فحسب، بل يخلق العالم أجمع كذلك، على صورته. ولذلك تحاول جميع الأشياء أن تتخذ صورة أقرب ما تكون شبها بالله.
فالحياة، إذن، جهاد متصل للوصول إلى الكمال. وكل الخليقة الزائلة إن هي إلا محاكاة فطرية للصورة الإلهية، فهكذا يريد الله وإرادته هي بداية الوجود ونهايته. وجميع أطراف العالم المتناقضة - التي نراها ونحس بها من ألم ولذة ومرض وصحة وحسد ورحمة وانتقام وعفو وموت وحياة - أشبه ما تكون بألوان المنشور المختلفة. فإذا ما امتزجت جميعها فإنها تذوب في بهاء خير الله وعلمه ومحبته. ولذلك فكل ما هو خير يأتي من عند الله، كما أن كل ما يأتي من عند الله خير. وما الشر إلا تحد يرمي إلى تحويل طريقنا إلى جهاد له ننشوته ومغزاه.
٥
وهكذا ظل الأكويني يبني كاتدرائيته المؤسسة على العقيد المدعمة بالعقل.
ولنستمع إليه يقول في هذا الصدد: " في عقيدتي الكثير مما يفوق عقلي ولكن ليس فيها ما يناقضه " وفي كتبه المختلفة - وبخاصة كتابه " المجموعة اللاهوتية " - نادى من جديد بالعقيدة المسيحية القديمة في ناسوتية الله، ولاهوتية الإنسان.
ولم تكن هذه إلا إعادة لما قررته من زمن بعيد المعتقدات الفلسفية عند المصريين والهنود والصينيين والفرس والعهد القديم واليونان. وكان حكماء المصريين قد صرحوا بأن " الله يتربع في قلب كل إنسان ". ثم أراد الهنود أن يرقوا بالفكرة فقالوا: " إن الله هو الذات

العامة ". والتقط الفرس هذا الخيط الفلسفي وأكدوا: " أن كل عناء إن هو إلا تطهير للنفس حتى تكون أقرب شبها بالله ". أما فلاسفة العهد القديم فقد حولوا علم اللاهوت إلى علم الأخلاق ولذا نادوا بالخدمة الاجتماعية كأسمى مثال للخدمة الدينية. " فلما كان الإنسان هو جوهر الإله. فإن فعل الخير لإخوتنا في البشرية إن هو إلا فعل الخير في نظر الله ".

ولم يكن القديس توما الأكويني، إذن، إلا الخلف الروحي للقديس أخناتون، والقديس بوذا والقديس كونفوشيوس، والقديس زرداشت، والقديس أشعياء، والقديس أفلاطون، بالإضافة إلى القديس أوغسطين، والقديس بولس.

وقد استبدل الأكويني - شانهفي ذلك شأن رجال الحكمة من القديسين الآخرين - أقول استبدل بالنجاح الدنيوي هدوء النفس. ولم يكن عمره يجاوز السابعة والأربعين عندما مات، ولكنه لم يشعر بأسى، أو أسف لقصر حياته: " لقد أعطاني الله كل ما سألته. وإذا كان قد منحني الحكمة في سن أبكر من الآخرين، فذلك لأنه أراد أن يقصر مدة النفي المحكوم بها علي في العالم لكي يقربني عاجلا إلى مجده ".

بياض بالأصل

الجزء الرابع

ميلاد الفلسفة الجديد

بياض بالأصل

٦ الجزء الرابع: ميلاد الفلسفة الجديد

٦٠١ الفصل الرابع عشر: فرانسيس بيكون

الفصل الرابع عشر

فرانسيس بيكون

(١٥٦١ - ١٦٢٦)

١

كانت القرون الثلاثة التي انقضت بعد الأكويني قرونًا مظلمة من وجهة النظر الفلسفية. فلم تنجب الحقيقة كلها إلا أفرادًا قلائل من مفكري المرتبة الأولى؛ إذ كان الناس مشغولين بالتطاحن على السياسة أو التشاحن على الدين، لدرجة لم تمكنهم من تكريس أنفسهم للبحث عن الحكمة.

وفي مثل ذلك الجو راحت أعشاب الصورة الزائفة من المذهب العقلي تعيق نمو العقل نموًّا سليما فحتى من كانوا يسمون بالمثقفين شغلوا أنفسهم بالتنجيم، أي الاعتقاد بأن النجوم هي التي تسير أقدارنا، وبالسيمياء، أي محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، وبالبحث في الجن والشياطين، أي التأمل في عالم الشياطين والملائكة، وبالخرافات، أي سرعة التصديق والتسليم القائمين على المخاوف غير المعقولة. ثم جاء عصر النهضة - ومعناه يقظة العقل البشري مرة ثانية - فحل علم الفلك محل التنجيم وأخلت السيمياء مكانها لعلم الكيمياء، وتحول البحث في الجن والشياطين إلى علم الأجناس البشرية، وتوارت الخرافات تحت أنوار العلم القوية. وكان كولمبس قد اكتشف عالمًا جديدًا عبر المحيط، كما ترسم كوبرنيق طريقا جديدًا عبر السماء إلى النجوم.

وفي ذلك العصر الذي انتشر فيه نور العلم وجدت الفلسفة في الصوت

الجديد الذي ينادي بها، وهو فرانسيس بيكون، " أقدر عقلية أنجبتها العصور الحديثة ".

٢

لقد سلك الأكويني وبيكون طريقين على طرق نقيض في محاولتهما الكشف عن معنى الحياة، فبينما بدأ الأكويني من العقيدة إلى العقل سار بيكون من العقل إلى العقيدة. وقد قال الأكويني رجل الكنيسة: " لا بد أن أعتقد قبل أن أعقل ". أما بيكون رجل السياسة فقد أجاب بقوله: " بل لا بد أن أعقل قبل أن أعتقد ".

وبالرغم من ذلك فقد وصل الفيلسوفان، بسيرهما في طريقين متناقضين، إلى نهاية واحدة لا اختلاف عليها؛ فالطرق إلى الحقيقة متعددة، ولكن الحقيقة واحدة.

٣

ومن اللحظة التي ولد فيها بيكون (في إنجلترا، في ٢٢ من يناير سنة ١٥٦١) كان مقدرًا له أن يشغل منصًا عامًّا في الدولة. وكان أبوه السير نيكولاس بيكون حامل أختام الملكة إليزابيث الأولى. وكانت أمه، الليدي آن كوك، شقيقة زوجة السير وليام سيسيل وزير خزانة الملكة. فقضى فرانسيس صباه بين أحضان الترف في القصر الملكي - بين أمجاد العصر الإليزابيثي الذي هو أحد العصور الزاهية المزدهرة في تاريخ البشر. ولما بلغ سنته الثانية عشرة أرسل إلى كلية ترينيتي (جامعة كمبردج) وفي سن السادسة عشرة ترك الكلية وقبل منصبًا في السفارة الإنجليزية في فرنسا. وكان ميالا إلى الفلسفة حتى وهو

في تلك السن المبكرة. وظل فترة مترددًا بين الفلسفة والسياسة أيتهما يؤثر لتكون مهنته في الحياة. وبعد مضي سنوات وصف حيرته العقلية عندما كان شابًّا صغيرًا بقوله: " كنت أعتقد أنني ولدت للقيام بخدمة البشرية .. ولذلك أخذت أسائل نفسي: كيف يمكنني أن أفيد البشرية أكثر ما يمكن .. فوجدت أن لدي استعدادًا خاصًّا بطبيعتي لتأمل الحقيقة ..

" إن مولدي وتنشئتي وثقافتي كانت كلها تشير إل الطريق الذي ينبغي أن أسلكه - السياسة، لا الفلسفة. فكنت وكأنني قد رضعت لبان السياسة في طفولتي .. وكنت أرى أن واجبي نحو وطني له علي مطالب خاصة .. وأخيرًا أدركت الأمل الذي أحققه إذا ما تربعت في منصب من مناصب الدولة السامية بحيث يمكنني الحصول على معونة دائمة تعيلني على أداء مهمتي المقدورة لي في حياتي. وبهذه الدوافع جميعًا انخرطت في سلك السياسة ".

وهكذا اختار السياسة مهنة تعينه على متابعة الفلسفة. وقر قراره على أن يتقدم بخدماته لخير وطنه وإسعاده، وذلك كي يتعلم كيف يعمل على خير البشرية وإسعادها.

ويجب أن نلاحظ أيضًا أن هناك دافعًا آخر جعل بيكون يفضل الاشتغال بالسياسة على الفلسفة فقد أحب ثمرات الحياة الدنيا بنفس القدر أو ربما أكثر مما أحب ثمرات الحقيقة المجردة. وسنرى كيف جلبت عليه الخراب محاولته خدمة الله وخدمة رب المال في آن معا.

ولعل هناك عذرًا يلتمس له لتكالبه على المال، إذ مات أبوه فجأة (في ١٥٧٩) وهو يتأهب لاتخاذ ما يلزم لإعالة ابنه الأصغر بعد أن كان قد أمد أبناءه الخمسة

الكبار بما يكفل لهم اليسر. وقد فزع فرانسيس وجزع عندما وجد نفسه معدما ولم يزل بعد في عامه الثامن عشر. فأما وقد نشأ بين أحضان الترف حتى هذه اللحظة فإنه لم يتصور أن يقضي بقية حياته بين أنياب الفقر. ولذا عقد النية على أن يصبح من عداد الأغنياء بأي ثمن. وفيما هو يحاول مجاراة تقاليد أسرته، انتابته حالة من الضيق استسلم لها، إذ كان من الصعوبة بمكان حتى على فيلسوف أن يتغلب عليها.

ولم يكن فرانسيس قديسا بل كان فيلسوفا.

فتقدم للالتحاق بمنصب في البلاط الملكي والتمس من زوج خالته السير وليام سيسيل أن يساعده بنفوذه للحصول على المنصب، ولكن لما كان لسيسيل ابن يرغب في تعيينه في نفس المنصب، فلم يعر ابن شقيقة زوجه أذنا مصغية.

فاتخذ فرانسيس، في غير ما أناة، قرارا بدراسة القانون لفترة قصيرة. وما إن تخرج حتى حاول مرة أخرى أن يحصل على منصب في البلاط. وفي هذه المرة نشد رعاية الايرل اسكس عليه الصلاة و السلامOf arl عليه الصلاة و السلامssex الشاب الجريء الذي كان قد استمال قلبه بالإطراء البليغ. ولكن بالرغم من أسكس كان الشخص المفضل عند الملكة في ذلك الحين، فإنه لم يتمكن من إقناعها بأن تشمل " أعز صديق " لديه بفضلها وكرمها.

ولكي يخفف اسكس من وقع الصدمة على صديقه أهداه ضيعة تدر عليه ثروة طائلة. وفي مقابل هبة هذا الجواد الكريم، سعى بيكون بل ومهد الطريق إلى إعدام من أحسن إليه. وهكذا كان تطلعه إلى المجد اللاحق أهم لديه وأعظم من عرفانه بالجميل السابق. فما إن تعرض اسكس لغضب الملكة حتى أصدرت

أمرها بالقبض عليه بتهمة الخيانة. ومن سخرية القدر أن تنتخب الملكة بيكون مدعيا عنها ليقيم الدعوى ضد صديقه الشخصي الحميم. فأدى بيكون المهمة على أتم وجه حتى سبق اسكس في النهاية إلى حيث قطع رأسه. وقد صرح بيكون بقوله: " إن طموحي شبه ما يكون بالشمس التي تنفذ خلال النجاسة والدنس، وبالرغم من ذلك تظل نقية كما كانت من قبل ".

وعلى جثة اسكس صعد " أحكم وأخس إنسان بين البشر " - كما ذكر الشاعر الإنجليزي الكسندر بوب - صعد أولى درجات السلم إلى ذروة المجتمع.

٤

ولقد تسلم بيكون أكثر من ثلاثين قطعة من الفضة ثمنًا لخيانته. وبلغ القدر الحقيقي الذي تسلمه ألفًا ومائتي جنيه، ويعد هذا مبلغًا طائلا في تلك الأيام. ومع هذا جأر بالشكوى من أنه لم يكن كافيا، إذ أن نفقاته طوال حياته كانت أكثر من دخله.

وكانت شهوته للسلطان تساير حبه للمال. وظل صعوده بعد خيانة اسكس متصلا لا يعوقه شيء. وبالرغم من ذلك فلم تجعله المناصب السامية التي اعتلاها يفرط في الزهو، إذ كانت الفلسفة تجري في دمائه. ولكن غدره باسكس لم يكسبه إلا عددًا كبيرًا من الخصوم السياسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة للإيقاع به في الشرك. أما أصدقاؤه السياسيون فكان يرى منهم زمرة من الكلاب تعوي وتتنافس للحصول على عظمة واحدة بعينها، ألا وهي المركز المفضل في البلاط.

وبالرغم من أعدائه وأصدقائه كذلك، فقد سار قدما إلى الأمام - أو قل،

تفسيرًا لما جاء على لساسه - صعد إلى كل منصب ومقام رفيع بأسلوبه المزري الوضيع. وكان له دستور غاية في البساطة يتبعه للوصول إلى النجاح: " تزلف إلى السلطات الأعلى منك قدرًا، وعامل الجميع كما تفعل النحلة، قدم لهم شهدًا تتخله وخزات الإبر ". ولما بلغ الخامسة والأربعين من عمره تزوج - جريا وراء المال لا إشباعا لعاطفة الحب - وقد علق ساخرا بقوله: "إن النفوس الكبيرة تبعد من طريقها هذه العاطفة الواهنة السخيفة (عاطفة الحب) ". وظل يبني منزله على أساس مقلقل، كما أحاط نفسه بكل ترف ورفاهية فيما عدا أهمها جميعا وهي القناعة.

وحدث مرة عندما أخفق في تغطية نفقاته الباهظة أن سبق إلى السجن لعجزه عن وفاء دين. ولكنه ما إن خرج من السجن حتى بدأ نجمه في الصعود يدفعه طموحه. وأخذ وهو في خدمة الملكة إليزابيث أولا، ثم الملك جيمس بعد ذلك، يتوسل آنا ويشق طريقه شقا آنا آخر ويتملق ثالثا حتى ظفر بالمناصب التالية: مدعي المملكة، ثم المحامي العام، ثم النائب العام، وأخيرًا رئيس القضاة. وكان هذا أعلى منصب في إنجلترا يلي منصب الملك.

وأصبح بيكون آنئذ أعظم، ولعله أغنى رجل في إنجلترا فكان في حوزته بضع ضياع في المدينة وفي الريف. وكانت المساحة التي تحيط بأحد قصوره الملكية تضم بحيرة يزيد من بهائها عدد من الجزر المرصعة في أوسطها. وعلى أكبر هذه الجزر أقام منزلا صيفيا فاخرًا ذا بهو تحفه أعمدة رخامية وقاعة كبيرة للموسيقيين. وفي هذا المكان، كان يحتفي بمئات الأصدقاء ويقدم لهم أطيب اللحوم وأفخر الشراب، ويقوم على خدمتهم عشرات من الأتباع بملابسهم الخاصة. وكان وضعًا ملائمًا حقا لذلك الطاووس ذي الريش المنقوش وهو يختال زهوا بين مدعويه في جو من الأبهة وأحلام العظمة والفخار. وهكذا وصل الفيكونت سانت البانز - وكان هذا لقبه الرسمي آنذاك - إلى ذروة ما يطمح إليه.

وبعدئذ بدأ يأفل نجم بيكون وهو يحتفل بعيد ميلاده الستين في لندن في قصره (يورك هاوس) الذي كان يعج بالمدعوين. وفي هذه المناسبة ألقى الشاعرن بن جونسون قصيدة كان قد أعدها تكريما له. كما قدمت فرقة من الممثلين تمثيلية تمجد بها الفيكونت وتعظمه. وفي نهاية التمثيلية اقترح أحد المدعوين أن يشرب الجميع نخب " أشرف رعايا الملك وأسعدهم حظا ".

وبينما كان المدعوون الآخرون يشربون النخب، إذا بأحد أتباع بيكون يهمس في أذنه، ولم تكن هذه الرسالة التي يبلغها إياه إلا نذير شؤم وسوء من البرلمان، فقد قرر أعضاء المجلس التحقيق فيما نسب إليه من سلوك شائن باعتباره أكبر موظف قضائي في المملكة. وكانت التهمة التي من أجلها وجبت محاكمته هي الرشوة، إذ ثبت أنه كقاض قد ابتز أموالا من أحد أصحاب الدعاوى بالوعد والتهديد.

وفي ذلك العصر كان ارتكاب مثل هذا العمل عاديا شائعا. ولكن بيكون كان يعرف أن أعداءه يتربصون به الدوائر ليقضوا عليه. وبالرغم من ذلك فقد حاول في البداية أن ينفي التهمة بصفاقة. فكتب يقول: " أصحاب السيادة - إنني أعرف أن لي يدين نظيفتين وقلبا نظيفا ... ولكن أيوبا نفسه قد يبدو للحظة شريرا وبخاصة إذا كانت العظمة هي الهدف، والاتهام هو طريقة بلوغه "
ثم لم يلبث أن اعترف بصحة الاتهام والتمس العفو من الملك: " إني ألتمس من قلب جلالتك الذي يفيض بالخير كما أفيض أنا بالشقاء أن يقضي ... بفضل رحمتك ".
وبعدئذ عرض، في صراحة مذهلة، أن يرد للملك ثمن عفوه: " لما كان الشخص الذي أخذ الرشاوى مستعدا لإعطاء الرشاوى، فإنني أتقدم إلى جلالتك برشوة. فإذا منحتني جلالتك العفو والهدوء والوقت الفراغ ومنحني الله طول الأجل، فإنني أعد جلالتك بتقديم كتاب جديد يضم بين دفتيه تاريخ إنجلترا، وكذلك مجموعة منسقة للقوانين المدنية في عهد جلالتك ".
ورفض الملك جيمس أن يتدخل في المحاكمة. فحكم على بيكون بالسجن في برج لندن وبغرامة قدرها أربعون ألف جنيه. وانتهى أجل سجنه بعد يومين كما دفعت غرامته. ولكن كبرياءه تحطمت. ولنستمع إليه يقول: " لقد كنت أعدل قاض في إنجلترا طوال هذه الخمسين عاما ولكن
" هذا الحكم " (مشيرا بذلك إلى الحكم الذي صدر عليه) كان أعدل حكم أصدره البرلمان طوال هذه السنين المائتين ".
٥
واعتزل بيكون في الريف وعاش آخر خمس سنوات من عمره في فقر يظلله الهدوء. ولكننا نجد أنه من بين العفن والوحل الذي تردى فيهما طموحه الذي جلب عليه النكبات، انبثقت فلسفته في أوج ازدهارها، وقد ندم بيكون على أنه أضاع الكثير من وقته جريا وراء أعمال الطيش، في حين لم يعط لخدمة الحكمة من وقته إلا النزر اليسير. ومع هذا فإن مصنفاته، التي يرى هو أنها أجزاء مبتورة، تمثل ما يمكن أن يوصف بأنه أعظم إنتاج للفكر الإنساني منذ
عصر أرسطو حتى أيام بيكون نفسه. وقد ذكر ماكولي في هذا الصدد: " إن فلسفته قد حركت العقول التي حركت العالم ". وبلغ عدد منصفاته ما يزيد على العشرين تناول فيها جميع مناحي الآداب والعلوم والفنون تقريبا، وألقى الضوء عليها جميعا. حتى إنه كتب يقول: " إنني أرى جميع أنواع المعرفة تدخل في دائرة اختصاصي ". وكان هدفه أن يلم الناس أطراف المعرفة حتى تتحرر عقولهم. كما جاء في كتاباته: " إن أعظم سعادة يحصل عليها الإنسان هي أن يسمو بعقله فوق مضطرب الأشياء "، إلى الحد الذي يستطيع فيه أن يدرك نظام الطبيعة وأخطاء الناس.
" وإن أفحش الأخطاء لهو مجاوزة الحد المعقول " - وهذه حقيقة قد كشف عنها أرسطو لما يقرب من ألفي عام قبل بيكون. وقد لاحظ بيكون: " أن الإفراط في شهوة السلطان كان سببا في سقوط الملائكة ".
وكانت الفكرة التي أقام بيكون فلسفته عليها تنحصر في أن الإفراط في شهوة السلطان إن هو إلا نتيجة للمعرفة القاصرة. وهكذا كانت فلسفته تناقض حياته الخاصة. ولكن ليس لنا أن نتسرع في الحكم عليه. فإن هذا الملك الساقط كان يشعر أن طموحه يقوده إلى حنقه. ومع ذلك سار في طريقه الذي رسمه غير عابئ بالنتيجة. فقد كان عقله عقلا للعصور كلها، في حين كان طموحه من نوع طموح العصر الذي يعيش فيه. فالرشوة كانت متفشية بين أصحاب الكبيرة، أو قل كانت هي القاعدة وما عداها الشذوذ في إنجلترا في عهد الملكة إليزابيث. وكانت مشكلة بيكون - كما تحقق بنفسه - تنحصر في إصراره المسرف على الفوز في الحياة الدنيا. ومن المؤكد أنه كان أنانيا، ولكن هكذا كان أيضًا جميع منافسيه ممن كانوا يسعون وراء الرضاء الملكي
وهتاف الجماهير. ولسوء طالعه تحول حب الذات هذا في النهاية إلى كراهية للذات.
وبالرغم من أن بيكون لم يكترث بأنانيته في أعماله، إلا أنه كان يحس هذه الأنانية في فلسفته. " ففي الفلسفة نتحادث مع الحكماء، أما في أعمالنا فنتعامل مع الحمقى ". ولقد حاول أن يقتدي بالحمقى ويحيط نفسه بزخارف المجد. ولكنه كتب فيما بعد: " إن الفضيلة أشبه ما تكون بالحجر الكريم - تظهر ميزته في بساطته ". كما أخضع كل شيء، حتى فلسفته، لخطته في التكالب على المال. مع أنه كان يعلم حتى قبل سقوطه أن توزيع الثروة غير العادل قد يؤدي إلى الثورة والحرب. وهذا ما حدا به إلى القول: " إن المال كالسماد لا يجود

إلا إذا انتشر بين أكبر عدد ممكن من الناس ". وبعد أن أفرغ كأس الترف حتى مر الثمالة ثبت لديه أننا في حاجة إلى مزيد من النور لا مزيد من الترف.

مزيد من النور. مزيد من المعرفة يهدينا إلى عقيدة أثبت. فلتعقل حتى يمكنك أن تعتقد: كان هذا هو الهدف النهائي لكتابته الموسوعية وتحقيقه الفلسفي. فقد استهدف مزيداً من الفهم ليقل الزلل كما استهدف تضيق مجال الظن ليتسع مجال اليقين؛ فابحث كثيراً ما وسعتك الحيلة فيما يعن لك من موضوعات مهما بلغ عددها ثم لتكن عقيدتك قائمة على ما تعلمت. " إن المعرفة وحدها هي التي تطهر العقل من كل الشوائب ".

فأنت إن كرست حياتك للعلم فلا بد أن تجد غاية لحياتك ولا بد أن تتخلص من " سحب الخطأ التي تنقلب إلى عواصف من القلق والإزعاج ". ولترتفع بعقلك فوق مستوى البلبلة وخلط الأشياء، فهناك يكون خلاصك وبهجتك الحقيقية.

ولتطهر عقلك من القيم الزائفة ولتهدم الصور الباطلة - التي يسميها بيكون " الأوهام " العقلية - فهي تعطيك صورة مشوهة للحياة.

٦

والوهم، كما يحدده بيكون، إن هو إلا ظل يؤخذ خطأ على أنه الجوهر، أو صورة يظن خطأ أنها الأصل.

ويعلن بيكون أن هناك أربعة أنواع من الأوهام أو الصور الباطلة: أوهام الجنس البشري، وأوهام الكهف، وأوهام السوق، وأوهام المسرح.

١ - أوهام (الجنس البشري): وتشمل هذه الطائفة الأخطاء الشائعة بين البشر جميعًا، " القبيلة البشرية كلها " - مثل الخرافات والأحلام والتطير.

ويعتقد بصفة عامة أن الأشياء التي تبدو للعقل البشري إن هي إلا صور هذه الأشياء على حقيقتها. ولكن بيكون يناقش هذا الاعتقاد بقوله: " بل الأمر على النقيض من ذلك؛ فالعقل البشري يشبه المرآة الملتوية التي تمزج خواصها بصور الأشياء المختلفة التي تعكسها ... فتفسدها وتشوهها ". فنحن نسيء تمثيل هذه التشوهات باعتبارها أشياء واقعية، كما نعبر عن تعصبنا وتحيزنا باعتناقنا العقائد، ونحن لا نعتقد فيما هو حقيقي فعلا وإنما فيما نفترض فيه أنه كذلك. وهكذا نجد أن الصورة التي نكونها عن العالم إن هي إلا نتاج بصرنا المعيب. فنحن لا نرى سوى أجزاء صغيرة من العالم الحقيقي، وهذه الأجزاء تظهر ولا تناسب بينها جميعا. والعقل البشري يثب بسهولة من الملاحظات الخاطئة إلى النتائج الباطلة. فخليق بنا أن ندربه على أن يبذل جهدا ويتأنى.

" لا ينبغي أن نمد العقل بالأجنحة، بل الأولى أن نثقله بالأغلال حتى نحول بينه وبين القفز والطيران ". كما لا ينبغي أن يكون الخيال سدًّا متقلب الأطوار يسيطر على العقل، بل ينبغي أن يكون خادما مطيعا له. فإن هذا هو السبيل الوحيد الذي يمكن العقل البشري أن يسلكه ليتطهر من أوهام الجنس.

٢ - أوهام الكهف: وهذه هي الأخطاء التي يختص بها الفرد، لا القبيلة

" فلكل إنسان .. كهف أو مغارة خاصة به. وهذا الكهف يكسر ضوء الطبيعة ويغير من لونه ". فبعض العقول تنزع إلى التحليل، فترى الأشجار ولا ترى الغابة، على حين تميل العقول الأخرى إلى التركيب، فترى الغابة ولا ترى الأشجار. وهكذا نجد أن لدينا عالما ليس بفيلسوف من جهة وفيلسوفا ليس بعالم من جهة أخرى.

وفوق كل ذلك فلكل فرد نزعته الشخصية التي هي نتيجة لعاملي الوراثة والتربية. وكل إنسان يرى العالم خلال المنظار الملون الخاص بوطنه ومهنته وأسرته وحزبه السياسي ومذهبه الديني. وهكذا يبدو العالم في صورة مختلفة في عيني كل من الإنجليزي والروسي، المنتج والعامل، المتزوج والأعزب المسيحي واليهودي. أما العالم الحق أو الفيلسوف الحق فإنه لا بد واقف على قصور وجهة نظره الخاصة، ولذا يحاول أن يربط بينها وبين أكبر عدد ممكن من وجهات النظر الأخرى.

لتخرجن، إذن، من الكهف الذي يضم ذاتك الصغيرة. ولتدخلن دائرة النور وتفحصن ما يحيط بك من منظور على أنه شيء له أهميته العامة الشاملة، لا أهميته الخاصة الفردية.

وتنعدم من الوجود أوهام الكهف ويصبح العصر الذهبي السعيد قريب المنال في الوقت الذي يستطيع الشاعر أن ينظر إلى الدنيا بعيني العالم، كما يستطيع العالم أن يرى الدنيا بقلب الشاعر.

٣ - أوهام السوق: وتنشأ هذه الأخطاء من اجتماع الناس بعضهم مع بعض في أعمال الحياة.
" فالناس يتبادلون الحديث باللغة التي صيغت كلماتها وفقًا لتعليمة السوقة، فينشأ من سوء تكوينها وعجزها تعطيل شديد للعقل ". والناس يستخدمون كلماتهم بطريقة فضفاضة لا نظام فيها، فتكون النتيجة أنها
تنزع إلى إخفاء أفكارهم لا الكشف عنها. فيتحدثون مثلا عن العلة والمعلول، ولكن هل يدرون المعنى الدقيق لهاتين الكلمتين؟ فما العلة الأولى لأي شيء وما المعلول الأخير؟ فالدجاجة - كما علق أحد الحصفاء - إن هي إلا طريقة بارعة تخلق بها البيضة بيضة أخرى. وماذا يعني أرسطو- أو أي شخص آخر - عندما يقول عن الله إنه محرك الكون الذي لا يتحرك، أو علة الكون التي لا علة لها، أو خالق الكون الذي لم يخلق؟ ما هذه إلا كلمات، وألغاز، ودقائق لطاف، وأكاذيب. وقد أصر بيكون على بالغ أهمية تخليص لغة الفلسفة من أمثال تلك التعبيرات السابقة الغامضة المضللة. فيجب ألا تأخذنا شفقة ولا رحمة عندما نتعامل مع كلماتنا، هذا إذا أردنا أن نعبر بدقة عما نعنيه. وصرح بيكون، مثله مثل سقراط، بأن أوهام السوق - أي أخطاء حديثنا في زحمة أعمال الحياة - يجب أن تتخلى عن مكانها في لغتنا لما هو أكثر دقة. فالفلسفة تبدأ باستخدام الكلمات بدقة، فعلينا أن نتعلم كيف نتحدث بحق ونحن نجد في طلب الحق.
٤ - أوهام المسرح: صرح بيكون بقوله: " في رأيي أن كل مذاهب الفلسفة التي انحدرت إلينا ليست إلا روايات مسرحية ... وفي روايات هذا المسرح الفلسفي يمكنك أن تلاحظ نفس الشيء الذي يوجد في الروايات المسرحية التي يخلقها الروائيون ". وفي الحقيقة ليست الحياة كلها إلا رواية تمثل على مسرح العالم. والخطأ الذي ترتكبه غالبيتنا العظمى هو أننا نجعل هذه المسرحية
" أكثر حبكة وانسجامًا بل أقرب إلى ما نرغب أن تكون " مما هي في الحقيقة والواقع. وغالبًا ما يصور الصوفي، شأنه في ذلك شأن رجل الشارع، عالمًا خياليًّا كما يشتهي قلبه، ثم يحاول بعدئذ أن يثبت أنه ليس إلا العالم الواقعي الذي يعيش فيه.
ولكن بيكون رأى أنه لكي نتأكد من طبيعة العالم الحقيقي فعلينا أن ندك ونهدم تعاريفنا الباطلة وعقائدنا ومذاهبنا التي لا أساس لها. كما يجب أن نبدأ لا من القضايا إلى الملاحظات، ولا من العقيدة إلى العقل، وإنما من الملاحظات إلى القضايا، ومن العقل إلى العقيدة، " فلو بدأ الإنسان بالإيمان ببعض الحقائق، فسينتهي به الأمر به إلى الشك، ولكنه إذا بدأ السير بالشك، فلا بد أن ينتهي إلى الحق واليقين ".
٧
وهكذا أدخل بيكون الطريقة العلمية في دراسة الفلسفة. وما هي إلا " طريقة التجريب " ..
" التي تشعل الشمة أولا، ثم بضوء هذه الشمعة، تنير لنا الطريق ".
أما نهاية الطريق، الذي تضيئه شمعة العقل، فهي العقيدة. وقد صرح بيكون بقوله: " إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بعقول الناس إلى الإيمان ". وذلك لأن هناك " عقلا كبيرًا في السماء يرشد ويهدي عقولنا الصغيرة على الأرض ". وكلما ازداد تنقيبنا في أعماق الفلسفة، ازددنا يقينا بأن " الناس ليسوا حيوانات انتصبت قاماتها بل هم آلهة خالدة ". والفلسفة تمكننا من أن نجد لنا نموذجًا أو مثالا آلهيا. " وإذا ما صادف عقل الإنسان أسبابا مبعثرة (في الطبيعة)، فقد يقف أحيانًا عندها ولا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أنعم النظر فشهد سلسلة الأسباب ... كيف تتصل حلقاتها، فإنه لا يجد بدا من الارتماء في أحضان العناية الإلهية والتسليم بالله ". وليس في العالم شيء عارض، فكل شيء مرسوم معين - أي إنه نتيجة نظام مخطط أصلا. " فالمصادفة اسم لشيء لا وجود له ".
وأعظم هدف لنا في الحياة، إذن، هو الكشف عن نظام الكون المرسوم ثم ملاءمة مطامعنا لهذ الرسم أو النموذج، ولكي يتم ذلك يمكننا أن نسلك أحد طرق ثلاثة: الطريقان الأولان خطأ، أما الثالث فهو الصواب.
وما الطريق الأول الخطأ إلا بسط سلطاننا الفردي على أفراد الأمة الآخرين جميعًا .. والطريق الثاني الخطأ إن هو إلا نشر نفوذ أمتنا على الأمم الأخرى جميعًا. أما الطريق الأوحد الصحيح فهو أن نجعل من الجنس البشري كله سيدًا على قوى الطبيعة.
وقبيل أن يموت بيكون كتب وصفًا موجزًا لمدينة فاضلة كاملة - أطلانطس الجديدة - صور فيها جماعة فيها من الناس كرست حياتها

متعاونة للسيطرة على الطبيعة. ويصف هـ. ج. ولز هذا الإنتاج: " بأنه أجل خدمة أداها بيكون للفلسفة ". ويذكر بيكون في كتابه أن أهالي أطلانطس الجديدة قد بلغوا بذكائهم الممتاز مرتبة فائقة من السعادة، وهنا لا يتكالبون على المناصب عن طريق التملق والرشوة وإنما يصلون إليها باختيار سليم يقوم على الصلاحية والشخصية، ولا نجد استغلالا أنانيًّا من أصحاب المصارف والتجار، وإنما خدمة بعيدة عن الأثرة من الفلاسفة والعلماء ولا أثر للصراع الفردي بين رجل وآخر، وإنما يبذل الجميع مجهودًا موحدًا من أجل خير البشرية جميعًا.

ولكن أهم ظاهرة مشوقة عند أهل هذه المدينة الكاملة هي الصفة المميزة لتجارتهم الدولية.

" فنحن لا نعتز بتجارة الذهب أو الفضة أو الجواهر ولا نسعى للحصول على الحرير أو العطر أو أي بضاعة أو مادة أخرى، وإنما نتمسك بالإتجار في أول خليقة الله، ألا وهي النور ". ولهذا الغرض يحتفظ أهل المدينة الكاملة بطبقة من رجال الأعمال يطلق عليهم اسم " تجار النور "

- وهم الفلاسفة والعلماء الذين يجوبون أنحاء العالم سعيًا وراء التبادل الدولي، تبادل الآراء الجديدة والمساواة والعدل.

ولم يكن هدف بيكون النهائي - وهو مطلب جميع أعلام الفلاسفة - سوى: تناسق أعظم خلال نور أعم هو نور العلم.

٨

ولقد كان في البحث وراء المزيد من نور العلم، أن اختتم بيكون حياته. إذ كان موته نتيجة لتجربة علمية، فقد حدث في يوم بارد من أيام مارس عام ١٦٢٦، بينما كان مسافرًا في الريف الإنجليزي، أن أخذ يفكر في طريقة جديدة يمكن بها حفظ اللحم من التعفن باستخدام الثلج من الماء.

فنزل من عربته وابتاع دجاجة ذبحها ثم ملأها بحشوة من الثلج.

وما إن فرغ من التجربة حتى أصيب فجأة بقشعريرة تطورت إلى التهاب بالرئتين لم يمهله إلا أيامًا قلائل.

وكانت وصيته الأخيرة مزيجًا من التواضع والكبرياء. إذ جاء بها: " إنني أوصي أن يدفن جسدي في طي الخفاء ... مودعًا روحي بين يدي الله. أما اسمي فإنني باعث به إلى سائر الأمم والعصور ".

وكان في استطاعته أن يضيف قوله: " ولتكن فلسفتي حجر الزاوية في بناء عالم متحد ".

٦.٢ الفصل الخامس عشر: رينيه ديكارت

الفصل الخامس عشر
رينيه ديكارت
(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

١

كان الأكويني قد نهج في فلسفته على السير من العقيدة إلى العقل، في حين سار بيكون من العقل إلى العقيدة. وأما ديكارت فلم يبدأ بحثه عن الحقيقة بواحدة من هاتين النقطتين. بل كانت نقطة البدء عنده هي الشك في كل شيء. ومع ذلك أدى به الشك في النهاية كما أدت العقيدة بالأكويني وكما أدى العقل ببيكون إلى معرفة الله

٢

خرج رينيه إلى الحياة الدنيا تصاحبه العلة؛ إذ ماتت أمه بداء السل بعد ولادته بوقت قصير. فحذر الأطباء أباه أن رينيه أيضًا مهدد بالداء الوبيل. وأسند أمر رعاية الطفل إلى مربية أخذت تدلله حتى جعلت منه صبيًّا رقيقًا. وكانت غالبية تجاربه ومغامراته المبكرة عقلية أكثر منها جسمية. وشجعه أبوه وكان عضوًا ثريًّا في البرلمان الفرنسي، على ممارسة رياضته العقلية. وكان يشير إليه بكل فخر واعتزاز قائلا: " فيلسوفي الصغير ".

وفي سن الثامنة التحق " الفيلسوف الصغير " بكلية اليسوعيين في (لافليش) حيث سمح له معلموه بأن " يريح جسده ويدرب عقله ويشحذه ". فكان يدرس وهو في فراشه إلى ساعة متأخرة في الصباح على حين يقرأ الطلبة الآخرون دروسهم في حجرة الدراسة. ونتيجة

لهذه الفرصة السانحة والراحة
الزائدة كان رينيه دائمًا على رأس قائمة الفصل.
وعندما بلغ رينيه السادسة عشرة من عمره ترك كلية اليسوعيين واتجه إلى باريس. وهنا في صحبة الأحداث الأثرياء الآخرين أهمل رياضة العقل القاسية وفضّل عليها حياة الصخب، إلى حد أنه أصبح خبيرًا في ألعاب القمار، فكان - كما علق أصدقاؤه - يربح غالبية مراهناته نتيجة " لمعرفته الخارقة بالاحتمالات الرياضية ".
ولكنه لم يلبث أن أصابه الملل من صخب أصدقائه، فانخرط في سلك الجيش الهولندي " لكي يجد ما ينشده من هدوء ". ولما كانت هولندا غير مشتبكة في حروب في تلك الحقبة فقد استمتع رينيه بعامين قضاهما في تأمل هادىء. وكان يجد لذة في التدريبات العسكرية التي كان يقوم بها - فبعد أن تخلص تمامًا من كل أثر لداء السل، سرَّه أن يكون له جسم قوي في عقله المستنير.
ولا غرو أن كان جسده يضج طالبًا العمل والحركة بعد المدة الطويلة التي قضاها في الحضانة ساكنًا، فهجر الجيش الهولندي ليلتحق بفرق الجيش البافاري. وكانت حرب الثلاثين السنة قد نشبت آنذاك، وكان ديكارت يتوق أن يشترك في قتال حقيقي.
وبالرغم من ذلك كان لا يزال يجد متسعًا من الوقت بين المعارك يقضيه في التأمل. وفي أحد كتبه - رسالة في منهج التفكير - يحدثنا عن أحد تأملاته، إذ حدث في شتاء ١٦١٩ - ٢٠، أن كان الطقس بالغ البرودة. فما كان من ديكارت إلا أن تسلل إلى فرن من الطوب الأحمر سعيا وراء الدفء. وقال في هذا الكتاب: " فلما خرجت من ذلك الفرن، كانت
فلسفتي قد قاربت النضج. ولم تكن تحتاج إلا إلى قليل من الحرارة بعدئذ لتجعلها كاملة النضج ".
ويبدو أن سقراطا كان يفكر أعمق ما يمكن إذا ما شعر بالبرد، بينما لم تكن تظهر أحسن أفكار ديكارت إلا عندما يشعر بالدفء.
وبعد أن اعتزل خدمة الجيش قضى عشر سنوات في الترحال، وذات ليلة رأى حلما وصفه بقوله: " سمعت قصف رعد .. ولم يكن هذا إلا روح الحق تهبط على لتتملكني ". ومن مؤلفاته كتاب (العالم) الذي عبر فيه عن بعض آرائه عما كان يعتبره الحقيقة. فكان متفقا وكوبرنيق وجاليليو على أن الأرض تدور.
ولما بدأ الناس يشيعون أن له معتقدات غير مستقيمة وجد ديكارت أنه من الحكمة ألا يقع في قبضة الاضطهاد. فذهب إلى هولندا، مرفأ الفكر الحر في القرن السابع عشر. (وقد كانت هولندا هي المأوى الذي لجأ إليه فيما بعد الفيلسوفان سبينوزا ولوك). وهنا عاش ديكارت ثلاثين عاما، من ١٦٢٠ إلى ١٦٤٩، يحاول " في سكون وعزلة أن ينظم أفكاره في وحدة متماسكة ثابتة ".
٣
وحتى في هولندا لم يسلم ديكارت تماما من الهجوم والاتهام بالإلحاد. فمنعت سلطات جامعة ليدن الطلبة من ذكر اسمه وأخذوا يعدون العدة لكي يقبض عليه، ولكن حاكم الأراضي المنخفضة تدخل في الأمر وأنقذه من الاضطهاد الفعلي وطلب من أساتذة الجامعة ألا تدفعهم الحماقة لمطاردة رجل حكيم. وهكذا سمح لديكارت أن يتابع بحوثه الفلسفية في هدوء نسبي.
ولكي يدرب نفسه على الدراسات الفلسفية، قرر أن يتخذ له قانونا بسيطا في السلوك والأخلاق يتكون من مبادىء ثلاثة:
الأول هو أن أطيع قوانين أمتي وتقاليدها.
والثاني هو أن أكون راسخ القدم ثابت العزم في أفكاري على قدر ما أستطيع.
والثالث هو أن أبذل الجهد دائما لكي أسيطر على نفسي لا على الأقدار، وأن أغير من شهواتي ومطالبي الشخصية، لا من نظام الكون.
وبعد أن أخضع نفسه لهذا النظام القاسي في الغذاء العقلي، بدأ القيام برحلته إلى ذروة الحكمة.
" فقد اقتلعت تدريجيا من عقلي جميع الأخطاء التي كانت قد تسربت إليه قبلئذ ". وكانت النتيجة الأولى لعملية الاقتلاع هذه حالة من الشك الكامل في العالم كما يدركه عن طريق حواسه. " فهل لي أن أشك مثلا في أنني جالس هنا إلى جوار النار مرتديا عطافي؟ نعم، لي أن أشك حقا، لأنني قد حلمت عدة مرات أنني كنت هنا مرتديا هذا العطاف بينما كنت في الحقيقة راقدا في فراشي مجردا من الثياب ".
وهنا نسمع صدى صوت الفيلسوف الصيني القديم الذي لم يكن في وسعه أن يقرر أهو رجل يحلم أنه فراشة أم أنه فراشة تحلم أنها

رجل؟ ولكن ديكارت، على النقيض من الفيلسوف الصيني رفض أن يظل قانعا راضيا بشكه. بل إنه شعر وكأنه " مسافر ضل طريقه في الغابة ولكنه يرفض أن يمكث في موضع واحد، وإنما يتقدم على الدوام في خط مستقيم على قدر الإمكان ". ويستدر ديكارت قائلا: " لأنه بهذه الطريقة إن لم يصل إلى النقطة التي يرغب في الوصول إلياه بالضبط، فإنه على الأقل ينتهي إلى موضع أفضل من وسط الغابة ".

وهكذا اتخذ ديكارت من شكه بداية إيجابية لا نهاية سلبية. ومن بين جميع آرائه غير المحققة المشكوك فيها وجد حقيقة واحدة ثابتة: وهي أنه قادر على التفكير، فالعالم المادي كله بما فيه جسده قد يكون خداعا، أما فكره فهو حقيقة مؤكدة. " فبينما أردت الظن بكل شيء أنه باطل، فلا مناص من التسليم بأنني أنا الذي أفكر لا بد أن أكون موجودًا. وقد دفعتني ملاحظاتي عن هذه الحقيقة " أنا أفكر فأنا إذن موجود "، وهي الحقيقة الراسخة اليقينية التي لم تقو أكثر فروض الشاكين إسرافا على إنكارها، أقول دفعتني ملاحظتي لها إلى التسليم بها من غير ما شك واتخاذها أساسًا أقيم عليه الفلسفة التي كنت أنشدها ".

" أنا أفكر فأنا إذن موجود ". هذه هي الخطوة الإيجابية الأولى التي خرج بها ديكارت من غابة شكوكه. فالشيء الوحيد المحقق في العالم هو العقل المفكر، والشخص المعروف " بأنا " - أن إن العقل المفكر الذي يتميز به وجودي " يختلف اختلافا كاملا عن جسدي ... إلى درجة أنه لو لم يثبت وجود الجسد، لظل العقل موجودًا بكل مميزاته ".

ولكي أفكر إذن لا بد أن يكون العقل موجودًا. فقد أشك في أنني جسد، وفي وجود العالم المادي الذي أعيش فيه. ولكنني لا يجوز أن أشك في أنني عقل قادر على التفكير، بل قادر على الشك " وعلى ذلك فأنا أعرف أنني كائن تتميز طبيعته بالتفكير ولا يحتاج وجوده إلى أي مكان ولا يعتمد وجوده على أي شيء مادي ".

إذن فالعقل أو النفس متميزة من الجسم، ويمكن تعرف العقل بسهولة أكثر من الجسم، فهو يستطيع أن يفكر حتى من غير وجود الجسم. وفي عبارة أخرى، فحقيقة كوني قادرا على التفكير تثبت أنني موجود كروح حية. وما هذه إلا أول خطوة تخطوها من تيه الشك إلى نور الفلسفة.

أما الخطوة الثانية فتجرنا إلى اعتبار الجسم جوهرًا ماديًّا، كما أن النفس هي الجوهر المفكر في كياننا. وإن تفكير النفس لهو الذي يزودنا بمعلوماتنا عن الجسم، فالنفس هي العامل الذي يقود. أما الجسم فهو الآلة التي تقاد.

وتعرف هذه الفلسفة الديكارتية بالمذهب الثنائي - أي المذهب الذي يقسم العالم إلى كيانين متوازيين وإن كانا مستقلين هما المادة والروح. فديكارت، إذن هو واضع نواة مدرستين متباينتين للفكر الحديث: المادية والمثالية. فالماديون يؤكدون أن العقل إن هو إلا جزء من الجسم، وأن العامل الذي يقود ليس إلا إحدى عجلات الآلة، وأن العالم، إذن، إن هو إلا جسم من غير نفس، أما المثاليون من الجهة الأخرى فيؤكدون أن الجسم جزء من العقل، وأنه لا وجود إلا للروح لا المادة، وأن العالم إذن إن هو إلا نفس من غير جسم. وعلى أية حال فإن هذا الصراع الفلسفي يقترب لحسن الحظ من نهايته لأن العلم الحديث قد أثبت أن الجسم والنفس والمادة والطاقة ليست أشياء مختلفة، وإنما هي مظاهر مختلفة لكائن واحد بذاته.

ولنعد إلى ديكارت لنجد أنه بعد أن بدأ بالشك أثبت - إرضاء لنفسه على الأقل - أن لكل منا:

(١) نفسا مفكرة.

(٢) وجسما ماديا تكشف عنه أفكار النفس.

ثم يتقدم خطوة أخرى إلى الأمام ليثبت حقيقة ثالثة هي وجود الله.

قال ديكارت: " نشأت فكرتي عن الله عندما كان عقلي الناقص يبحث

عن شيء أكثر كمالا من نفسي. وتحققت أن عقلي ناقص لما كان يخالجني من شكوك. فالشك يتضمن نقصا في الكمال عن المعرفة ".

وبعد أن تأمل هذه الفكرة لمدة طويلة، يحدثنا ديكارت

قائلا: " فدفعني هذا إلى التفكير في شيء أكثر كمالا من نفسي. وتحققت بوضوح أن هذه الفكرة لا بد أن تكون قد جاءتني من "

كائن ذي طبيعة " هو في الحقيقة أكثر كمالا مني ". وخلص إلى أن هذه " الطبيعة السامية " لا بد أن تتحلى بكل صنوف الكمال التي يمكن للعقل البشري أن يكون عنها أية فكرة. وإذا ما أجملنا كل صفات الكمال هذه في كلمة واحدة، كانت هذه الكلمة هي الله.
فإله ديكارت، إذن، هو جماع الكمال كله، وخالق العقول كلها، وهادي الأفكار والأعمال كلها نحو حياة أفضل وأكثر ذكاء وفطنة. فهو لا تحده الحدود، لامتناه، لا يتغير، عالم بكل شيء قادر على كل شيء، وبالجملة فهو المتصف بكل ضروب الكمال التي يمكن أن يتصورها عقل. أما أوجه النقص مثل الشك والتقلب والغضب والانتقام وما شابه ذلك فهي صفات تتنزه عنها طبيعة الله.
وقصارى الكلام، أن إيماننا بالله نتيجة لمعرفتنا بنقائصنا، ثم محاولتنا الغريزية للتخلص من هذه النقائص فالله هو النور المشرق الذي يكشف لنا عن نفوسنا الصغيرة ويهدينا إلى طريق عظمته. وكل ما نملك من جمال أو حق ينبع من مصدر الجمال والحق الذي لا حدود له. فإذا ما عبرنا عن هذه الفكرة بكلمات أفلاطونية أمكننا أن نقول إن الله هو المثال الكامل، أما الإنسان فهو الصورة غير الكاملة لهذا المثال.
هذه، إذن، هي الصورة الفلسفية التي رسمها ديكارت للإنسان - جسم
مادي، ونفس مفكرة تتحسس الطريق إلى النور، وروح الله تهدينا وتعيننا جميعا.

٤

كان ديكارت سعيد الحظ إلى درجة جعلته قادرًا على السير في طريق التأمل الفكري الهادىء، وهو يحاول الوصول إلى النور. فلما مات والده ورث دخلا كبيرًا كفاه مؤونة الكفاح المرير في سبيل العيش. وهيأ له حياة رغدة إن لم تكن مترفة. ولم يتزوج قط. كما كان يأكل جيدًا وينام جيدًا، حتى إنه غالبًا ما كان يمكث في فراشه حتى الضحى. وبين آونة وأخرى كان يقوم برحلة إلى الخارج ولكنه كان يقضي معظم وقته يتنقل بين الكتب ويتحدث إلى أصدقائه الأجانب وذلك عن طريق المراسلة.
وهكذا قضى أيامه التي لم تتخللها أية أحداث ذات بال ولكنها كانت مليئة بالأفكار، وكما كتب فقد كان يحب الحياة ولكنه لا يخشى الموت. وحدث أن ذاق مرارة الحزن مرة واحدة عندما فقد طفلته الوحيدة فرانسين وقد بلغت من العمر خمس سنوات. وبالرغم من أن الصبية الصغيرة كانت طفلة غير شرعية، إلا أن ديكارت كان متعلقًا بها تعلقًا شديدًا ولكنه سرعان ما نفض عنه غبار المأساة وأعاد سيرة حياة الراحة والترف، فاهتم (على نقيض الفلاسفة) بثيابه أيما اهتمام فكان يرتدي آخر بدع في الأزياء، كما كان يتدلى سيفه على جانبه. وقد ألف كتبا في الرياضة والعلوم غير كتب الفلسفة وكانت غرفة مكتبه التي يعمل بها مثمنة الجوانب، ولها نوافذ تطل على حديقة غناء تشرف من بعد على البحر. وكان أنيقًا خفيف الحركة له رأس ضخم، ووجه شاحب، وشعر أسود نمت منه كومة حتى كادت تصل إلى جانبيه، كما كان له
شارب بني داكن فوق شفته العليا الدقيقة، وخصلة من الشعر تحت شفته السفلى شذبت على النمط الفرنسي لكي تشبه الشارب المقلوب بدلا من اللحية. وكان إذا ما خرج من المنزل يغطي رأسه بالشعر المستعار ويلبس الجوارب الصوفية الثقيلة فوق سرواله. وبسبب " ما ورثه من ضعف " في صدره، كان يخشى أقل هبوط في درجة الحرارة وأرق نسيم.
وحدث فعلا أن كانت برودة الجو سببا في القضاء عليه. فقد كان يراسل الملكة كريستينا، ملكة السويد. وكانت قصيرة ممتلئة الجسم يبلغ طولها حوالي خمس أقدام، تحب أن تتثقف عقليا ولها رغبة مفرطة في جمع ما تجود به قرائح المفكرين الأعلام، فأرسلت إلى ديكارت " تدعوه " لكي يدرس لها الفلسفة ولكنه رفض أن يلبي دعوتها بادىء ذي بدء، غير أن الملكة كانت مصممة على أن يكون لها ما أرادت، فكتبت إليه مداعبة تقول: " لن أدعك تفلت! " فلم يجد ديكارت في النهاية مفرًّا من أن يكون لها " سجينا باختياره ".
وأرسلت سفينتها الحربية لتعود بالفيلسوف المشهور إلى مملكتها " أرض الدببة بين الصخور والجليد " وكان أن بدأ ديكارت رحلته إلى السويد في خريف ١٦٤٩.
وكانت نهايته أن طلبت الملكة دروسا يومية تبدأ في الساعة الخامسة " غير المحتملة " في الصباح. وكان هذا الدرس الذي يبدأ قبل شروق الشمس في شتاء اسكندیناوة بعواصفه القارسة، أكثر مما تحتمله بنيته الرقيقة. فشكا يقول: " في هذا القطر يتجمد دم الإنسان كما يتجمد ماء النهر ". وفي مدى بضعة أسابيع من وصوله إلى القصر أصابه البرد الشديد بعله في صدره. وما هي إلا أيام قلائل حتى

قضى نحبه في ١١ من فبراير سنة ١٦٥٠ لكنه همس قائلا: " إن نفسي المفكرة ستحيا إلى الأبد ".

٦.٣ الفصل السادس عشر: باروخ سبينوزا

الفصل السادس عشر
باروخ سبينوزا
(١٦٣٢ - ١٦٧٧)

١

كان سبينوزا وديكارت يشتركان في أشياء كثيرة. فوجد كلاهما في هولندا درجة من التسامح مكنته من التعبير عن أفكاره. وكان كلاهما مصمما على الشك في كل ما لم يكن في وسعه إثباته. وأبعد المجتمع كليهما لاتهامه بالإلحاد نتيجة لآرائه غير المستقيمة عن الله. كما رسم كلاهما لله صورة تجمع الكمال كله في الكون.

ولكن ديكارت وقف عند هذا الحد، أما سبينوزا فأخذ يسير قدمًا إلى الأمام. وكان ديكارت يرى في العالم ثالوثًا فلسفيًّا: جسما ماديًّا، ونفسًا مفكرة، وإلهًا كائنًا في كل شيء. أما سبينوزا فكان يتمثل العالم كوحدة - " الجسم والنفس والله وحدة واحدة ".

وهكذا تعرف فلسفة سبينوزا بالمذهب الحلولي، أي وحدة الوجود. [فكلمة Pantheism من اليونانية Pan (كل شيء) بالإضافة إلى Theos (الله)]. وتوضح هذه الفلسفة أن الله كائن في كل واحد منا، وأن كل واحد منا جزء من الله.

٢

ولم يكن سبينوزا قد تعدى الثامنة عندما شهد منظراً دفعه إلى التأمل الفلسفي. وكان هذا المشهد في معهد اليهود بأمستردام. حيث أخذ أعضاء المجمع يطأون بأقدامهم رجلا كان يرقد عند مدخل الباب.

فسأل سبينوزا أباه: " ما اسم هذا الرجل "؟.

" أوريل أكوستا ".

" وماذا فعل حتى حق عليه هذا العقاب "؟.

" إنه مفكر حر يا باروخ ". ثم أخذ أبوه يشرح له كيف سبق أن طرد أكوستا من المجمع اليهودي لأنه كان قد شك في أمر دينهم، وكيف كان أعضاء المجمع آنئذ يستأصلون الخطايا منه بأقدامهم قبل أن يسمح بدخوله مرة ثانية إلى المعبد.

وعاد سبينوزا الصغير إلى المنزل وهو غارق في الأفكار، وفي عصر ذلك اليوم، بينما كان يلعب في الشارع، حاول أن يعبر عن عطفه على ضحية الصباح؛ فما كان من أحد زملائه في اللعب إلا أن صفعه على وجهه.

وفي اليوم التالي بلغت مأساة أكوستا ذروتها. فلما وجد المفكر الحر الشاب أنه لا يستطيع أن يواجه الناس بعد ما حل به من هوان وعار، أطلق الرصاص على نفسه ولقي حتفه.

وبدأ سبينوزا الصغير يفكر في ذلك العالم الغريب؛ عالم الحمقى. وبدا له أن كل واحد يحاول أن يؤذي كلا من الآخرين. وكانت حكمة باروخ تفوق سني عمره. فلاحظ أنه طرد وبقية أفراد أسرته من إسبانيا بسبب كراهية المسيحيين لليهود، وأن في هولندا حيث كان يعيش آنئذ، كان اليهود كذلك يكرهون أبناء جلدتهم. فماذا كان معنى هذا كله؟ لذلك قال لأبيه: " عندما أشب، سأحاول أن أجد وسيلة أضع بها حدًّا لكره الناس بعضهم بعضًا ".

٣

ولما شب سبينوزا عن طوقه ازدادت معرفته أكثر فأكثر بقوة الإنسان على أخيه الإنسان.

وكما تنساب على غير هدى أجزاء كثيرة من حطام السفينة الغارقة، اتجه بعض اللاجئين اليهود إلى أفريقيا حيث أعدموا بغية الحصول على الحلي والجواهر التي أشيع أنهم قد ابتلعوها إمعانا في إخفائها. وحاول بعضهم أن يدخلوا إيطاليا ولكنهم ما إن حطوا رحالهم حتى أمروا بمتابعة رحلتهم. ولكن آخرين استقر بهم النوى في بولندا وروسيا حيث جمعوا كقطيع من الماشية في الحي المحدد لهم. ولكن أسرة سبينوزا كانت من بين الأسرات القليلة التي قوبلت بروح الود في هولندا.

وبالرغم من ذلك وجد سبينوزا حتى في هولندا نصيبه من النكبات من حيث هو إنسان، فدرس اللغة اللاتينية على يدي عالم هولندي اسمه فان دن أندن، ثم وقع في غرام ابنة مدرسه الجميلة. وتقدم بطلب يدها ولكنها فضلت رجل أعمال ثريا على فيلسوف معدم، فظل سبينوزا أعزب بقية حياته.

ثم توالى الفشل بعد خيبة الأمل، فبعد وفاة أبيه حاولت شقيقته أن تخدعه في نصيبه من الميراث فأقام دعوى ضدها مطالبا بنصيبه وكسَبَ الدعوى - ولكنه مزق الحكم الذي صدر في صالحه. وأعطى كل ميراثه لشقيقته. ولنستمع إليه يقول في هذا الصدد: " إنني أرثى لجشعها، ولكنني أرق لعوزها ".

ولم يكن يحتاج إلا إلى قليل من المال ليقيم أوده، إذ كانت مطالبه غاية في البساطة. وقرر آباء المجمع اليهودي منحه راتبا سنويا قدره يساوي خمسمائة

دولار - لا أجرا لتلقينهم الحكمة، بل ثمنا لسكوته، إذ كانوا يخشون آراءه التي لا تتفق وعقائدهم. ولكنه رفض منحتهم فكان قانعا، كما قال، أن يحيا خاوي الوفاض، متحرر النفس.

ولكن آباء المجمع لم يكونوا ليتركوه يستمتع بحريته؛ ففي السابع والعشرين من يوليو عام ١٦٥٦ أصدروا عليه حكمهم بالفصل والحرمان كما سبق أن فصلوا أكوستا قبله منذ ستة عشر عاما.

وكان مشهد الفصل والحرمان ذا طابع وحشي؛ إذ أعلن القرار وسط ولولة أعضاء المجمع ورنين البوق. أما الشموع التي كان يشع ضؤوها عند بدء الاجتماع فقد أطفئت أنوارها، الواحدة تلو الأخرى، حتى غدا المجمع في ظلام مطبق في النهاية - وكان هذا رمزًا للحياة المظلمة الموحشة التي قضوا على سبينوزا أن يحياها، وهكذا أصبح شخصًا لعينًا بين إخوانه. " نحن نقضي عليه باللعنة التي بها لعن أليشع الأبناء ... فلتنزل عليه اللعنة بالنهار وبالليل، ولتحل به اللعنة في نومه ويقظته وليكن معلونًا في حله، معلونًا في ترحاله، ولينزلن عليه غضب الله، وليحرمنه من عفوه، وليمحون اسمه من سفر الحياة ... ".

وبعدئذ أمر رئيس كهنة المجمع جميع اليهود أن يطردوه من بيوتهم وقلوبهم. " فلا يقدمنَّ أحدكم له أية خدمة، ولا يقيمن أحدكم وإياه تحت سقف واحد، ولا يقربنه أحدكم لمسافة أقل من أربع أذرع، ولا يقرأن أحدكم أي كتاب أملاه أو خطه بيده ".

واستمع سبينوزا إلى هذا القضاء من غير أن يشعر بأية ضغينة نحو مضطهديه. بل إنه كتب يقول: " ليست مهمتي أنه أنقد أو أسب أو أمقت أو أدين، وإنما

مهمتي هي أن أفهم وأعي ". فقد كان متأكدًا أن آباء المجمع اليهودي يعتقدون اعتقادًا جازمًا أنهم على صواب. وهذا ما حدا بهم إلى اعتبار سبينوزا خائنًا.

ولكن سبينوزا هو الآخر كان مقتنعًا أشد الاقتناع مثلهم أنه على صواب، إذ كان ينظر إلى العالم خلال منظار الخلود، بينما كان قضاته ينظرون إليه خلال منظار اللحظة الراهنة، فقر قراره على البقاء في امستردام، وحيدًا مع أفكاره وكتبه، غريبًا في وسط قومه، ولكنه " رفيق دائم لله ".

ومع هذا رفض قومه أن يتركوه يعيش في سلام، فحدث في إحدى الليالي أن حاول أحد المتعصبين أن يقتله بخنجر، ولكن سبينوزا نجا بحياته بعد أن أصيب بجرح يسير، وقر رأيه على الانتقال إلى حي أووركيرك الذي لا يقيم فيه أحد من اليهود، وهو إحدى ضواحي أمستردام. واستبدل باسمه الأول باروخ الذي معناه " مبارك " بالعبرية، اسما آخر يقابل الأول باللاتينية هو " بندكت رضي الله عنenedict " ، واستأجر غرفة في طابق علوي وعاد يشتغل بصقل العدسات الزجاجية لكي يكسب قوت يومه. فبالرغم من أن عقيدته في اليهودية لم تكن صحيحة مستقيمة إلا أنه كان يتمسك بالقانون اليهودي الذي يحتم أن يحترف كل طالب، حرفة يدوية، إذ كان الأحبار القدامى يقدمون النصح قائلين: " فلتستعملن يديك في الأعمال الدنيوية، ورأسك في الأفكار السماوية ".

وهكذا أقام سبينوزا آنئذ بين المسيحيين، ولو أنه لم يعتنق أيًّا من مذاهبهم. " إن الأديان المختلفة تقسم الناس شيعًا، ولكن غايتي هي أن أوحد بينهم ".

ولما وجد صاحب الدار وصاحبته المسيحيان فيه رجلا دمثا، أغرياه أن يرافقهما عندما انتقلا (في عام ١٦٦٠) إلى ريجسبرج القريبة من مدينة ليدن

وهنا اعتزل العالم " وكأنه دودة القز في شرنقتها، لا يخرج إلا لرياضة المشي أحيانا، أو لابتياع طعامه البسيط المكون من اللبن وخبز الذرة وحفنة من زبيب العنب، وكان ميله الرئيسي أن يراقب معارك العناكب التي تسكن غرفته.

وقد لاحظ أن العناكب والناس يشتركون في كثير من الصفات، فهي تتميز ببراعتها المذهلة في نسج خيوطها وبناء بيوتها، ثم بحماقتها البالغة في عدم ما صنعت أيديها بطيش وتهور!!

وكان سبينوزا في الثامنة والعشرين من عمره في هذا الوقت، ولم يكن يخالط أحدًا إطلاقا خارج محيط الدار، ولكنه كان ينزل من برجه أحيانًا ليحادث صاحب الدار وصاحبته، وكان حديثه معهما على قدر مستوى إدراكهما ولو أن عباراته من آن لآخر كانت تنير أمامهما الطريق إلى السموات - على حد تعبيرهما - ولنستمع إلى صاحب الدار يقول: " إن هذا اليهودي هو الشخص الوحيد الذي يتحدث مثل القديسين ".

وكان مظهره، كأسلوبه، لا هيبة فيه - متوسط الطول، أسمر البشرة، شعره مجعد أدكن، وشعر حاجبيه طويل أسود، وعيناه تشتعلان حمى السل المزمن، وكان لا يرتدي من الثياب إلا رداء قذرًا - " لا ينبغي أن يلفَّ شيء تافه في غلاف ثمين "، ولم يكن يكسب من صناعته إلا القليل ولكنه استطاع أن يقيم أوده في حدود دخله، وقال في ذلك: " إنني لكالثعبان الذي يصنع بجسمه دائرة بوضع ذيله في فمه، فدخلي يساوي نفقاتي تمامًا، فلا يتبقى لي شيء بعد ذلك في نهاية العام ".

وهكذا كان يقضي وقته في غرفته في الطابق العلوي. ينسج ديباجة فلسفته ويبذل كل ما في طاقته لينهي عمله وهو في صراع محموم مع الموت.

ولكنه لم ينجح نجاحا كاملا في هذه المحاولة، إذ لم يستطع أن يكمل آخر كتبه، ولعله

أحسنها " رسالة في السياسة ". كما صرح أن كتبه الأخرى - رسالة في الدين، وفي إصلاح العقل، والأخلاق - لم تضم بين دفاتها إلا " فتاتا من الحقيقة "، لأن أعظم الفلاسفة، كما قال، ينظر إلى العالم مثلما ينظر السجين خلال شرخ في حائط جسمه الذي هو سجنه مدى حياته.

والرغم من ضيق هذه النظرة، فإنها لمحة من الرؤية الحقيقية إذا ما نظرنا إليها في إطار الخلود، وهذه الكلمات الثلاث - Specie Sub eternitatis ﷺ ، في إطار الخلود - تمثل جوهر فلسفة سبينوزا. فمعارك العناكب، وصراع الشعوب، والعذاب على آلة التعذيب، والفصل والحرمان من المجمع اليهودي، وسوء التفاهم والكراهية والمؤامرات بين الأفراد والأسر والدول - كل هذه ليست إلا الخيوط القائمة في النسيج الأبدي لديباجة الحياة وصورتها. وكان يشترك سبينوزا مع جميع أعلام الفلاسفة الآخرين ابتداء من زرادشت إلى فلاسفة عصره، في الاعتقاد بأن الخيوط القائمة والمشرقة على السواء ضرورية لا غنى عنها في نسج الديباجة الكاملة ورسم صورتها. فالشر إن هو إلا نظرتنا من جانب واحد إلى الكل. " والخير فيما كانت نهايته خيرا ". ففي النهاية - أو كما عبر عنها سبينوزا، في الصورة الكلية - نجد أن العالم خيّر.

وهكذا علينا أن نتعلم النظر إلى العالم كما يراه الله، فليس هناك شيء منفرد منعزل. فمسراتنا وأحزاننا، ونكباتنا، وحرائقنا، وفيضاناتنا، وحتى حروبنا - كل هذه إن هي إلا لمحات جزئية من صورة الكون الخالدة. وكما أنه في وسعنا أن ننسى ما حل بنا من مصائب في الماضي، فإنه علينا أن نحاول رؤية

نكباتنا المستقبلية في صورة المنظور الشامل، ثم لا نهتم بها ما دمنا نعدها خيوطا عرضية طارئة في صورة الحياة الكاملة.

وما معنى هذه الصورة؟ وحدة العالم المقدسة. فلأننا سجناء حواسنا البدنية ترانا لا ندرك إلا أجزاء عرضية من الكل المقدس. ومع ذلك فإن هذه اللمحات المشرقة عند سبينوزا تبين بينا كافيًا أن كل واحد منا جزء محدود من الله - خلية في جسم الله، فكرة في عقله، مقطع في قصيدته عن الحياة. فالشخص الأعشى لا يميز إلا بعض ألوان غير واضحة. وكذلك حواسنا مصابة بعمى الألوان أمام صفات الله المتعددة وصفاتنا. والدودة التي تقيم في حفرة في الأرض ليس لديها إلا فكرة لامتناهية في الصغر عن العالم الشاسع الذي هي

جزء منه. وكذلك نحن ليس لنا إلا وجهة نظر الدودة إلى العالم. ويؤكد سبينوزا أن أعظم فيلسوف إن هو إلا طفل في إدراكه وفهمه لطبيعة الله الحالة في كل شيء. وهنا يردد سبينوزا صدى فكرة أخناتون.

ولحسن الحظ أن فيلسوفنا قد لمح قبسا من الصورة - فهو يعرف أنه يجب ألا يخلط ذكاءه المحدود الضئيل بذكاء الله الذي لا حدود له. فالعالم لا يسير تبعًا لرغباتنا الفردية، وإنما يدبر طبقا لإرادة الله الشاملة ورسمه. " ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك ". فالقصة التي أدمجها الله في تمثيلية حيواتنا البشرية بعيدة كل البعد عن إدراكنا، ويكفي أن نعرف أن هذه القصة مشهد أساسي لازم في تمثيلية الحياة البشرية. وليس لنا أن نحكم عليها، إذ أنها لم تكتب لتحقيق خططنا البشرية الأنانية. كما أن عقلنا البشري ليس في استطاعته أن يتفهم التمثيلية كلها.

نعم، إن كل الأشياء تشارك في ذكاء الله - كما يشارك الكلب في ذكاء الإنسان. أو بعبارة أخرى يضم العالم درجات كثيرة متباينة من الذكاء. فذكاء الشجرة، مثلا، أحط بكثير من ذكاء الحيوان. وذكاء الحيوان أقل بكثير من ذكاء الإنسان، كما أن ذكاء الإنسان عادي أقل بكثير من ذكاء شاعر عظيم. ولكن حتى ذكاء شخص كشكسبير إذا قورن بذكاء الله لا يشبه إلا ذكاء شجرة إذا ما قورن ذكاء شكسبير.

وإلى هنا ما زلنا نجد أن فلسفة سبينوزا الحلولية سلبية إلى حد ما. فهي توكد لنا أننا أجزاء من الله ولكنها أجزاء تافهة لا يعتد بها إذا ما نظر إليها في ضوء الخلود. وكما علق ساخر من أتباع سبينوزا بقوله إن الأرض كلها حصاة لا خير فيها بين أصابع الله.

وبالرغم من ذلك فإن لفلسفة سبينوزا وجهًا مشجعًا، إذ أنه يصرح بأن ما قدر لنا أعظم مما نظن - فمع أن كلا منا جزء صغير من الله إلا أن نصيبه من الأهمية مساو لنصيب كل فرد آخر، ففي ظل الخلود لا يكون بين الناس تفاوت، بل إن حياتنا الحاضرة، كما لاحظ والت ويتمان وهو من مدرسة سبينوزا، إن هي إلا مرحلة في تطورنا النهائي. فكلنا من الشريد في الوحل إلى الملك على عرشه - تلاميذ تربطهم صلات متبادلة في حجرة دراسة الخلود. نعم إننا في هذه اللحظة الراهنة لعلى درجات متفاوتة تفاوتا في تطورنا العقلي والروحي. ونتعلم كلنا طبقًا لمقدرتنا على التعلم ولكن في النهاية البعيدة، بالرغم من تفاوت معرفتنا درجة ومقدارًا في هذه المرحلة، فإن كل واحد منا سيصل إلى الصف الأعلى الذي يضم الصفوة المختارة.

ففي الوقت الحاضر، إذن، لنكن زملاء دراسة متحابين في مدرسة

الكون. ولنعتمد على أولئك الذين سبقونا ونعن أولئك الذين تخلفوا وراءنا. وما هذا القانون في فلسفة سبينوزا إلا جوهر الديمقراطية؛ لأنه يتقدم المبدأ القائل بأن كلا منا له فرصة متكافئة في مدرسة الحياة - وتهدف التربية في هذه المدرسة إلى أن نتزود " بمحبة عقلية لله ". أي بحب ذكي نحو إخواننا في البشرية، " فكلنا نشترك مع الله ونأخذ نصيبنا منه ". ويعلن سبينوزا أن هناك رباطًا من المحبة لا حدود له يربط بين نفوسنا المقدسة. وأن كل من يدرك طبيعته المقدسة بوضوح وجلاء يسلم نفسه إلى هذا الحب الذي لا حدود له، والذي ينبع من الله ويظل الأشياء الحية كلها.

وقد دفعت هذه الفكرة الشاملة المقدسة عن الكون ارنست رينان لإبداء ملاحظته عن تصوير سبينوزا لله إذ قال: " لعلها أصدق صورة رسمتها البشرية لله ".

٤

كتب سبينوزا يقول: إننا لو تتبعنا طبيعتنا المقدسة فإننا لا بد واصلون إلى الهدف النهائي من الحياة - ألا وهو السعادة الفائقة. " فسعادة الإنسان تنحصر في ازدياد قوته - أي لذته في البقاء " وهذه القوة الزائدة - للبقاء وللعمل وللمجهود النبيل - ليست إلا نتيجة " حب الذات ". ولكن علينا ألا نسيء فهم معنى كلمة " الذات " في الفلسفة السبينوزية. فحب الذات عند سبينوزا ليس هو الأنانية بمعناها الضيق عند الباغي، أو مدبر المكائد، أو من يأكل قلبه الحقد والحسد والكراهية، وإنما هي الأنانية المستنيرة الشاملة، أنانية الشخص الإنساني ومصلح ذات البين، ومحب البشر.

وفي رأي سبينوزا أن العالم كله يتكون من: إله واحد، جسم واحد

روح واحدة، ذات عامة شاملة واحدة. وكما جاء في إحدى رسائل القديس بولس وهو أحد الذين تأثر بهم سبينوزا تأثرًا عميقًا: "

فنحن أعضاء بعضا لبعض كل واحد للآخر ".

وكان سبينوزا يؤمن بأن الجنس البشري كله وحدة من حياة عضوية. فأنت إن آذيت شخصًا آخر فإنك تؤذي نفسك - أي " الجوهر المقدس لذاتك الحسنى " ولم يكن ما دفع سبينوزا لكي يهب ميراثه لشقيقه مجرد تفاخر أو تظاهر بالبطولة. فإنه بعد أن كفلت له العدالة حقه في الميراث اتخذ جانب الرحمة فوق العدل. " ومن أراد أن يبادل الإساءة بالإساءة عاش دوما في تعاسة ". لأنه سيعيش - كما يعيش العالم اليوم - في جو دائم من الشك والثأر والحرب. ولما كان سبينوزا عادلا على الدوام وأينما حل أو رحل؛ فإنه لم يكن يعرف غير نوع واحد من العدوان - عدوان عام من أجل السلام. وكان يؤكد: " أن أعظم الانتصارات هي التي تنالها بنبل الأرواح لا بقوة السلاح ".

وما نبل الروح إلا " قوة الإنسان الحكيم "؛ فالإنسان الحكيم حقًّا في عبارة أخرى " الإنسان العارف بروحه الاجتماعية ". فهو يهب نفسه للآخرين لأنه يعرف أننا جميعًا أبناء الخلود ويستمتع بالحريات الوحيدة التي يجدر الاستمتاع بها، وهذه هي: التحرر من الكراهية: " فإن أكبر ضرر يمكنك أن تصيبني به هو أن تزرع الكراهية في نفسي ". والتحرر من الخوف: " فإذا كنا أنت وأنا أحرارًا، فَلِمَ يحسد أحدنا الآخر؟ " والتحرر من الذل والعبودية: " فالرجل الحر سيد نفسه وليس خادم أحد ". والتحرر من الجهل والتعصب والحقد: " فالحكمة تؤدي إلى الأناة، والأناة إلى مزيد من الحكمة ".

وهكذا نجد أن الإنسان المتحرر حقًّا - أي الإنسان الحكيم حقًّا - " لا يحب لنفسه إلا ما يحب بقية الجنس البشري ".

٥

وما إن قدم سبينوزا فلسفته إلى العالم حتى هاجمته الدوائر المتمسكة بالقديم واعتبرته " أكثر من ظهر من الملحدين كفرًا ". وبالرغم من ذلك ارتفعت بعض الأصوات التي تؤيده هنا وهناك. فتقدم إليه أحد المعجبين، سيمون دي فريز، وكان من أثرياء التجار في أمستردام، بمنحة مقدارها ١٠٠٠ دولار. ولكن سبينوزا رفضها بإباء. كما منحه الملك لويس الرابع عشر إشارة منه بالتقدير والإطراء الزائد له. فقد كان ملك فرنسا يتوق إلى شراء أعظم عقليات عصره وضمها إلى جانبه فوعد سبينوزا بدخل عريض طوال حياته، ولم يكن للملك غير شرط واحد هو أن يهدي سبينوزا كتابه التالي إلى الملك. وللمرة الثانية رفض الفيلسوف العرض.

وبعدئذ في عام ١٦٧٣ عرض عليه أيضًا أن يكون أستاذ الفلسفة في جامعة هيدلبرج، وأكد له نائب الحاكم في ألمانيا أنه سيكون له حرية رأي مطلقة في قاعات الدرس على شريطة أن يبتعد عن نقد الدين القائم في الدولة. ولكنه مرة أخرى اعتذر عن قبول العرض في أدب جم. " فالرجل الحر سيد نفسه، وليس خادم أحد ". وكان الرأي الذي استقر عليه هو أن يعبر عما يجول بخاطره من غير ما أمر أو مِنَّة من أحد.

وهكذا ظل وحيدا في غرفة السطح يبعث بعدساته لإصلاح البصر، وبآرائه لإنارة بصيرة إخوته في البشرية. وكان لا يتأثر ألبتة بذم أو إطراء أو تهديد. فقد حدث مرة أن كاد جماعة من الدهماء الساخطين يفتكون به؛ إذ كان قد أرسل في دعوته الأمير دي كونديه، الذي غزا هولندا في ذلك الوقت، ليتحدث

إليه في شئون الفلسفة. وبينما هو في طريق عودته من المعسكر إلى البيت هاجمه الغوغاء بالحجارة وهم يتصايحون في غضب: " المرتد! " " الملحد! " " الخائن! ". فوجد صعوبة كبيرة آنذاك في إقناع الغوغاء بأنه مجرد فيلسوف، لا جاسوس. ولم تكن تعنيه المنازعات بين الناس أكثر مما تعنيه معارك العناكب. ولم يكن سبينوزا ينتمي إلى قوم أو وطن ما، وإنما كان يسهم فحسب في خلق أخوة دولية تضم قوما أحرارا لا يخشون شيئا.

وشاء القدر أن يقضي " الفيلسوف الطاهر المقضي عليه بالحرمان " نحبه وهو متحرر لا يخشى شيئا.

وكان ذلك بعد ظهر يوم الأحد، التاسع والعشرين من فبراير، ١٦٧٧، ولم يتجاوز سبينوزا من العمر أربعة وأربعين عاما. ولم يكن معه في تلك اللحظة سوى طبيبه وصديقه الدكتور مير Meyer إذ كان صاحب الدار وصاحبته قد توجها إلى الكنيسة. وهكذا أسلم سبينوزا الروح في هدوء بين ذراعي الدكتور مير. فقد كان من أقواله: " إن أقل ما يفكر فيه الرجل الحر هو الموت. ذلك أن حكمته هي تأمل في الحياة لا في الموت ".

٦٠٤ الفصل السابع عشر: جون لوك

الفصل السابع عشر
جون لوك
(١٦٣٢ - ١٧٠٤)

١

كان البارون جوتفريد فلهلم فون ليبنز أحد الزوار القلائل الذين يزورون سبينوزا في غرفته في الطابق العلوي. وكان هذا العالم الألماني قد سمع عن " الفيلسوف الذي افتتن بالله ". وكان يتوق إلى التزود بأفكاره مباشرة عن من غير وسيط. فعاش معه لمدة شهر من الزمان، ثم خرج من عنده وهو شديد الإيمان بأن دنيا أنتجت مثل روح سبينوزا النبيلة لهي أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى. ثم وضع كتابًا أوضح فيه الفكرة - وهي نظرة متفائلة إلى الحياة، ما زالت تحظى بالقبول حتى يومنا هذا.

وبالرغم من ذلك عارض عدد من الفلاسفة تفاؤل ليبنز المفرط. فقد علق ف. هـ برادلي ساخرًا بقوله: " نعم، إن هذه أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى وكل ما فيها شر لا بد منه ". كما أن فولتير في كتابه " كانديد " رسم صورة هزلية لليبنز على أنه الدكتور بانجلوس الذي ينظر إلى كل نكبة بشرية على أنها بركة متخفية.

ولم يكن هناك سوى فيلسوف واحد تقبل رأي ليبنز بعد إضافة تعديل هام: فهذه أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى، على شريطة أن نكافح لنجعل منها دنيا أفضل مما هي عليه الآن.

وهذا الفيلسوف الذي كان يستهدف عالمًا أفضل لم يكن سوى الرجل الإنجليزي، جون لوك.

٢

وكان جون لوك مثاليًّا حاول أن يستبدل " بحق الملكية المقدس "، ملكية الحق المقدسة. وهو إحدى الشخصيات الهامة على مسرح التاريه الذي شهد الانتقال من الملكية المستبدة إلى الديمقراطية فقد كان رسول الثورة البريطانية التي نشبت في سنة ١٦٨٨، بل ونبي الثورة الأمريكية التي اندلعت في سنة ١٧٧٦.

ولد عام ١٦٣٢ وسط عاصفة رعدية وشب في إعصار من عوامل الظلم والحكم المطلق والحرب الأهلية. ولم يكن قد جاوز العاشرة عندما ثار الشعب البريطاني ضد مليكه الطاغية تشارلز الأول. وقد انضم أبو لوك - وكان محاميًا ريفيًّا - إلى جيش الشعب بقيادة أوليفر كروميل ضد الملك تشارلز. وكان لوك قد بلغ السابعة عشرة من عمره عندما وقع الملك في الأسر وحوكم بتهمة الخيانة ثم قطع رأسه.

وقد ساعد هذا الحادث التاريخي - أو الانتفاضة الناجحة للحملان ضد الذئب - على تشكيل الفكر الديناميكي الذي يمتاز به جون لوك. كما أن الأحداث التي تلت إعدام الملك تشارلز شكلت فكره في صورته النهائية. إذ حلت دكتاتورية أوليفر كروميل محل طغيان الملك تشارلز. وأولئك الذين ظلموا في عهد الملك أصبحوا هم الظالمين في عهد الدكتاتور. وهكذا لم تكن الحملان أحسن حالا من الذئاب.

ولذلك كان موت كروميل عام ١٦٥٨ إيذانًا ببدء فترة من الفوضى الروحية. " فلنأكل ونشرب ونمزح. فالحياة زهيدة القيمة، والسرور سريع
الزوال. وغدا قد نستدعى لنموت ". أما عن الملك الجديد تشارلز الثاني فقد انغمس في الهرج والمرج والملذات الدائمة.

فحذت إنجلترا الطروب مليكها. ولما تقدم الهولنديون بسفنهم في نهر التيمز عام (١٦٦٧) وأحرقوا الأسطول البريطاني تحت جدران القصر تقريبًا كان الشعب قد أسكرته خمر الملذات إلى الحد الذي لم يعد معه يقوى على رد العدوان. فلم يكن للشعب قائد. فمليكهم، كما نقرأ في مذكرات بيبيس: " كان قد تناول العشاء مع سيدتي كاسِلْمين، ثم ما لبثا أن طار لبهما وهما يطاردان فراشة بائسة ".

ومثل تلك المشاهد في مطاردة الفراشات هي التي كانت قائمة إبان تربية جون لوك.

٣

لم يفد لوك من دراسته إذ لم يجد فيها من اللذة إلا قدرًا ضئيلا. فكان أساتذته في كلية كرايست بجامعة أكسفورد يقرأون شعر اليونان القديمة ويهملون سياسة إنجلترا الحديثة. وما إن تخرج حتى عين مدرسًا لليونانية في كلية كرايست ولكنه ثار على ما قد فرض عليه من قيود عقلية، وكرس وقت فراغه لدراسة الطب ونظام الحكم، والفلسفة بوجه خاص، لا كنظرية مجردة، بل كطريقة عملية للحياة.

وما الحياة، كما أدركها بعد أن جاوز العشرين من عمره بعدة سنين، إلا عملية تكيف وانتقال من الحزن إلى الصفاء، وكان قد فقد أمه وأباه وشقيقه الوحيد، كما كان مهددًا هو نفسه بالمرض الذي أودى بالأسرة، وهو داء السل.

ولكنه لم يعر تهديد هذا المرض إلا القليل من عنايته. لأن اهتمامه الأكبر كان موجهًا إلى مرض الأمة الأعظم. واكتشف أن هذا الاهتمام يشاركه فيه أحد أصدقائه من الكلية، هو لورد أشلي، وكان شأنه في ذلك شأن لوك، محزونا لتفاهة الشعب وفجور الملك. فألقى الشابان بنفسيهما في أتون الجهاد، ليعيدا العقل إلى عصر فقد عقله. وأصبح لوك الفيلسوف بالنسبة إلى أشلي - رجل السياسة - بمثابة عقله ولسانه.

كما أخذ على عاتقه أيضا أن يكون مثقف أبناء أشلي وطبيب أسرته. وبالرغم من أنه لم يحصل قط على درجة طبية أو على مران عملي في الجراحة، إلا أنه قام بدور الطبيب المولد عندما وضعت زوجة ابن أشلي طفلها، كما أزال بعملية جراحية ناجحة ورما في صدر أشلي.

وإذا أردنا أن نحكم طبيبا على مهارة هذا الطبيب غير المرخص فلنرجع إلى ما كتبه أحد مشاهير الجراحين في ذلك العصر: الدكتور سايدنهام، إلى واحد من أصدقائه يقول: " إنني أعتمد اعتمادا كاملا على طرق جون لوك في علاج الأمراض ". ويجب أن نذكر أنه في تلك الأيام لم تكن ممارسة الطب بدون درجة جامعي جريمة يعاقب عليها مرتكبها. بل يمكننا أن نقول على النقيض من ذلك إن ممارسة لوك للطب كانت نعمة للإنسانية.

وكانت ميول لوك، كميول سلفه وابن بلده فرانسيس بيكون، متعددة الجوانب. أما شخصيته فلم تكن ترقى إليها شخصية الفيلسوف الإليزابيثي. فلوك رجل كرس حياته كاملة لخدمة إخوته في الإنسانية. ومثله مثل بيكون اتجه إلى السياسة، ولكنه على نقيض بيكون كان سياسيا أمينا. وبتوصية من أشلي، الذي كان قد اعتلى منصب كبير القضاة، أمكنه الحصول على منصب

في مجلس إدارة شئون مستعمرة التاج في كارولينا، فعاون في رسم مشروع دستور حر للمستعمرة مؤكدا أهمية إباحة الحرية السياسية والاجتماعية والدينية في لائحة الدستور.

وبعدئذ توالت عليه الضربات. فما إن قارب الأربعين حتى ظهرت عليه أعراض علة أسرته، إذ كان السعال قد برح به لمدة تزيد على ثلاثين عاما، وقوض أركان جسمه شيئا فشيئا، وأتى على قوته. ولكن إحساسه بالواجب لم يتأثر ألبتة. وظل يعمل بإخلاص ودرع أشلي تحميه حتى دب الجفاء بين كبير القضاة والملك. فقد كان أشلي المعروف آنئذ بالايرل شافتسبري عليه الصلاة و السلامOf arl Shaftesbury أحد العوامل الأولية في تطور نظام الحكم البريطاني من الأوتوقراطية إلى الديمقراطية. وبدأ التجار يعتدون على سلطة الملك. وكان شافتسبري على رأس الحزب التجاري المسمى بحزب الأحرار Whigs والذي يناصب حزب الملك، المعروف باسم حزب المحافظين Tories العداء.

وما إن تحركت عوامل الشك في نفس الملك خشية نفوذ شافتسبري وزمرة الأحرار حتى أبعد كبير القضاة عن منصبه وألقى به في البرج. أما لوك - وكان عضوا نشطا بين الأحرار - فقد فر هاربا إلى فرنسا في الوقت الملائم لكي يتجنب مصيرا مشابها لمصير أشلي.

وفي آخر الأمر أطلق سراح شافتسبري من البرج وسمح للوك بالعودة من منفاه، وإن ظلت العيون ترقب حركاتهما. فعاش شافتسبري فترة من الزمن مات بعدها وهو يعاني الخزي والعار، في حين عاد لوك إلى التدريس في أكسفورد والعيون تحيط به من كل جانب. ثم حدث أن بلغ أسماع الملك أن لوك قد ألف

كتيباً يدعو فيه إلى الثورة ضد الطغيان. فأخذ الجواسيس يلعبون دور طلبة يدرسون عليه الفلسفة ثم يحاولون جره إلى الدخول في مجادلات تنم عن عدم ولائه للملك.

ولكي يتجنب الفيلسوف مزيدًا من الضيق في إنجلترا فر هاربًا مرة أخرى إلى القارة. واتجه هذه المرة إلى هولندا مأوى الفكر الحر. فأبلغ الجواسيس الملك أن لوك لا يمكن العثور له على أثر. وفي حقيقة الأمر كان مختفيًا في منزل طبيب صديق في أمستردام. وهنا عاش لوك، مثل سبينوزا، لا يكدر صفوه شيء إذ هو يرسم صورة مفصلة لعالم أفضل.

٤

ويمكن إيجاز أساس فلسفة لوك في بضع كلمات - هي الاحتكام إلى الإدراك الفطري المشترك في التغلب على التحزب في الرأي.

وقال في ذلك إن القدرة على التفكير بوضوح هي ما يحتاج إليه العالم أكثر من أي شيء آخر. فعلينا أن نخضع المنطق للعقل، وأن نجعل ألفاظنا تعبر بوضوح عن أفكارنا. فلنأخذ مثلا لفظ Hole - ثقب. قال رجل إيرلندي مستخدما هذا اللفظ: " لكي تصنع مدفعًا، عليك بإعداد ثقب، تصب المعدن حوله ". ولكن هذا السخف ليس إلا نتيجة المنطق الزائف والتفكير العقيم وسوء الاستخدام المزري للغة. فإن لفظة ثقب لها عدد كبير من المعاني: فالثقب تجويف في جسم صلب، والثقب حفرة، والثقب ثغرة مجازية (فنقول: ثقب ثقبًا في حجاجه) ومأزق، (فنقول: لقد زججت بنفسي في ثقب ضيق) ومجرى ضيق، ومكان عميق في النهر (فنقول: لقد استحموا في ثقب للسباحة) وغير ذلك من المعاني. وينصحنا لوك بأن نكون حذرين في استعمال اللغة. ومثل سقراط، صرح بأن
الأفكار الصحيحة لا يمكن أن تظهر إلا خلال الاستعمال الصحيح للألفاظ. كما علق أيضًا بقوله: " إن سوء استعمال الألفاظ يؤدي إلى الخطأ والزلل والغموض والاضطراب ... ولدينا من الأسباب ما يدعو إلى الشك فيما إذا كانت اللغة باستعمالها الحالي قد أسهمت أكثر في إصلاح العقل وتحسينه أم في عرقلته وتأخيره ... ".
ويتكون العقل، كما قال لوك، من جانبين: الأول البحث في أي الأشياء نعرفها، والثاني هو البحث في أي الأشياء نفقدها، أما الجانب الأول فيتناول ما نعرفه معرفة اليقين، وأما الثاني فيتناول ما نعرفه على سبيل الاحتمال.
وما دامت الاحتمالات ليست حقائق يقينية، فعلينا ألا نفرض معتقداتنا على الآخرين. فأقرب الوقفات إلى القول هي وقفة الإنسان من الإنسان على أساس من " البر وسعة الصدر المتبادلين ". وليس هناك من داع يمنع الناس من " المحافظة على السلام والقيام بالخدمات الإنسانية العامة ومقتضيات الصداقة مهما تعددت الآراء ". فلا تحاربوا من أجل اختلافكم في نظم الحكم أو في العقيدة، بل حاولوا أن تقنعوا إخوانكم بمنطق العقل ثم أعطوهم الفرصة ليقيموا بأنفسهم البرهان على صدق أفكارهم. " فمن الخير ألا نعامل الآخرين على أنهم معاندون منحرفون، إذا لم يقلعوا عن آرائهم ويعتنقوا آراءنا، وبخاصة إذا كان من المرجح جدًّا أننا لا نقل عنهم عنادًا في عدم الأخذ ببعض آرائهم ". وليس هناك فرد واحد، ما دامت الطبيعة الإنسانية غير معصومة من الخطأ، له الحق في أن ينصب من نفسه معيار الحق الأوحد. " فأين هذا الإنسان الذي يملك الدليل غير المنازع على صدق كل ما يعتنق من آراء، أو بطلان كل ما يرفض من آراء، وأين هو من في وسعه أن يقول إنه قد اختبر (وأدرك) تمامًا كل
آرائه وآراء الآخرين؟ " وإن عدم تسامحنا ليعزى إلى جهلنا أكثر مما يعزى إلى جهل الآخرين. وهو على أحسن الفروض، نتيجة لسوء فهم بعضنا لألفاظ بعض. ولذلك علينا أن نتعلم كيف نعبر عن المعنى بطريقة صحيحة، وأن نفرق بوضوح بين ما هو ظن وما هو واقع، وأن يعامل بعضنا بعضًا في تسامح. " وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه كلما ازداد الناس علمًا قلت عندهم النزعة لفرض آرائهم على الآخرين. فعش ودع غيرك يعيش. ولتكن جريئًا في تكوين أفكارك بنفسك، ولكن تحذر من تقييد أفكار الآخرين ".
وقصارى القول أنه يجب علينا أن نهدف إلى التسامح الذي نتعاون به. فإنه عن طريق التفاهم المتبادل، والاحترام المتبادل لوجهات النظر، عن هذا الطريق وحده نأمل أن نقترب من الحقيقة. وقد قال لوك إنه بدلا من أن نتقارع بالحجج، فلنتعلم كيف نتعاون على إقامة الحجة معًا.
والآن، وقد أخذنا لمحة عن الأساس النظري الذي قامت عليه فلسفة لوك، فلنختبر تطبيقها العملي، ولنبدأ أولا بالنظر في بحثه في الأخلاق أو سلوك الفرد، ثم نتناول بعد ذلك نظريته في السياسة أو العلاقة بين الأفراد والعلاقة بين الأمم.
الأخلاق: قال لوك إننا جميعًا مزودون بغريزة العدل - أي الشعور الذي منحه الله إيانا ليعرف كل منا حقوق الآخرين. وقد غرس فينا هذا الشعور منذ الولادة، فهو أحد القوانين المقدسة لوجودنا البشري.
وهذه القوانين المقدسة تخضع حتما لإقامة البرهان عليها، شأنها في ذلك شأن مبادىء الرياضة
" فإن فكرة الكائن الأسمى الذي لا حدود لقوته وخيره وحكمته والذي نحن صنيعته، وعليه نعتمد، وكذا فكرتنا عن أنفسنا بأننا كائنات تدرك وتعقل وترحم ... هذه الأفكار، إذا ما توبعت وبحثت كما يجب، من شأنها أن تجعل من الأخلاق علمًا دقيقًا ... لا يخامرني فيه أي شك، فمن القضايا الواضحة بذاتها يمكننا أن نستنبط معايير الصواب والخطأ ".

وهناك بعض " قضايا لوك الواضحة بذاتها " في الصواب والخطأ، وسنكتفي منها بعدد قليل.
يولد الناس جميعهم أحرارًا متساوين. فليس من حق أحد إذن أن يحتقر الآخرين.
إن واجبنا المقدس أن يساعد بعضنا بعضًا، لا أن يؤذي بعضنا بعضًا.
العقود مقدسة، سواء أكانت شفوية أم كتابية ويجب ألا ينتهي أجلها إلا باتفاق متبادل.
من حق الآباء أن يرقبوا أبناءهم، كما أن عليهم أن يربوهم - وذلك حتى يبلغوا مرحلة النضج العقلي فحسب.
متاع الأرض مشاع بين الجميع. وقد يصبح ملكا خاصًّا لواحد إذا " أضاف من جهده إلى ذلك المتاع " على شريطة " أن يبقى للآخرين ما يكفيهم كما وكيفا ".
فها هنا تجد المبادىء الخلقية في جميع المذاهب الفلسفية والدينية العظيمة موجزة، ولكن لوك أضاف نغمة جديدة وهامة إلى هذا القانون الخلقي الشامل، وذلك أنه صاغ مثلا أخلاقيًّا أعلى في صورة قانون علمي - هو " قانون العدالة المقدسة الذي ندركه بالحدس " فعلى الفرد واجب مزدوج تحت المجتمع: عليه أولا ألا يمتلك شيئًا لم يجد ويكدح للحصول عليه، وعليه ثانيًا أن يأخذ نصيبه العادل فحسب حتى يتمكن الآخرون كذلك من أن يستمتعوا بأنصبتهم.
وفي عبارة أخرى فإن السلوك الحسن هو ذلك النوع من السلوك الذي يؤدي بنا " إلى السعادة ويبعدنا عن الألم ". ولكن القانون العلمي الخلقي يتطلب أن يؤدي سلوك الفرد إلى أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، وتخفيف الألم عن الجميع.
السياسة: ليست آراء لوك في السياسة إلا نتيجة مباشرة لملاحظاته في الأخلاق، إذ يصرح أن الحكومة ينبغي أن تكون عقد اتفاق متبادل من شأنه أن ينتج أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الأفراد. " وإن عقلنا لكفيل بعداية الجنس البشري كله - إذا ما استرشد به - إننا ما دمنا متساوين ومستقلا بعضنا عن بعض، فلا ينبغي أن يضر أحد أحدًا في حياته أو صحته أو حريته أو أملاكه ".
هكذا يحدثنا أبو الديمقراطية الحديثة، فليست الحكومة عبثا يفرضه الحاكم على رعايه فرضًا، بل هي ثقة بين إنسان وإنسان، وليس السلطان النهائي منوطًا بصولجان الملك، بل هو حق في أيدي الشعب.
وعلى ذلك فإن حقوق الفرد يجب أن تحميها الدولة لا أن تقيدها، كما أنه ليس للحاكم سلطة مقدسة، كلا ولا لديه مبرر خلقي يسوغ له أن يجعل من نفسه حارسا على أخيه، فالناس كلهم سواسية أمام الله، ويجب أن ينظر إليهم هكذا في ظل القوانين السياسية للحكومة.
ويؤكد لوك أن الناس يبلغون أقصى درجات الحمق إذا اعتمدوا على الملوك (أو الحكام المطلقين) في حماية بعضهم من جور بعض. وكأنهم بذلك " يطلبون الحماية من الجرذان والثعالب، ولكنهم يقبلون بالرضا، بل يحسبون أنفسهم آمنين مطمئنين، إذا افترستهم الأسود ".
فالطريق الآمنة الوحيدة أمام الناس، إذن، هي أن يتحدوا فيما بينهم ويشكلوا
حكومات تقوم على موافقة الأغلبية. وتؤدي مثل تلك الحكومات وظائفها خدمة للشعب، وتكاليفها يتحملها الشعب. أما الضرائب فلا تجمع إلا بموافقة الأغلبية.
وقد أعلن لوك أن هذا النوع من الحكومة القائمة على إرادة أغلبية الشعب يجب أن يسمح بحرية الكلام، والفكر، والانتخاب، والشعائر الدينية، ولكي يحال دون هذه الحكومة من أن تسرف في استبدادها بالرأي، ينبغي أن يحد من سلطاتها نظام لمراجعة أعمالها وتوازن سلطاتها. ولهذا يجب أن تقسم الحكومة، إلى ثلاث سلطات: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، على أن تكون السلطة التشريعية هي السلطة العليا في الدولة بين هذه الفروع الثلاثة.
ولم يكن هذا في الواقع إلا مخططا للحكومة الحالية في أمريكا وفي تلك الدول الأخرى التي تحاول أن تصطنع لنفسها نظام الحكم الديمقراطي. وقد قال لوك إن مثل هذه الحكومة يجب ألا تكون البادئة بالعدوان، ولكنها يجب أن تكون دائمًا على أهمية الاستعداد للدفاع عن نفسها.
ويجب أن نذكر أن جون لوك قدم فلسفته السياسية منذ نحو ثلاثمائة عام، إلى عالم لم تكن الديمقراطية فيه إلا حلمًا. كما كانت هذه

الفلسفة هي البذرة التي نبت منها إعلان الاستقلال في أمريكا بعد مائة عام من ظهورها. فلم يكن جيفرسون، بل كان لوك هو أول من أكد حق كل إنسان في الحياة والحرية وطلب السعادة، وواجب كل إنسان أيضا في انتخاب الحكومة التي تحكمه.
ولكن فلسفة لوك قد جاوزت الحكومة الديمقراطية للدول والأفراد، إذ أنها خططت مبادىء الحكومة الدولية القومية سواء بسواء. فهو القائل
بأن يوم التقدم الحقيقي لن تشرق شمسه إلا إذا اتحدث الأمم كما اتحد الأفراد على أساس من التعاقد الاجتماعي الذي يحدد اعتمادها بعضها على بعض من الناحية السياسية، فحرية الإنسان سائرة من الديمقراطية القومية إلى الديمقراطية الدولة من إبطال المبارزة بين الأفراد إلى إلغاء الحروب بين الأمم.
٥
وقد صرح لوك بأنه إذا ما حاول ملك أن يفرض سلطانه المطلق بالقوة، فعندئذ لا يقتصر الأمر على أن يكون للشعب الحق، بل يصبح واجبًا عليه أيضا أن يقاوم مثل ذلك الاغتصاب - من غير إراقة دماء ما أمكن ذلك. وعاش لوك ليرى بعينيه ثورة بيضاء لم يخضبها الدم - وفي الحقيقة هو الذي ساعد، بل مهد السبيل لنشوئها. فقد حاول الملك جيمس الثاني أن يقتدي بالملك تشارلز الأول. ونصب نفسه ملكا ضد إرادة الشعب، فقرر الشعب أن على الملك أن يرحل.
على أن ذلك لم يحدث بالقوة. ففي بادىء الأمر أهمل الملك مطلب الشعب بنزوله عن العرش. ولكن الشعب كان قد اكتشف سلاحا جديدًا: هو العصيان المدني. فاضطر الملك إزاء هذا السبيل الذي سلكه الشعب قبل أن ينادي به غاندي - وهو " الحرب السلمية - أقول إن الملك قد اضطر أن يفتح عينيه على النور. فأذعن طيشه لنداء عقله. وتخلى عن عرشه عام ١٦٨٨ من غير أن تطلق رصاصة واحدة.
واستدعى الملك الجديد، وليام أورانج، من هولندا، وهي البلد الذي آوى لوك في أثناء فترة نفيه. وأصبح الفيلسوف آنئذ رجلا حرًّا. وكانت السنوات
القلائل التالية هي أخصب سني حياته كلها " لم تبدأ حياتي فعلا إلا وأنا في الستين من عمري ". فكان عضوًا في " لجنة التجارة "، وساعد في إنشاء بنك إنجلترا ووضع نظما لتعليم عامة الشعب وألف عددا من الكتب والرسائل يدافع فيها عن حقوق العمال، وحرية الصحافة، وطرائق الحياة الديمقراطية معارضا بها طرائق الحياة الأوتوقراطية.
وظل معلما حتى نهاية عمره، إذ كان يحب أن يكون بين " العقول الشابة " المتعطشة. إذ هو يفضل أمل الشباب على انقشاع الوهم أيام الشيخوخة. " فلا نجني من شيخين يئنان سوى نغم لا يريح ".
وبالرغم من أنه عاش حتى بلغ من العمر اثنين وسبعين عاما، إلا أنه لم يكن ليعترف أنه تقدم في السن. فهو يقول: " إن جسدي - وهو الكوخ الذي أسكنه - ليتهافت، حتى لقد أخذت الريح تنفذ إليه خلال الشقوق. أما ساكنه - وأعني النفس - فما زالت شابة لم تغيرها السنون، تتوق إلى الانتقال إلى مسكن جديد أفضل ".
بياض بالأصل
الجزء الخامس
الفلاسفة المستنيرون
بياض بالأصل

٧ الجزء الخامس: الفلاسفة المستنيرون

٧٠١ الفصل الثامن عشر: جان جاك روسو

الفصل الثامن عشر
جان جاك روسو
(١٧١٢ - ١٧٧٨)
١

كان روسو فيلسوفا من نوع جديد حاول أن يقضي على الفلسفة لكي ينقذ الإنسانية. فكتب: " إنه منذ ظهر رجال العلم اختفى أصحاب الشرف ". ولذلك نادى بالرجوع إلى الطبيعة، إلى حياة " المتوحشين الفضلاء " بدلا من حياة " المتمدينين السفلة "، كما دعا إلى تفوق الخير على الذكاء، والجدان على العلم، والعواطف على العقل. وصرح كذلك بأن العقل ينحدر بالإنسان إلى الإلحاد، أما الغريزة فإنها تقود الإنسان وتهديه إلى الله.

ولم تكن فلسفة روسو إلا مزيجا من " العودة إلى الطبيعة " التي نادى بها لاو - تسي، و" العطف على الفقراء " الذي نادى به بوذا، والبحث عن " العدل الاجتماعي " الذي نادى به أشعياء

" والسمو من الدعارة إلى المحبة " الذي نادى به القديس أوغسطين، و" مشروع العالم الأفضل " الذي صممه لوك. وبالرغم من أن روسو تأثر بكل هذه المذاهب الفلسفية، فإنه ببعث في عمله روحا جديدة بإضافة خيال الشاعر وتعاطف النفس الرقيقة.

٢

وقد سرد روسو قصة حياته في كتابه " اعترافات " - وهو إنتاج رائع جمع بين الحقيقة والخيال، صور نفسه فيه وغدًا رغبة منه في أن يصدم الجمهور ويهزه. فلنقرأ، إذن، سيرته الذاتية بشيء من التجوز.

وقد في جينيف عام ١٧١٢ من أبوين فقيرين. وفقد أمه في طفولته المبكرة. أما أبوه فكان من المتعصبين لمذهب كلفن، وكان يمتهن عملين لكسب قوته، فكان: مصلح ساعات، ومعلم رقص. ويبدو أنه لم يعط تربية ابنه من العناية والاهتمام إلا قليلا، إذ هجر جان جاك المدرسة ولم يكن يتعدى الثانية عشرة من عمره، كما هرب من البيت وهو في السادسة عشر. وأخذ يتنقل على غير هدى من مدينة إلى مدينة بحثاء وراء نفسه الضالة، حتى بلغ أبواب دير في مدينة تورين حيث عرض على القائمين بالأمر هناك رغبته في تغيير مذهبه إلى الكاثوليكية. وكما اعترف، لم يكن ما ألقى به بين أحضان الكنيسة جوعا روحيا وإنما كان جوعا ماديا. فكانت فعلتي الورعة في حقيقتها فعلة من قاطع طريق ".

ومن الكاثوليكية عاد مرة أخرى إلى البروتستنتية. ثم لم يلبث أن هجر جميع المذاهب المعترف بها ليحيا وحيدا، مع ضميره ومع الله ".

ولكن لفترة من الزمن لم يستطع ضميره أن ينفعه بأكثر مما ينفعه به مذهبه الديني. فقد حصل على وظائف شتى، وكان يسرق أصحاب العمل، ثم انزلق إلى صحبة جماعة من الفاسقين من الذكور والإناث.

وبعدئذ شغل منصب سكرتير السفير الفرنسي إلى البندقية ولكنه كان يتسلم راتبه تحية وثناء لا نقدا. فلما التجأ إلى الحكومة الفرنسية يطلب أجره المتأخر لم تعره السلطات أي اهتمام لمدة طويلة.

فكان أن جعلت هذه " الفضيحة الوطنية " روسو ينقلب على " الطغيان الذي يدبره الأقوياء والأغنياء ". وفي نهاية المطاف قال إنه قد وجد هدفا محددا للحياة - هو قلب كل حكومة تعمل من غير موافقة المحكومين.

ولكي يظهر احتقاره للعرف السائد قرر عام ١٧٤٥ أن يحيا حياة منزلية مستقرة لا تقوم على زواج رسمي. فعاشر تيريز دي فاسير معاشرة الأزواج، ولم تكن إلا خادمة في الفندق الذي كان ينزل به في باريس. وعاش معها بقية حياته عيشا فيه الدوام، وإن أعوزه الإخلاص، وأنجب منها خمسة أطفال أودعهم ملجأ اللقطاء بعد ولادتهم مباشرة.

ولا يدري أحد ما الذي اكتشفه في عشيقته حتى تعلق بها، فقد كانت امرأة قذرة، قبيحة الوجه جاهلة. علمها كيف ترسم اسمها بصعوبة، أما فيما عدا ذلك فلم تكن تقرأ أو تكتب شيئا. بل يقال إنها لم تكن تستطيع أن تذكر أسماء الشهور، أو تجمع أبسط العمليات الحسابية.

أما أخلاقها فكانت وضيعة كعقليتها. إذ كانت تشرب الخمر، وتكذب، وتخدع، وتسرق، وتلاحق الشباب الذين يقومون على خدمة الخيل. وتقول في ذلك: " إنني أستحسنهم لأنهم من طبقتي وشاكلتي ". ولعل ما دفع روسو للتعلق بها كان الإشفاق لا الحب. فقد كان يتميز بشعور الأخوة الإنساني نحو المكروبين والمحرومين.

وعلى أية حال فقد احتمل روسو العيش مع هذه المرأة " الجلفة الساذجة "، إذ كانت رغم كل صفاتها الأخرى المثل الأعلى لحلمه الفلسفي - وهو حلم إنسان حوشي لا يكون في وسعه أن يفكر في الشر لأنه ليس في وسعه أن يفكر على الإطلاق، فبالرغم من أنها كانت غير مخلصة وغير أمينة وغير مهذبة إلا أنها كانت " ابنة الطبيعة غير المدللة " التي تقوم على خدمته وإنجاز مطالبه وتهيء له الفرصة

لكي ينضج فكره الفلسفي.
ولم يكن روسو قد بلغ الأربعين من عمره عندما بدأ يشتغل بالفلسفة. فقد أجرت أكاديمية ديجون مسابقة وأعدت جائزة للفائز بأحسن رسالة في موضوع: " هل عادت العلوم والفنون بفائدة على الجنس البشري؟ "، وكان أن تناول في مقاله الجانب السلبي من الموضوع وظفر بالجائزة. ولما لاقاه من إهانات على أيدي صفوة المتعلمين، أكد في رسالته أن الثقافة أقرب إلى الشر منها إلى الخير. وكتب أن كثيرا من مظالم الدنيا ترجع إلى أننا نسمح للعقل أن يتقدم القلب ويسبقه. وكلما ازداد علمنا ومعرفتنا بالدنيا ازداد تعطشنا إلى امتلاكها. ولذا نجد أن طموح الطبقات المتعلمة يدفعها إلى استعباد جماهير الشعب الجاهلة.
وقد كان للشهرة التي نالها بعد نشر هذه الرسالة أثرها الذي جعل منه رجلا رزينا رشيدا. فاعتزل المجتمع، واتخذ من الحياة البسيطة منهجا له، وباع ساعته، وقال في ذلك: " إنني لن أكون بعد هذا عبدًا للوقت ".
وكتب رسالة ثانية - في عدم المساواة - فصل فيها الآراء التي جاءت في الرسالة الأولى، إذ قال: " إن الإنسان خيِّر بطعه. ولكن بيئته غير الطبيعية وحدها هي التي تجعل منه شريرا " وأرذل الشرور في هذه البيئة غير الطبيعية هي الملكية الخاصة. " فأول إنسان سَوَّر قطعة من الأرض وحدثته نفسه ليقول: " هذه الأرض ملكي ". ثم وجد أن الناس بلغوا من البساطة والسذاجة حدا صدقوا معه قوله - هذا الإنسان هو مؤسس كل حكومة جائرة ".
وصرح روسو أن العلاج الوحيد لهذا " الشر " ينحصر في " التخلي عن المدنية ". فالناس جميعهم خيرون إذا تركوا على سجيتهم الأولى. فأعط المتوحش شيئًا يسد به رمقه، ولن تجد منه إلا صديقا لجميع أقرانه المتوحشين
ولكن هيىء له فرصة ليتعلم، ولن تجد أمامك إلا شخصًا نهمًا يشعر بأنواع أخرى من الجوع غير حاجته إلى الطعام. فتراه حسودًا، باغيًا، كريهًا، حقودًا، تواقا إلى القتال. ولذلك قال روسو إن من الأفضل أن نعيش في عالم من الهمج المسالمين على أن نعيش في عالم من المحاربين المتمدينين.
ولم يكن روسو في قرارة نفسه معارضا للمدنية نفسها بقدر ما كان معارضا لما تسفر عنه من نتائج ثانوية شريرة. ومثله مثل لوك، كان يتوق إلى بناء عالم أفضل لجنس أسعد. وقد رسم خطوط معالم هذا العالم الأفضل - وهو صورة فيها مغالاة لمثل الديمقراطية الأعلى الذي نادى به لوك. أقول صور هذا العالم في عدد من الكتب: قصة طويلة، ورسالة في التربية، ومقال في الدين، وشذرات مختلفة في التاريخ والسياسة والأخلاق.
وقدر لهذه الكتب - وبخاصة " هلواز الجديدة " (١) " واميل " (٢) " والعقد الاجتماعي (٣) - أن تكون نقطة ابتداء للثورة الفرنسية إلى عالم الوجود، كما لبثت هذه الكتب لمدة تزيد على القرنين نمطا للفكر الثوري المتطرف.
وإذا ما استعرضنا فلسفة روسو في إيجاز. أمكن تلخيصها في فكرتين: هم خير الله ومساواة الإنسان. قال روسو: إن الله هو قوة للخير. " وكيف عرفت هذا؟ لأنني أشعر به في قلبي ". كما صرح روسو بأن إلهام القلب أصح وأنقى

---

(١) Heloise New The
(٢) عليه الصلاة و السلامmile
(٣) Social The رحمه اللهontract

من تفكير العقل. وما شعورنا بالرهبة والغموض، وإحساسنا بالعطف بعضنا على بعض، وتطلعنا إلى كل ما جميل، وغريزتنا التي ترشدنا إلى الصواب، وحافزنا إلى الخدمة والبهجة التي تدخل إلى نفوسنا عند شروق الشمس وغروبها .. ما كل هذه الحقائق إلا دلائل واضحة على وجود الله وإحساسه، وقد جاء في إحدى رسائله: آه يا سيدتي، إنني عندما أخلو أحيانا إلى نفسي وأتأمل ويداي تضغطان بإحكام على عيني في ظلمة الليل، يخامرني الشك أن لا وجود لله. ولكن إذا ما تطلعت هناك، رأيت أن بزوغ النهار يبدد كل سحابة في نفسي كما تشت الشمس الضباب الذي يغلف الأرض، ثم تكشف عن المناظر الطبيعية المتلألئة. وهكذا أجد عقيدتي مرة ثانية، وأعرف إلهي وأجدد إيماني بخيره. إنني أعشق الله، وأهيم بحبه وعبادته، وأخر على وجهي في حضرته ".
إننا إذا ما أنصتنا إلى الله بقلوبنا فعلينا أن نقر بدين واحد للجميع، ما دام الله يحدثنا جميعا بلغة واحدة - هي جلال الطبيعة. فالسماء

ليست وقفا على أتباع مذهب واحد معين - وإنما هي ميراث الجنس البشري كله.
فلنتبع نداء القلب وهدايته، كما صرح روسو، وعندئذ يتحد جميع الناس في دين واحد - دين ليس فيه عقاب أبدي لأحد، وإنما خلاص نهائي للجميع، مذهب الشفقة الطبيعية، والتسامح العام، والتحرر من الاستبداد بالرأي، والتفاهم الودي بين الأقارب والغرباء على السواء.
وكان لظهور هذا الدين الجديد - دين القلب " دَويّ " بين قادة فرنسا المحافظين. فهاجمه حكام القصر ورؤساء الكنيسة لفكرته التي نادى بها عن الإله الذي لا يحابي أحدا. فإن كلا منهم كان يعتقد أنه هو وطائفته وحدهم
قد عرفوا الطريق الحقيقي الأوحد للخلاص، وهكذا أصبح روسو موضع الكراهية لرغبته في تنسيق العالم وتوفيقه لاعتناق عقيدة واحدة.
ولكن دوي مذهبه السياسي كان أشد من دوي عقيدته الدينية. إذ قال روسو: " إن مشكلة غالبية الحكومات هي أنها تقوم على أساس من الظلم الاجتماعي ". فإن تقسيم المجتمع إلى طبقات وتوزيع الملكية غير العادل، وميزان العدالة المائل، والخضوع الذليل للحق " المقدس " ولامتياز الأرستقراطية - كل هذه الخبرات الشريرة يمكن إبطالها لو أننا أدركنا إدراكا كاملا أن " الناس جميعهم يولدون أحرارا ". فالمشكلة، إذن، هي " أن نجد نوعا من الجماعة تقي كل عضو فيها وتحميه شخصا ومتاعا، وبينما يربط كل فرد فيها نفسه بقية الأعضاء الآخرين، يظل من حقه ألا يطيع سوى نفسه، وأن يكون حرا كما كان من قبل ". ويطلق روسو على الاتفاق لإقامة مثل تلك الرابطة بين قوم أحرار اسم " العقد الاجتماعي " وفي هذا العقد " تكون الحقوق واحدة للجميع، ومن ثم فلن يهتم أحد جعل حقوقه الخاصة عبئا على الآخرين ".
وبالرغم من نظريات روسو السياسية مهدت الطريق للدكتاتورية الشيوعية ونظريات لوك أنارت الطريق للقيادة الديمقراطية، إلا أن آراء الرجلين كليهما نادت بنظام للحكم يقوم على التعاون الودي الحر بين جميع المواطنين. " فلا تستطيع الحكومة أن تفرض على مواطنيها قيودًا - أو أن تنعم عليهم بأفضال - " من شأنها الإضرار بالمجتمع ". ومثل تلك الحكومة المثالية تعكس " الإرادة العامة " للمحكومين، فهي شركة " يسمح لكل عضو فيها بالمساهمة فيها كجزء لا يتجزأ من الكل ". وليس لأحد فيها نصيب ممتاز، وإنما هي أنصبة مشاعة توزع بين الجميع بالعدل.
فلا امتياز لأحد في نصيب، ولا أفضلية لأحد في ملكية، " فالدولة،
في علاقتها بأفرادها، هي صاحبة السيادة على كل ملك ومتاع ". وذلك لأن الدولة - أي إرادة الشعب الجماعية - لها وحدها الحق في أن تنسج وتدمج خيوط المصالح الفردية في ثوب الصالح العام. فما صوت الشعب إلا صوت الله.
ولكن روسو ختم رأيه هذا بنغمة أساسها التشاؤم عندما صرح بأن حكومة تظللها المساواة الاقتصادية والسياسية كتلك التي رسمت خطوطها الأساسية في " العقد الاجتماعي " لا يمكن تحقيقها إلا في مدينة يقطنها الملائكة. " فإن مثل تلك الحكومة الكاملة لا تصلح للبشر ". وفي هذا العالم الناقص الذي نعيش فيه يحتمل أن تظل مدينة روسو الفاضلة، شأنها في ذلك شأن جمهورية أفلاطون حلما لسنوات عديدة قادمة.
وما إن ظهر " العقد الاجتماعي " حتى قوبل بعاصفة من الغضب والحنق. ووصم روسو بوصمة الأوغاد. وأصدر ملك فرنسا أمره بالقبض عليه، ولكنه فرّ هاربا إلى جينيف حيث أحرق المجلس الديمقراطي هناك كتابه وهدده بالموت. ولذلك التجأ إلى ألمانيا حيث كادت تفتك به جمهرة من الغوغاء تملكتها ثورة الغضب. فلم يجد بدا من الهرب إلى إنجلترا، وهناك وجد مرفأ العطف وسط أعاصير الكراهية.
وكان روسو في ذلك الوقت قد قاسى الكثير مما أثر في عقله فأخذ يعاني من جنون الاضطهاد إلى حد أنه كان يخيل إليه أن كل من يصادفه إنما كان يحاول قتله.
وفي النهاية دفعه خوفه من أن يقتله أحد إلى أن يقتل نفسه. فمن أقواله قبيل موته مباشرة: " إن عقول الناس تناصبني العداء، لأنني أعلمهم أن ينصتوا إلى قلوبهم ".

٧٠٢ الفصل التاسع عشر: فولتير (فرانسوا ماري أرويه)

الفصل التاسع عشر
فولتير (فرانسوا ماري أرويه)
(١٦٩٤ - ١٧٧٨)

عندما نشر روسو رسالته " في عدم المساواة " أرسل نسخة منها إلى فولتير، فرد فولتير قائلا: " لقد تسلمت كتابك الجديد الذي تحمل فيه على الجنس البشري، وإني لشاكر لك عليك. ولم يحدث قط أن استخدم مثل ذلك الذكاء البشري في الكشف عن مثل تلك الغباوة البشرية. وإن الإنسان ليتوق بعد الانتهاء من قراءة كتابك إلى أن يمشي على أربع. فأما وقد أقلعت عن هذه العادة لأكثر من ستين عاما مضت، فإنه ليؤسفني ألا أستطيع العودة إليها مرة أخرى ".

ولقد كان هذا الرد طعنة لروسو في الصميم. وحددت تاريخ البدء المناقشة المريرة بين الفيلسوفين. فاتهم روسو فولتير بتبديد مواهبه في كتابة المسرحيات - " فما المسرح إلا مدرسة الدعارة ". على حين سخر فولتير من روسو لتأييده قضية " المتوحش النبيل الذي ليس هو في واقع الأمر، إلا معتوهًا دنيئًا ". وأخذ الرجلان يتبادلان سيلاً من النعوت البذيئة لعدة سنوات. ولذا فإن " المجنون الخبيث " - وهو الاسم الذي كان يطلقه فولتير على روسو - و" العبقري السامي ذا النفس الوضيعة " - كما كان روسو يلقب فولتير - لم يكن من الممكن قط أن تلتقي أفكارهما، إلا إذا استثنينا ناحية واحدة هامة: هي أن اهتمامهما بالمعذبين المحرومين قد استنفد كل جهودهما. فبالرغم مما بينهما من تضارب، فإن مذهب روسو الطبيعي ومذهب فولتير العقلي كانا بمثابة الينبوع المزدوج الذي نبعت منه الثورة الفرنسية.
٢

وقد أطلق معاصرو فولتير عليه اسم " الفيلسوف الضاحك ". وكان يرد على ذلك بقوله: " إنني أضحك حرصا على نفسي من الجنون ".

وكانت الحياة في ذلك العصر مليئة بما يدفع الناس إلى الجنون؛ فالأمراء يضيقون الخناق على الفلاحين، والأغنياء يطأون الفقراء بأقدامهم، والصناع يستعبدهم سادتهم ليبدعوا آيات الجمال. والصغار لا يربون لشيء إلا ليكونوا وقودا للحروب التي لا تنقضي. ولقد أعطانا ديديرو، أحد معاصري فولتير، صورة حية لهذا العصر، يباهي فيها لويس الرابع بقصره في فرساي أمام روح جده هنري الرابع، فينظر الملك المسن إلى القصر ثم يهز رأسه علامة على عدم الرضا ويقول: " إنك على صواب، يا بني. فإنه حقًّا لقصر فاخر، ولكن يطيب لي أن أعرض على أنظارك الأكواخ التي يقيم فيها الفلاحون في جونيس (الريف الذي يحيط بفرساي)؛ إذ يفترش هؤلاء الفلاحون القش ولا يجد الكثيرون منهم سقفًا يظلهم، ولا خبزًا يقيم أودهم ".

وقد تمكن فولتير بعبقريته - وأساه - أن يرى جانبي الصورة. وكانت المرارة التي يشعر بها هي التي تثير ما أثاره من زوابع الضحك؛ كما كانت دعاباته تزداد لذعًا بملح دموعه.

وكانت حياته كلها أشبه ما تكون بضحكة صفراوية، أو دعابة تهكمية، وعند ولادته كان ناقصا إلى حد أن توقع الأطباء موته في مدى بضعة أيام. وبالرغم من ذلك امتد أجله حتى جاوز الثمانين من عمره، وكرس حياته للهزء بالاستبداد والخرافات بغية تخليص العالم منها. فأكمل بسخريته المهمة التي كان روسو قد بدأها بنقده، ويحكى أن لويس السادس عشر، قبيل إعدامه مباشرة نظر إلى كتب روسو وفولتير وصاح قائلا: " هذان هما الرجلان اللذان هدما فرنسا! " ولم يكن ما قصد أن يقوله سوى أن هذين الرجلين قد هدما الطغيان في فرنسا.

ودفع فولتير، شأنه في ذلك شأن روسو، الثمن غاليًا لغيرته على الحرية الإنسانية. فقاسى الكثير من القذف، والنفي، والسجن، ومنع كتبه، وفقد صحته، بل الاعتداء على حياته من آن لآخر. وبالرغم من ذلك، فإنه على نقيض روسو، أمكنه أن يحتفظ بسلامة عقله، وأن يكسب كل جولة اشترك فيها باستخدام سلاحه البتار ألا وهو لسانه السليط. وكما علق الناقد الدنمركي، جورج براندیز: " فإن فولتير، بضحكه وسخريته، قضى قضاء مبرما على آلامه الشخصية وعلى الكثير من حماقات عصره سواء بسواء ".

ولعل فولتير كان أبسط رجل في باريس. وكان نحيفًا كالهيكل العظمي، طويل الأنف، ذا عينين صغيرتين لامعتين، ووجه فيه آثار

الإصابة بالجدري، ولسان على أهبة الاستعداد دائمًا لخوض أي معركة. وبالرغم من ذلك كان معبود النساء لما اشتهر به من نصر في مواقع من نوع آخر. ومع أنه كان عليلا لأطول فترة من حياته إلا أنه كان كمولد الكهرباء دائب الحركة والنشاط. وحدث مرة في أثناء التدريب الاستعدادي على تمثيلية ميروب Merope أن حاول أن يحفز السيدة الأولى في المسرحية على تأدية دورها في سرعة فائقة. فجأرت الممثلة بالشكوى قائلة: " ولكنني إذا ما أديت الدور بالسرعة التي تتطلبها يا سيدي، كان لا بد عندئذ أن يكون بي (مس من الشيطان) ". فرد فولتير قائلا: " إنه لا بد يا سيدتي أن يكون بك مس من الشيطان لكي تنجحي في أي فن من الفنون ".

وقد كان هذا سر نجاحه كما علق سانت بيف بقوله: " إن فولتير كان به " مس من الشيطان ". وفي الحق كان فولتير خليطًا من الشيطان وديوجينيس وأريستوفان، أضيفت إليه نسبة كبيرة من القديس فرانسيس لتخفف من حدة فلسفته اللاذعة ".

وبعبارة أخرى كان فولتير مثالا حيًّا للتناقض الظاهري كما كان أبوه أيضًا شخصًا متناقضًا إلى حد ما - إذ كان ينتمي إلى طائفة (بروتستنتية - كاثوليكية) لا تمسك بالتقاليد ويعارضها أشد المعارضة الكاثوليك والبروتستانت المحافظون على تقاليد مذاهبهم الأصلية. وهكذا نشأ فولتير في جو مشحون بالثورة على مذاهب العصر المعروفة المألوفة. ولما سئل مرة وهو صبي صغير عن الحرفة التي ينوي اختيارها عندما يشب ويكبر، أجاب بقوله: " ستكون حرفتي هي التعبير عن فكري ".

وكانت نتيجة إصراره على حرية التعبير عن فكره هي أن زج به فترة في سجن الباستيل وهو لم يزل شابا صغيرًا. وإليكم كيف تم هذا:

ما إن أعدم لويس السادس عشر في عام ١٧١٥ حتى انتقلت سلطة الحكم إلى يدي وصي على الملك. فلما باع الوصي نصف عدد الخيول التي كانت في الاصطبلات الملكية، علق فولتير على ذلك بأنه يكون أحكم لو أنه طرد نصف الحمير من البلاط الملكي. ثم لم يلبث أن تبع هذا التعليق بهجو الوصي. فكان أن رد الوصي الجميل بإيداعه إحدى زنزانات الباستيل.

وفي أثناء إقامته في السجن نظم ملحمة عصماء وصف فيها حياة هنري نافار Navarre Of Henry وبعد أن أطلق سراحه بمدة وجيزة دعي إلى حضور حفل

عشاء أقيم تكريمًا له في قصر دوق دي سلي جلالة uc Sully e . وكانت قدماه لا تزالان غير قادرتين على حملة نتيجة إصابته حديثًا بالجدري. أما لسانه فقد ظل طلقًا كعادته. وبينما كانت بهجة الحفل على أشدها، سأل أحد المقربين في البلاط الملكي، وهو الفارس دي رون، هامسا بصوت مسموع ومشيرًا إلى فولتير: " ومن يكون هذا الرجل الذي يتحدث في صخب؟ " فأجابه فولتير على الفور: " سيدي، إنه رجل لا يحمل اسما عظيمًا، ولكنه يشرف الاسم الذي يحمله ". فلما شعر الفارس أن إهانة قد لحقته نتيجة " عنجهية " رجل من السوقة، استأجر عصابة من الأوغاد لكي تهاجمه ليلا. وحذرهم بقوله: " ولكن احرصوا ألا تصيبوا رأسه، فقد يجود بشيء خيّر يوما ما ".

وبعد أن تركت العصابة فولتير بين الحياة والموت أخذ طريقه وهو يعرج، وقد بلغ منه الغضب الجنوني مبلغه، إلى قصر الدوق دي سلي وسأله أن يبلغ الأمر إلى الشرطة. ولكن لم تكن إجابة الدوق إلا الانفجار ضاحكا، إذ أنها كانت كما قال دعابة كبرى أن يدق أحد الأشراف عظام أحد الشعراء.

وحالما شفي فولتير من حادث الهجوم الليلي تحدى رون أن يبارزه. ولكن الفارس التجأ إلى ابن عمه وزير الشرطة يطلب حمايته. وللمرة الثانية قبض على فولتير وأودع سجن الباستيل. وما إن أطلق سراحه للمرة الثانية حتى صدر الأمر بنفيه إلى إنجلترا.

وشهد أشراف فرنسا رحيله وهم " ينفجرون بالضحك ". فقر قرار الفيلسوف الشاب أن يحاربهم نفس سلاحهم: " سوف نرى أينا يضحك أفضل من الآخر وأعلى منه صوتا ".

٣

وعندما وصل فولتير إلى إنجلترا كان عمره اثنتين وثلاثين سنة. وكان من السهل عليه أن يتقن اللغة الإنجليزية. ولكنه احتفظ بلكنته الفرنسية وأزيائه الفرنسية كذلك. وذات يوم سخر منه جمهور من الغوغاء بسبب زيه الغريب، ولكنه عرف كيف يسيطر على الموقف. فاعتلى مقعدًا وصاح فيهم قائلا: " أيها الأصدقاء الأعزاء. إنني أرجوكم أن تحملوني. أليس من سوء طالعي من البداية أنني قد ولدت فرنسيا بدلا من أولد إنجليزيا؟ " فما إن انتهى من إلقاء هذه الملحمة حتى انقلبت سخرية الدهماء إلى هتاف.

وأحب فولتير إنجلترا، وبخاصة ما تتميز به من حرية الرأي واليقظة الذهبية، وكان هذا بعد انقضاء أربعين سنة تقريبًا على الثورة الإنجليزية التي نشبت عام ١٦٨٨. وكتب في هذا الصدد يقول: " إن الإنجليز شعب متحضر ... فمنذ مدة ليست طويلة أخذت جماعة من المشاهير تبحث عن إجابة لهذا السؤال: من هو الرجل الأعظم: قيصر، أم الإسكندر، أم تيمور لنك، أم كروميل؟ فكان أن أجاب أحدهم بأن أعظم رجل هو إسحق نيوتن. وكان المجيب على صواب، إذ نحن مدينون لنيوتن بالولاء، فهو الذي سيطر على عقولنا بقوة الحق، أما أولئك الآخرون فقد استعبدوا عقولنا بالقوة والعنف ".

ومكث في إنجلترا ثلاث سنوات وسجل انطباعاته عن ذلك القطر في سلسلة من " الرسائل الفلسفية ". وكانت هذه الرسائل التي فرقت بين " حرية " الإنجليز و" استرقاق " الفرنسيين شرارة من أوائل الشرر الذي ألهب نار الثورة الفرنسية.

وعاد فولتير إلى فرنسا بعد نفي استمر ثلاثة أعوام. وظل مختفيًا مدة من الزمن. ولكنه كت أخيرًا إلى الوصي طالبًا منه الإذن " بفك إساره في باريس " فمنح الفيلسوف هذا الإذن بشرط واحد - هو أن يمسك لسانه. وتعهد فولتير بتنفيذ الشرط، ولكنه نسي وعده في اللحظة التي نال فيها حريته مرة أخرى.

٤

وما إن مرَّ عامان على إرجاع فولتير إلى مكانته الأولى في باريس حتى وقع في نفخ جديد، فحدث أن توفيت الممثلة، أدريين ليكوفرير التي كان يعجب بها أيما إعجاب. وأصرت سلطات الكنيسة على دفنها جنبًا إلى جنب مع " ذوي السمعة الشائنة " في أرض دنسة. فنقد فولتير هذه الصنيع في قصيدة تأذى منها رجال الكنيسة. وما إن وجد نفسه مهددًا بالسجن حتى فرّ هاربًا إلى إحدى قرى نورماندي. ولم تكن هذه نهاية اضطهاده. فقد نشرت رسائله الفلسفية بدون موافقته. وأصدر القضاة أمرًا بإحراق الكتاب " في ساحة القصر ... باعتباره عملا فاضحًا، ضد الدين , والأخلاق الحميدة واحترام الواجب للسلطات الحاكمة ". وهكذا أصبح فولتير مرة أخرى رجلا طريدًا.

وقبل فولتير هذه المرة عرضًا تقدمت به إحدى المعجبات، وهي المركيزة دي شاتيليه، قبل أن يتخذ من قصر سيري الذي تملكه مأوى له. وكان هذا الحصن يقع على الحدود الفرنسية قرب اللورين، ومن هذه البقعة كان من السهل عليه أن يفرّ هاربًا إذا ما طارده رجال الشرطة، وهنا عاش مع مضيفته وعشيقته لمدة خمسة عشر عاما كانت أسعد فترة في حياته.

وكانت هذه الفترة أيضًا من ألمع الفقرات في تاريخ فرنسا الفكري. وكانت المركيزة متزوجة من أحد الجنود المحترفين. وكان بعيدًا مع فرقته عندما استولى فولتير على حصنه وزوجته. وفي تلك الأيام لم يكن من غير المألوف أن تتخذ المرأة لها زوجًا وعشيقين - الزوج لكفايتها ماديا، والعشيق الأول لإشباع جسدها، أما العشيق الثاني فللإشباع عقلها.

وكان هذا النظام الرباعي يطبق في " سيري " - امرأة وثلاثة رجال، واستمر سائدًا بنجاح من غير ما غيرة تأكل قلب أي من الأعضاء الأربعة.

ولكن لوحظ أن الاثنين الذين حصلا على نصيب الأسد من اللذة باتباع هذا النظام كانا فولتير والمركيزة. وقد عكفت المركيزة على دراسة اللاتينية، وكانت تمتاز بعقلية رياضية لامعة، ومقدرة نادرة رائعة على كتابة المقالات. إذ كانت تقضي الساعات الطوال المثيرة تتحدث وتتدارس مع فيلسوفها.

ومن وقت إلى آخر كانا يتشابكان في جدال مرير. وحدث أن تنافس الاثنان للحصول على جائزة مسابقة أجرتها أكاديمية العلوم لمن يتقدم أحسن رسالة في موضوع " طبيعة النار ". وكان مما حز في نفس فولتير أن فازت المركيزة بالجائزة. فاستقبل إعلان النتيجة بإعلانه حرب السخرية والتهكم عليها حتى كاد ينقطع حبل صداقتهما.

وبالرغم من عراكهما فقد كان يهيم كل منهما بحب الآخر. وكانت المركيزة تنظر إلى فولتير على أنه " فخر فرنسا وزينة قومه "، بينما كان فولتير يعد المركيزة " رجلا عظيما "، ما من خطأ ارتكبه سوى أنه " ولد امرأة ".

وهكذا كان كل منهما يسب الآخر ويعبده. ويعملان سويًّا في معمل

كيموي كانا قد بنياه في سيري. كما كانا يؤويان النفوس الثائرة، ويقدمان التمثيليات الخاصة التي يشهدها ألمع النظارة في فرنسا وأشهرهم،

ويقيمان حفلات العشاء الفاخرة التي تفوح بعبير المساجلات في الشعر والعلوم والفلسفة والسياسة والموسيقى والفن.
وفي سيري بدأت قريحة فولتير تفيض بسلسل أصيل صحيح من القصص الفلسفية التي كانت كل منها درة من الحكمة في إطار من الذكاء. وقد دبج يراعه ما يقرب من مائة مجلد، وهو عدد إن أدهشنا بكثرته، فلعل مستوى هذا الإنتاج من حيث الكيف أن يكون أبلغ.
وكان يعمل من غير ما توقف أو انقطاع كأنما كان يحيا على زمن مستعار. " فعلينا أن نغذي اللهب الذي استودعنا الله إياه قبل أن تنطفىء جذوته ". وكان يبلغ إنتاجه في بعض الأحيان ما يقرب من خمسة عشر ألف كلمة يوميًّا. وفي المساء كان يقرأ ما يخطه بالنهار على أصدقائه.
ولنأخذ مكاننا في سيري لنستمع إلى إحدى تلك القراءات. ولنرقب الفيلسوف النحيل الجسم الذي يفيض حيوية، ووجهه الشاحب المكدود، وزاويتي فمه المنحرفتين إلى أعلى بشكل غريب ويديه المرتعشتين، وعينيه الراقصتين، لنرقبه وهو يقرأ وكأنما هو ممثل يمثل في كل سطر يقرؤه فهو مقلد بطبيعته يمتاز بسخرية الشيطان وروح القديس.
هاهو ذا يقرأ علينا إحدى قصصه الفلسفية: " ابن الطبيعة "، وهي لا تختلف عن بعض كتب روسو التي كان فولتير قد رفضها فور وقوع نظره عليها. وقصة " ابن الطبيعة " إن هي إلا نقد ساخر لتظاهر الإنسان المتحضر وادعائه غير
المنطقي إذا ما قورن ببساطة الهمجي المنطقية. فقد اصطحب جماعة من المستكشفين أحد هنود أمريكا الشمالية معهم إلى باريس، فأخذ أحد الآباء الروحيين يحاول تحويله إلى المسيحية. ويعطيه نسخة من الإنجيل، فيأخذ الهندي الأمريكي في قراءتها باهتمام بالغ. ويقرر الهندي في النهاية أن يصبح مسيحيًّا ويصر على أن يتم ختانه وعماده. " فإنني لا أجد في إنجيلكم رجلا واحدًا لم يختن. فمن الواضح إذن أنه يجب علي أن أصير يهوديًّا صالحًا قبل أن أكون مسيحيًّا صالحًا ". وعندما يفسرون هذا الأمر، بالرغم من عدم اقتناعه، يبيح لنفسه أن يُعمّد ثم يطالب بتنفيذ الخطوة التالية. ويطلبون منه أن يعترف بخطاياه للأب الروحي. وما إن يفعل ذلك حتى يجذب أبا الاعتراف ويجلسه في كرسي الاعتراف ويصيح بقوله: " والآن يحل دورك لتعترف لي. فالإنجيل يأمرنا في وضوح: أن اعترفوا بعضكم لبعض بخطاياكم! ".
وبعد هذه الحادثة الهامة التي تزيد من حيرته في " غرائب المدنية " يقع الهندي في غرام امرأة فرنسية. ويتقدم طالبًا يدها وتقبل العرض. ويقوم أصدقاؤها بدعوة الأعيان والكهنة والشهود ويعدون العقود والبنود اللازمة لعقد القران. فيسأل الهندي قائلا: " وهل من داع لكل هذه الاحتياطات؟ " " نعم، حقًّا! فمن الواجب حماية الزواج في مجتمعنا المتحضر ".
فيعلق الهندي بقوله: " أما والحالة هذه، فلا بد أن مجتمعكم المتحضر جماعة من الدهماء والأوغاد! " وهكذا دواليك، كان فولتير يواصل تسلية المستمعين وإثارتهم بهجوه وسخريته. إذ كان شعاره الفلسفي: اضحك واجعل غيرك يضحك. وفي إحدى قصصه الأخرى " زاديج " Zadig خلص إلى القول بأن: الجنس البشري إن هو إلا حزمة من الحشرات، تلتهم بعضها بعضًا
على ذرة تافهة من الطين. وفي قصة أخرى من قصصه الخيالية " الكبار الصغار " Micromegas يحدثنا عن اثنين من الرحالة يأتيان من كواكب أخرى لزيارة الكرة الأرضية. وأحد هذين الرجلين مارد من الشعرى اليمانية يبلغ طوله ١٥٠٠٠٠، أما الثاني فهو قزم من زحل ولا يتعدى طوله ٣٠٠ متر. بينما هما يتجولان عبر البحر المتوسط، وهو بركة لا تكاد مياهها تبلل عبي مارد الشعرى اليمانية، يستغرق الزائران في الحديث:
اليماني: كم عدد الحواس التي يتميز بها قومك؟
الزحلي: اثنتان وسبعون حاسة فحسب - لا تكاد تكفي لتزويدنا بأكثر من معرفة سطحية.
اليماني: وكم من السنتين تعمرون؟.
الزحلي: أكثر قليلا من خمسة عشر ألف سنة - أو قل مجرد نقطة في اللانهاية.
وفي أثناء تجوالهما، يلتقطان سفينة يثبتها اليماني على ظفر إبهامه، فلا يبدور ركاب السفينة البشريون أكبر حجما من الميكروبات. ويخني

اليماني وكأنه سحابة تظللهم. ويحدثهم قائلا: " أيتها الذرات الذكية، لا بد أنكم في غاية العسادة لدقة حجمكم المتناهية. أما وقد كدتكم تحرمون من الجسد، فلا بد أن تكونوا روحا خالصة ".

فيجيب أحد الركاب قائلا: " إننا لا نستمتع من السعادة إلا بقدر ضئيل، بينما نضر ويؤذي بعضنا بعضا إلى حد جسيم ... ففي هذه اللحظة بالذات يقوم

مائة ألف رجل يغطون رءوسهم بالقبعات بذبح عدد مساو لهم من البشر يغطون رءوسهم بالعمائم "

فيصيح اليماني غاضبا: " أوغاد! إنني أرغب رغبة أكيدة أن أطأ تحت قدمي هذا العش بأكمله وما يضم من أمثال أولئك السفاكين مبعث الهزء والسخرية! ".

فيرد الراكب قائلا: " لا تزعج نفسك، فالجنود يؤدون هذه المهمة بأنفسهم ... ولو أنه لا لوم على الجنود وإنما اللوم كله على حكامهم المتوحشين الذين يبقون في قصورهم ولاعمل لهم إلا إصدار الأوامر بقتل مليون من الرجال، وبعدئذ يقدمون الشكر في خشوع إلى السماء لانتصارهم ... ".

وهكذا كانوا يقضون أمسياتهم في سيري يستمتعون بضحك فولتير بحلاوته ومرارته، ويستوعبون الآراء التي كانت تهدف إلى تحطيم عرش أسرة يوربون من أساسه. ولعل الكرة الأرضية، كما علق فولتير، قد قصد بها أن تكون مستشفى للأمراض العقلية يودع به من يصاب بالجنون من أهل الكواكب الأخرى.

وقد انتهت الفترة السعيدة التي قضاها فولتير في سيري في لهو وراحة بموت المركيزة. ولحسن حظه وراحة باله أرسل إمبراطور روسيا فريدريك الأعظم يدعوه للحضور والعيش معه في القصر.

ووجد فريدريك ذو الآراء المستنيرة في فولتير رفيقا يتفق وإياه في الطباع، كما استمتع فولتير بصداقة الإمبراطور، وبسخائه سخاء يستوجب الاعتراف به.

ولفترة عاش الاثنان في تواد نسبي، إلا أن أعداء فولتير في البلاط كانت تأكل قلوبهم الغيرة من المكرمات التي كان الإمبراطور يختص بها فولتير. أما الإمبراطور، الذي كان يعد نفسه شاعرًا من نوع ما، فكان يطلب إلى فولتير أن يصحص له بعض الأصول التي يخطها بيده. وحدث في إحدى هذه المناسبات أن أبلغ فريدريك أن فولتير قد علق بقوله: " ها هو ذا مزيد من الغسيل القذر الذي يريد صاحب الجلالة مني أن أنظفه ". وفي نفس الوقت تقريبًا همس إلى فولتير أن الإمبراطور قد قال عنه: " إنني سأنتفع به سنة أخرى. فالطريقة التي يعالج ها البرتقالة هي أن نعالج بها البرتقالة هي أن نأخذ العصير بضغطها ثم نلقي بالقشرة بعيدًا ".

وفي آخر الأمر بلغت المتاعب ذورتها. فاتهم الإمبراطور الفيلسوف إتمام صفقة تجارية تحوم حولها الشبهات. فما كان من فولتير إلا أن رد الإهانة بكتابة رسالة اتهم فيه الإمبراطور بخيانة أصدقائه. فصدر الأمر إلى الجلاد العمومي بإحراق الكتيب وأودع فولتير السجن. وبعد أن أطلق سراحه أمر بمغادرة البلاد.

وكان في الستين من عمره آنئذ - رجلا لا وطن له. " إنني لا أجد في ألمانيا حرية أكثر مما أجد في فرنسا ".

٦

واتخذ آنذاك من جنيف ملجأ له، حيث وجد حرية مطلقة هناك، فأنتج بعض أعماله الممتازة. وكان يوقع رسائله باسم: " فولتير السويسري ". وأنفق الكثير من نقوده في بناء منازل للعمال. " إنني ببيعي هذه المنازل بسعر الكلفة فإنما أدفع بنفسي إلى الإفلاس. ولكني أفلس من أجل غاية هي أشرف غاية

يفلس من أجلها إنسان ". كما أقام مصانع كان يديرها على أساس يضمن به للعمال أعلى ما يمكن من الأجور ويكتفي لنفسه بأقل ما يمكن من الأرباح. وبث في العمال الشعور بالكرامة والتسامح. وقد علق على هذا بقوله: " في قريتي، يستحيل أن يلاحظ أحد وجود مذاهب متباينة. فجميعها تشترك في دين الجنس البشري المتحاب الذي يعبد إلها واحدا ".

ولقد أخذت تنمو في فولتير عقيدة في الله - الخالق المنصف للجنس البشري كله وحافظه وحاميه. وكرس نفسه كاهنًا يرعى هذه العقيدة العامة، وعبر عن هذه العقيدة في سيل من المقالات والكتب التي نشرت تحت أسماء مختلفة، ولكن الفكرة التي كانت هذه المؤلفات تدعو إليها تنحصر في هاتين الكلمتين (لتسحقن الفضيحة!) فلنهدمن جنون الخرافة والطائفية، ولنتوجن مكانهما دينًا من غير ما طقوس

أو منازعات أو كراهية.
وليكن إنجيل هذا الدين هو كتاب الطبيعة - وهنا نجد صدى آخر لصوت روسو - وهذا الكتاب هو الوحيد الذي يستطيع أن يكشف عن جلال الله. " فإن بهاء الخليقة يكشف عن الخالق ... ولا يشك أحد في أن المنظر الطبيعي المرسوم بإتقان - وما هو صإلا صورة ثانية من الطبيعة - إنتاج فنان بارع. فإذا كانت الصورة نتاج عقل ذكي، أفمن الممكن أن تكون الطبيعة الأصلية مسألة مصادفة ومحض اتفاق؟ ".
ويصرح فولتير بأن الدين الحق الوحيد ينحصر في عبادة الله عن طريق قيامنا بأعمالنا المحددة في هذه الجنة الدنيوية - هذه الحديقة الكونية التي من واجبنا أن نفلحها بتنسيق خططنا جميعا.
ويجرنا هذا إلى أشهر مؤلفات فولتير - وهو كتابه كانديد رحمه اللهandide. وبين الفيلسوف في هذا الكتاب أن مبعث الخطأ في العالم هو قسوة قلب الإنسان على أخيه الإنسان. ثم يستطرد فيوضح كيف يمكننا أن نصوب هذا الخطأ.
وهذا الكتاب، مثل الكثير من كتب فولتير الأخرى ليس إلا نقدًا مرًّا يصل إلينا على لسان مهرج مقنع. وكما يذكرنا جلبرت ك. تشسترتون، فالمهرجون غالبا ما يكونون أكثر الناس جدية في العالم. وبطل الكتاب ثري نبيل يتتلمذ على يدي بانجلس Pangloss أستاذ (علم ما وراء الطبيعة واللاهوت وتركيب الكون (Metaphysicotheologicocosmonigology ويصرح بانجلس وهو يسخر هنا في قالب جدي من فلسفة ليبنز - بقوله: " يمكن أن نثبت بسهولة أن هذه الدنيا هي خير ما يمكن خلقه من الدنى، وأنه ليس هناك ما نستطيع أن نفعله أو ما ينبغي أن نفعله لإصلاحها وتهذيبها ". ويستطرد بانجلس قائلا: " إن سيقاننا مثلا قد صممت لكي تتناسب والجوارب التي نلبسها ... والخنازير قد صنعت لكي تمدنا بلحم الخنزير ... والبراغيث قد خلقت لكي تعطينا لذة الهرش ". ثم يؤكد بانجلس: " أنه من الحماقة إذن أن نكتفي بقولنا إن كل شيء على ما يرام. إذ الحقيقة هي أن كل شيء يهدف نحو الكمال ".
وبينما كانديد ينصب إلى محاضرة أستاذه إذ يهاجم جيش بلغاري حصن أبيه، ويقع كانديد في الأسر، ويدفع به إلى الجيش.
وذات يوم يقرر، باعتباره رجلا حرًّا في هذه " الدنيا التي هي أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى "، أن يذهب للنزهة خارج المعسكر. فيلقى القبض
عليه ويحاكم أمام محكمة عسكرية ويضرب بالسوط ستا وثلاثين مرة، بينما هو يمر بين صفين من جنود الفرقة يعيرونه ويتهكمون عليه. وما هي إلا فترة وجيزة يفر بعدها هاربا من الجيش ليعلم أن جيوش العدو قد قتلت والديه وهدمت حصنهم، ويفسر بانجلس ذلك " بأن هذا كله كان من الضروري أن يحدث. فمن آلامنا الخاصة ينتج الخير العام ".
ولكي يتجنب كانديد مزيدًا من " الألم الخاص من أجل الخير العام " يفر هاربا إلى لشبونة. وما إن يصل إلى هناك حتى يتعرض لزلزال يفني ثلاثين ألف نفس. ويصيح بانجلس قائلا: " يا للسعادة البالغة التي لا بد أن يشعر بها الموتى، لأن الآخرين قد عاشوا بعد هلاكهم ".
ويهرب كانديد من الزلزال ليقع في يدي محكمة التفتيش - " وهي مثال آخر للعدالة في أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى ". وما إن يهرب من نيران محكمة التفتيش حتى يجر إلى مستعمرة هولندية حيث " يستمتع " العبيد السود بحياة مريرة وهم يصنعون السكر لساداتهم البيض. ويلاحظ كانديد أن أحد العبيد قد فقد ذراعا وساقا فيسأله كيف حدث هذا. فيشرح العبد الأعرج قائلا: عندما نعمل في زراعة قصب السكر، فإنهم يعاقبوننا إذا أضعنا إصبعا بتر الذراع كلها. كما يعاقبوننا إذا ما حاولنا الهرب ببتر الساق ".
وعلى هذه الصورة ينتقل كانديد من نكبة إلى أخرى، ويحاول أن يجد مكانًا ملائمًا لتجربته وتجارب الناس الآخرين في صورة " أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى ". وكلما ازدادت محاولاته ازدادت حيرته. وفي أحد أسفاره يسأل أحد زملائه المسافرين قائلا: " هل تعتقد أن الناس كانوا دائمًا يقطعون
رقاب بعضهم بعضا كما يفعلون اليوم، وأنهم كانوا على الدوام كذبة، وخونة، وجاحدين للجميل، ولصوصًا، وأوغادًا، ومتعصبين، وحمقى؟ "
فيسأله الراكب زميله بدوره: " وهل تعتقد أن الصقور تعتمد دومًا على الحمام غذاءً لها؟ ".
فأجاب كانديد بقوله: " من غير شك ".

" حسنًا، فإذا كانت الصقور قد أبقت على طبيعتها دائمًا، فلم، إذن، تتخيل أن الناس قد غيروا من طبيعتهم؟ ".

وبينما هما على هذه الحال يتباحثان في خصائص الجنس البشري، إذ يصلان إلى مقصدهما. ويستقر كانديد ويعمل مزارعًا على قطعة أرض صغيرة بينما بانجلس إلى جانبه ما زال يبذل جهده ليثبت وجهة نظره لتلميذه. ويعلن: " أن هناك سلسلة من الأحداث في هذه الدنيا التي هي أكمل ما يستطاع خلقه من الدنى، فأنت لو لم تكن قد طردت من الحصن .. ولو لم تكن قد هربت من الزلزال .. ولو لم تكن قد وقعت في يدي محكمة التفتيش .. ولو لم تكن قد قاسيت الكثير من المحن والشدائد الأخرى كلها .. لما كنت هنا الآن تتناول مربة النارنج وحبات الفستق ".

فيجيب كانديد بقوله: " ربما لم يكن في الإمكان أبدع مما كان. ولكن دعنا نفلح حديقتنا ".

وهذا هو صميم فلسفة فولتير ولبها. فلتفلح حديقة هذه الدنيا ولا تقنع ترك الناس فقراء كما وجدتهم. لتسحقن الفضيحة، ولتنزع الأعشاب الضارة ولتقض

على الحشرات التي تعرض أزهار الحديقة السليمة النافعة للضرر، ولتهذب قطعة الأرض المحددة لك ولا تنظر بعين الجشع إلى نصيب جارك، ولتأكل خبزك بعرق جبينك، ولتكد وراء المحراث وتنتظر الحصاد بصبر، ولتساعد أقرانك العمال بأن تشيد لهم منازل تملؤها البركة والسعادة، ومعابد يظللها السلام.

وما إن أشرفت حياة فولتير على نهايتها حتى أوجز عقيدته الفلسفية في بضع كلمات: " إنني أموت وأنا أحب أصدقائي، ولا أكره أعدائي، أبغض الخرافة، وأهيم بحب الله وعبادته ".

٧٠٣ الفصل العشرون: عمانويل كانت

الفصل العشرون
عمانويل كانت
(١٧٢٤ - ١٨٠٤)

كان يسير في حياته على نظام دقيق حتى نظر إليه جيرانه على أنه ساعة لهم حية. ففي عصر كل يوم في منتصف الرابعة تماما كان يترك بيته ليقوم بنزهته اليومية. ولكن حدث ذات يوم أنه لم يظهر في ميعاده فظن الجيران " أن شيئا في منتهى الغرابة لا بد قد حدث ". ولم يكن هذا الشيء الغريب الذي أعاقه عن متابعة نظامه اليومي سوى كتاب: " اميل " الذي كتبه روسو. ولعدة أيام أوقف كانت العمل بجدول مواعيده، وذلك كي يستطيع أن يقرأ هذا الكتاب وأن يعيد قراءته. وقد سره أن يجد في روسو زميلا يشاركه في مخاطرة الخروج من ظلمة عدم الإيمان. فكان كلاهما يستهدف العثور على الطريق إلى الهل - واختار روسو طريق القلب، واختار كانت طريق العقل. فقد كان روسو هو الذي دفع فلسفة عمانويل كانت الدفعة الأخيرة.
٢

وقد بدأت هذه الفلسفة تزدهر في عصر مليء بالاضطرابات - عصر حرب السنوات السبع والثورة الفرنسية والجنون النابليوني. وبالرغم من ذلك نجح كانت في التغلب على العاصفة.

" إنني ضئل قليل الأهمية إلى حد أن الرياح تمر فوق رأسي فلا تقتلعني كما تفعل بالنباتات التي تعلوني طولا ". وكان شخصا ضئيلا أنيقا، يبلغ طوله

نحو خمس أقدام، مفلطح الصدر، بارز البطن، محدب الكتفين، يميل رأسه إلى جانب. كما عرف بقبعته الرمادية وسترته الرمادية وعصاه الرمادية التي كان يدق بها دقات توقيعية عندما كان يتجه إلى الطريق الذي تكتنفه أشجار الزيزفون، والذي كناه أهل كونجسبرج باسم " نزهة الفيلسوف ". وكان يدلف وراءه خادمة الكهل الأمين " لامب " حاملا مظلة لكي يقي بها سيده إذا ما فاجأه هطول المطر، مع أن ذلك الخادم نفسه كان في حاجة إلى من يقيه كما كان هو يقي كانت. ومن أجل لامب هذا، كما سنرى فيما بعد، كان الفيلسوف يتوق إلى خلق دين وإله.
٣

ولد كانت في كونجسبرج في بروسيا. وإذا استثنينا فترة قصيرة كان يعمل فيها مدرسا في قرية مجاورة، فإنه لم يغادر مسقط رأسه بجسده وإن كان عقله قد طاف بأرجاء الكون كله. وكان أسلافه من أصل اسكتلندي - ألماني. وكان أبوه يعمل في صناعة أشرطة من الجلد كثيرًا ما استخدمها في تربية أطفاله الأحد عشر.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحيانا على من يرحم

أما أمه فكانت تتمسك بأهداب الدين تمسكا دقيقا شديدا فعملت على سربلة أطفالها بقيود الطقوس الدينية الصارمة. وكرد فعل لتربية كانت الدينية المتطرفة في طفولته ابتعد عن الكنيسة في رجولته. وبالرغم من ذلك كان يشعر دائما بتعطش إلى إدراك العناية الإلهية بطريقته الخاصة التي لا يتبع فيها السلف.

وقد أدى به هذا الشغف إلى دراسة الفلاسفة الشرقيين فتأثر بهم تأثرا عميقا. ولكنه لم يعثر على مفتاح تأملاته الشخصية إلا بعد أن قرأ كتابات روسو.

وجرفه لعدة سنوات في تيار الشك الميتافيزيقي. " لقد شاء لي حسن الطالع أن أكون عاشقا للفلسفة، ولكن معشوقتي لم تطلعني حتى الآن إلى على القليل من حسنها ".

وكان تقدمه المادي بطيئا كتطوره العقلي. فقد بدأ يمتهن التدريس في عام ١٧٥٥ كمحاضر خاص في جامعة كونجسبرج. وظل يعمل أربع عشرة سنة قبل أن يرقى إلى منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقا. وكان هادئا ضئيلا أحدب الظهر لا يكاد يصل صوته الخافت إلى المقاعد الخلفية في حجرة الدراسة. وكان يفضل، كما قال، أن يدرس للطلبة ذوي القدرات المتوسطة. " فالعباقرة لا يحتاجون إلى معونتي، والأغبياء لا تجدي معهم أي معونة ". وكان زملاؤه من بين أعضاء هيئة التدريس ممن كانوا أكثر منه نجاحا يعلقون بأنه كان حقا مدرسا وسطا يصلح للعقول الأوساط.

وهكذا كان " كانت " مدرسا مغمورا، كما كانت اثنتان من شقيقاته تعملان خادمتين. فلم يكن في أسرة " كانت " إذن، ما يهتز له العالم. ولم يتوقع أحد منه أن يثير عواطف الناس وحماستهم. فقد كانوا يصفونه بأنه الرجل الذي يستخدم الألفاظ الضخمة - الألفاظ التي يبلغ طولها ست أقدام - للتعبير عن أفكار تافهة. حتى إن أحد تلاميذه علق على ذلك بقوله: " إنه يحملنا عبر بحر لا شاطىء له في سفينة لا شراع لها ". وقد كان مدرسا أبعد عمقا مما يعمق إليه تلاميذه، وأبعد اهتماما مما يهتم له هؤلاء التلاميذ. أو ما يهتم له أي فرد آخر.

فلم يكن أحد أن هذا الرأس المتواضع الضئيل يضم بين جوانبه من الأفكار بركانا يغلي. ولم يقذف البركان بحممه من الأفكار إلا عندما بلغ

" كانت " السابعة والخمسين من عمره فتمخض عن أروع نسق فلسفي ظهر في العصور الحديثة.

أما هذا الإنتاج الذي أذهل العالم فكان فكان قوامه ثلاثة كتب عظيمة: نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، ونقد الحكم. ويمكن تشبيه هذه الكتب الثلاثة على وجه التقريب بمعبد يتكون من ثلاثة طوابق - طابق أرضي لحفظ الأصنام المنبوذة، وطابق فيه قاعة اجتماعات عامة ذات نوافذ من الزجاج الملون ينفذ منها ضوء خفي، ثم قبة تشمخ في عنان السماء بزرقتها المتألقة. فلنتجه إلى داخل المعبد.

٤

فيستقبلنا ضوء يكتنفه غموض. فقد استخدم " كانت " في كتابه الأول أسلوبًا ثقيلا يصعب على الفهم. إذ أن عنوان الكتاب نفسه - نقد العقل الخالص - إنما يخاطب الأساتذة أكثر مما يخاطب عامة الشعب، ولكننا سنحاول أن نبسط كلا من عنوان الكتاب ومادته. فنقد العقل الخالص معناه فحص دقيق للعقل نفسه في حالته المجردة - أي عند ما يكون العقل غير مقيد بمشاهدات حواسنا. فالعقل الخالص إن هو إلا تفكير الذهن مجردًا من خبرة الجسد. ويؤكد " كانت " أن غالبية معرفتنا لا تصلنا عن طريق الحواس. " فالحقائق العامة واضحة ويقينية بذواتها "، من غير ما اعتبار لأية ظواهر تمدنا بها حاسة البصر الناقصة عندنا. فالمعتوه يشاهد نفس الدنيا التي يشاهدها رجل من أمثال شكسبير. ولكن الرجال من أمثال شكسبير هو وحده الذي في وسعه أن يرى في الدنيا صورة نقيض بالجمال والمعنى.

وفي عبارة أخرى فإن العالم على حقيقته يبعد كل البعد عن مشاهدتنا الحسية، لكنه في متناول إدراكنا العقلي، إذ أن في وسعنا أن نرى العالم ببصيرتنا الباطنية وندركه من غير استعانة بتجربتنا. والسؤال الذي يلقيه " كانت " هو هذا: " ما الذي في وسعنا أن نصنعه العقل إذا ما استبعدنا كل حصيلة التجربة ومعونتها؟ " ويجيب عن هذا السؤال مؤكدًا أننا نأمل أن نستخدم عقلنا - أي تفكيرنا النظري - لا في مجرد استقبال انطباعاتنا الحية. وإنما لخلق الأفكار كذلك.

فعقلنا، إذن، ليس حزمة من المشاهدات التي تعتمد على " حواسنا " ولكنه أداة لمعرفة قائمة بذاتها قد انكشفت لنا عن طريق قوة " إدراكنا العقلي ". " ولعل أنصع مثل يبين قدرتنا على التقدم بغير طريق التجربة هو مثل الرياضة ". فمن اليقين المطلق أن اثنين واثنين تساوي أربعة دائما. مهما يكن ما نراه أو نسمعه مما يناقض ذلك.

وهكذا فإن العقل ليس مجمعا للفكر ولكنه منظم له. فهو ينظم العالم، مستعينا بمعرفته بالحقائق الرياضية وغيرها من الحقائق المطلقة، ويصوغها في وحدة مفهومة. والعقل يمكننا من تحويل الفوضى إلى نظام، والتجارب الجزافية إلى وحدة منسقة، والإدراكات الحسية الفردية إلى حكمة كلية. كما يمكننا من تلمس الطريق المؤدي من الحكمة البشرية إلى النور الإلهي.

فالحكمة البشرية، إذن، هي " التنظيم " - أي القدرة على استخدام الحقائق الأبدية لإدراك وتنسق الحادثات في مجرى الزمن، إذ تمكننا حكمتنا من أن نقلل من الاعتماد على حواسنا وتزيد من الاعتماد على عقلنا. فبينما تظهر لنا حواسنا عالمنا من الظواهر فإن عقلنا يوجههنا ويرشدنا إلى الحقيقة وراء تلك

الظواهر - وكان " كانت " يسمي هذه الحقيقة " الشيء في ذاته ". وقد قال شوبنهاور: " إن أعظم ما أسهم به " كانت " في الفلسفة هو تفرقته بين العالم " الحقيقي " - أي الشيء في ذاته - وعالم حواسنا " الظاهري ".

فالعالم الظاهري أشبه ما يكون بخليط مبعثر على الأرض من الطوب والحديد والزجاج والخشب والحجارة. أما العالم الحقيقي فهو بناء كامل استخدمت في تشييده هذه المواد لكي يكون وحدة معمارية جميلة، وما خواطرنا عما نشاهده، أعني خواطرنا المستمدة من الحس عن الإنسان والطبيعة والنجاح والفشل، والحياة والموت، إلا أوهام لا تصلها بالحقيقة إلا أوهى الصلات " فسنظل نجهل جهلا تاما ماذا عسى أن تكون تلك الأشياء في حقائقها " المستقلة عن إدراك الحواس وذلك نفسه يصدق أيضا على ما لدينا من خواطر عن حرية الإرادة والنفس والله. فليس في وسعنا أن نثبت أو ندحض وجودها بسبب قصور حواسنا. وليس من حقنا، إذن، أن نكون على يقين فيما يختص بأي من هذه الأشياء. فلن يتاح لنا قط إدراك الحقيقة كما هي في ذاتها. فحتى عقلنا المحض، إذا ما تخلص من الحواس، لن يستطيع أن يفسر لنا أسرار العالم. " إننا نجهل جهلا تاما حقيقة العالم في ذاته ... إننا لا ندري عن العالم إلا كيفية إدراكنا له بالحواس " وكل ما ندريه عنه هو أن العالم موجود.

ولكن كيف ظهر إلى الوجود؟ هل خلقه فنان سام، ويهديه عقل سام؟ يجيب " كانت " عن هذه الأسئلة بقوله: " إن العقل الخالص لا يستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة ".

ولكن ربما كانت هناك إجابة من نوع آخر تقوم على أساس من العاطفة الخالصة، هذه هي الإجابة التي ضمنها " كانت " في كتابه الثاني، نقد العقل العملي. فأما وقد أخفق في العثور على الله في عقله فإنه يحاول، كما حاول روسو، أن يجده في قلبه. ألا يكون في تحسيسنا الطريق إلى الصواب ما يشير إلى وجود الله؟ ألا يجوز أن يكون هناك مبدأ أخلاق مطلق كما أن للرياضة مبدأ مطلقًا؟ ويجيب " كانت " عن هذا السؤال بالإيجاب الذي يبعث على التفاؤل قائلا: إن المبدأ الأخلاقي فطري مولود مع الإنسان، شأنه في ذلك شأن المبدأ الرياضي. فهو سابق لتجربتنا المستمدة من حواسنا ومستقل عنها. وما هذا المبدأ الأخلاقي إلا أساس عقيدتنا الدينية، إذ هو صوت ضميرنا ومحور وجودنا.

فالسلوك الخير أمر مطلق يصدر من داخل نفوسنا. والشفقة المتبادلة أمر واجب، إذ أننا نشعر - شعورًا فطريًّا مولودًا مع ولادة أجسادنا - بأننا مرتبطون روحيًّا بعضنا ببعض. فنحن نعلم بفطرتنا أننا ينبغي أن نقوم بواجبنا. وهذا الإحساس المتبادل بالواجب، هذا الشعور الذي يجعل من العالم وحدة قوية مترابطة متسقة، لا يرشد عقولنا نحو موكب النجوم المتناسق فحسب، بل هو كذلك يلهم قلوبنا إلى السير في طريق المواءمة الصحيحة لسلوكنا في كل علاقاتنا الإنسانية.

" سماء مرصعة بالنجوم من فوقنا، وقانن أخلاق في أعماق نفوسنا " - هذان هما جانبا مبدأ واحد بعينه يؤدي بعقلنا وبعاطفتنا إلى تفهم أفضل للعالم. فالرياضيات الخاصة بالأجرام السماوية وأخلاقية وجودنا في الحياة الدنيا إن هما إلا
تعبير عن قانون إلهي واحد. ويمكن تلخيص الجانب الأدائي من هذا القانون في كلمة واحدة هي: الله.
وهكذا نجد أنه بينما يؤدي بنا العقل إلى الشك في وجود الله، فإن القلب يلهمنا الاعتراف بوجوده. ويشير هيني Heine في أسلوب يجمع بين الهزل والجد إلى أن الفيلسوف الوديع قد " خلق إله القلب " هذا مرضاة لخادمه الكهل لامب. فقد عرف " عمانويل كانت " قبلئذ بأنه عبوس لا تلين له قناة في عدائه للعرف التقليدي. فكان قبلئذ قد هاجم السماء بعنف حتى استثار بصيحته كل كائناتها، تاركا رب العالم يسبح في دمه وهو فاقد الوعي ... وكان لامب الكهل يقف إلى جانبه ومظلته تحت إبطه يشهد ما يجري في أسى وحسرة، يتصبب وجهه عرقًا من الضيق. وعندئذ أخذت عمانويل كانت الشفقة به، وأثبت أنه ليس فيلسوفًا عظيما فحسب، بل هو إنسان صالح أيضًا، فقد لاحظ أن " لامب الكهل يجب أن يكون له إله، وإلا حرم المسكين من السعادة، وينبغي أن يسعد الناس حقًّا في هذا العالم. أما والإدرك العملي المشترك يحتاج إلى السعادة، فليكفلها له، إذن، العقل العملي ".
وقد أخفى هيني، كما اعتاد أن يفعل، وجهًا من الحقيقة خلف قناع الهزل. ولم يكن هذا الوجه إلا شفقة " عمانويل كانت " التي أدت به إلى افتراض وجود الله. فالله موجود لأن الإنسانية في حاجة إليه. ففي هذا العالم المليء بالظلم الفاشي والبغي والكراهية، لن يكون للسعادة أو الرجاء مكان إذا لم يكن هناك عناية إلهية تنظم الكل وتنسقه في وحدة نهائية عاقلة. فشعور القلب مرشد أقل زللاً من منطق العقل لأن للقلب أسبابًا خاصة به لا يفهمها العقل، كما يقول باسكال.
وهكذا إذا لم يكن في وسعنا أن نبني عقيدتنا على أساس العلم فإننا نستطيع أن نقيم بناءها على دعائم الأخلا. فإلزامنا الخلقي - وهو ما يسميه كانت " بالأمر المطلق " - يرشد ضميرنا إلى تمييز محدد بين الصواب والخطأ، وإلى قانون إلهي محدد يستهدف هداية سلوكنا الإنساني. ولا يقتصر هذا " الأمر المطلق " على أن يشير إلى وجود الله، بل يضيف إلى ذلك فعل الإرادة الحرة. لأنه من غير حرية إرادة، فإننا لا نستطيع أن ندرك الصواب والخطأ، ولا أن نشعر بواجب أخلاقي بعضنا نحو بعض. وأخيرًا فإن هذا الأمر المطلق برهان أيضًا على احتمال حياة بعد الموت. وذلك لأننا نتبع أوامر ضميرنا حتى ولو لم يؤد هذا إلى جزاء في هذه الحياة. ولماذا؟ لأننا نشعر، ومن ثم نعلم أن قصة حياتنا الحاضرة إن هي إلا فصل لم يكتمل في قصة أكبر، وأن الحبكة الروائية وإن بدت غير معقولة في هذه الحياة الدنيا، فستفض عقدتها وتصل إلى نتيجة منطقية في الحيا الآخرة. وما حياة الإنسان إلا سلسلة كاملة محبوكة من الأحداث يشد في نهايتها كل خيط سائب، ويستقيم كل معوج، ويتحقق كل رجاء معقول. فإن هذا هو ما قد قضى به القلب البشري أن يكون.
وهكذا إذا ما فحصنا عالم القلب الحقيقي، الذي يقابله عالم الحواس وعالم العقل الذي قوامه الوهم، وجدنا ثلاث حقائق هامة تبرز من ثنايا شكوكنا جميعها. وهذه الحقائق الثلاث هي: الله وحرية الإرادة، وخلود الروح.
٦
رأينا كيف يتشكك كانت في الله في كتابه الأول " نقد العقل الخالص "، على حين أنه في كتابه الثاني " نقد العقل العملي " يثبت وجوده. أما في كتابه الثالث " نقد الحكم " فإنه يجده، ولكن أين يجده؟ في صورة الطبيعة
الجميلة وتصميمها الذي خطط طبقًا " للمثال المحفوظ في السماء ". وتستند هذه الفكرة إلى حد كبير على دعائم فلسفتي أفلاطون وأرسطو. ويقول كانت إن وراء هذا الجمال لا بد دائمًا من وجود القصد، فالعمل الفني ينطوي على افتراض وجود الفنان. فإذا ما مر الإنسان بتجربة الجمال فإنه يشعر بقرارة نفسه بقوة لا حد له تناظر القوة التي لا حد لها خارج نفسه، فشبيه الشيء منجذب إليه. فقد تحدث الله إلى الإنسان، وأجاب الإنسان قائلا: " إنني أدرك ". وإن بعض الناس - من أمثال المحبين لخير لإنسان ومن الساسة والمصورين والمثالين والموسيقيين والشعراء - ليعيشون في ظل هذه الرؤيا، بل إن رجل الشارع، أيضًا، له لحظاته التي تسمو فيها بصيرته. وفي مثل تلك اللحظات، يرى وجود الله في المظهرين الساميين لقوته الخالقة - وهما دقة النجوم الرياضية والأمر الخلقي الذي يصدره القلب.

فالأخلاق، مثلها مثل الرياضة، تهدينا إلى العيش على اتفاق مع سير الحياة المتناغم. وفي هذا الصدد يعلق كانت بقوله: " فلتسلكن كما لو كان سلوكك صادرًا عن مبدأ يصح أن يكون بإرادتك مبدأ لسلوك الناس أجمعين ". واجتنب أي سلوك، إن اتبعه الناس جميعًا، استحالت الحياة الاجتماعية. فهل تدفعك دواعي الإغراء إلى الإخلال بوعدك؟ إن ضميرك - وهو ما يأمر به القلب - لينبئك عندئذ أن عالمًا تنتفي فيه الوعود شبيه بعالم تفجرت نجومه. وقياسًا على المبدأ نفسه فإن ضميرك يحرم العدوان والجشع والتعصب والابتزاز والخيانة والحقد والقتل والسرقة.

وقصارى القول، أن ضميرك يدعوك أن تحرص على أن ينتظم العالم على أساس مساهمة كل عضو في المجتمع بنصيب وافر من العمل، وتقديم الجزاء

الملائم له. وليكن كل إنسان " غاية في ذاته " بدلا من أن يكون أداة في يد غيره. لا تسخِّر جارك ولا تستغله. " فليس هناك أبشع من أن يخضع سلوك إنسان لإرادة إنسان آخر ". وهذا هو ما قصد إليه كانت بما أعلنه من حق الاستقلال، أو قل اعتماد الناس بعضهم على بعض للجنس البشري كله.

٧

وفي سن التاسعة والستين فرغ كانت من فصول روايته الفلسفية الثلاثة. وكان يأمل أن يقضي شيخوخته في هدوء. ولكن هذا الأمل لم يتحقق. فقد أثر إنكاره لقيام الدين على دعائم العقل عاصفة من التجريح، ثم انقلبت العاصفة إعصارًا بسبب إصراره على أداء ما تقتضيه العقيدة المسيحية من واجبات، بدل الوقوف عند شعاراتها حتى أطلق عليه الجاحدون من رجال الدين اسم " الكلب "، كما أطلق عليه الكثيرون منهم على كلابهم اسم " عمانويل كانت ". ثم كان أمره ملك بروسيا، فردريك وليام، أن يكف عن تقويض تعاليم المسيح. فأجاب كانت بقوله: " يا صاحب الجلالة، إنني لا أحاول شيئا إلا أن أوطد أركان تلك التعاليم؛ إذ كان المسيح ينشد التقريب بين مملكة الله والأرض. ولكن حكما بسلوك غالبية المسيحيين فلقد أخطأوا خطأ جسيما في فهمه ". ولما أصر الملك مرة أخرى على صمته، أجاب الفيلسوف ذو الجسم الضئيل

قائلا: " يا صاحب الجلالة، لقد أبلغت رسالتي ".

ولكنه بعدئذ كتب كتابا آخر هو " السلم الدائم ". ولم يكن هذا الكتاب الذي نشر عندما كان " كانت " في الواحدة والسبعين من عمره إلا دعوة لقيام اتحاد عالمي يضم دولا حرة. ولنلاحظ النغمة الجديدة التي صيغت بها الشكوى في هذا الكتاب حين يقول: " إن حكامنا لا يملكون من المال ما ينفقونه على تعليم

الشعب، فقد خصصوا كل مواردهم لحساب الحرب القادمة ". ولم يقف عند تأييده لفكرة إنقاص عدد القوات المسلحة، بل دافع عن فكرة إلغائها جميعا. " فالجيوش القائمة تثير شهوة المنافسة بين الدول في سباق وحشي بغية النصر ". وليست وظيفة الحكومة هي العمل في مضمار الفتوح وإنما التقدم في ميدان التعاون - فاحترام كل فرد في كل أمة واجب باعتباره " غاية مطلقة في ذاته " ومعنى هذا أننا يجب أن ننظم دولتنا على أساس ديمقراطي حتى " لا تعلن حرب إلا إذا أخذ رأي المواطنين جميعا ". ولا أمل لنا في سلام عالمي إلا إذا انقضى عهد الملوك والحكام المستبدين " الذين يظنون الدولة ملكا خاصا بهم وحدهم ". وقد أعلن كانت أن هذه هي الغاية التي تبذل الإنسانية جهدها للوصول إليها. وفي سبيل بلوغ هذه الغاية فنحن في حاجة إلى رعاية الله وهدايته. ولا يمكن أن نرتبط في اتحاد عالمي من الأصدقاء المتفاهمين إلا إذا راعينا المبدأ الإلهي، وأعني به مبدأ الوحدة الكونية.

وهكذا، كما لاحظ أحد مؤرخي حياة كانت، نجد أن قلبه الرقيق كان يشعر بغاية الحياة المقدسة التي لم يستطع عقله النافذ أن يراها.

٧٠٤ الفصل الحادي والعشرون: آرثر شوبنهاور

الفصل الحادي والعشرون
آرثر شوبنهاور
(١٧٨٨ - ١٨٦٠)
١

اعترف شوبنهاور بثلاثة مصادر رئيسية نبع منها إلهامه هي: كانت، وروسو، وفلاسفة الأوبانيشاد. فمن كانت تعلم أن فلسفة القلب قد تكون أظهر للحقيقة من فلسفة العقل. ومن روسو اكتسب عادة دراسة سفر الطبيعة أكثر من دراسته لكتب البشر. أما في رسائل الأوبانيشاد فقد اكتشف عقم الطموح الأناني، ما دامت الذات الفردية جزءًا عضويا (لا يتجزأ) من الذات الكلية.

وكان على شوبنهاور أن يعترف أيضًا بما لأرسطو من فضل عليه، فقد علمه أن لكل شيء صورة أو حافزًا داخليًّا، يتحكم في بنائه ونموه. وقد عبر شوبنهاور عن " الصورة " بلفظ " الإرادة ". وقال إن الوجود كله ليس إلا نتيجة إرادة الحياة.

وبالرغم من ذلك فهناك فرق بين شوبنهاور وأساتذته. فبينما كان كانت وروسو وكتّاب الأوبانيشاد متفائلين، كان شوبنهاور متشائمًا؛ حتى لقد ذهب إلى أن إرادة الحياة ليست خيرًا بل هي شر. وأن أحسن سبيل لمحو هذا الشر هو أن نبلغ مرحلة نرفانا عدم الوجود. ولنلق نظرة على هذا الرجل العجيب وفلسفته الشائقة وإن كانت فلسفة مدمرة.

٢

كان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بشوبنهاور إلى ما انتهى إليه من تشاؤم؛ فقد عاش في عالم من الخرائب والأنقاض. فكان عصره شبيهًا بعصرنا. وفي عام ١٨١٩ نشر ملحمته في اليأس، ألا وهي كتاب " العالم كإرادة وفكرة " وكانت أوروبا في تلك الحقبة قد تحولت إلى مجزر تساق فيه الماشية الآدمية المذعورة من مذبحة إلى أخرى، وبدت الإنسانية وكأنها قد فقدت اتزانها فكان القادة العميان يقودون أتباعهم العميان إلى التهلكه جمعًا. أما إرادة القوة، التي تجسدت أولا في روبسير ثم بعدئذ في نابليون، فكانت قد انتهت بكارثة شاملة. وحتى الحلف المقدس الذي كونه القيصر إسكندر، والذي كان من المفروض أن يقيم الأخوة الإنسانية على دعائمها، قد ثبت أنه لم يكن سوى استعباد للجنس البشري تحت سوط الاستبداد.

ولقد نشأت فلسفة شوبنهاور نتيجة لما لاحظه من ميل المعتدين إلى فرض إرادتهم على إخوانهم في البشرية. فأعلن أن إرادة القوة هي أكبر شر في العالم. لأن العالم، كما بدا له، لا يدبر شئونه إله محب للخير، بل يتولاه شيطان خبيث. وهذا الشيطان، او قل روح الشر، قد فرض علينا الوفاء الشامل - هو إرادة قاهرة لنحيا، ونخدع ونسرق، ونقتل الآخرين في كفاحنا للرقي بحياتنا.

وقد عاش شوبنهاور شخصيًّا من سلطة البغي، فلم يذق مرارة هذه التجربة عندما دمرت أوروبا نفس، بل ذاقها أيضًا عندما أحبطت رغباته الشخصية. فقد حاول أبوه، وكان تاجرًا ناجحًا أن يقحمه في ميدان التجارة ليكون

تاجرًا مثله. ولكنه لم يطق التجارة. وفضل هدوء مكتبه على ضوضاء السوق.

وحتى بعد موت أبيه - منتحرًا كما كان الاعتقاد الشائع - لم يجد شوبنهاور راحة البال؛ إذ كانت أمه، التي اشتهرت بنبوغها في كتابة القصة، تشتعل غيرة جنونية من براعة ابنها الأدبية - وقالت في هذا الصدد متسائلة: " من ذا الذي سمع في وقت من الأوقات بظهور نابغتين في أسرة واحدة؟ " وتشاجرا وانفصلا ثم التأم شملهما، مرة بعد أخرى، إلى أن حدث في آخرة مرة أن دفعت الأم ابنها على درج السلم. (ولحسن الحظ لم يصب بسوء). فكان أن قذف الابن بهذه الإهانة المرة في وجهها. " ليس في أسرتنا سوى نابغ واحد فحسب. ولن تقوم شهرتك آخر الأمر على قصصك، بل ستقوم على فلسفتي ".

ولم تلتق لأم والابن بعد ذلك قط. وهكذا أصبح مقت شوبنهاور للسلطة وازدراؤه للنساء المادتين الأساسيتين اللتين بنى عليهما مذهب التشاؤم.

وفي أثناء سني دراسته الجامعية ازدادت حدة هذا المقت وذلك الازدراء، فكان ينفر من غطرسة أساتذته التي لا يحيدون عنها، كما كان الأساتذة بدورهم ينفرون من وقاحة تلميذهم التي لا يحيد عنها. وما إن وقع في الغرام حتى كان نصيبه الصد باعتباره " جلفًا يعوزه الخيال ". ثم حاول لفترة من الزمن أن يلعب دور المضيف مع جيرانه - إذ كان أبوه قد خلف له دخلا موفورًا - ولكن هؤلاء الجيران كانوا يتقبلون أنخابه وينبذون أفكاره. وهكذا ارتد إلى نفسه وحيدًا، مكتئبًا شاكًّا، ساخرًا، كالقنفذ الآدمي الذي كما ورد في استعارة شوبنهاور نفسه يبعُدُ عن الناس إلى الحد الذي يكفيه لاجتناب دفء صداقتهم، ويقترب منهم إلى الحد الذي يمكنه من وخزهم بأشواك سخريته.

" فالإنسان لا يصادقك إلا للحصول على شيء من ورائك. والصديق وقت الضيق ليس هو الصديق الحق - فإنه لم يلجأ إليك إلا ليقترض نقودك ".

وعاش شوبنهاور في وحدة قاسية. وكان يحكم بإغلاق كل باب للمحافظة على ماله وأدواته، كما كان يحلق ذقنه بنفسه، لأنه قال: " إنني لا أرضى أن أسلم عنقي لموسى رجل آخر ". ولم يَنَمْ ليلة من غير أن يحشو غدارته التي كان يضعها تحت وسادته. وكان يهزأ بالمحادثة ويعدها " نقنقة لا معنى لها ". كما كان لا يطيق أي نوع من الضوضاء. " فكلما ازداد احتمالك للضوضاء، نقصت درجة ذكائك ... الضوضاء تعذيب لكل من يعمل بعقله من الناس ".

ومع ذلك فقد كان هناك صوت واحد يتوق بجنون إلى سماعه - وهو صوت الثناء على فلسفته وامتداحها. ولكنه حرم هذه اللذة لسنوات عدة، ولم يكن لكتبه إلا وقع الريش على بحر هادىء. وبيعت الكثرة العظمى من مؤلفاته ورقا تالفا. فجرحت كبرياؤه جرحا عميقا نتيجة لهذا الإهمال والإغفال. ولكنه لم يعدم ردا سريعا يعلل به ما حدث. أو لنستمع إليه يقول: " ما الذي نتوقعه؟ إن الكتاب مرآة عقل القارىء، كما هو مرآة عقل الكاتب أيضا. فإذا نظر فيه حمار، فلا نتوقعن أن يظهر من صفحاته ملك ".

ولفترة قصية حاول أن يحاضر في فلسفته، وأن يكتب في الوقت نفسه، فقبل منصب محاضر في جامعة برلين. ولكنه كان يلقي محاضراته وليس أمامه إلا مقاعد خاوية.

وهكذا حنق على المجتمع وانتقل إلى " شقة " من حجرتين في فرانكفورت حيث قضى أكثر من ثلاثين عاما ينتشي أكبر النشوة بكشفه الغطاء عن عالم لا نشوة

فيه. ولم يكن له رفيق إلا كلبه - " متشائم آخر مثله - أطلق عليه اسم أتما ﷺtma - وهي كلمة هندية معناها روح العالم. أما أهل المدينة فكانوا يسمون هذا الكلب " شوبنهاور الصغير ".

وكان كلما وقعت أنظار الناس عليه وهو يمشّي كلبه. هزوا رؤوسهم قائلين: " هاهما ذان الفيلسوفان على أهبة الاستعداد ليعويا في وجه العالم ".

وهكذا قضى شوبنهاور الجزء الأكبر من حياته يفحص العالم خلال منظار عصره الملطخ بالدم. ولم يجد سوى خداع، وبغي، ويأس، وألم. وكان أن استخلص: " أن اليوم الذي نموت فيه أسعد من اليوم الذي ولدنا فيه. ولكن كم تبلغ سعادتنا منتهاها لو أننا لم نولد ألبتة ".

٣

قال شوبنهاور إن أكبر نكبة ضرب بها العالم هي إرادة الحياة. إنها إرادة عمياء لا ترجى منها فائدة. فحياتنا البشرية - والحياة كلها - إن هي إلا شيء لا قيمة له. والإنسان في جوهره مخلوق مزود بغريزة للكفاح. فنحن عبيد للحياة. ولما كنا مسوقين برغبتنا في الاستزادة من الحياة فنحن مدفوعون على الدوام إلى طلب مهلة للراحة بعد أخرى، وذلك دائما على حساب بعضنا البعض.

أما ما نسميه بالسعي وراء السعادة فما هو إلا جري غير معقول وراء الأوهام. فلن نصل أبدا إلى الهدف الذي نسعى إليه، إذ أن تحقق أية رغبة إن هو إلا عبور إلى رغبة جديدة. وكل نجاح يترك في أعماقنا شعورا مؤلما من السأم، أو قل فراغا عقيما يتطلب حافزا لمزيد من النجاح. وهكذا يصبح وجودنا كالخطار " البندول " يتأرجح استمرار بين ألم الرغبة وفراغ الإشباع. وليس أملنا

في السعادة إلا حلمًا. ومن المعروف جيدًا أن أحب شيء إلى نفوسنا هو الحصول على ما هو ليس في حوزتنا. وهكذا يظل الهدف بعيدًا عن متناول أيدينا.

وفي هذا العالم الذي يضم بين دفتيه أهدافًا وهمية ليس هناك إلا حقيقة واحدة - هي الألم. وفي فلسفة شوبنهاور تتحول دولة المثل الأفلاطونية إلى دولة مثال واحد - هو إرادة لا تهدأ للإصرار على حياة مليئة بالآمال الكاذبة، وليس في وسعنا أن نعلل النفس بشيء سوى شهوة لن تخمد، وقتال لن ينتهي إلى سلام.

ولن ينتهي هذا الكفاح والقتال حتى بالموت. فبالرغم من أن الفرد مآله الموت، إلا أن الجنس مقضي عليه بالاستمرار في الحياة؛ إذ أن كلاً منا جزء في وحدة الحياة الشاملة. واشتهاء الحياة أبدي.

وهكذا تسخر منا الإرادة العامة للحياة - خليقة الإله الشرير تسخر منها سخرية لا تنقضي، فتحثنا، قبل أن نموت، على إنجاب جيل جديد

ندفع به إلى شر الحياة: " إن العلاقة بين الجنسين إن هي إلا النقطة المركزية الخفية لكل عمل وسلوك. إنها سبب الحروب كما أنها غاية السلام ". وقد لوحظ أنه بعد كل حرب عظمى ترجح كفة نسل الذكور على الإناث - جيش معد للقتال في الحرب القادمة. " إننا نرى الدافع الجنسي - الإرادة للحياة والكفاح - تتربع على العرش وكأنها سيدة العالم بالوراثة، وتستخف بما نبذله من جهود عقيمة ضائعة لقيدها أو حصرها أو على أقل تقدير وقفها عند حد معقول ".

ويؤكد شوبنهاور أن شهوة تناسل النوع هي التي تربطنا بلا انقطاع بعجلة الحياة. وقد خدعتنا إردة الحياة فأخذنا نخلد بؤس الجنس البشري. " إذ تهب

الطبيعة المرأة ثروة من الفتنة - لبضع سنوات ثم تسلبها إياها بقية حياتها - وذلك حتى تستطيع المرأة خلال سني ريعانها هذه أن تأسر لب أحد الرجال فينهض بعبئها المبجل ... وبعدئذ نجد أنه كما تفقد أنثى النمل أجنحتها بعد تلقيحها ... كذلك تفقد المرأة جمالها بعد أن تلد عددًا من الأطفال ". فقد أدت كل من المرأة والنحلة رسالتهما.

وهكذا نجد أن الفرد العاشق إن هو إلا أداة طيعة تحركها الطبيعة. وما إن تبلغ الطبيعة هدفها يدفع شرذمة أخرى من المجندين إلى معارك الحياة، حتى تفتح عيون العشاق على المرارة التي يخلفها زوال الأوهام. فلن يعود الرجل بعدُ نصف إله خلاَّق، وإنما يصبح غولاً قبيحًا يسمى " الزوج "، وتتحول المرأة من ملك مجنح إلى " مخلوق ضئيل، ضيق الكتفين، عريض الردفين، قصير الساقين " يسمى " الزوجة ". " وهكذا يكتشف الفرد، بعد فوات الأوان، أنه كان ضحية الفدر الذي غرر به ". وتتفتح بصيرته وإذا بأنشودة غرامه قد أضحت عواء مريرًا. " فلو كان بترارك قد أشبع شهوته، لكفّ عن ترديد أناشيده ".

فليس للفرد، إذن، إرادة حرة " نعم إن كل إنسان يعتقد أنه مطلق الحرية حتى في أعماله الذاتية لكن ذلك وهم ... فقد علمتنا التجربة أننا لسنا أحرارًا، ولكننا خاضعون للضرورة، وأنه بالرغم من كل ما لنا من عزم وتأمل فلن نستطيع أن نغير من سلوكنا ... ولا بد لنا جميعًا من أن نتقمص الشخصية نفسها التي نمقتها ".

إنها شخصية في مسرحية ليس لنا عليها سلطان. ومحورها قصة عناء، وذلك لأن الألم هو موضوعها الأساسي. وكلما ازداد الإنسان ذكاء، ازداد ما يعانيه من ألم، " والعبقري الموهوب هو أشد الناس معاناة للألم ".

والحياة شر، لأن الحياة جهاد. فكل فرد " يقاتل لينتزع ما يملكه كل فرد آخر من مادة ومكان وزمان ". وتلك هي سنة الأحياء جميعًا. " ففي النملة الاسترالية رضي الله عنant ulldog خير مثل يوضح هذه الحقيقة - إذ أنها ما إن تنقسم نصفين، حتى تبدأ المعركة بين الرأس والذنب. فيعض الرأس بأسنانه الذنب، ويدافع الذنب عن نفسه فيلدغ الرأس. وتظل هذه المعركة قائمة حتى يموت كلاهما، أو يجرهما النمل الآخر بعيدًا ".

وإننا لنجد شهوة التقاتل هذه في كل الأنواع. حتى نصل إلى الجنس البشري. وعندئذ يتخذ القتال أبشع طابع جهنمي. فقد بلغت الإنسانية بجنون الحرب حدا يقرب من الكمال، دليلا على إرادة الحياة فينا، فالقتال سجال بين الرأس والذنب، بين الشقيق والشقيق، بين الأمة والأمة وإننا لمشتبكون في نضال متصل ليفني بعضنا بعضا.

والحرب هي الشر الأخير الذي توصلنا إليه إرادتنا غير المعقولة للحياة، لأنه يلخص كل الشرور الأخرى، وكل الفظائع، وكل آلام العالم، ومحال أن يكون بعد الموت جحيم يعادل جحيم الحياة. " وإلا فمن أين جاء دانتي بمادة جحيمه؟ إنه لم يجيء بها إلا من تجربتنا الواقعية هنا على ظهر الأرض " ز

وقصارى القول ليست حياتنا إلا مأساة ساخرة، فهي سخرية إذا بحثنا في تفصيلاتها، ومأساة إذا نظرنا إليها في مجموعها.

إذن، ما هو العلاج؟ أهو الانتحار؟ يجيب شوبنهاور عن هذا السؤال بالنفي قائلا: " إن القضاء الإرادي على حياة الفرد عبث وحمق، لأن النوع، أو الإرادة العامة للحياة، لا تتأثر به، وتظل كما تظل قوس قزح حتى ولو أسرعت نقط الماء التي يرتكز عليها وقتئذ إلى السقوط ".

أم عسانا نجد علاجًا لشر الحياة في انتحار الجنس، الذي هو نوع من النرفانا التي تمتص الإرادة العامة للحياة وتطويها في هدوء الموت

الأخير؟ حقًّا إن هذا لأمر مرغوب فيه لو أنه كان ممكنًا، كما قال شوبنهاور. ولكنه مستحيل. فليست هناك قوة على الأرض تستطيع وقف الحياة كلها. (ولقد سطر شوبنهاور فلسفته وآراءه قبل أن يجيء يوم القنبلة النووية. فلو أنه كان اليوم حيًّا. لرحب على الأرجح بحرب ذرية تشعل العالم نارًا، ثم يتلو ذلك ظلام).

فيقول شوبنهاور إنه ما دام انتحار الفرد أمرًا لا يحدث، وانتحار الجنس مستحيلا، فلعل هناك سبيلا ثالثًا وهو تقبل ما قدر علينا في حكمة وهدوء. وما هذه إلا محاولة فلسفية لكي ننظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية. وما دامت الحياة تجارة غير مربحة، فلنخمد أنفاس شهوتنا للتنافس وننم غريزة للتأمل العقلي. " فليس الطريق القويم هو الجهاد بل هو السكينة، وليس هو الثراء بل الحكمة ". فليكن اهتمامنا إذن بماهياتنا، لا بما نملكه. فكل منا أحد اثنين أو في وسعه أن يكون أحد اثنين: إما عبد إرادة متهورة، وإما سيد مشاهدة هادئة. وإنه لفي مقدورنا أن ندر عقولنا على كبح جماح إرادتنا. " إذ في وسع العقل أن يكون من إرادة الإنسان ما يكون اللجام والشكيمة من الجواد الجموح ".

فعليك بتنمية عقلك وتهذيبه، لا بالقراءة السلبية، ولكن بالتفكير الإيجابي، فمشكلة الكثيرين ممن يطلق عليهم اسم " المتعلمين " هي أنهم يقترضون أفكار الآخرين ولا تكون لهم أفكارهم الخاصة. " فما تعليمهم إلا نوع من امتصاص الفراغ ". ذلك أن إجداب عقولهم يسحب إلى الداخل جميع أنواع الآراء التي تظهر في محيطهم، الغث منها والسمين. " وهكذا تكون

النتيجة أنه إذا ما قضى شخص في القراءة السطحية العابرة وقتًا أطول مما ينبغي، فقد بالتدريج قدرته على التفكير ".

فلتقرأن كتبًا قليلة، بشرط أن تكون هذه الكتب أفضل ما يقرأ. ولتقرأن قبل كل شيء سفر الطبيعة. ولتكن تجربتك هي المتن، وقراءتك هي الشرح.

ومهما يكن من أمر فماضيك هو أحسن مرشد لك في مستقبلك ". وفي النهاية، لا بد أن يقف كل فرد بمفرده ". فإن نوع السعادة الوحيد الذي يمكن تحقيقه في عالم العناء هذا، هو أن تجد في دخيلة ذاتك القوة التي بها تحتمل هذا العناء.

ولتقف بمفردك متخذًا من الفلسفة ركيزة تستند إليها. ولتدرب عقلك على إخضاع إرادتك ولتجعل من ضبط نفسك رادعًا عن انغماسك في إشباع الشهوات والرغبات. " فالعقل غير الأناني يصعد كالرائحة الزكية فوق أخطاء عالم الإرادة وحماقاته ". وأفضل شيء يلي النرفانا، أو الرحيل الكامل من العالم، هو أن تقف جانبًا وتنظر إلى العالم نظرة موضوعية. فتعلم كيف تكون مشاهدًا لا ممثلا في مأساة الحياة. " فإن حياة الإنسان الحكيم ليست إلا مغامرة ينتقل بها من العناء الإيجابي إلى السكينة السلبية ... إن الإنجيل الذي أبشر به يستهدف السلام الذي يسمو على العقل، والهدواء الروحي الكامل، والطمأنينة العميقة .. عندما تمحي الإرادة وتخلد المعرفة وحدها ".

ونقصد بالمعرفة هنا معرفة القلب بصفة خاصة - أي تفهم الرباط الكائن بين نفسك وبقية العالم. فإن إنجيل شوبنهاور إن هو إلا صياغة حديثة للفلسفة

الهندية القديمة. وقد صرح شوبنهاور بقوله: " إنه ليس هناك مذهب أنفع وأجدى من مذهب الأوبانيشاد ". - مذهب التقبل الهادىء لما تعانيه نفسك من عذاب والتخفيف من حدة عناء الآخرين الذين ليسوا سوى امتداد لنفسك. " أيها الرفاق السجناء في جب الحياة، فليشفقنّ بعضنا على بعض ".

٤

وهكذا ينتهي الأمر بتشاؤم شوبنهاور إلى نوع من التفاؤل السلبي، إلى لذة عقلية نلتمسها في الخروج بأكبر فائدة ممكنة من صفقة خاسرة. فليست هي بفلسفة الأطفال، وإنما هي للكبار الناضجين.

مع أن شوبنهاور نفسه لم يبلغ مرحلة النضج الكامل، فقد كانت إرادة النقد عنده أقوى من رغبته في التأمل. وكان نقده يهبط أحيانًا حتى يصل إلى استخدام العنف البدني. كما حدث ذات يوم وهو يناقش خادمته أن دفعها خارج الغرفة. فسقطت في العراك وكسرت ذراعها، فكان أن طالبته بتعويض أمام القضاء وحكم لها به. واضطر أن يعولها - كما ظل يلعنها - بقية حياته.

لقد كان على وعي شديد بأخطاء الآخرين، لكنه لم يكن شديد الإحساس بأخطاء نفسه. وكانت لذته الكبرى أن يجلس في مكتبه

يدخن النرجيلة، تلك البدعة التركية التي كاد خرطومها المثنى يبلغ خمس أقدام من فمه حتى أرض الغرفة، وهو يحملق إلى تمثالين نصفيين لروحين يلائمانه. هما بوذا وكانت. ولم يكن يهيم حبًّا بأي مخلوق حي سوى كلبه أتما، حتى إنه قال في هذا الصدد: " إنني أكون على سجيتي أكثر ما أكون حين أكون بين أنصاف الآلهة أو بين كلاب. فهؤلاء وحدهم هم الذين لا تشوبهم نقائص البشر ".

وفي الحقيقة لم تكن سخرية شوبنهاور من العالم إلا صرخة تحدٍّ لهذا العالم الذي أنكر عبقريته. ولم يعترف العالم بقدر من فضله إلا في النهاية، عندما تقدم في شيخوخته، وكاد بصره وسمعه يذهبان وضاعت أسنانه، وخلا فمه إلا من اللثة، ولم تعد فيه شهوة لطعام أو رغبة في شهرة. فكان تقديرًا وثناء لرجل على حافة القبر. واعترف هو بذلك وابتسامة النفور تعلو شفتيه عندما قال: " هكذا بعد حياة طويلة ذقت فيها مرارة الإهمال وتفاهة التقدير، أجدني أزف إلى القبر يحوطني الحراس بين هتاف الأبواق ودق الطبول ".

وماذا عن بقية العالم؟ إنهم لا يزالون ينفخون في أبواقهم ويدقون طبولهم نداء للحرب، والمزيد من الحرب، التي هي إرادة جهنمية للغلبة، وكان عام ١٨٦٠، حين لم يكن يسمع ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا والولايات المتحدة إلا قعقعة السلاح. وهكذا نرى الإنسان ذئبًا للإنسان Lupus Homini Homo فالناس ليسوا بشرًا. وإنما هم ذئاب آدمية على أهبة الاستعداد لافتراس بعضهم بعضًا. ما دامت هناك إرادة التناسل، وحافز إلى القتل، وعاصفة الحياة وهدوء الموت.

هذا حق، ولكن الحياة، حتى حياة شوبنهاور، لم تكن إلا مغامرة مثيرة ... ألا يجوز أن يكون رسول التشاؤم مخطئًا؟ ألا يكون خيرًا للإنسان أن يحب ويفشل، ويحيا ويموت من كونه لا يحب ولا يحا ألبتة؟ انظر إلى ضحك الأطفال، وجمال الفن، ولذة الإخلاص، ونشوة الإدراك، وبعث الربيع، بعد موت الشتاء - ألا تعادل هذه الملاذ كل آلام الحياة وأكثر؟

نشوة الإدراك وبعث الربيع. ماذا لو جمعنا بين الاثنين ومزجناهما فقلنا: ميلاد جديد مع إدراك كامل؟ فلا نرفانا (موت أبدي)، بل حياة أبدية

Vita ﷺeterna ، ولعل شوبنهاور قد فاته أن يكتب الفصل الأخير من فلسفته، فقد قال إن حياتنا مسخرة إذا دققنا في تفصيلاتها، ومأساة إذا نظرنا إليها في مجموعها. ذلك صحيح حتى لحظة الموت، ولكن ماذا عن الفصل الأخير - عن إمكان الحياة بعد القبر؟ إننا إذا بهذا الفصل الأخير - الذي سلم به فعلا الكثيرون من أعلام الفلاسفة وسلم به مع التحفظ معظم هؤلاء الأعلام، لرأينا الحياة لا هي مسخرة ولا هي مأساة، ولكنها ملحمة.

إنها ملحة مجيدة من الأمل والرجاء ..

٧٠٥ الفصل الثاني والعشرون: هربرت سبنسر

الفصل الثاني والعشرون
هربرت سبنسر
(١٨٢٠ - ١٩٠٣)

فلسفة سبنسر هي كالجسر بين تشاؤم شوبنهاور وتفاؤل كانت، إذ أنه يبدأ كما بدأ شوبنهاور مؤمنا بعقيدة أن الحياة ليست إلا مأساة عقيمة. ولكنه ينتهي كما ينتهي كانت، معلنا أن هذا اللفظ الأخير قد لا يكون العقم بل الرجاء. " فهناك روح من الخير في الشر، وروح من الحق في الباطل " و" علة الكون المجهولة " هي قوة بناءة، أكثر منها هدامة. وهكذا يمر العالم بدورة متصلة من التطور والتدهور، ولكن كل تدهور يتبعه تطور آخر، فكل ليل هو فاصل بين نهار ونهار، وكل ربيع هو يقظة من نوم الشتاء، وكل موت هو مقدمة بعث في حياة جديدة.

٢

كان هذا الفيلسوف الإنجليزي صاحب القول " بأن الوجود إيقاع معاود الحدوث " سليل أسرة عرف أفرادها باستقلال العقيدة في الدين، وبفردية الرأي في السياسة. فكانوا يميلون إلى تكوين أفكارهم أنفسهم بدلا من تقبل أفكار الآخرين. ويحدثنا هربرت سبنسر عن أبيه الذي كان يعمل مدرسًا في إحدى المدارس الخاصة، فيقول: " إنه لم يخلع قبعته قط لأحد مهما كانت مرتبته ". وقد أورث ابنه ما كان يتميز به من استقلال ذاتي عنيد. فلم يخضع هربرت لأحد، ولا حتى لأبيه الذي رغب في إعطائه قسطا من التعليم

ليصبح مدرسا. فلما بلغ عامه الثالث عشر أرسل ليدرس تحت رقابة عمه الذي كان يعما أيضا مدرسا في مدرسة خاصة. ولكن هربرت لاذ بالهرب من فوره سيرا على قدميه من مدرسته في هنتون ` إلى بيت أبيه - وقطع هذه المسافة التي تزيد على مائة ميل في ثلاثة أيام. وطوال هذه الرحلة كان يعيش على الخبز والجعة: " إن هذا القوت عندي أفضل من نظام التغذية اليومي على اللاتينية واليونانية ". ولما اضطر إلى العودة إلى مدرسة عمه، مكث هناك ثلاثة أعوام، كانت هي جملة ما قضاه في تعليم منتظم حتى بلغ الثلاثين من عمره. حتى في أثناء تلك الدراسة لم يلتقط من العلم والمعرفة إلا فتاتا. وهكذا نجد أن " أعلم وأشهر فيلسوف في القرن التاسع عشر " لم يتلق أي تعليم منتظم.

ولم يكن تعليمه غير المنتظم إلا نتيجة بصيرته النادرة. " فقد كان يقظا أبدًا في تطلعه. كما كان لا يفتأ يوجه انتباه رفاقه إلى هذه الظاهرة أو تلك مما لا يكون قد لاحظها قبلئذ أحد سواه ".

وكان يهتم بوجه خاص بظواهر علم الحياة - أي ما يتم من تغييرات جسمية وعقلية في موكب الحياة. وكان هربرت سبنسر هو الذي صاغ هذه العبارات: " التنازع على البقاء " و" بقاء الأصلح " في عام ١٨٥٢ - أي قبل أن يظهر كتاب داروين " أصل الأنواع " بسبع سنوات.

ولقد ظهر مرارا أن تنازعه الشخصي على البقاء كان مقضيا عليه بالفشل، وكان أكبر أخوته السبعة والوحيد بينهم الذي اجتاز مرحلة الطفولة المبكرة حيا. ونشأ عليلا، قليل الرجاء في عمر طويل. ولما اضطر أن يعمل ميكانيكيا ليكسب عيشه أصيب في صدر رجولته بانهيار وإعياء بدني. ولم يعد قط

كما كان، فمنذ أواسط عمره حتى آخر أيامه كان كل ليلة يتناول فيها جرعة من الأفيون لتساعده على النوم.

ولنا فصل من عمله كمهندس ميكانيكي قرر أن يجرب حظه في الأدب. فاتجه جنوبا إلى لندن حثل حصل على منصب في هيئة تحرير مجلة الأكونومست عليه الصلاة و السلامconomist . وعندئذ قابل عددًا من صفوة المفكرين في لندن - كان من بينهم جورج هنري لويز وتوماس هكسلي ومريان إيفانز (المعروفة في عالم الأدب باسم جورج إليوت). فأغرم بالآنسة إيفانز وظل يرافقها فترة من الزمن - حتى صار الناس ينسجون القصص الخيالية عنهما ويتوقعون خطبة أو زواجا سريعًا. ولكن الشيء الوحيد الذي أنجبته هذه " العلاقة الغرامية " لم يتعد ملاحظة سبنسر الآتية التي ذكرها في سيرة حياته التي كتبها عن نفسه: " تتميز الرءوس عادة بما فيها من مواضع مفلطحة أو غائرة في جانب أو آخر منها، أما رأس الآنسة إيفانز فقد كان محددا في كل موضع منه ".

ومن ملاحظات أحد معارف سبنسر في هذا الصدد: " أن سبنسر يتميز بميله الشديد إلى الناحية العلمية إلى درجة تجعله قفرًا من العواطف الإنسانية. فشفتاه الرقيقتان الثابتتان أمام أي انفعال تثبتان انعدام الشهوانية عنده انعدامًا تامًّا، وعيناه اللامعتان تكشفان عن افتقاره إلى العمق العاطفي ". وكان يخضع كل شيء للقواعد الطبيعية أو الكيماوية أو الرياضية. فحدث مرة وهو شاب صغير أن فكر في الهجرة إلى زيلندة الجديدة حيث يمكنه أن يصادف " حظًّا أفضل تحت سماء أصفى ". وفي دقة علمية سطر كشفين من البنود - يضم أولهما الأسباب التي تبرر الرحلة ويضم الثاني الأسباب التي تقتضي إلغاءها - مقدرًا كل بند بمقدار رقمي محدود، فكان المجموع النهائي ١١٠ درجات في جانب إنجلترا

و٣٠١ درجة في جانب زيلندة الجديدة. ولكنه بالرغم من ذلك قر قراره على البقاء في إنجلترا، إذ لم تكن أوامر قلبه تتبع دائمًا إحصاءات عقله.

٣

كان هربرت سبنسر العلمي قناعًا جزئيًّا يخفي وراءه دفء عواطفه. فحدث ذات يوم بينما كان مسافرًا أن جلس في المركبة أمام عامل انهمك في تناول غدائه فأثار المشهد في عقله أول الأمر مجموعة من الأرقام العلمية - إحصاءات عن أجور العمال وأرباح الرأسماليين وتأثير ذلك كله على سائر العالم. أما الفكرة الثانية التي جالت بعقله فكانت نفورًا. " فإن الطريقة الوحشية التي كان يتناول بها العامل طعامه ملأت نفسي اشمئزازًا - اشمئزازًا دنا من الغضب ". وفي النهاية تحول غضب سبنسر إلى رثاء " إذ أنني قرأت على وجهه سيماء الهم الذي ابتلي به، فقد كانت سنوات من العذاب المسطرة عليه ... وبينما كنت أتمعن عينيه الحزينتين وأسارير وجهه المغضن بدأت

أدرك تمامًا حياة البؤس التي أنفق فيها عمره ".

هذا الجمع بين الفكر والعاطفة - بين الحياد العلمي، والاشمئزاز من بشاعة المعركة من أجل البقاء والرثاء لحال المعتركين فيها - كان هو الأساس الذي قامت عليه " فلسفة سبنسر التركيبية ". وكان يقصد بها أن تكون فلسفة كاملة للتطور، تبحث في طبيعة الوجود، وقوانين علوم الحياة، والنفس والاجتماع والأخلاق، والأساس المشترك بين المذاهب الدينية المتباينة في العالم.

وقد وضع سبنسر الخطوط الأولية لهذا الإنتاج الضخم العظيم وهو يعاني من مرض لم يبرح جسده فما إن انتهى من هذا التخطيط حتى راح أصدقاؤه يجمعون الاشتراكات مقدمًا، فقد اعتزم أن يصدر كتابه في أجزاء يظهر جزء منها كل

ثلاثة أشهر. وكان أن وافق ما يقرب من خمسمائة فرد في أوروبا ومائتين في أمريكا على تعهد المشروع الجريء والاسهام فيه. وكان مجموع قيمة الاشتراكات يدر دخلاً سنويًّا يبلغ حوالي ١٥٠٠ دولار - تكفي لتزيد سبنسر بضرورات الحياة. أما الكماليات، فلم يكن سبنسر في حاجة إليها: " إنني لا أظن أنها تستحق أي اهتمام، ولا يستحق الحرمان منها أي ضجر ".

ولكن بالرغم من ذلك، حتى هذا المقدار الصغير من المال - وهو مبلغ ١٥٠٠ دولار - ذاب كالملح وضاع بعد ظهور أول كتاب، إذ أن سبنسر حاول في هذا الكتاب أن يوفق بين العلم والدين - وهي فكرة أسرعت بإشعال نيران القتال بين المتطرفين من كلا الجانبين. فما كان من أنصاره إلا أن قبضوا أيديهم عن معاونته وأخذ عدد المشتركين ينكمش مع ظهور كل جزء جديد من الكتاب. واضطر سبنسر أن ينبش فيما ادخره من مال ضئيل لكي يمول مؤلفاته. وفي نهاية الأمر نفد ماله عن آخره. وفي الوقت الذي كان يتأهب فيه ليترك هذا المشروع الجليل، تسلم الخطاب الآتي الذي لم يكن يتوقعه من أحد منافسيه في عالم الفلسفة، ألا وهو جون ستيوارت ميل: صديقي العزيز ...

عند عودتي في الأسبوع الماضي، وجدت عدد ديسمبر من كتابك في علم الحياة، ولست بحاجة أن أذكُر كم ساءني أن أرى الإعلان المرافق للكتاب .. ومن رأيي أنه ينبغي أن تكمل بقية رسائلك وسأتعهد بدفع ما قد يتعرض له الناشر من خسارة ... وأرجو ألا تأخذ هذا العرض مأخذ المعونة الموجهة إلى شخص ... فإن هو إلا عرض بسيط للتعاون على غاية هامة، من أجلها تعمل وتنفق صحتك.

..... صديقك المخلص

..... جـ س. مل

ورفض سبنسر العرض السخي، فقد كان لا يزال مصمما على عدم المضي في هذا العمل - فجسمه قد برح به الألم، وعقله قد شتته الهم، ولكن جاءه في تلك اللحظة من مصدر آخر ما شدد عزيمته إذ علم أن المعجبين به من الأمريكيين قد اشتروا باسمه من سندات التأمين ما تكفي أرباحها لتغطية نفقات ما يعتزم إصداره من كتب.

فتقبل هذا العرض، وظل يتابع كتابة " الفلسفة التركيبية " لأربعين عاما. وفي خلال قيامه بهذا العمل كان يتنقل من نزل إلى نزل حاملا مخطوطاته. وبعد أن حاصره المرض وأنهكه كان يبلغ به الهزال في بعض الأحيان حدًّا لا يستطيع مع أن يستمر في الإملاء أكثر من بضع دقائق كل مرة. وأضحت رياضته البدنية مقصورة على المشي من آن لآخر مسافة مائتين أو ثلاثمائة ياردة - وهي أقصى ما كان في وسعه أن يقوم به - ثم التنزه لمدة خمس عشرة دقيقة في عربة ذات عجلات من المطاط. وبعد أن ينقضي نهاره " بأقل ما يمكن فيه من عمل وأكثر ما يمكن من عذاب" كان يعتبر ليلته طيبة إذا أمكنه بعد تناول جرعة قوية من الأفيون، أن يستمتع بثلاث أو أربع ساعات من النوم المتقطع.

ووسط هذا الخضم من العقبات الشائكة، والأمراض المنهكة، أقام سبنسر خطوة فخطوة بناء فلسفة التطور - تطور المادة من الذرة إلى النجم، وتطور الحياة من الأميبا إلى الإنسان.

٤

وفلسفة سبنسر علمية باردة؛ إذ يعوزها الدفء العاطفي والشاعري. فهي أشبه ما تكون بانعكاس ضوء الشمس على محيط قطبي. ومع ذلك فإن وهجها

البارد نفسه هو الذي يبعث نورًا صافيا على لغز الوجود دون أن يعتمه ضباب الميتافيزيقا.

يعتقد سبنسر أن الوجود كله يسير سيرة متصلة من التطور. وأن كل عملية في الكون (وفي العقل كذلك) ستنتهي إن عاجلا أو آجلا إلى قوانين ميكانيكية تفسرها. ويحدثنا سبنسر أنه في سني حياته المبكرة كان يهتم بطريقة تركيب الساعات وظل يلازمه هذا الميل والاهتمام طوال حياته. فكان يرى الكون يدور حول محاور عجلات الساعة الكونية. وقد وصف هذا الدوران، أو قل التطور، بكل تفصيلاته الدقيقة - فيما عدا جانبا هاما واحدا، عجز عن تفسيره، إذ لم يعرف كيف امتلأ زنبرك ساعة الكون لأول مرة.

ولكنه الرغم من ذلك قدم لنا سببا منطقيا لعجزه عن تفسير أصل العالم. فقال: " إن هذا الأصل مجهور محال على المعرفة، وما هو محال على المعرفة محال على العقل تصوره ". فالمؤمن بالله شأنه في ذلك شأن الملحد لا يستطيع أي منهما أن يثبت دعواه بالدليل. فإذا كان الله قد خلق العالم، فمن الذي خلق الله؟ وإذا لم يكن أحد قد أوجد العالم، فكيف تعلل خروج العالم إلى حيز الوجود؟

فيجب علينا، إذن، أن نعترف بقصورنا العقلي ونمسك عن التوسع بأفكارنا حتى نجاوز بها حدود ما يتمكن معرفته. ويلاحظ سبنسر أنه ليس من حقنا أن نسمي أنفسنا مؤمنين أو ملحدين. فما نحن إلا (لا أدريون) - أي لا ندري. " فالأفكار العلمية النهائية إن هي إلا تصويرات للحقائق التي لا يمكن إدراكها ... وفي كل مناحي الحياة نجد أن البحوث التي يقوم بها العلماء توقفهم وجها لوجه أمام لغز مبهم لا حل له يزدادا تعقيدا كلما حاولوا إدراكه بوضوح، فيدركون في الحال عظمة العقل البشري وضآلته - قدرته على بحث كل ما يقع في مجال الخبرة، وعجزه عن بحث كل ما يجاوز مجال الخبرة ".

وهكذا تخلى سبنسر عن كل ما هو مفارق - أي الأسرار المبهمة خارج حدود الخبرة - وكرس نفسه لبحث الواقع. وأقام فلسفته على دعامة الدليل العلمي المحدد لأعلى فروض اللاهوت غير المحددة. ففيما يتعلق بهذه الفروض عن السر العظيم الذي هو علة الوجود الغائية، " فإن العالم أكثر من أي فرد آخر يعلم حقا أنه لا يعلم شيئا ".

أما في ميدان ما يمكن العلم به ففي وسع العلماء أن يجولوا كما يشتهون. ويتعقب سبنسر خطى العلماء إلى الحافة القصوى من هذا الميدان - فتراه يحقق، ويصنف، وينسق وينظم كل ما تحويه التجربة الإنسانية ليضمها تحت لواء مذهب فلسفي عام. وقد حدد سبنسر الفلسفة بقوله: " إن الفلسفة هي المعرفة موحدة توحيدا كاملا ".

ويقول سبنسر إن هذا التوحيد يقوم على مبدأ شامل - هو إيقاع الحركة في عالم من المادة - إذ أن الوجود كله توقيعي الحركة. فالمد والجزر، وتعاقب الفصول، وظهور الأجناس والشعوب وفناؤها، واهتزاز أوتار الكمان وضربات القلب، ودورة الدم ودورة الرياح، ودورة الكواكب والنجوم - هذه كلها إن هي إلا بضعة أمثلة من نبضات الكون التي لا نهاية لها. وهذا النبض الأزلي ينظم ظواهر الوجود في معاودتها الحدوث بما يتفق ونظرية التطور والتدهور. ويلاحظ سبنسر: " أنه إذا ما بحثنا التاريخ الكامل لأي شيء وجدنا أنه يتألف من ظهور ذلك الشيء من الخفاء وعودته إلى الخفاء ". فمن السدم تنبثق كتل من اللهب، تتطور إلى مذنبات وشهب ونجوم وكواكب، ثم تنتظم هذه الأجرام الفردية في مجموعات وأبراج ومجرات وعوالم إلى أن تندمج

في تناسق سام من الحركة والنور. ويؤكد سبنسر أنه بتطبيق القانون نفسه فإن جميع الكائنات الحية تخرج من التراب. وتتطور إلى أسماك وطيور وحيوانات وبشر، ثم تنسق الأفراد في أسر وعشائر وطبقات دول، إلى أن يتآلفوا في النهاية في اتحاد تعاوني لعالم متحد.

ولنكتف بهذا القدر فيما يتعلق بتطور قانون الإيقاع في عالم من مادة، غير أن التطور يعقبه التدهور. فمن الكائنات المفردة إلى تجمعات، ومن التجمعات إلى كائنات مفردة مرة أخرى، من الموت إلى الحياة، ومن الحياة إلى الموت. أنت من التراب وإلى التراب تعود. وإن هذا ليصدق على العالم صدقه على الإنسان. فكل كائن عضوي إلى التحلل. وكل نجم سيتحلل إلى رماد. كل إنسان وكل شعب بل كل جزء من الأعمال العظيمة التي أنتجها الجنس البشري مصيره إلى زوال: فما الميلاد إلا تمهيد للقبر.

ولكن - وهنا نجيء نعمة الرجاء في فلسفة سبنسر - عملية الإيقاع النغمي قائمة إلى الأبد. فبعد أن تكتمل دورة، تبدأ دورة أخرى. وما حياة وموت أي فرد، أو كوكب، أو عالم، إلا فصل واحد في مسرحية الوجود، لا المسرحية كلها. وفي بناء هذه التمثيلية المنغوم يتبع النهار الليل في اطراد ثابت كما يتبع الليل النهار. وإن تجربتنا لتبلغ نهايتها عند باب السر العظيم، سر التحلل والموت. ولكن " هناك حقيقة كائنة وراء حدود تجربتنا ". فيذهب سبنسر في طبعة أخيرة من كتابه إلى أن ماهية العالم " محال تصورها تصورا كاملا بالحدود العلمية وحدها ". فوراء كل هذا لا بد من قوة غامضة يستحيل إدراكها - " علة مجهولة تولد إيمانا معينا داخل ذواتنا ". إيمان لا

يقتصر على الإيقاع النفسي في معاودة الحدوث، بل هو كذلك إيمان بالتبرير النهائي للوجود. فكل تحلل
إن هو إلا خطوة إلى تطور جديد، أما الإجابة النهائية عن لغز الكون فلا نجدها في موت أبدي وإنما هي في أبدية الحياة.
٥
ويرتبط تطور الأخلاق - أي التطور التدريجي لمجتمع مثالي - ارتباطا وثيقا بتطور الحياة في فلسفة سبنسر، ففي مثل ذلك المجتمع يرى سبنسر أنه لن يكون هناك أي حديث عن مزج الأثرة والإيثار في مقومات الأخلاق عند الإنسان. ولن ينشأ إشكال يتعلق بحقك في اللذة منسوبا حقي في السعادة إذ ستقوم بين الناس معايير مطلقة للسلوك تصدق على الناس جميعا، في كل الظروف، وفي جميع الأحيان.
ولن يهدف أحسن السلوك إلى السعادة - التي ليست إلا مجرد " مسايرة " للحياة نفسها وتعميقها بكل ما لها من " طول وعرض واكتمال ".
ويتفق سبنسر مع كانت في أن القوة التي تهدينا إلى هذا المثل الأعلى هي حاسة خلقية فطرية. فخلال تنازع الجنس البشري على البقاء لآماد طويلة، طور خصائص تميزه - هي ردود الأفعال الغريزية على البيئية ليتمكن بذلك من البقاء. فأصبحت هذه الرودو تدريجيا تعد سلوكا حسنا فالعمل الصالح هو ذلك الذي يؤدي إلى بقاء الحياة، أما الطالح فهو ذلك الذي يقضي إلى الموت.
وفي المرحلة المبكرة من تاريخ البشرية - ولسوء الطالع أننا لم نخرج بعد من هذه المرحلة - كان الناس يجدون في القتل ضرورة لازمة لحياتهم. فكان ينظر إلى القسوة على أنها شجاعة، والانتقام فضيلة، والقتال أشرف مهنة يمارسها الإنسان. ولكن شيئا فشيئا لاح للعقل البشري أنه من الأسهل أن يحيا خلال العون المتبادل بدلا من العداء الفردي. وهكذا خرجت فكرة العدالة إلى
الوجود " إن فكرة العدالة لا تنمو ولا تزدهر إلا بمقدار ما تقل الخصومات ويزيد التعاون بين أفراد المجتمع ". وكان من نتيجة ذلك أن حلت مبادىء السلام محل شعارات الحرب في بعض العقول المتقدمة. وخفت حدة العبودية بأن تحولت إلى خدمة، والطاعة إلى ولاء، والإباحية إلى مباح، والجرأة في الإقدام إلى حرية، وصبت فكرة الحرية البشرية في تصور جديد. " فكل إنسان حر في أن يفعل ما يشاء، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع حرية إنسان آخر يتساوى معه في ذلك الحق ".
والناس جميعا متساوون في حرية استغلال مصادر ثروة الأرض المادية. وكل فرد يعمل بحسب قدرته، وكل فرد يأخذ بحسب استحقاقه، لا بحسب حاجته. وأن سبنسر ليصر على الرأي " فالفائدة لا بد أن تتناسب طرديا مع الاستحقاق - الاستحقاق الذي يقاس بالصلاحية (للبقاء). وعلى ذلك يجب أن يعاني غير الصالحين من إصرار عدم لصلاحية، ويجب أن يفيد الصالحون من صلاحيتهم ". ويعترف سبنسر أن هذا قانون أخلاقي يقوم على أساس العدالة أكثر مما يقوم على الرحمة. ولكنه يصر على أنه القانون الأخلاقي الوحيد الذي يمكن تطبيقه في مجتمع يقوم على تنازع لا نهاية له على البقاء. " فلو حدث أن تناسبت الفوائد مع الكفاية بين الصغار، لانقرض النوع في الحال، كذلك الأمر لو لم تتناسب الفوائد مع الكفاية بين الكبار، لانقرض النوع نتيجة الانحلال والفساد بعد بضعة أجيال ".
وهذا ما دعا سبنسر أن يقترح قانونا جديدا للأخلاق - هو الرحمة بالصغار والعدالة بين الكبار. وهو قانون لا يصلح لجماعة واحدة فقط، بل يصلح لأسرة الجنس البشري كلها. ففي هذه الأسرة البشرية يستمتع كل طفل بحقه
في الحماية الحانية، وكل بالغ سليم البنية بحقه في المنافسة الشريفة. ولنساعد العجزة، أما الباقون فلنعطهم الحرية ليساعدوا أنفسهم من غير أن يعتمدوا على حرية إخوانهم في البشرية.
والأسرة البشرية تهدف بفطرتها إلى العدالة الاجتماعية. والشعور بالواجب حافز على العون المتبادل - الذي هو القاعدة التي يقوم عليها بقاء الجنس البشري. وإن تطور المجتمع " ليصوغ الطبيعة البشرية آخر الأمر في صورة نرى فيها كيف يسعى الناس تلقائيا إلى اللذائذ العاطفية سعيا من شأنه أن يحقق أكبر فائدة ممكنة للجميع ". وعندئذ لن يكون هناك إلا قانون واحد للأخلاق، واتحاد عالمي واحد، ومذهب شامل واحد يقوم على الحقيقة التي نراها في صميمها ماثلة في جميع الأديان العظمى التي يؤمن بها الجنس البشري.
٦
وما إن أخذ الناس في بطء أول الأمر يتداولون فلسفة سبنسر في العدالة المؤسسة على التطور حتى ذاعت إبان حياة سبنسر. فنقل

كتابه إلى معظم اللغات الأوروبية. واطمأن باله ماليا بما دره عليه بيع الطبعات المختلفة منه. وانهالت عليه الدعوات لمقابلة علية القوم، ولكنه كان يأبى تلبيتها بدون استثناء. ولنستمع إليه يقول في هذا المقام: " إن الإنسان في حديثه أقل منه في كتبه لأنه يضع في كتبه أروع الأفكار. أما حديثه فلا يشتمل إلا على الآراء اليسيرة ". ولم يكن يجتمع إلا بعدد قليل من الأصدقاء. وكان إذا أصر بعض الغرباء على التحدث إليه، سد أذنيه، وتظاهر بالإنصات تعلو شفتيه ابتسامة هادئة.

ولكنه لما تقدمت به السن امتزجت ابتسامته بشيء من المرارة. ثم أفل نجمه

وتقلصت شهرته عندما دنت نهايته إذ حمل رؤساء الأديان على " موقفه ضد الدين "، ونقد الاشتراكيون " ميوله الرأسمالية "، في حين هاجم أنصار الحروب دعوته ضد الحرب. وهجره مريدوه الواحد بعد الآخر. وهكذا أصبح في أواخر أيامه وحيدا تثير وحدته الشجن، كما كانت حاله في بدء حياته. وبالرغم من ذلك، فإنه قبيل أن يموت أخذ يسائل نفسه قائلا: " هب أنني كنت على علم بكل ما سيلاحقني من إخفاق ... ومن مرض عضال، عندما بدأت عملي، فهل كان هذا يثبط من عزيمتي على مواصلة العمل؟ " وأجاب عن السؤال الذي وجهه إلى نفسه في غير تردد وفي شجاعة بقوله: " لا ".

الجزء السادس

فلاسفة أوربيون محدثون

بياض بالأصل

٨ الجزء السادس: فلاسفة أوربيون محدثون

٨٠١ الفصل الثالث والعشرون: فردريك ولهلم نيتشه

الفصل الثالث والعشرون

فردريك ولهلم نيتشه

(١٨٤٤ - ١٩٠٠)

١

قال اللورد بيرون عن روسو إنه حوّل الجنون إلى جمال. وهكذا يمكن أن يقال عن نيتشه: غن حوَّل الجمال إلى جنون. فقد كان نيتشه متنبئًا مجنونًا، ومؤسس دين جاهليا ليس له إله. إذ كان يزهى بنفسه قائلا: " إنني أتقى من جميع من لا يؤمنون بالله ". وأخذ فلسفة التطور الباردة وأضرم فيها النار. فنتج بهاء يثير، ويضايق، ويعمي، شأنه في ذلك شأن الشمس إذا ما ركزت بصرك عليها مباشرة. ومثل الشمس أيضًا كانت فلسفة نيتشه، تسبب الجرعات المفرطة منها مرضًا خطيرًا.

كما حدث فعلا أن ألهبت الكثيرين من تلاميذه فأصيبوا بحمى الدعوة للحرب.

وإذ ما توخينا الدقة، فإن نيتشه لم يكن فيلسوفًا وإنما كان شاعرًا، بل قل كان واحدًا من أخصب شعراء النثر خيالا في القرن التاسع عشر. فلم يتقدم بمذهب محدد، كما أن أفكاره كانت تحتوي من المفارقات ما يجعلها غير منطقية، ومع ذلك فمن بين مبالغاته ومتناقضاته المتشابكة تخرج تركيبة من السم الذي كاد يفتك بالجنس البشري على أيدي تلاميذه.

ولكن يجدر بنا قبل البحث في فلسفة نيتشه أن نلقي نظرة على نيتشه الرجل.

٢

إن مغامرة نيتشه الجنونية في عالم الفلسفة لتعزى من بين ما تعزى إليه، إلى خيبة أمل في مغامرة حبه فهوى عقله البالغ الحساسية في هوة سحيقة، عندما نبذته المرأة

التي كان يرغب في الزواج منها. ولم يستطع جسمه الواهن أن يكبح جماح إرادته المتهورة أو يشبعها.

ولد في عام ١٨٤٤ في بروسيا - وكانت قطرًا صغيرًا يتوق في غير ما مسوغ، مثل نيتشه، إلى أن يحتل مركزًا عظيمًا. وفقد أباه، الذي كان من رجال الدين، هو لا يزال طفلا. فتولت أمه تربيته وأرضعته بلبنها الروحي؛ من تعصبها لمذهبها. فسار هو على نهجها يتمسك بالمذهب في تزمت إلى أن بلغ التاسعة عشرة من عمره.

وبعدئذ تأرجح " البندول " من النقيض إلى نقيضه. فخرج نيتشه على مألوف العقيدة، ولكنه احتف بتعصبه. واتخذ موقفًا عدائيًّا شديدًا من المسيح. وتصور أنه قد قدر له أن يكون " مسيحيًّا مضادًّا للمسيح ". وكان قد قرأ كتاب شوبنهاور عن " العالم كإرادة وفكرة "، فقر قراره على أنه كما كان يوحنا المعمدان مبشرًا بعيسى، فإن شوبنهاور هو المبشر بنيتشه.

وذلك لأن فلسفة شوبنهاور التي أساء تفسيرها - كما سنرى فيما بعد - قد نقلته إلى حالة من النشوة والذهول مجد فيها نفسه: " إنه ليبدو لي أن شوبنهاور كان يخاطبني أنا ... وفي هذا الكتاب رأيت طبيعة نفسي صورة في جلال مخيف ". وبدأ يرى في نفسه واضع أصول دين جديد هو دين الكراهية الذي يقابل دين المحبة الذي نادى به المسيح.

ولما بلغ الثالثة والعشرين انخرط في سلك الجندية. ولكن الحياة العسكرية كانت مجهدة له إلى حد بعيد، فلم يقو على احتمالها، وسرعان ما أخلى سبيله. ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا قدَّس الجندية - باعتبارها رمز القوة التي كانت تعوزه -. " أحسست للمرة الأولى أن أسمى إرادة للحياة لا تعبر عن نفسها في التنازع التعس من أجل البقاء، وإنما في إرادة القوة، إرادة السيطرة، إرادة القتال ".

وهكذ أخذ التلميذ الشاب لشوبنهاور يشوه تعاليم أستاذه. فقد سبق أن قال شوبنهاور إن ما بنا من بغي، وأعني إرادة الحياة، هي أكبر نكبة نكب بها العالم. أما نيتشه فيصرح أن هذا البغي، هذه الإرادة للقتل من أجل الحياة، هي أنبل هدف في العالم.

إن الإنجيل الجديد الذي بشر به نيتشه يمجد الإقدام حتى نبلغ القمة، ولكننا نجد أن طموحه الشخصي نحو هذا المجد قد خنقته حياة القعود. ولما شغل منصب أستاذ الأدب اليوناني القديم في جامعة بازل ازداد تمسكًا بفلسفته الشيطانية مستندًا إلى القانون الإسبرطي الذي يدعو إلى الاعتداء الحربي وينادي بأن قوة التدمير هي الهدف الأعظم في الحياة.

وكانت تشغل باله فكرة العظمة والجلال. ولكن بالرغم من كلماته المتألقة عن نفسه، فإنه لم يجد أي جلال في أعماق روحه. فأخذ يبحث حواليه عن بطل يتخذ منه نموذجًا يحتذيه. وفي تلك اللحظة عثر في ريتشارد فجنر على هذا البطل المنشود. ووجد في موسيقى فجنر الصارخة روحا تماثل روحه. ولو طلب إلى أنصار فرويد أن يحللوا هذا الموقف لكان من المحتمل أن يعزوا عبادة البطل هذه إلى عقدة النقص عند نيتشه - ألا وهي رغبته في أن يصور نفسه كإنسان أعلى (سوبرمان) نتيجة عجزه عن أن يكون إنسانا فيه طبيعة الإنسان.

وظل يدور في فلك فجنر مدة من الوقت. ولكنه لم يلبث أن تركه حانقا، عندما " أذعن فجنر لما في المسيحية من انحلال " في مؤلفه Parsfial - وهذه هي لكلمات التي استخدمها نيتشه في هذا الصدد، إذ أن هذا النوع من " الورع والرحمة " لم تكن تحتمله روح نيتشه المعادية للمسيحية ".

٣

وبعد ذلك خاب أمله حبه، وتدهورت صحته الجسمية والعقلية جميعًا. وما إن تحسنت صحته قليلا حتى ازداد تعصبًا عن ذي قبل. ثم رحل إلى إيطاليا لكي يسترد صحته، ومن إيطاليا انتقل إلى جبل الألب، ومن الألب انغمس في عالم من شطحات الوهم خلقه خلقًا، وقد اتخذ من النبي الفارسي القديم (زرادشت) شخصية يعبر بلسانها عن فلسفته الجديدة.

وهنا للمرة الثانية نجد أن نيتشه قد حرّف المعنى الذي قصد إليه معلمه. فزرادشت قد صور العالم مسرحا للتنازع بين الخير والشر. " ولا بد أن يسود الخير ". أما نيتشه فكان ينظر إلى العالم على أنه بيمارستان لا تقاس فيه الأفعال بمعايير الخير والشر، أو مكانٌ يتحكم فيه جشع السادة في حاجة سواد الناس. وبينما كان زرادشت يضم الإنسانية بين جنبات حبه الشامل، ترى نيتشه يدخلها في كرهه الشامل.

ولم يكن كتاب نيتشه " هكذا قال زرادشت " إلا حلمًا من الأحلام المتطرفة الخيال التي تسجلها العقول المختلة - وكما اعترف نيتشه: " أنها روح طغت على كل ما يحدها ". وفي غرور عظمته الموهومة قال في زهو: " إنه مؤلف فريد. فلنمتنع عن ذكر مؤلفات أخرى إذا ما تحدثنا عنه. إن العالم لمن يشهد كتابًا كهذا ".

وحقًّا إنه لكتاب فريد. إذ يفيض بالعاطفة بدلا من أن يكون مليئًا بالفكر. ولقد دفع العقول المضطربة المستبدة نحو جنون العظمة لأنفسهم على حساب العالم. ولنستمع إلى نيتشه ينادي قائلا: " عش مغامرا .. عش في حالة حرب دائمة .. " فإن من يرد لنفسه السيادة عليه أن يهدم القيم القديمة هدما.

فقد ماتت الآلهة القديمة - بل قد أضحكوا أنفسهم حتى الموت. وليس هناك إله جديد يحل محلهم. اللهم إلا السوبرمان (الإنسان الأعلى). " والإنسان الأعلى هادم لا خالق ". وهو لا يلتزم إلا بواجب واحد - هو العزم على ألا يكون رحيما. فهذه هي أخلاق السادة التي يقابلها في الناحية الأخرى أخلاق العبيد.

نعم إن العبيد لا ينبغي لهم أن يعيشوا إلا لكي يستغلهم السادة. ويجب أن تفنى كثرة الناس ليحيا الإنسان الأعلى.

إن فلسفة نيتشه ليهتدي بها الحكام المستبدون الذي يرون أنفسهم خلال مرآة مكبرة. فتراهم يرفعون أنفسهم فوق هامات العالم كله. وينظرون إلى أنفسهم وكأنهم سوبرمان نيتشه - أو قل كانهم ضواري الرجال الذي يقفزون فوق قمم الجبال ثم ينقضون على فرائسهم من " القطعان الأضعف منهم " في الوديان وعلى سفوح الجبال.

ولم يكن نيتشه في فورة خياله على وعي بما هو محدثه من ضرر. ويبدو أنه كان أشد رغبة في أن يثير الفزع منه في أن يهدي، فتراه في رده على الحالمين بالمثل العليا الذي كانوا يؤكدون أننا قد أخذنا من الحروب نصيبًا أكبر مما ينبغي، يقول هو " إننا قد أخذنا من السلام قسطًا أكبر مما

ينبغي ". " فلن ينشب من الحروب ما يكفي لتقوية أرواحنا ". وقد أكد نيتشه في تناقض ظاهري أن الإنسان يجب أن يكون متفوقا في الشر حتى يستطيع أن يكون متفوقا في الخير. أو في عبارة أخرى حتى يكون متفوقا في قوة سيطرته وسيادته. " هل تنفي تعاليمي كل ما لديكم من حقائق؟ إذن فلتتحطم هذه الحقائق .. كذا قال زرادشت ".

قال نيتشه إن التاريخ كله يسير مدفوعا بإرادة الظفر خلال قوة لا تعرف الرحمة. فالإرادة تقول: " هكذا أردت، وهكذا أريد .. لا تكن لينًا مع جارك " إن القسوة هي مبدأ الحياة الأول. فالحيوان يقاتل ليتطور إلى إنسان، والإنسان يجاهد ليتطور إلى إنسان أعلى. ولا يهدف كل مخلوق إلا إلى الارتفاع والصعود فوق أجساد إخوانه في البشرية. فإن عذاب الكثرة ضروري لانتصار القلة. ولا يمكن الحصول على هذا لنصر إلا عن طريق أعمال حربية عدوانية - هي القتال الذي يشنه الحيوان الأكبر على القطيع العادي، أو قل القتال بين الإنسان الأعلى (السوبرمان)، وبين السواد " المهلهل المتهافت " من عامة الناس، إذ أن أنبل عمل في العالم هو شن الحروب. " فيجب أن نعد الرجل للحرب والمرأة للترويح عن المحاربين. أما ما عدا ذلك فحمق وضلال ". ويناضل نيتشه بقوله إن هذا الرأي ليس نقدا للدين، ولا هو تشهير بالأخلاق. وما هو إلا وصف للحقيقة صريح جاف - الذي هو تنازع الأبدي من أجل البقاء والغريزة التي لا تخمد او تموت سعيًا وراء القوة والسيطرة. " وما هي الروح التي تبلغ أعلى درجات السمو؟ إنها الروح التي تبلغ أقصى درجات الأثرة .. فيجب أن يرتفع إلى الذرى أولئك الذين هم أقدر الناس على أن يجعلوا الآخرين موطئًا لأقدامهم .. هكذا قال زرادشت ".

وتكرر " كلمات زرادشت " هذه، في صيغ مختلفة نوعا ما، خلال جميع كتب نيتشه الأخيرة. ولما كان لا يستطيع أن يواجه ضوء النهار بسبب حساسية عينيه البالغة، فقد اعتزل في حجرة فوق السطح وأسدل ستائرها. وفي هذا الجو القاتم المظلم ظل يخمر جرعة الشراب الذي وصفته له الساحرات في حلمه. ولم تكن غاية هذا الحلم إلا " هدم الأخلاق القديمة " و" بناء الفساد الجديد ".

فقوة طبقة السادة والقادة (ﷻie (Herren تتجلى في طموحهم وغلظة قلوبهم وكرههم. أما ضعف طبقة العبيد (ﷻie (Herden فيظهر في رأفتهم وكرمهم وحبهم.

ونلاحظ أن فلسفة نيتشه كانت قد كرست لدعم الرأي القائل إن القوة هي الحق الوحيد. وهكذا يقترح " قلب جميع القيم " فيحول النور إلى ظلام، والعدالة إلى مهزلة. " فكل ما هو صالح للسيد، صالح للعالم ". وينادي نيتشه بأن " فضيلة الشر " التي يتميز بها الأقوياء يجب أن تصبح عبئا يتقبل الضعفاء حمله. " وينبغي أن تنحني مبادىء الأخلاق أمام تفاوت الناس في مراتبهم ". ولذا يجب أن يكون طموح الإنسان الأعلى هو المعيار الأخلاقي في العالم.

فمن الواجب على الإنسان الأعلى أن يقوي نفسه ويثبت عزمه حتى لا يصبح لينا أو ضعيف الإرادة. كما يجب أن يكون هدفه دائما " أن يصبح أفضل وأكثر شرًّا " - وأن يرتد إلى " القسوة التي كانت تقوم عليها البهجة والسرور العظيمان عند الإنسان القديم ". وما هذه

السعادة القاسية التي يتميز بهال الإنسان الأعلى - مثل سعادة نابليون، ذلك الباغي الذي كان أحد من نالوا إعجاب نيتشه السامي - هذه السعادة " إن هي إلا أكبر نعمة يمكن أن تحل بقطيع الجنس البشري التافه ".

" فليس الهدف هو الجنس البشري وإنما هو الإنسان الأعلى ". والعالم كما رآه نيتشه بعينيه العليلتين هو معمل ضخم ينبغي أن تباد فيه أطنان من النفاية لكي تنتج أوقية من الذهب. فلا تحمينّ سواد الناس، ولا تساعدنَّ أوساطهم، ولا تشفقنّ على السفلة. " فهؤلاء جميعًا هم الذين تنفق حيواتهم في تجربة الطبيعة

التي تقوم بها للحصول على الأفضل ". أو قل السماد اللازم لتخصيب التربة لكي " يمكن لبذرة الإنسان أن تزدهر وتثمر الإنسان الأعلى ".

فلتغرب عنا، إذن، " ميوعة " المسيحية، هذا المذهب " المثبط " الذي ينادي بأن للناس جميعًا حقوقًا متساوية. فالدهماء يستاوون في أداء واجب واحد - ألا وهو الامتناع عن الثورة ضد سادتهم، وتركهم " أحرارًا، في براءتهم الوحشية، من كل كبح اجتماعي ".

ولكن براءة الوحوش الضارية الأرستقراطية التي يتميز بها الإنسان الأعلى يعرضها انتشار الديمقراطية للخطر، كما اعترف نيتشه خائفًا منذرًا. حتى إنه أطلق على الديمقراطية اسم " الجنون اليهودي المسيحي "، لأنها تعامل كل الناس سواسية. إننا يجب أن نمحو هذه الفكرة المسيحية الديمقراطية قبل أن يفوت الأوان.

ومما يبعث على الرثاء أن الطغاة الذين اتبعوه آمنوا بتعاليمه. فحاول أولئك المشوهون صغار الأجسام المصابون بمرض العظمة الكاذبة الذين ظنوا خطأ أنهم إنسان نيتشه الأعلى، أقول حاولوا أن يقلبوا القيم الإنسانية رأسًا على عقب. وإذا ما لاحظنا كلمات نيتشه عن الدولة الحاكمة " المثلى " - وجدنا أنها: " دولة من ضواري الرجال، وأعني بهم الغزاة والسادة، في نظامهم الحربي ... يضعون مخالبهم المروعة على سكان العالم غير مبالين بمبدأ أو صوت ضمير ... " والإنسان الأعلى حاكم مثل تلك الدولة ليس بحاجة إلى موافقة الشعب، إذ لا يوجد بينه وبين شعبه أي تفاهم عقدي. " فماذا تجدي العقود عند من يستطيع أن يبسط سلطاته، وهو من خلق بطبعه سيدًا، لا يعرف في سلوكه إلا العنف والقسوة ".

وعلى هذا الرجل الضاري أو الإنسان الأعلى الحاكم الذي نادى به نيتشه - وياله من نداء بعيد كل البعد عن الملك الفيلسوف الذي نادى به أفلاطون! - أقول عليه أن يحاول " إنقاذ " العالم من " الديمقراطيين، والمسيحيين والأبقار " أو من يعرفون خلافا لذلك بالقطعان (ﷻ ie. Herden).

والغاية من كل هذا تنحصر في " قلب المجتمع القديم وبناء مجتمع جديد ". وقال نيتشه في هذا المقام إن المجتمع الجديد " ينبغي أن يشيد كالهرم، مستقرًّا على قاعدة من الطبقات الوسطى والدنيا المستسلمة الراضية، وينتهي عند قمته بالرأس الحاكم ". وهذا القائد يجب أن يكون " الأنا الكلي المقدس أو الأثرة المباركة إلى أسمى الدرجات ".

وفي هذه الفلسفة، فلسفة الأثرة البالغة أقصى حدودها، القائمة على " قوانين التطور التي لا رحمة فيها "، نسي نيتشه أن يذكر شيئًا هامًّا. فبقاء الأصلح لا يعتمد على الدمار المتبادل. بل على الخدمة المتبادلة. كما أن تطور الإنسان ليس تنازعًا للبقاء، وإنما هو نظام للتعايش. وقد حدد داروين نفسه هذا النظام التعاوني بقوله إنه " الغريزة الدائمة " للإنسانية. ويجب ألا ننسى أن الارتباط المتبادل هو العامل السائد في الطبيعة - أي في حركات النجوم وفي أخلاق البشر. وليس العالم إلا ساحة قتال الأقوياء فيها يبيدون الضعفاء، وسريعو الحركة يفنون الكسالى، والماكرون يقهرون البسطاء، والشجعان يمحقون الجبناء. لا، وإنما هو كذلك مدرسة للتقدم، وحجرة دراسة للتعايش بين الشعوب، ومنصة لتثبيت الدروس في الأذهان - دروس في طول الأجل، والفطنة والصحبة، وفعل الخير، والمشاركة الوجدانية، والمحبة. فإن عملية التطور

لا تعلمنا كيف نعيش فحسب، بل تعلمنا كذلك كيف نعيش معًا. ويجب أن نعلم أن الطبيعة ليست بأية حال مثالا لانتصار القوة البدنية. بل هي بالأحرى دليل واضح على ارتقاء الهبة الروحية. أما التنازع من أجل البقاء فهو لا يقوم بين إنسان وآخر، بل يقوم بين جماعاتت من الناس في ناحية وقوى الطبيعة المدمرة أو أفراد يملؤهم الحقد والبغض في الناحية الأخرى. وفي هذا الصراع لا تظن أن الشعوب الضارية هي التي تبقى على قيد الحياة. لا، بل هي الشعوب المسالمة وحدها. لأن السلام يؤدي إلى الاتحاد، والاتحاد قوة.

ولا عجب فغريزة العون المتبادل هذه دائبة العمل والأثر في الإنسان. فهي، كما لاحظ داروين، " أصل الضمير الإنساني وأساسه ". هذا من جهة، أما إنسان نيتشه الأعلى، من الجهة الأخرى، فما هو إلا مخلوق غليظ القلب عديم الضمير. وليست غاية الإنسان أن ينمي الذات الفردية القاهرة، وإنما الذات الاجتماعية المتعاونة. وقد عجز نيتشه عن إدراك هذه الغاية التي إن هي إلا العامل الأخلاقي الذي يكمن في أساس كل دين وكل فلسفة أو قل هو الملاط الذي يجعل من الجنس البشري وحدة من الرأفة المتبادلة. وفوق ذلك يمكننا هذا العامل الأخلاقي بخطوات وئيدة لكنها ثابتة من أن ندرك، لا اتحادا لغايات الإنسانية كلها في اتجاه واحد فحسب، بل ندرك كذلك اتحاد الحياة الإنسانية كلها اتحادا يتناولها في الصميم.

٤

بالرغم من عبقرية نيتشه وتألقه، فإن قراءته اليوم تجربة تبعث السأم في النفوس. فعبادته لضواري الرجال إن هي إلا دين المجانين من أمثال نيتشه نفسه. والحقيقة المؤلمة أنه كان كلما تقدم في السن ازداد عدم اتزانه واختل عقله. حتى إنه نظر إلى نفسه على أنه أعظم من فجنر وأعظم من نابليون، بل أعظم من المسيح. كما أنه اعتبر كتبه " أسمى إنتاج أدبي يفخر به الزمن بطوله ".

أما عن تعظين نفسه فلم يكن يعادله إلا أمانة نفسه. فلما تقدم به الزمن ازدادت سخريته من الإنسانية وبغضه لنفسه. وفي الحقيقة، لم يكن ضحكه إلا نتيجة لمرارته وألمه. وقد كتب في أثناء إحدى نوبات صحوه وتعقله: " لعلني أعلم جيد العلم لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك. فالإنسان وحده يعاني من العذاب الأليم ما اضطره إلى أن يخترع الضحك ".

وهكذا ظل نيتشه يضحك ويعنف ويخلط ويهرف. بينما كان الألم يبرح بجسمه. ثم أخذ بصره يضعف شيئًا فشيئًا حتى كاد يصيبه العمى في النهاية. وبدأ في نوبات هذيانه يصرخ قائلا إنه إله وثني سمر على صليب الغباوة الإنسانية.

وفي يوم من شتاء عام ١٨٩٩ بلغ جنونه حدًّا تصعب معه قيادته. فأرسلوه إلى (البيمارستان) - وبذلك " وضع في المكان اللائق به " كما علق الناقد الألماني، ماكس نوردو.

وما هي إلا فترة وجيزة أطلقوا بعدها سراحه على أن تقوم أمه برعايته. ولكنه كان آنئذ قد تحطم تماما. فلم يعد في استطاعته أن يكتب، أو حتى يفكر، وإنما كان يهذي فحسب بعبارات غير مرتبطة. ومن وقت إلى آخر كانت عبارة قصيرة أو أخرى مقتبسة من مؤلفاته تخرج متعثرة من عقله المهوش. وحدث أن همس في إحدى هذه المناسبات قائلا: " قل كلمتك، ثم تقطع إربا ".

وأخيرًا، ما إن حل عام ١٩٠٠، حتى ضم الموت القطع المحطمة بعضها إلى بعض ثم اكتسحها خارج العالم.

٨٠٢ الفصل الرابع والعشرون: هنري برجسون

الفصل الرابع والعشرون
هنري برجسون
(١٨٥٩ - ١٩٤١)

١

بنى برجسون فلسفته، شأنه شان نيتشه، على أساس نظرية داروين في النشوء والارتقاء. ولكنه على النقيض من نيتشه كان يرى في التطور قوة إيجابية تستهدف الخير، لا قوة سلبية تدفع إلى الشر.

ويلاحظ أن التطور في فلسفة برجسون ليس عملية آلية، وإنما هو حافز خلاق، بل نمو لا شعوري واتجاه نحو الله. وإن الإنسان ليقع في أخطاء كثيرة إذ هو في طريق كفاحه ن ولكنه خلال هذا الخطأ كله تراه مهتديا بالغريزة إلى السبيل الصحيحة الوحيدة.

وإننا لندرك هذا الاتجاه الغريزي نحو النور، شأن النبات الذي يتجه نحو الشمس، بفضل بصيرة الفيلسوف، وولاء الشهيد، وإلهام الشاعر، ورجاء الرجل العادي وإيمانه وبره. ويؤكد برجسون أن النفس البشرية في طريقها دائمًا إلى العلى.

وهكذا حمل هذا الفيلسوف الفرنسي نورًا هاديًا إلى عالم مضطرب. فقد كتب في وقت كانت فيه عقول الناس قد ضلت الطريق في تيه المادية. ولم تكن الحياة كما بدت أكثر من آلة أديرت من غير أن تقربها يد. وتتجه

إلى غير ما هدف. ولكن برجسون حاول أن يرشد البشر إلى طريق للخروج من هذه المتاهة. فما إن التقط طرف الخيط من الفلاسفة الشرقيين القدامى، حتى أخذ يتتبع مساره طوال الطريق مارًّا بأفلاطون وأرسطو، والقديس أوغسطين وسبينوزا، وروسو وكانت وشوبنهاور، إلى العصر الذي كان يعيش هو فيه. ثم أعلن بعدئذ أن المسميات الثلاثة - المادة والفعل والروح - إن هي في الحقيقة إلا شيء واحد. كما أوضح الوحدة الجوهرية في مذاهب الفلسفة المتباينة. وكشف - أو بالأحرى أعاد كشف - الحقيقة القائلة إن الفكر السامي يشير كله تقريبًا إلى اتجاه واحد: اتجاه من الطاقة إلى الذرة. ومن الذرة إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى الله.

٢

ولد برجسون في باريس، وبدأ حياته بالتخصص في الرياضة ثم انتهى إلى دراسة الفلسفة. وكان طالبًا نابغًا لم ترصد المدارس التي تعلم فيها جائزة لمتفوق إلا نالها. ولما بلغ السابعة عشرة من عمره دخل مدرسة المعلمين العليا وظهر يبهر أساتذته بنبوغه العقلي في فروع العلم المختلفة. فكان ملما بالأدب القديم إلمامه بالعلم الحديث. كما صبغ جميع دراساته بخيال الشاعر المتأجج وكمال أسلوبه الفني.

وقد كان في بادىء الأمر شاعرًا لا أدريا، مثله مثل لوكريشيوس، التلميذ الروماني لأبيقور. وكانت ميول برجسون وهو طالب في الكلية " مادية صارمة " فزعم أنه ليس هناك هدف روحي للحياة، ولا يوجد أصل للرجاء. " إن نظرة واحدة في المجهر تبدد إلى الأبد زهو المؤمنين حرارة بالخلاص البشري. " وحدث مرة عندما كان يقوم بعمل أمين مكتبة في صفه الدراسي، أن عنفه أستاذه لإهماله ترتيب الكتب على رفوفها. فسأله الأستاذ: " كيف تستطيع

روحك كأمين مكتبة أن تحتمل مثل هذا الإهمال في النظام والترتيب؟ " فما كان من رفاقه في الدراسة إلا أن صاحوا جميعًا دفعة واحدة قائلين: " إن برجسون لا روح له! ".

ومن العجيب أنه ما إن تخرج في الكلية حتى بدأ يشك في شكوك نفسه، فقد قبل منصب مدرس الفلسفة بليسيه كليرمون - فران رحمه اللهFerrand - lermont في مقاطعة أوفيرن الجميلة. وهنا أخذ يخرج في نزهات طويلة خلال الريف وتخلى شيئًا فشيئًا عن مذهب الشك العلمي. وفي أعماق قلبه، انتهى إلى أنه لم يكن قصبة قياس لا حياة فيها، وإنما هو مفكر حي، وبدأ يفقد الثقة بأنابيب اختبار المعمل، ومعادلات علماء الطبيعة والتعاريف الدقيقة التي يضعها الفلاسفة. وأخذ يسائل نفسه في دهشة كيف يمكن هذه الأشياء المادية في وقت ما أن تفسر الشيء الجوهري الوحيد الذي تحدى التفسير - ألا وهو معنى الوجود؟ كيف بدأت الحياة؟ كيف يمكن للفلسفة المادية أن تحل سر الشعور؟ وكيف يمكن أن يعزى جلال التلال في الأفق، وهي في تقديره الشخصي رائعة الجمال، إلى دوامة عشوائية من الذرات؟ وأية قوة آلية تلك التي كانت تبهره عندما يقع بصره على الشمس وهي تشرق فوق قمم الأشجار؟

ولم يكن تحول برجسون من شخص مادي إلى شخص مثالي ليتم في لحظة. ففي بادىء الأمر لم يستطع أن يفسر، حتى لنفسه، إلى أين كانت تقوده أفكاره، ولكنه بدأ يشعر شيئا فشيئا أن نوعا من " الإدراك الشاعري " الغريزي قد ملك عليه لبه، وكان دائم الضرب على " كل شعرة في جسمه وكل خلية في عقله ". ثم ازداد اقتناعه أكثر فأكثر بأن العقل الآدمي ليس آلة بأية حال. ودلل على ذلك بتساؤله إذا كان من الممكن لخليط آلي من القوى الطبيعية أن ينتج

مسرحيات شكسبير؟ وهل يمكن بأي ترتيب رياضي لحروف الهجاء أن نحصل على عظمة الجبل التي ألقاها المسيح؟ وهل يمكن للتركيب الكيموي الطبيعي المسمى هنري برجسون أن يفسر بلاغة محاضراته واستجابة جمهوره من المستمعين؟ ثم ما هي العملية العلمية التي يمكن أن تعلل تحول برجسون من مادي إلى بارد إلى مثالي يشتعل غيرة وحرارة؟

٣

وقد حاول برجسون أن ينقل إلى طلبته شيئًا عن التحول الذي تم داخل نفسه. ففي إحدى محاضراته التي تعالج البحث العلمي قال: " لا شك أنكم جميعا قد استعملتم المجهر، ولعلكم قد لاحظتم في صندوقه تلك الشرائح الزجاجية الصغيرة التي يضم كل منها (بين الشريحة والغطاء) قطاعا تشريحيا. فإذا أخذت أحد هذه القطاعات المعدة ووضعته تحت عدسة المجهر ونظرت، فإنك ترى أنبوبة مقسمة إلى أقسام. ثم إنك إذا حركت الشريحة الزجاجية إلى الأمام لاحظت أن الخلايا تتابع الواحدة بعد الأخرى ويمكنك أن تميز كلا منها بوضوح. ولكن ما الغاية من كل هذا؟ وما الذي وقع بصرك عليه؟ فإن أردت الحصول على الإجابة عن هذا السؤال، وجدت نفسك

مضطرا إلى ترك المجهر والتأمل، بصورة عامة، وبعينك المجردة، في قدم العنكبوت القبيحة التي كنت تفحص جزءا منها ". والنتيجة التي تصل إليها هي أن الحياة أكثر مما تراه العين، حتى تحت عدسة المجهر المحللة.

يقول برجسون: إن مشكلة التحليل العلمي في الماضي تنحصر في أنه لم يكن يحدثنا عن القصة إلا في جزء منها - جزء غاية في البساطة - وكان العقل العلمي

ينزع إلى اعتبار الحياة صورة مكانية لا حركة ونشاطا. وفي الحقيقة يبدو أن التطور الحديث للفكر العلمي قد عزز فكرة برجسون فالمادة بدأت تزداد شبها بالقوة، إذ أن الذرة تنحل إلى إلكترون (شحنة كهربية سالبة)، ثم ينحل الإلكترون إلى قوة لا مادية هي قوة الحياة - وهي التي أطلق عليها برجسون اسم " الواقع الحيوي " ولكن بالرغم من ذلك، فإن الكثيرين منا حتى اليوم. كما قال برجسون، لا يدركون أن العالم ليس كائنا في المكان وحده، بل يتحرك أيضًا في الزمان. فله امتداد في الزمن، كما أن له امتدادا في المكان. ويقول برجسون: " إن هذه الديمومة هي التقدم المتصل الذي أحرزه الماضي وهو يقرض طريقه في جوف المستقبل، فيزداد امتلاء كلما سار إلى الأمام ". فلن تضيع قط لحظة واحدة من زمن. ومعنى ذلك " أن الماضي من بدئه الأزلي (لم يفن)، وإنما هو يمتد ويتداخل في الزمان الحاضر ويظل هناك قائما وفعالا ". وإذا ما نظرنا إلى التاريخ بأكمله وجدنا أنه تراث عام لنا جميعا، ومثير شخصي لكل فرد منا في آن معا. فبالرغم من أن ذاكرتنا الواعية قد تسترجع بضعة أحداث فحسب من الماضي، إلا أن غريزتنا اللاشعورية تمكننا من استخدام كل ما قد تراكم من تجارب الجنس البشري في حل مشكلاتنا اليومية. وهكذا يتضح أن كل فرد منا ليس مجرد عجلة تدور في عملية آلية، بل هو بالأحرى بؤرة للتطور الخلاق تجمع كل أشعة الماضي لكي تنشر نورا جديدًا على المستقبل.

وبالرغم من قصور ذاكرتنا، إلا أنها تقوم بوظيفة نافعة في خدمة غريزتنا. " فالوظيفة الأساسية للذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية التي مرت بنا مقرونة بما سبقها وما تلاها. فنتمكن بذلك من الحكم في المواقف المشابهة التي تعرض لنا حكما صادقا ".

" ولكن للذاكرة فوق هذا عملا آخر. فبها نستطيع بلمحة حدسية واحدة أن نستوعب لحظات كثيرة من الزمان (الدافع الخلاق). وفي ذلك تحرير لنا من حركة تدفق الأشياء. ونعني بذلك، تحريرنا من الاطراد الإيقاعي المحتوم لتلك الأشياء. وهكذا كلما ازداد عدد ههذ اللحظات الحرة التي يمكن ذاكرتنا أن تستدعيها، ازدادت قدرتنا على إخضاع المادة لسيطرتنا ". وفي عبارة أخرى فذاكرة الإنسان هي معيار قدرته على العمل الخلاق.

وليس من الضروري أن تكون ذاكرتنا، أو قل شعورنا ووعينا بالماضي، مرتبطا بجسمنا. نعم إن عقولنا طوال أعمارنا تعتمد على أمخاخنا (أي على أجسامنا). غير أن هذا لا يكون إلا كما يعتمد الثوب على المشجب. فوجود الثوب لا يترتب على وجود المشجب. وإذا ما نزعنا المسمار من مكانه هوى الثوب ولكنه يظل محتفظا بكيانه. وعلى ذلك " فليس من الضروري أن يكون لك مخ لكي تتذكر، كما أنه ليس من الضروري أن تكون لك معدة لكي تهضم الطعام " فالأميبا مثلا، يمكنها أن تهضم طعامها من غير ما معدة. كذلك مخ الإنسان، شأنه شأن معدته، إن هو إلا جهاز مؤقت، وليس عضوا لا يمكن الاستغناء عنه إلى الأبد.

وإذا كان الأمر كذلك، فلم اعتدنا إذن أن نعتبر أفكارنا نتاج أمخاخنا؟ لعل ذلك راجع، كما أوضح برجسون، إلا أن المظهر " الذكائي " لتفكيرنا قد تطور إلى أداة تدرك العالم من حيث هو شيء مادي في المكان. " فإن مهمة الذكاء، بمعنى الكلمة الضيق، هي أن يكفل ملاءمة الجسم الكاملة للبيئة التي يعيش فيها، وأن يكشف لنا العلاقات التي تصل الأشياء الخارجية بعضها ببعض أو قل باختصار أن يفكر ماديا "، فيقيس ويحلل الأجسام المادية، ويرى

جسم الحياة لا روحها. ولذلك فإن ذكاءنا عاجز عن إدراك ماهية الحياة التي تساير تلك الأشياء الظاهرة، أي أنه عاجز عن إدراك أن للعالم جانبين متلازمين: نمو الزمان وامتداد المكان في وحدة أزلية واحدة للوجود.

وهكذا لم تعد ما تسمى بالعلوم الدقيقة إلا مجرد تخمينات تقريبية. فليس في وسعها إلا أن تفسر المادة وحدها لا الطاقة، والمخ وحده لا العقل، والشيء كما يدركه الفكر، لا جوهر فكره. وقصارى القول إن ذكاءنا موجه نحو عالم آلي مادي، إننا إذ نحاول في مشقة أن نبني الآلات التي تحمل أجسامنا مسافة ألف أو مليون ميل خلال المكان، أما عقولنا، فمن غير أن تعرقلها أية حاملات آلية، نراها تستطيع

أن تطوف حول الكون كله - قاطعة بذلك بلايين لا تعد ولا تحصى من الأميال - في مدى لحظة واحدة.
وبعبارة أخرى فإن أفكارنا ليست أجساما مادية سابحة في عالم الكون، وإنما هي كائنات غير مادية من خلق مستمر - أو بتعبير برجسون، " من ديمومة تسير إلى أمام " - في عالم الزمن.
ثم يقترب برجسون من أفلاطون عندما يقول: إن هذا العالم من الأفكار هو العالم الذي نراه بالحدس، لا بالذكاء (والحدس Intuition كلمة من الأصل اللاتيني: Intueri التي معناها " يرى بثبات "). فملاحظات الذكاء لا تعطينا سوى جزء من الحقيقة، على حين يزودنا النظر الحدسي بالحقيقة كلها، إذ يمكننا من " أن نسبر أغوار الحياة، ونجس نبض روحها المتناغم ". كما أنها تبين لنا أن فكرنا ليس حركة جزيء من جزيئات المخ، وإنما هو خفقة أزلية تنبض بها الحياة.
ومع ذلك فإن الذكاء، طبقًا لبرجسون، لا ينبغي أن نسرف في التهوين من شأنه. إذ أنه له أيضًا وظيفته الضرورية. فهو يعيننا على تفهم عالم المادة والمكان، في حين يمكننا الحدث من إدراك المعنى الباطني الذي تنطوي عليه الحياة. أما عن آفاق العقل فهي أوسع بكثير من آفاق الذكاء. " ولا شك في أن مهمة الفلسفة الرئيسية في القرون المقبلة سوف تنحصر في الكشف عن أقدس أعماق العقل، والكد في الكشف عن الطبقة التي تقع تحت الشعور ".
٤
عرفنا أن فلسفة برجسون تعالج تطور الفكر الإنساني. ولكن فكرته عن التطور تختلف اختلافا تاما عن فكرة داروين عن البقاء للأصلح في غمرة التنازع من أجل البقاء، فالتطور ليس عملية هدم عمياء وإنما هو قوة خلق لما قصد وغاية. وهو كذلك " عملية مستمرة لخلق ما هو جديد جدة مطلقة ". أما تقدم الحياة، من أحقر الصور إلى أسماها، فإنه لأكثر من تحرك آلة صنعت من مادة وقع عليها الاختيار اتفاقا إن صوابا أو خطأ وما التطور إلا حافز على النمو، ففي كل بذرة " غريزة كامنة في داخلها تتلمس طريقها وتشمخ بارتفاعها، ثم تصبح روحا في الحشائش والأزهار ". ولكل شيء خطة مرسومة. وهذه الخطة باطنية في الشيء، كما قال أرسطو، أو هي تعاون الأجزاء غريزيا لكي تنتج كلا أكثر تناسقا.
وهكذا نجد أن الحياة دافع يبتدع دائمًا أبدا ويخلق بالتناسل شيئًا أفضل من ذي قبل. وفي عملية التطور لا نعثر على أثر لما نسميه المصادفة؛ إذ أن لكل مخلوق حي خطة معلومة يسير بمقتضاها نحو التقدم - وهي خطة ذاتية إلى حد بعيد. ولا تهدف الحياة إلى الأمن وإنما إلى المخاطرة. " ففي تطور الحياة، كما
هي الحال في تطور المجتمعات الإنسانية ومصائر الأفراد، لم يحالف أعظم التوفيق إلا أولئك الذين قبلوا التعرض لأفدح الأخطار واحتمال أثقل التبعات ".
ومن أجسم تبعات الحياة حرية الفكر الإنساني - التي تحاول دوما أن تثبت أن الإنسان أقرب ما يكون إلى صورة الله. ولكن أجسم التبعات هذه تعطي لمن يتحملها أعظم الثواب. وما هذا إلا المعنى الصحيح للتنازع من أجل البقاء - أي التنازع بين القوة الخلاقة في الحياة وقوة القصور الذاتي في المادة. " فالخلق بهذا المعنى ليس سرا غامضا؛ إذ أننا نمارسه في داخل ذواتنا عندما نعمل بحرية ". وهكذا نلاحظ أنه عندما نحاول أن نصلح من أنفسنا - ونعني بذلك، أن نجعل من أنفسنا أشخاصا تكون أكثر قبولا عند ذواتنا الأفضل - فإننا نتبع ما يمليه " الدافع الحيوي " فينا. وبهذا نذعن لقوة التطور الخلاق في مواجهتها لقوى الانحلال المانعة للتقدم.
وعلينا ألا ننسى أننا لا نزال حتى الآن في أولى المراحل من تطورنا الخلاق. فإن وجودنا الإنساني على ظهر الأرض لمّا يستغرق من الزمن إلا لحظة يسيرة في الديمومة الأزلية الأبدية التي ما ننفك ننمو على مدادها. كما أن المسرح المعد لأعمالنا المستقبلة غير محدود المدى. أما المسرحية التي علينا أن نلعب فيها دورا فيستعصي علينا أن نجد لها كلاما يعبر عنها في هذه المرحلة الحاضرة من تطورنا. وفي عبارة من أبلغ عباراته، يصف برجسون مشهد التطور الخلاق كما يراه بقوله: " لا تقوم للحيوان قائمة إلا على النبات، والإنسان يتخطى الحيوان ويفوقه، في حين تكون الإنسانية في مجموعها، في الزمان والمكان، جيشا ضخما واحدا يعدو إلى جانب كل منا، وأمامه، وخلفه في هجوم شامل عام
من السهل أن يحطم كل مقاومة في طريقه ويزيل أضخم العقبات المروعة، ولعل الموت أن يكون من بينها ".
٥

وبينما كان برجسون يحاضر طلبته - إذ كان آنذاك محاضرا في الكلية الفرنسية رحمه اللهollege ﷻ France e كان كثرا ما يرفع عينيه عن مذكراته ويقول لطلابه: " حاولوا أن تتفهموا جانبا من هذه المحاضرات بعقولكم وأن تتكهنوا بيقينها - بقلوبكم ".

٨٠٣ الفصل الخامس والعشرون: بندتو كروتشي

الفصل الخامس والعشرون
بندتو كروتشي
(١٨٦٦ - ١٩٥٢)

والآن ننتقل من برجسون الصوفي إلى كروتشي الشاك. وبالرغم من أن هذين الفيلسوفين يسلكان طريقين مختلفين، إلا أنهما يصلان في النهاية إلى حقيقة واحدة بعينها - هي أنه في وسعنا بالحدس أن نجد نموذجا للجمال في الكون وفي التاريخ البشري. وأخذًا بفكرة جون كيتس، فإن برجسون وكروتشي كليهما يؤكدان أن " الجمال هو الحق، والحق هو الجمال "، وأن هذا هو كل ما نعرف أو ما ينبغي أن نعرف.

غير أن كروتشي كان أكثر من برجسون اشتمالا للكون بفلسفته. فنجد أن كروتشي، شأنه في ذلك شأن أفلاطون وأرسطو وفرانسيس بيكون، وقد اضطلع بمسح كامل للفكر الإنساني وآماله وأمانيه. ولكن كروتشي كان يعتقد أن هذا المسح لا يمكن أن يقوم به على أحسن وجه إلا فيلسوف نزل من برجه العاجي الخاص بالأساتذة إلى خضم الحياة المثير المضطرب.

وهكذا لم يجد كروتشي بدًّا من الغوص في قلب إعصار الحياة لكي يستطيع أن يتعرف سر حركته. فلعب دورا فعالا في مقاومة الانقلابات الفاشية والنازية والشيوعية. وأوضح أن سياسة العنف بين الأفراد والطبقات والشعوب تتنافى مع العقل، وأن سعادة البشرية تنحصر في التوفيق الحكيم أو قل " المواءمة والتناسق " - وهو المذهب الأفلاطوني القديم - بين المادية والمثالية، بين الكفر والإيمان، بين استقرار العرف وحركة الانتقال. وبعبارة أخرى، كان كروتشي يناصر حكمة التقبل لكل ما كان خيرا في الماضي ويدافع عن الاستعداد الفعال للقيام بعمل شيء أفضل في المستقبل. ولكن هذا كله ينبغي أن يتم في جو يظلله السلام لا الحرب، وفي لقاء يضم العقول البناءة، لا في سباق يهدف إلى الحصول على أسلحة الدمار.

٢

ولدت فلسفة كروتشي في أثناء جائحة نزلت به؛ ففي عام ١٨٨٣ بينما كان أبوه، وهو أحد ملاك الأراضي الأثرياء في نابولي، يقضي عطلته مع بقية أفراد أسرته على جزيرة أسخيا، زلزلت الأرض زلزالا عنيفا سد عليهم سبل النجاة، وقضى على " السنيور " وزوجته وابنتهما الوحيدة. أما ولداه فقد كتب لهما النجاة بعد أن ظلا مدفونين تحت الأنقاض لبضع ساعات.

وكان بندتو، أكبر الولدين، في السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت. وكتب يقول: " بالرغم من أن هذه النكبة دقت عظامي وتركتني حطاما عليلا لسنوات كثيرة، إلا أنها شحذت عقلي ". ثم كان أن وفر له دور النقاهة الطويل الذي مر به وقتا كافيا للتفكير في الزلازل المادية والروحية التي تعترض بصورة ملحوظة نظام الحياة العادي.

ولقد شاء القدر أن تكون حياة بندتو مليئة بالزلازل الروحية والعواصف السياسية؛ إذ ولد عام ١٨٨٦ ولهب الثورة على أشده، في عصر الاضطراب والهياج الذي أشعل وقوده مازيني وغاريبالدي وكافور. فقد ثارت نابولي على الملكية، وانسخلت إيطاليا من قبضة النمسا، ونبذت الولايات الدولة سلطة الكنيسة المتطرفة، وتطلع المفكرون في كل مكان إلى إيطاليا موحدة، بل عالم موحد.

ولم يشارك أفراد أسرة كروتشي بشكل مباشر في الثورة، أما أبناء عمومتهم من أسرة سبافنتاس فقد انغمسوا انغماسا في القتال. وكان بندتو قد التجأ إلى بيت أحد أفراد أسرة سبافنتاس ليقيم هناك بعد أن قتل والداه في حادثة الزلزال.

وكان في صباه " مغرما بالاطلاع، مشاكسا "، ولو أنه كان ميالا إلى المبارزة العقلية أكثر من المشاجرة البدنية. ونتيجة المأساة التي فقد فيها أبويه وأخته، تخلى عن عقيدته وإيمانه بالله. كما أن رغبته الشديدة في تأكيد عدم إيمانه جعلته على غير وفاق مع العالم. وفي هذا الصدد يقول: " إن تلك السنين كانت أكثر السنوات كآبة وظلاما. وكثيرا ما تمنيت، وأنا أضع رأسي على الوسادة، ألا أستيقظ

من نومي أبدًا ".
وفي تلك الفترة كان يعاني من صراع عقلي هو ما يعرف الآن بازدواج العاطفة، إذ كان عقله موزعا بين التقوى والإلحاد فقد نشأ نشأة كاثوليكي ورع، يشعر في قلبه بالحاجة إلى يد ترشده وتهديه حتى في ساعات كفره. كما أنه يجد أنه فقد أباه الأرضي، كان يتوق إلى إحياء إيمانه بأب سماوي. وهكذا نرى أنه كان يجد يائسا في البحث عن الإله الذي أنكر وجوده.
ثم التحق بجامعة روما حيث لو يوفق في العثور على الغذاء الملائم لروحه، فترك الجامعة (في عام ١٨٨٦) من غير أن يحصل على درجة علمية. واعتزل العالم لفترة أخذ يدرس في أثنائها، ويتأمل، ويتوقع ظهور شيء جديد.
وحدث أن ظهر بالفعل شيء جديد، فقد قام الأستاذ لابريولا، أحد أعضاء هيئة التدريس في جامعة روما، بزيارة أسرة سبافنتاس. وكان أن أنبأ لابريولا مضيفيه عن كتاب يعتزم إصداره عن كارل ماركس وكتب كروتشي
في مذكراته يقول: " فطلبت من الأستاذ مخطوط الكتاب. وما إن انتهيت من قراءته ... حتى اشتعل عقلي حماسة ... وأصبحت أعتقد أن من حق التاريخ في زحفه وتقدمه أن يسحق الأفراد خدمة للجنس البشري ".
ولكنه سرعان ما فقد غيرته السياسية على إنسانية مجردة يقابلها أفراد ذوو وجود متعين، وأضحى ثائرا على فكرة " قتل إنسان من أجل إطلاق سراحه ". فالثورة العنيفة الدامية عنده أشبه ما تكون بالزلزال. فقد تعيد مؤقتا إصلاح الطبقة السطحية من الأرض، ولكن على حساب عدد ضخم من الضحايا الذين يعانون من العذاب ألوانا. ففلسفة كارل ماركس تقوم في رأيه على نظرية التخريب. أما الفلسفة التي كان ينشدها كروتشي ففلسفة تستهدف إنقاذ الحيوات البشرية، بدلا من أن تهدد بإبادتها.
وكانت النتيجة الطبيعية أن قر قراره على أن يضع فلسفة خاصة به. وكان القرن (التاسع عشر) يقترب من نهايته، فرأى كروتشي أن ذلك هو الوقت الملائم للقيام بمسح كامل لتاريخ الإنسان وأمانيه وعقائده وآماله.
وبادىء ذي بدء أعاد دراسة الماضي على ضوء الحاضر. وفي أثناء قراءاته أثارت اهتمامه نظرية أحد مواطنيه السابقين، وهو جيوفاني فيكو، إذ تقول نظريته إن التاريخ كله إن هو إلا تقدم لولبي. وكان فيكو قد ذهب إلى أن الإنسانية لا تتقدم إلى الأمام في خط مستقيم، وإنما تتحرك إلى أعلى، وكأنها تلتف في حركة لولبية حول جبل. وفي هذه الدائرة اللولبية من التقدم والتطور، لن يحدث أي ارتداد إلى نقطة البداية، بل نجد أن كل خطوة وكل دورة تعلو التي سبقتها، وهكذا لن يعيد التاريخ نفسه، إذ أن ما يبدو لنا أنه تكرار هو في الحقيقة نظرية جديدة إلى منظر طبيعي قديم، ونحن في موضع أكثر ارتفاعا
نستطيع منه أن نرى آفاقا أكثر اتساعًا، وكلما ارتفعنا أكثر فأكثر في صعودنا الدائري، ازدادت نظرتنا عرضًا، وتعاطفنا شمولا، وقلوبنا ودًّا، واتصالاتنا تحررًا.
وعلى أساس هذه النظرة إلى التاريخ، نظرة الصعود اللولبي - التي هي فكرة وثيقة الارتباط بالصورة التي رسمها برجسون لتصاعد التطور الخلاق في سيره - أقول على هذا الأساس بنى كروتشي فلسفة التنوير التي نادى بها. " فلتتعلّمن أن ترى أفضل كلما ارتفعت في سلم التقدم ". وكان أن بدأ بتحرير مجلة La ritica رحمه الله التي حاول فيها أن يصور العالم من وجهة نظر عالمية. ومنذ البداية جعل من مجلته دار أسلحة لمعركة الأفكار التي وجهها ضد المحاربين لها في العالم. ففي أول عدد أصدره يقول: " إن في نيتنا أن نحارب من أجل نظام محدد للحياة، من أجل نهضة جديدة عامة للروح الفلسفية ... التي أعاقتها - لسوء الحظ - عوامل بعد الثورة الإيطالية عام ١٨٦٠ "
وكان يشاركه في هذه " المغامرة التي تستهدف صحة العقل في عالم مختل العقل ". فيلسوف شاب آخر، اسمه جيوفاني جنتيلي، كان شعلة من الذكاء، ولو أن كروتشي اكتشف فيما بعد أن موهبته كانت نارا أكثر منها نورًا.
ولم يجد كروتشي وجنتيلي بدا من أن يقوما مؤقتًا بحملة شديدة ضد بغي " مضللي " العالم وظلمهم. وتخير كروتشي، هدفًا رئيسيًّا لحملته، وهو الدعوة المتغطرسة إلى بث روح عسكرية كان يقوم بها الكتاب من أمثال جابريل داننزيو وغيره من الوطنيين المتطرفين الذين كانوا يحاولون أن يزجوا بمواطنيهم في حروب جديدة مدمرة.

ثم حدث بعد ذلك أن وقعت مأساة الحرب العالمية الأولى، وعندئذ غاصت إيطاليا ومعها دول كثيرة أخرى في دوامة من الفداء. ولكن ما إن انتهت الحرب حتى مرت الأمة بفترة من التأمل الواعي، فاستدعى رجل السلام، جيوليتي الرزين المعتدل، لإدارة دفة الحكومة الإيطالية. وكان أن وقع اختياره على كروتشي (عام ١٩٢٠) ليكون وزيرًا للتربية في حكومته.

وكان هذا النوع من العمل تحقيقًا للحلم الذي طالما راود كروتشي - ألا وهو تتبع دراسة الفلسفة بينما هو في خضم الحياة العملية. وفي النهاية كان يأمل أن يكون في وسعه أن يمهد السبيل إلى تجديد حيوي في الفكر الإنساني.

ولكن للأسف لم يعش أمله طويلا، فلم ينقض سوى عامين حتى قبض موسوليني على زمام الحكم. ولم يكن الرجل الذي عينه موسوليني وزيرًا جديدًا للتربية سوى شريك كروتشي السابق في رياسة تحرير المجلة، جيوفاني جنتيلي.

وكان كروتشي قد فض الشركة مع جنتيلي حتى قبل حرب سنة ١٩١٤. فما إن رأى بثاقب نظرة الأزمة المقبلة وخطر تورط إيطاليا في الصراع حتى جأر بالدعوة إلى السلام. ولكن جنتيلي كان قد انضم إلى الحزب العسكري، بعد أن أصيب بعدوى جنون الحرب؛ هذا الجنون الذي كان قد حاربه فيما مضى. وراح ينظر إلى الحرب نظرته إلى جهاد مقدس. وبعدئذ تحالف جنتيلي مع الفاشيين باعتبارهم " مؤسسي نظام عسكر جديد " فما كان من كروتشي إلا أن ازداد تباعدًا عن الرجل كان من قبل زميلا له في الجهاد من أجل السلام.

وقد قطع آخر خيط في العلاقات الودية بين الرجلين عندما أزاح جنتيلي كروتشي وحل محله وزيرًا للتربية في عهد موسوليني - ولم يكن حنق كروتشي

على جنتيلي بدافع طموحه الشخصي، وإنما كان نتيجة مباشرة لغيرته على الصالح العام. وكتب في هذا الصدد يقول: " إنه لمن المحزن أن يساء حكم الكار، فما بالك إذا أضفنا إلى ذلك شر تضليل الصغار ".

ولم تثر وقفة كروتشي الباسلة ضد الفاشية غضب جنتيلي وحده، وإنما أثارت كذلك عداوة موسوليني. ومع ذلك فقد أمسك موسوليني عن اعتقاله، لأن الشعب لم يكن ليسمح بسجن رائده الفكري المحبوب. ولذلك تظاهر موسوليني بأنه لا يعرف شيئًا عن آراء كروتشي. فلما قال موسوليني: " إنني لم أقرأ في حياتي صفحة واحدة من أي كتاب له "، رد كروتشي بقوله: " إن موسوليني كثيرًا ما كان يقتبس منه ... " ثم أردف يقول: " ولكنه بالطبع قد يكون صادقًا فيما يزعمه لأنه لا يقتبس مني عن قراءة، إذ هو لا يقرأ إلا الخطب التي يكتبها له الآخرون ".

وبالرغم من أن موسوليني ترك الفيلسوف وشأنه، إلا أن بعض القادة الفاشيين الآخرين كانوا يجدون لذة في مضايقة كروتشي. فحدث أن اقتحموا بيته وأبادوا كتبه ومخطوطاته. كما نوهوا بالخطر الذي يتهدده لو أنه غادر بيته إلى الخارج، فمن المؤكد أن يهاجمه " وطنيون مجهولون يستنكرون آراءه الهدامة ". وفوق ذلك كان كل من يجرؤ على زيارته يوصم بأنه " عدو الدولة "

٣

ولكن كروتشي ظل غير عابئ بسلامته الشخصية، يعمل على تنفيذ منهاجه لإعادة العقل إلى عالم ذهب عقله. وفي هدوء وطمأنينة ومثابرة أخذ " سيد نفسه الوحيد " ينتج كالسيل المتدفق الكتاب تلو الكتاب في التاريخ

والأدب والفلسفة والعلم والفن. كأنما هو يخطط لإعادة بناء مجتمع تصدع بنيانه بزلزال. فهذا الذي سبق أن دفن حيًّا تحت أنقاض أسخيا لم يكن ليخشى شيئًا من كوارث الطبيعة أو قسوة البشر. وبلغ الأمر أنه كلما سار مخترقًا شوارع نابولي، تهامس الناس بعضهم مع بعض - إذ لم تكن لديهم الجرأة على أن يفصحوا بصوت مرتفع عما تجيش به نفوسهم - وقالوا: " ها هو ذا البطل الذي يتحدى الدوتشي ".

وكان بطل هذا التحدي رجلا يرى وسط القبح والشر جمالا وخيرًا يكمنان في باطن الأشياء. فطور هذه الفكرة الأساسية - التي أخذها من قبل عن أعلام الفلاسفة القدامى والمحدثين - في سلسلة من الكتب بلغت أكثر من خمسين كتابًا. كانت تضم بين دفاتها جمال الخير، وخير الجمال، والانسجام الذي ينسج جميع خيوط الكون المختلفة صانعًا منها للحقيقة نسيجًا مزركشًا. تلك الحقيقة التي يسهل

إدراك فحواها: فالعالم واحد، والحياة كلها واحدة، والناس كلهم أعضاء في جسم البشرية الواحد.
ومع ذلك كله فلم يقصد كروتشي - كما ذكر في تواضع - بفلسفته أن تقيم نسقًا من الفكر المنظم، بل هي أقرب إلى أن تكون مجموعة متناثرة من الملاحظات العابرة.
وفي أحد كتبه الأولى " مادية كارل ماركس " أوضح أن النظرية الماركسية في الاقتصاد ليست فلسفة صحيحة ولا هي علم صحيح. فليس ميدان الاقتصاد، كما كان كارل ماركس يريدنا أن نعتقد، ساحة قتال بين الطبقات العليا والدهماء، بين أصحاب رؤوس المال والعمال، بين البائعين والمشترين، بين الأغنياء والفقراء. فهذا الميدان أهم بكثير من ذلك، إذ الاقتصاد نظرية للقيم الإنسانية، وصورة التاريخ
يعبر عنها بلغة العرض والطلب، وبالاختصار هو الفلسفة منظرًا إليها في تيار من الحركة.
والحق أن التاريخ كله، سواء أكان اقتصاديًّا أم اجتماعيًّا أم روحيًّا أم سياسيًّا ما هو إلا فلسفة في تيار من الحركة. أو قل هو معرض من القيم الإنسانية، والأفكار، والأعمال. ومن واجب الفيلسوف الحق، أو المؤرخ الحق، أن يلاحظ كل ما يمكن ملاحظته من أطوار ذلك المعرض، الرديء منها والجيد، وذلك لكي يستطيع أن يعلم الجيل الذي يعيش فيه كيف يحسن دوره في ذلك المعرض من أجل تعليم الأجيال المقبلة تعليما أفضل. فما التاريخ إلا رؤية للماضي من جديد بقصد تنوير المستقبل. أما السبب الذي من أجله ترانا نكرر في إصرار حماقاتنا وأخطاءنا الماضية، فهو أن المؤرخين لم يرقبوها بطريقة سليمة ولم يفسروها بطريقة سديدة. كما نجد أن المؤرخين لا يخصصون لعملهم إلا وقتا جد قصر، ولا ينجب العالم من المؤرخين إلا عددًا أقل مما ينبغي له. فلو أننا أردنا أن نسطر تاريخ حقبة واحدة (ولتكن حقبة القرن التاسع عشر مثلا)، أو تاريخ وجه واحد من الحياة الإنسانية (وليكن الاقتصاد مثلا)، فإن هذا يتطلب دراسة لمدى الحياة يقوم بها عدد من الباحثين عليهم أن يفحصوا المظاهر المختلفة لتلك الحقبة أو لذلك الوجه، يفحصونها من وجهات نظرهم المتباينة.
ولكن انظر إلى نظرية الاقتصاد التي نادى بها كارل ماركس في القرن التاسع عشر، تر هذا الرسول الذي جاء من أجل طبقة العمال الكادحين لم يتبين مواضع قصوره كما قال كروتشي. فنلاحظ أنه حاول أن يتحدث بألسنة جميع الناس في كل العصور، وهو يرى من وجهة نظره أن الاقتصاد " منافسة " ولكننا من وجهة نظر أوسع نستطيع أن نراه " تعاونا ". فكل عملية بين المشتري
والبائع ينبغي أن تكون مبادلة بضائع ونية حسنة. وكل عملية مالية تتضمن مبدأ اختيار بين الأثرة والإيثار، بين الخيانة والأمانة، بين الشك والثقة فالمبدأ العلمي الذي يقوم عليه الاقتصاد، إذن، يسير جنبًا إلى جنب مع المشكلة الفلسفية الخاصة بالخير والجمال والحق. ولن يتم التكيف الاقتصادي للمجتمع خلال صراع عنيف يقوم بين طبقة وطبقة، وإنما يتم خلال تفاهم تظلله الثقة بين إنسان وإنسان. وهكذا أخضع كروتشي المادة لقيم الحياة الروحية. وجعل المنفعة في خدمة الجمال. كما عبر عن فكرة العدالة الأفلاطونية بمدرك حديث عن الانسجام الاقتصادي والاجتماعي.
٤
ويعتبر علم الاقتصادي في فلسفة كروتشي - التي هي نظرة مركبة إلى التاريخ كما تراها العيون مؤلفة من وجهات النظر المختلفة المأخوذة في العصور المختلفة - أقول إن علم الاقتصاد في هذه الفلسفة يعتبر فرعا من علم الجمال، وهو علم الفن، ومن علم الأخلاق الذي هو دراسة المواصفات السلوكية.
ومن أهم الكتب التي ألفها كروتشي كتابه في " علم الجمال ". فهو يقول عن الفن في هذا الكتاب إنه علم العلوم. فبعض العلوم الأخرى. من أمثال الرياضيات، تبعدنا عن الوقائع الفردية إلى حيث الحقائق الكلية المجردة. ولكن الفن يردنا من الحقائق الكلية المجردة إلى الأشخاص المتعينة والأشياء المحددة والوقائع الفردية.
ويرى كروتشي، وهو يشترك في ذلك مع برجسون -أن خلق الفن وتقديره لا يصدران عن ذكاء عقولنا، ولكنهما يصدران عن جانب الحدس من تلك
العقول. " وما الفن إلا نتاج الخيال (أو الحدس) في استعراضه للعالم. فالفن لا يصف الأشياء ولا يعرفها، وإنما هو يحسها ويقدسها

- لا أكثر ولا أقل ". وكان في وسع كروتشي أن يضيف أن هذا الرأي لا يصدق على الفن وحده، بل يصدق كذلك على الدين، فالإدراك الحدسي لا يعرف الله ولا يقيس أبعاده. وإنما هو يحس ما فيه من جمال وخير وحق.

ويستطرد كروتشي فيقول إن الحدس أسبق وأسمى من المعرفة العقلية. فنحن نتخيل قبل أن نعقل، وعلى ذلك فنحن فنانون قبل أن نكون علماء. " قبل وبعد " إذ الفن يسبق العلم، ويتبعه. وفي النهاية يضمه بين جوانحه. قال كروتشي إن أعلام الفن قد أدركوا هذ الحقيقة. فمن ملاحظات مايكل أنجلو: " أن الإنسان لا يصور بيديه، بل بقلبه ". وما خلق آية فنية إلا مسألة إدراك بالحدس، أما إخراجها في لوحة أو تمثال أو قصيدة شعرية أو أغنية فليس إلا صياغة آلية ومهارة يدوية. وأضاف كروتشي قوله: " إذا نحن استطعنا أن نسيطر على الكلمة الباطنية أو ندرك صورة أو تمثالا إدراكا جليًّا واضحًا، أو أن نجد موضوعا موسيقيًّا، فإن التعبير عندئذ يولد ويكون كاملا، وذلك كل ما نريد. فإذا ما انفتحت أفواهنا عن كلام أو غناء .. وإذا ما مست أيدينا مضارب البيانو .. وإذا ما تناولنا قلمًا أو إزميلا أو فرشاة. فكل ما نفعله حينئذ هو أن نفعل خارجيا في مثابرة ما فعلناه باطنيًّا في سرعة وإيجاز ".

أما أولئك الذين تعوزهم موهبة الخلق ففي وسعهم أن يكونوا أن ينموا مقدرتهم على الفهم والإدراك - أي مقدرتهم على " التآلف مع موسيقى العالم ". فكل واحد منا، لو أراد، يمكنه أن يؤهل نفسه للحصول على درجة بكالوريوس رضي الله عنﷺ في تقدير الجمال رضي الله عنOf eautyﷺppreciation من جامعة الحياة. كذلك الحال

في معاملاتنا المالية (ميدان الاقتصاد)، ومدركاتنا الوجدانية (دنيا الفن) أيضا، فإن في وسعنا أن نتعلم كيف نكون الصورة الذهنية الصحيحة لعلاقاتنا الفردية مع العالم. فليست العدالة الاقتصادية والجمال الفني نتيجة عبقرية العالم أو الفنان فحسب وإنما هما كذلك نتيجة مقدرة الرجل العادي على إدراك وتطبيق الصور الذهنية الجزئية الصحيحة لعالم متماسك.

وهذا العالم المتماسك - وهي ترجمة لكلمة رحمه اللهonsistent المأخوذة من الأصل اللاتيني رحمه اللهonsistere بمعنى " يقف معا " - قوامة العدالة الاقتصادية، والجمال الفني وروح أخلاقية تسود علاقاتنا الحرة.

٥

ويجرنا هذا إلى الأخلاق عند كروتشي الذي يؤكد أن الشيء المهم في الحياة ليس هو إدراك الصورة الذهنية الصحيحة فحسب، وإنما هو القيام بالعمل الصحيح كذلك. " فالعمل الروحي وحده هو الذي يمكن اعتباره جميلا ومنطقيًّا، ومفيدا وصالحا ". وبالرغم من أن كروتشي كثيرًا ما نقد الأديان القائمة يومئذ، إلا أنه كان في أعماقه رجلا مؤمنا بعقيدته الدينية أشد الإيمان.

وقد عبر عن هذه العقيدة بأوضح ما يمكن في رسالته: " لماذا لا يسعنا إلا أن نسمي أنفسنا مسيحيين ". فقد لاحظ: " أن المسيحية أعظم ثورة قامت في التاريخ ". فقد ألهمت الجنس البشري إلى سلوك طريق جديدة في الحياة - من العدالة إلى الرحمة، ومن الرحمة إلى المحبة. والمسيحية تمثل المظهر الروحي للديمقراطية، لأنها تؤكد مساواة البشر جميعًا في الكرامة.

ويلاحظ كروتشي أن ما هو صحيح وحق عن المسيحية، صحيح وحق

أيضا عن كل الأديان الكبرى الأخرى في العالم. نعم إن المسيحية في تقدمها، شأنها في ذلك شأن أي دين عظيم آخر قد اكتظت " بالخرافات والأساطير ". ولكن بالرغم من كثرة هذه الزوائد، فقد احتفظت بحقيقتها الأصلية الأخلاقية. ولذلك فمن واجبنا أن نقدرها لما احتفظت به من نقاء، بدلا من أن نعيب عليها ما أصيبت به من فساد. ويذكرنا كروتشي في هذا المقام بقوله: " إننا نقرأ هومر، لا بحثا عما به من أخطاء، ولكن سعيا وراء ما فيه من حقائق ".

إن القيمة الحقيقية للمسيحية، ولأي ديانة عظيمة أخرى، هي في كونها محور الثبات في دوامة عواطفنا الإنسانية، فليس لنا أن ننقدها بسبب طقوسها، ولكن علينا بالأحرى أن نكرمها لما فيها من صلاح، فحتى العلم والفلسفة لا يخلوان من أخطاء. وهل الطقوس الدينية خطأ كلها؟ إنها لا تخلو من تهذيب الإنسان وتدريبه على الخلق القويم، فللعقيدة الدينية - كائنة ما كانت - وظيفتها في المجتمع، مهما قيل عن طقوسها بعد ذلك.

وهكذا ترى رجال الكنيسة يحاولون المحافظة على نظم الماضي، في حين يحاول الفلاسفة والعلماء أن يبتكروا نظامًا أفضل للمستقبل.

ولا تهدمن المنزل القديم قبل أن تنتهي من إقامة المنزل الجديد. فينبغي أن يقوم التفاهم - بدل الشحناء - بين حماة التقاليد ورواد التجديد، فيتساندون في طريق صعودنا في طريق التقدم.

وما هذا التآلف بين النظام والتقدم، بين الدين والفلسفة، بين التحمس القديم والسعي وراء الجديد، إلا جزء من التآلف العام الذي كان كروتشي يأمل أن يراه قائمًا في العلاقة الأخلاقية بين الإنسان وأخيه الإنسان. وقد كتب كروتشي سلسلة من المقالات تبحث في المواءمة بين الفرد ومطالب المدنية

الدينية منها والفلسفية، ومن الملاحظ أن الدين والفلاسفة يتحدث كلاهما نفس اللغة الأخلاقية: وهي أن توائم بين نفسك وبين عالم الحقيقة المنطقي، ولا تحيا في عالم غير منطقي من الأحلام المتقلبة. هل أصبحت بالخيبة، وأسيئت معاملتك، وأسند إليك عمل لا يلائمك؟ إذن فلا تستجر من رمضاء الشر المؤقت بنار الكره الدائم. وهل تظن أن سعادتك هي في أن تشهد موت العدو الذي تخشاه؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنت لم تهرب من عدوك. بل إنك لم تهرب حتى من مخاوفك الشخصية. وكل ما في الأمر أنك قد أضعت فرصتك لمواجهة العدو بشجاعة، بل لعلك لم تهيء الفرصة لتهدي هذا العدو وتتخذ منه صديقا.

ولنأخذ مثلا آخر من الأخلاق العملية. فكل إنسان تحبه مقضي عليه بالموت. فهل ينبغي لك أن تحصن قلبك إزاء فقدك من تحب بأن تحد من محبتك إياهم؟ يجيب كروتشي عن هذا السؤل بالنفي. إذ أننا على النقيض من ذلك، نرى المحبة الحقيقية في عالمنا الواقعي هذا، نتقبل الألم والسرور سواء بسواء، لا .. بل إن أحدهما هو ما يقابل الآخر، كما يقابل الليل النهار، والشتاء الربيع. وما آلامنا ومعاناتنا إلا العوائق التي توضع في الطريق لرياضة نفوسنا. " والسعادة الحقة لا نحصل عليها إلا إذا تعلمنا كيف نحب بروح تبلغ من السمو حدا نستطيع عنده أن نكون قادرين على الصمود في وجه الحزن واحتمال الأسى " - أو بمعنى آخر يكون في مقدورنا أن " نتخطى حدود الحب القديم ونضيف إليه كذلك حبًّا جديدً أعظم ".

ألا إن الغاية من المحبة، والإخلاص، وكل المبادىء الأخلاقية، إن هي إلا تحصين للفرد ضد ضعفه الذاتي، وإعداده ليكون شخصية متوائمة مع حياة معقولة.

٦

كان كروتشي يعارض الحركات الهدامة بأنواعها جميعًا: النازية والفاشية والشيوعية التي من شأنها أن تهدد بتحطيم هذا الضرب من الحياة المعقولة، فقد ظل حتى آخر أيامه يمقت الانفجارات والزلازل وحاول أثناء الانقلاب الفاشي أن يهيء عقول الناس لتقبل حكومة جديدة تسير على منهاج العقل. ولما سقط موسوليني وعاد فكتور عمانويل إلى العرش، رفض كروتشي أن يطأطىء له الرأس لأنه يكره وحشية الاستبداد كما يكره فوضى الفاشية، ولذلك كان كروتشي في طليعة أولئك الذين أصروا على خلع الملك العنيد.

ولكن كروتشي خلال هذه الانقلابات السياسية كان مصمما على عودة سلمية إلى الاستقرار. حتى إنه عندما اغتيل جنتيلي على أيدي أعداء الفاشية، عبر كروتشي عن فزعه من الميتة البشعة التي مات بها عدوه ". إنني كنت آمل أن أؤمن حياته الشخصية، وأهديه وأرده إلى الدراسات التي كان قد هجرها ".

فهذه هي فلسفة كروتشي في إيجاز: لتحمين أعداءك، ولتحاولن بذلك أن تجعل منهم أصدقاء لك. ولتعلمن أن الهداية في المعركة بين الخير والشر هي أمضى سلاحا من القتل. وما إن تنازل الملك عمانويل عن العرش، حتى طلب إلى كروتشي في إلحاح أن يعود إلى الصراع السياسي. وكان الناس يريدونه أن يكون رئيس الجمهورية الإيطالية الجديدة. ولكنه رفض شرف المنصب، إذ ذهبت الأيام التي كان فيها فيلسوفا سياسيًّا. ولم يعد لنفسه بعدئذ إلا أن يظل معلمًا.

ولم تفتر همته في التعليم حتى النهاية. ولما بلغ من العمر ثمانين عاما (أي في

عام ١٩٤٦) بدأ في إلقاء سلسلة من المحاضرات على طلبة الدراسات العليا - وذلك تعويضًا له كما قال - عما فاته بانصرافه الاضطراري عن مهنة التدريس في أثناء قيام النظام الفاشيستي. وفي السنة الرابعة والثمانين من عمره أشرف على الموت لإصابته بنزيف مخي. ولكنه استعاد صحته لعامين آخرين قضاهما في إلقاء المحاضرات والكتابة وتحديد معالم الطريق إلى حياة أعظم نفعا وجمالا وعقيدة. ولما جاء الأجل كتب أحد تلاميذه يصف عزيزه " دون بندتو " بأنه كان رجلا " له وجه خشن كوجه المقاتل، وعينان حساستان كعيني

القديس ".
بياض بالأصل
الجزء السابع
فلاسفة أمريكيون محدثون
بياض بالأصل

٩ الجزء السابع: فلاسفة أمريكيون محدثون

٩٠١ الفصل السادس والعشرون: رالف والدو إمرسن

الفصل السادس والعشرون
رالف والدو إمرسن
(١٨٠٣ - ١٨٨٢)

كان إمرسن أول تلميذ أمريكي اعتنق الرأي الهندي القديم الذي ينادي " بالقانون الأسمى - وحدة الجنس البشري ". ويمكن اعتباره المهندس المعماري الأمريكي الذي وضع تصميم الأمم المتحدة. ومعلم التسامحه الشامل نحو الحرية الفردية، والداعي إلى التعاون المتبادل بدلا من الريبة المتبادلة بين جميع أفراد الأسرة الإنسانية، وفي الخامس عشر من يوليو عام ١٨٣٨ ألقى خطاباً أمام طلاب السنة النهائية في كلية اللاهوت الملحقة بجامعة هارفارد، وفي هذا الخطاب أوضح نقطة الضعف الأمريكية الكثيرة - ألا وهي الاهتمام القومي بتحسين المصنوعات التافهة بدلا من الاهتمام بتخريج معلمين من طراز أفضل. ولكنه أشار كذلك إلى القوة الأمريكية الكامنة العظيمة. فأمريكا، كما أعلن، يمكن أن تصبح مسرحا لأشرف تجربة في العالم - أو قل " راعية كل فكر جديد، وكل رأي لم تثبت صحته بعد "، وكل مشروع لم يجرب بعد " مما يمكن أن يقود الجنس البشري في زحف متحد إلى التعايش الودي والسلام.

وقصارى القول، فقد وضع قانون الإنسانية الأخلاق على قاعدة عملية أمريكية - هي أنه علينا: أن نعيش، وندع غيرنا يعيش، ونعاون غيرنا على أن يعيش. وهكذا عبر عن الفلسفة الشرقية القديمة - والكثير من الفلسفة الغربية الحديثة - بلهجة أمريكية.

٢

فقد إمرسن أباه وهو ما زال طفلا. ففتحت أمه نزلا لكي تعول أبناءها الخمسة الصغار. ولذلك تعلم رالف منذ نعومة أظفاره أن يتعرف إلى الناس ويحبهم، كما أنه اكتسب نظرته المتفائلة إلى الحياة أي براعته في أن يظل مبتهجا وهو بين مخالب الفقر، ففي الشتاء لم يكن له ولأحد إخوته سوى معطف واحد يتبادلانه، ولذا كانا يضطران أن يرتدياه بالتناوب يوما بعد يوم. وقد استغل رالف ملازمت للبيت أحسن استغلال، فكان ينصت إلى المحادثة التي تجري بين الكبار، ويقرأ ما في مكتبة أمه من كتب. وقبل أن يبلغ دور المراهقة كان قد ألم بفلسفة أفلاطون وبسكال والأوبانيشاد.

ولكن غذاءه البدني أحيانا لم يكن يعادل حياته الروحية. فقد كان من العسير على أمه أن توازن بين الدخل والنفقات. وكان في وسعها أن تعيش بنفقات أقل في الريف، ولكنها أصرت على البقاء في بوسطن، لأن أطفالها، كما قالت، " ولدوا ليتعلموا "، " ليقفوا على منبر الوعظ مثل أبيهم ". فألحقت رالف بمدرسة بوسطن اللاتينية، وهي أقدم مدرسة خاصة في القطر، ثم ضيقت على نفسها وعملت وكدحت لتلحقه بهارفارد ليتم دراسته. وكان أن تخرج وهو لا يتعدى الثامنة عشرة من عمره، طويل القامة، نحيل القوام أشبه ما يكون بعمود المصباح، وفي عينيه وهج واحمرار كوهج المصباح. ولم يكن هذا الوهج إلا نار العبقرية المشتعلة في هاتين العينين، ولهيب المرض يشع منهما. لقد وقع فريسة المرض الذي أصيبت به أسرة إمرسن - وهو السل - الذي قضى على أبيه من قبل، وكان على وشك إفناء إثنين من إخوته. وهكذا عاش لاثني عشر عاما " في منزل الألم "، وقاتل الموت قتال المستميت، وجاهد ليجد مركزا ماليا وماديا على السواء لكي يطل منه على الحياة. فحاول التدريس بين تلال روكسبري، وهي إحدى ضواحي بوسطن، " حيث يستطيع بسطاء الريف أن يقابلوا الله. وكان يكتب شعرا له رنين النثر، ونثرا ينشد كالشعر، ولكنه عجز عن أن يبيع من شعره أو نثره ما يمكنه

من كسب قوته. وكان إذا ما دعي لإلقاء العظات في الكنائس المختلفة، خلب لب أفراد المصلين بصوته - هذه الآلة الذهبية الرخيمة الحنون التي كانت تذيب صقيع القواعد والأصول المرعية في نيو انجلند وكانها شمس إبريل. ومصداقا لذلك كتبت سيدة من أهالي نورثمبتن إلى شقيقتها تقول: " يا للعجب يا سالي! فقد كنا نظن أننا سنكرم وفادة رجل تقي معوز، ولكن ها هو ذا، ملاك يفاجئنا على غرة ".

لكن هذا الملاك الأمريكي كان قد خرج على العرف التقليدي في الدين إلى درجة أغضبت " عمد الكنيسة ". كما كان له من صدق مسيحيته مالا يصلح معه أن يكون لاهوتيا. فقد قال إن الناس يبالغون في رعاية الناحية الشكلية من الدين، في حين لا يهتمون بالناحية الروحية الواجبة. حتى لقد حدث أن سادن إحدى الكنائس شك من أن إمرسن لم يكن في وسعه " أن يعظ في إحدى الجنائز بطريقة يكون لها أثرها المطلوب ".

كلا لم يكن إمرسن الرجل الذي يستطيع أن يعظ الناس بطريقة حزينة وهو يتحدث عن الموت. فقد كان شاعر الحياة. ولذلك تخلى عن الوعظ من المنابر وخرج إلى الحياة يبحث عن معناها. وأخذ يجوب في الريف طويلا محاولا أن يوفق بين أذنه وقلبه وبين أنغام الطبيعة الموسيقية. فلم يكن كما سبق أن أشار الفلاسفة الشرقيون القدامى، إلا جزءًا لا يتجزأ من عالم حي. وكان عقله خلية هامة في عقل العالم - أو كما كان يفضل هو أن يسميه " روح

العالم أو الروح الفوقية ". وإعادة هذا الكشف المجرد لحقيقة قديمة أدت به إلى فلسفة علمية. فلاحظ، عندما فكر في العلاقة الوثيقة بين نفسه وبين بقية العالم، أن كيانه كله قد كهربته اندفاقة كبيرة من القوة، وثقة فائقة بنفسه وإخوانه في البشرية. وبدت هذه القوة ولا حد لها. وشعر بأنه على وفاق مع العالم، وأن التاريخ كله إن هو إلا حاضر لا نهاية له، وكل إنسان ما هو إلا صورة خالدة من الله. وكانت هذه القوة التي يحس بها في شركته مع الطبيعة طوع بنانه ورهن إشارته دائمًا، فيستعين بها كلما أراد. وقد أمكنه أن يعلم الآخرين أن يستمدوا العون من هذه القوة الكامنة في داخل نفوسهم. وخلص من ذلك إلى أن كلا منا يملك ينبوعًا روحيًّا يكفي للقيام بعمل عظيم، وأعني به اكتساب الجمال والبهجة والأمل والصداقة والسلام. ثم مبادلتها مع الآخرين، فهو يقول في هذا الصدد: " إن مشكلة معظم الناس تنحصر في أنهم أشبه ما يكونون بالأطفال الغافلين عن التراث الذي بين أيديهم. فلتحافظوا على تراثكم. واطلبوه تجدوه! ".

وكانت فلسفة شديدة الملاءمة لروح الريادة في أمريكا. فنحن دومًا، كما قال، على وشك أن ننجز كل ما هو عظيم. ولتكن لكم ثقة في أنفسكم. ولتطالبوا بنصيبكم من عظمة الحياة. ولتتحققوا من صلتكم بالله. ولتذعنوا للقوة الكامنة في أعماقكم. ولتكن لديكم الجرأة لتصبحوا سادة أقداركم.

لقد وجد إمرسن مهمته في الحياة، فكان كأنما هو بائع متجول، وبضاعته الأمل - أو " أستاذ علم البهجة "، إذا ما استخدمنا تعبير إمرسن نفسه.

٣

لم تكن حياة إمرسن الشخصية كلها بهجة وسرورًا، فهي لم تخل من

الحزن والأسى. فبعد أن أحب وتزوج، فَقَدَ زوجته، وحدث كل هذا في مدة لم تتجاوز ثمانية عشر شهرا. ولعامين بعد وفاتهما ظل يزور قبرهما كل يوم، وتوقع أنه سيلحق بها قريبًا - فقد كان سعاله الموجع أشبه ما يكون " بقرار صوت سادِن الكنيسة وهو ينشد رثاء جنائزيًّا ".

ولكن فلسفة إمرسن كانت دعوة إلى الحياة لا الموت. فرحل إلى أوروبا لكي يزداد علمًا بالحياة على أيدي قادة الدنيا القديمة. ثم عاد بعدئذ إلى أمريكا ليصبح رائد الدنيا الجديدة.

وقد وجد مدرسة من نوع جديد في قاعة محاضرات القرية. وهنا، حيث لا تقيده أغلال المذاهب التقليدية، أخذ يعبر عن آرائه في كل شيء تحت الشمس وفوقها. ولم يكن هذا الطريق الذي اختار أن يسير فيه طريقًا سهلا. فقد صمم كهنة بوسطن وكمبردج على أن يضعوا حدًّا لتعاليمه " الهدامة ". وحدث مرة أن صاحوا به أن ينزل عن المنصة عندما حاول أن يحاضر في هارفارد. ولكن بالرغم

من ذلك فإن البسطاء من الناس كانوا يدركون ما في صوته من إخلاص، ولو عجزوا عن فهم ما تحمله كلماته من معنى. فكانوا يحسون عندما ينصتون إليه، أن بينهم رجلا تتفق روحه مع أرواحهم.

وكانت تدر عليه محاضراته ما يقرب من ثمانمائة دولار سنويًّا، مما يعد كافيًا لإشباع حاجاته المتواضعة. وفي الحقيقة كان يشعر أنه غني بما فيه الكفاية. فاشترى منزلا صغيرًا - أطلق عليه اسم " القصر " - في كونكورد من أعمال ولاية ماساشوستس، وتزوج للمرة الثانية، ثم قر قراره على أن يجعل الحكمة في متناول الفرد العادي.

وكانت مدينة كونكورد الصغيرة، في عصر إمرسن، إحدى الجنات

الروحية في تاريخ العالم. ولسبب غريب لا تفسير له يتخير الآلهة من وقت إلى آخر بقعة صغيرة على ظهر الأرض ويعمرونها بأبناء السماء. وهذا ما حدث في أثينا خلال القرن الخامس قبل الميلاد في عصر أسخيلوس ويوريبيدس وفيدياس وسقراط وأفلاطون؛ كما حدث في لندن في أثناء حكم إليزابيث، عهد بومونت وجونسون وفلتشر وبيكون وشكسبير؛ وفي ألمانيا خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، عصر جوته وشيار وموازر وبيتهوفن وبرامز؛ وفي روسيا خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، جيل ترجنيف ودستويفسكي وتشيكوف وتشايكفسكي وتولستوي. ونلاحظ في كونوكورد أيام إمرسن ازدهارًا مشابهًا للروح الإنسانية، وإن كان بدرجة أقل نوعًا. وكان من بين خلصاء إمرسن الحميمين ناثنيال هوثورن، " ضمير أمريكا "، ومرجريت فُولر، الساحرة التي كانت تلعب بالأفكار كما يلعب الحاوي بالكرات الملونة، وبرُنسون ألكُت، النبي المتجول الذي جمع بين حكمة أفلاطون وحماسة " القديس فرانسيس "، وهنري ثورو، الشريد الورع الذي كان يبلغ دخله السنوي حوالي خمسة وعشرين دولارًا، لكن رأس ماله هو الحب الذي لا نهاية له، " و" العمة ماري " إمرسن، اللهيب الحي، التي كان يبلغ طولها أربع أقدام وثلاث بوصات، والتي كانت بردائها الأبيض وشالها القرمزي، تعدو على ظهر جوادها عبر حقول كونكورد، تلك " المغامِرة الفطنة " التي كانت تستطيع بذكائها وسرعة بديهتها أن تمزق أقنعة العنجهية التي كان يتقنع بها أرباب الحكمة في هارفارد.

وكان إمرسن يتبادل الآراء عن الجرذان، والناس، ومعنى الحياة مع جيرانه وأصدقائه في كونكورد ممن تتفق طباعهم وإياه. ثم لا يلبث أن يدخل إلى غرفة مكتبه ويسكُّ هذه الآراء في عملة ذهبية، هي محاضراته ومقالاته. وكان

يعرض أفكاره في أضواء صوفية كانت - كالشمس - قد بزغت من الشرق. هذه الأضواء التي أنارت القلب وأدخلت إليه الدفء والسرور. " افرحوا ثم افرحوا، فإن ما قدر لكم أعظم مما تظنون! " ومن أقوال إمرسن، مرددا رأي زرادشت، بأن الخالدين المباركين يسرعون في ملاقاة أولئك الذين يؤمنون بأنفسهم.

وقد نشر إمرسن نور فلسفته في أنحاء نيوانجلند، وفي الجنوب، وعبر القارة، حتى بلغ كاليفورنيا. وتحدث إلى جميع أنواع الناس، من مدرسين، وتجار، وعمال، وشعراء، ورواد. كما حمل إلى الكثيرين ممن استمعوا إليه رسالة الرجاء الشخصي. وبعث فيهم روحا من الهدوء والصفاء قائمة على عقيدته الشخصية السامية؛ إذ كان يؤمن بعدالة الحرية الأمريكية وبطولة الرجل الأمريكي العادي.

٤

وكانت فلسفة إمرسن، مثل شخصيته، خالية من التكلف والشكليات، فلم يتعالم في خطة يقدمها لتجديد الجنس البشري. بل أخذ الناس على علاتهم، كما وجدهم، ثم أشعل في دخائل نفوسهم الشرارة المقدسة التي كانت، كما أكد لهم، في حوزة كل منهم. وكانت آراؤه مبعثرة في مقالاته من أولها إلى آخرها، فلم يحاول أن يربط بينها. " فلندع هذه الآراء تسقط كما تسقط البذور من اليد فتذروها الرياح. وإذا ما استقرت في أي بقعة خصبة، أزهرت وأثمرت ". وقد كونت أزهار فلسفته وثمارها منظرًا طبيعيًّا كانت له صورته المحددة. ويمكن أن نلخص هذه الصورة في إيجاز كما يلي:

يجب على أمريكا أن تلقي عن كاهلها المعتقدات البالية، معتقدات عالم

يحتضر. " فنحن نعيش في أرجاء عالم جديد، بين شعب جديد، وفي ظل أفكار جديدة ". إننا في حاجة إلى نوع جديد من الفضيلة - فضيلة " يكون الإقدام من مقوماتها ". فيجب أن نتحلى بالاعتزاز بعملنا والعدالة لعمالنا. لأن العمال إن هم إلا الطريق الذي بوساطته

تتحقق أماني القلة لمصلحة الكثرة. ومعنى هذا أن تصبح أمريكا بلد الأفكار العظيمة والأعمال العظيمة. ولا يقصد بالأعمال العظيمة تلك الأعمال المتحررة الدينامية الجريئة التي نقوم بها خدمة لأنفسنا مستقلين فحسب، وإنما خدمة متبادلة كذلك. ولنعمل جميعًا متحدين من غير ما خوف أو وجل من أجل الصالح العام. " فالقلب الذي بين جوانحك هو القلب الذي يشترك فيه الجميع ".

فهل تخشى، وأنت تسلك سبيلك الجديد، أن يساء فهمك؟ " إن هذه كلمة أحمق مجنون. إذ ليس شرًّا أن يساء فهمك. ألم يُسَأ فهم فيثاغورس، وسقراط، والنبي عيسى، ولوثر، وكوبرنيق، وجاليليو، ونيوتن، وكل روح طاهرة حكيمة تجسدت يوما؟! .. فلكي تكون عظيما معناه أن يساء فهمك ".

علينا " ألا نخني رؤوسنا أو نعتذر بتاتا " ونحن نسير قدما في تجربتنا الأمريكية العظيمة. وبلادنا يجب أن تسيطر عليها إرادة روادنا القوية الحازمة. وترشدها مشورة فلاسفتنا الهادئة الحكيمة. وما الهدف من تجربتنا هذه: ديمقراطية شاملة في النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية جميعها. إننا نبني أمل المستقبل على أساس الأخطاء الماضية. فلا تتخذ من ماضيك منصة تقف عليها، بل اتخذ منه جسرًا تتقدم عن طريقه للأمام. ولننظر إلى أمريكا على أنها بلاد الأبطال الذين راحوا يتحسسون الطريق ويتعثرون. ولكنهم بالرغم من ذلك أخذوا يتطلعون إلى الأمام ويعتمدون على أنفسهم، فامض في محاولاتك وأخطائك

وإخفاقك، ولكن لا تيأس. فعلى الرغم من إخفاقك، وعلى الرغم من آلامك وعنائك، وعلى الرغم من مخاوفك، سر في " مقاومتك قدما ". فليس هذا مضمار السرعة، ولكنه مضمار ثبات العزم وعقد النية. فهل نُحِّيتَ جانبا؟ وهل تعثرت؟ إذا كان الأمر كذلك فلا تهتم بالسخرية، ولا تكترث بالهزيمة، بل انهض مرة ثانية، أيها القلب الكبير! " ولتطب نفسا ... وصبرا ثم صبرا، فالنصر حليفنا في آخر الأمر ".

يقول إمرسن إن هذا العالم هو لأصحاب الهمة والنشاط، ومن يتصفون بالجرأة. ولتكن جريئا في إثبات وجودك كمواطن صالح في جمهورية البشري العظيمة. فإن خروجك إلى نور هذه الحياة لم يكن خطأ. بل إنك ضعيف قد دعيت إلى مأدبة الحياة، وليس الذي أرسل إليك الدعوة مضيفًا شحيحًا، فالكرم الإلهي يختبيء في مكان ما وراء سر الخليقة. " إن الذكاء وإرادة الخير كامنان في باطن الأشياء ".

ولكن كيف يمكنك أن تكيف نفسك على أحسن وجه مع الخير الذكي الذي يكمن في باطن الأشياء؟ وبعبارة أخرى، كيف يمكنك أن تخدم نفسك على أحسن وجه في هذه المأدبة التي أقامتها الآلهة؟ يؤكد إمرسن أن هذا لا يتم إلا بخدمة الآخرين ومعاونتهم. وليس هذا، عند إمرسن، مجرد شعار لمدارس الأحد. لا، بل إنه جوهر فلسفته الحقيقي. فهو يعتقد أننا جميعًا أعضاء جسد واحد، وأنه ليس للإنسانية كلها إلا روح واحدة. وما اعتمادك على نفسك إلا إعداد نفسك لتتآلف وتتناسق مع جسد الجنس البشري المتمدين وروحه، ومعنى هذا أن تمكن الآخرين، أو بالأحرى الأجزاء الأخرى من نفسك، من أن يستمتعوا بما في العالم من أشياء صالحة خيرة. فالحياة إن هي إلا صلات

متداخلة متبادلة. وأكثر الناس إخلاصًا لنفسه هو أكثر الناس إخلاصا للآخرين، فليس هناك إلا درس واحد عام يجب علينا أن نتعلمه - وذلك الدرس هو فن الصداقة والود.

فالصداقة، عند إمرسن، هي أسمى شيء في الوجود. فهو يقول إنها هبة في متناولنا جميعًا، فقد " توافد أصدقائي عليَّ من غير ما دعوة. إن الله العظيم قد أرسلهم إليّ ".

ويكتب إمرسن عن الصداقة فيقول: إن ماهيتها هي " التكامل التام " - أو قل هي اندماج شخصيات مختلفة في ماهية واحدة. وهذا الاندماج يجعلنا نُسَرُّ لفوز الآخرين. " فإنني أنفخر بما ينجز صديقي من أعمال حميدة وكأنها أعمالي الشخصية ". والروح تنشد الأصدقاء لكي تتمكن عن طريقهم من أن توثق معرفتها بنفسها.

" يا له من منزل تغمره السعادة، ذلك الذي يضم صديقا بين جدرانه .. " لأنه عندئذ يكون في سبيله إلي أن يكون وحدة كاملة. وهي وحدة المحبة. فإذا ما ظللتنا الصداقة، إذن، " فلنصمت - لكي نسمع همس الآلهة ". ففي موسيقى ذلك الهمس وحده نحس "

بانسكاب روحين في روح واحدة ".
ولكن علينا ألا نخطىء في تفسير الصداقة. فيجب ألا نخلط بينها وبين التحالف الأناني من أجل نفع شخصي. " إنني أمقت أن تهدر كرامة الصداقة بأن يفهم اسمها على معنى الأحلاف الدنيوية الحديثة الطراز ". فالصداقة الحقة تسمو على هذه العلاقات الشكلية الجوفاء، إنها جوهر له من صدق المضمون وطول الأمد ما يجعلها لو قورنت بها جبال الألب والانديز لكانت هذه الجبال بالقياس إليها كأنها أقواس قزح تظهر وتختفي ".
لتتعهدوا فن الصداقة بالرعاية تقتربوا من لب الحقيقة. فالصداقة الحقة تجعلك على اتصال وثيق بمعنى الحياة المقدس. فإذا ما وجدت من مددت إليه يد الصداقة عاجزا عن تقبلها أو مبادلتك إياها " فلن يضير الشمس أن تقع بعض أشعتها على غير الهدف الصحيح فتضيء مكانًا عاقا لفضلها، وألا يسقط منها إلا قدر ضئيل على الكوكب الأرضي فيعكس لها نورها. فلتجعل من عظمتك أداة تهذيب لرفيقك إذا وجدته جلفا باردًا ". وحتى إذا لم يكن أهلا لودك، " فإنك تزداد عظمة بإشراقك ... فتحلق في السماء وتدور في فلك الآلهة ".
وهكذا إذا أنت أعطيت نفسك صديقا لغيرك، لم تعد تشخص ببصرك إلى الظلال، وتبدأ في مشاهدة مصدر النور الحقيقي. " فلو سرت في الإنسان شفقة حانية على أرواح البشر، وشعر بأن كل إنسان آخر هو نفس أخرى ... لأحدث هذا الشعور أعمق التغير في عالم الأشياء فتفض المعسكرات، وتبلى السفن الحربية على الشواطىء، وتصدأ الأسلحة، وتصبح المدافع أعمدة النور في الشوارع، وتتحول الرماح إلى قصبات لشصوص السماك، وتغدو فرقة الجنود الزاحفة قافلة من الرواد المسالمين ".
" الرواد المسالمون ": كان هذا هو الحلم الذي يراود إمرسن - عالم من أصدقاء شجعان، متعاونين مبتهجين، متحابين، مغامرين.
***
وقد زعموا خطأ أن إمرسن لم يكن لديه ما يلقنه لجيلنا الحاضر. فلو أن إمرسن لم يكن لديه رسالة ينقلها إلينا، لما كانت هناك إذن رسالة يؤديها أشعياء، أو بوذا، أو أفلاطون، أو سبينوزا، أو عيسى، أو القديس بولس. فقد كان إمرسن، كما يذكرنا الأب تيلور " رسول العمال ": " أكثر شبها عيسى من أي رجل آخر في التاريخ الأمريكي ".

٩٠٢ الفصل السابع والعشرون: وليام جيمس

الفصل السابع والعشرون
وليام جيمس
(١٨٤٢ - ١٩١٠)
واصل وليام جيمس السير في اتجاه تيار الفلسفة الرئيسي الذي كان يتدفق من الشرق إلى الغرب. وسلم بأن العالم ليس إلا جسدًا واحدًا وروحًا واحدة. ولكنه عبر عن هذه الفكرة، مثلما فعل إمرسن، في لهجة إمريكية. فقال إنه لكي نصل إلى الحقيقة، علينا أن نطبق آراءنا الفلسفية على مشكلات الحياة العملية.
وفي عام ١٨٩٨ شغل بإلقاء سلسلة من المحاضرات في جامعة كاليفورنيا. وذات صباح مرة وقع بصره على ذئب أمريكي خر صريعًا لتوه. فسطر ملاحظاته عن الواقعة في خطاب أرسله إلى أطفاله.
ولم يكن هذا الخطاب إلا موجزًا لفلسفته التي لم تكن سوى مغامرة جريئة للتغلب على كروب الحياة. فكتب يقول: " كان هذا الحيوان الباسل الصغير ملقى على الأرض (بالقرب من الفندق)، بأذنيه الكبيرتين الوبريتين، وأسنانه البيضاء الناصعة، وجسمه المبهج المرح الصغير، ولكن حياته الجريئة القصيرة كانت قد انقضت. لقد جعلني أفكر في شجاعة كل هذه الأشياء الحية. فهذا الذئب الصغير لم يكن له ملبس ولا مسكن ولا كتب ولا أي شيء، لم يكن له إلا ذاته العارية ينفقها في سبيل حياته، ويخاطر بحياته في مرح - بل ويفقدها -
وهو يحاول التقاط أكله بالقرب من الفندق، وهكذا كان يقوم بمهمة الذئب قيام البطل. فمن الواجب أن تقوم بمهمتكم كصبية شجاعة، وأن أقوم أنا كذلك بمهمتي كرجل ببسالة، وإلا كنا أقل قدرًا من ذلك الذئب الصغير ".

" من الواجب أن تقوموا بمهمتكم كصبية، وأن أقوم أنا بمهمتي كرجل، في شجاعة ". فقد أدى وليام جيمس واجبه ببسالة وهو يسطر فلسفته بالرغم مما كان يعانيه من عذاب بدني. إذ ظل عليلا أكثر أيام حياته. ولبضع سنوات كان يفكر في الانتحار. وقد علق على ذلك بقوله إن الإنسان لا يعتبر كاملا من الناحية النفسية إلا إذا فكر في وقت أو آخر في إبادة نفسه. فالرجل الكامل هو ذلك الذي وقف على " حافة الهاوية "، ثم كانت لديه الجرأة أن يعود ويواجه الكون.

وجدير بالذكر أن وليام جيمس فيلسوف عملي يعلمنا كيف " نقف منتصبي القامة بقلوب راسخة لا تتزعزع " أمام أخطار لعبة الحياة.[٢]

ولد جيمس في نيويورك، فترعرع في جو مدينة كبيرة - جويتيمز بالتربية الخشنة اللازمة للبقاء وسط الزحام. ولم يكن جيمس كالزهرة ذات الجذور الراسخة، وإنما كان مخلوقًا قلقًا لا يستقر به مقام كالطائر يحلق بجناحيه، فأخذ ينتقل من مكان إلى مكان متطلعًا، واكتسب كثيرًا من تجاربه خلال تبادل اللكمات. ولما كان طفلا كان مصدرًا للضرر والأذى محبًّا للألعاب الخشنة. ولنستمع إليه يقول لأخيه الأصغر، هنري، الذي كان يميل إلى الهدوء نوعا: " أما أنا، فأحب أن ألعب مع الصبية الذين يسبون ويتشاجرون ".

أما دراسته المدرسية فقد جاءته مفككة في أقطار مختلفة من أوروبا. وكان أبوه، هنري جيمس الكبير، صوفيا هوايته أن يجوب بجسمه وروحه كذلك أنحاء العالم. فزار لندن، وباريس وبوردو، وجنيف وبون حيث رأى صنوفًا منوعة من الناس ومن اللغات والتجارب والعادات والأفكار، وهكذا اكتسب وليام جيمس مهارة لغوية ونظرة عالمية إلى الحياة.

وكان يهتم اهتمامًا خاصا بمعارض الفنون في أوروبا. وظل لفترة من الزمن يفكر في أن يصبح رساما. فدرس على يد الفنان وليام موريس، الذي كان صديقًا حميما له فلم يجد غضاضة في نصحه بأن هذا اللون من الفن لم يكن بميدانه.

ولذلك ترك فرشاته وبدأ يؤهل نفسه لاحتراف مهنة علمية. فالتحق بكلية لورانس العلمية بجامعة هارفارد - وكان آنئذ شابا صغيرًا غيورًا، اجتماعيًّا، بالرغم من علته وسقمه، ولم يكن يتطلع إلا إلى عدد قليل من سنوات الجد والنشاط في عالم الألم. وقد كتب يقول: " قضيت عاما في دراسة الكيميا، ثم مدة فصل دراسي في البيت ... ثم دراسة طبية، وبعدئذ خمس أو ست سنوات برفقة أجاسيز (أستاذ التاريخ الطبيعي العظيم بجامعة هارفارد) ولربما كان الموت بعد ذلك ... ".

ولقد توقفت دراسته الجامعية وانقطع حبلها كثيرًا، كما كانت الحال في دراسته الأولى. وكان في طالبا في كلية الطب بجامعة هارفارد عندما نشبت الحرب الأهلية. ولكنه لم يجند بلا ريب بسبب حالته الصحية الخطيرة. وبالرغم من ذلك رافق أجاسيز في رحلته العلمية إلى البرازيل وكاد يلقى حتفه في ريو دي جانيرو. ولما عاد إلى الولايات المتحدة أصيب بانهيار آخر عانى منه الكثير

فاتجه إلى أوروبا سعيًا وراء العلاج. وبالإضافة إلى مرضه البدني - وهو ضعف قلبه - كان يعاني من ضيق نفسي هو الذي دفعه إلى شفا الانتحار (كما ألمحنا من قبل). ولما لم يستطع أن يستعيد صحته في أوروبا، عاد إلى كمبردج حيث نجح بالعزم وحده في إتمام دراسته الطبية في عام ١٨٦٩.

ولكنه بالرغم من ذلك لم يمارس مهنة الطب. فلم يكن لديه الميل ولا القوة اللذان يؤهلانه للقيام بمهنة الطبيب الوعرة. فقر قراره على أن يرقب في هدوء " السنوات الأخيرة المتداعية في حياة رجل عليل ". وكان يقضي كل يوم بضع ساعات فحسب في القراءة؛ إذ منعه أطباؤه من القيام بأي مجهود يزيد من ضعف بصره. ولم يكن يسمح له إلا بالقيام بالقليل من الزيارات الاجتماعية، مما سبب ضيقا فظيعا لرجل في مثل طبيعة جيمس الوديعة.

وكانت هذه أتعس فترة في حياته. فقد كتب وصفًا حيًّا جليًّا لما كان يعانيه من ضيق نفسي في تلك الآونة: " ما إن اتجهت في إحدى الأمسيات إلى غرفة الملاس وقت الغسق. حتى انتابتني ذعر مفزع من وجود ذاتي. وقفزت إلى عقلي صورة مريض بالصرع كنت قد رأيته في مستشفى الأمراض العقلية. كان شابا له شعر أسود، وجلد ضارب إلى الخضرة، كامل العته، اعتاد أن يجلس طوال اليوم على إحدى الأرائك، مستندا إلى الحائط، جالسا القرفصاء وذقنه فوق ركبتيه. وكان يغطي وجهه كله القميص الخشن الرمادي المرفوع فوق هاتين الركبتين، والذي كان رداءه الوحيد. وامتزجت هذه الصورة مع ما كان اعتراني من الخوف امتزاجا من نوع خاص. فأحسست بأنه من المحتمل أن تكون هذه الصورة لي ".

" ثم كان أن أصبحت كتلة من الذعر المرتجف. ولعدة أشهر كنت
لا أستطيع الخروج إلى الظلام وحيدا. واجتاحني الذعر في قوة وعنف إلى حد أنني أعتقد أنه لولا تمسكي بآيات الكتاب المقدس مثل: " الله لنا ملجأ وقوة " و" تعالوا إلي يا جميع المتعبين وذوي الأحمال الثقيلة وأنا أريحكم "، لاختل عقلي من غير شك.
ولم ينقذه في النهاية سوى قراءته رسالة تشارلز رينوفيير في حرية الإرادة. فقد ذهب رينوفيير إلى أن ممارسة حرية الإرادة إن هي إلا " (العمل على) الإبقاء على فكرة لأنني أتخيرها دون سواها من الأفكار التي كان في مستطاعي أن أتخيرها بدل تلك الفكرة ". وقد وجد جيمس سببا يرجو من أجله حياة أطول، ألا وهو هذه الممارسة لحرية إرادته - أي اختياره الإرادي للإيمان بأن خلاصه إنما ينبع من دخيلة نفسه. " إنني سأقيم حياتي على العمل والمعاناة والخلق " - بالرغم من الألم والعذاب.
ولم جيمس ينساق مع التيار، ولكنه تأهب ليسبح "، وليؤدي عمله كرجل، في شجاعة. ولا نعني بذلك إلا الجرأة الفعالة، لا الكآبة السالبة، وقتال البواسل، لا هزيمة الجبناء. وهكذا ألقى جيمس بنفسه، بالرغم من علته البدنية، غير هياب ولا وجل في تيار الحياة.
٣
وتزوج جيمس وبدأ يحاضر في علم وظائف الأعضاء في هارفارد. ومن علم وظائف الأعضاء انتقل إلى علم النفس، ومن علم النفس إلى الفلسفة. وظل منذ لحظة خلاصه يعمل بجد على تخليص الجنس البشري.
فالفلسفة، كما أوضح مرارًا لتلاميذه، ليست حلا نهائيا لمشكلة الكون
الوحيدة الكثيرة - ألا وهي المعنى الأساسي لوجودنا، وإنما الفلسفة مرشد عملي يهدينا إلى حل المشاكل الكثيرة التي تعترض أوجه نشاطنا اليومي.
ولم يكن يهتم بتأسيس مدرسة في الفلسفة أو كسب الأتباع. ولكنه كان يرغب في أن يكون كل إنسان سيد نفسه. وكانت عبارته المفضلة آية مقتبسة من النبي حزقيال عليه الصلاة و السلامzekiel تقول: " يا ابن الإنسان، قم على قدميك، فأتكلم معك ".
وكان يتحدث إلى العالم في أسلوب علمي حتى يستطيع كل إنسان أن يفهمه. ومما يحكى عن الأخوين جيمس، أن هنري كان يؤلف الروايات وكأنه فيلسوف، في حين كان وليام يسطر الفلسفة وكأنه روائي. ولم يكن ينطبق على وليام جيمس من صفات الأستاذية إلا القليل. إذ كان يبدو، بجسمه النحيل ونشاطه وقامته القصيرة، مثل " صبي صغير ركبت على ذقنه لحية ". وقد تميزت شخصيته بنوع من المرح كالجني اللعوب، مما جعله عزيزا على طلبته. فكانوا يتبعونه، وكأنه مزمار هاملين، إثر خروجه من قاعة المحاضرات، عبر ميدان هارفارد، حتى يصل إلى بيته وهم يرشقونه بالأسئلة ويضحكون ضحكات مكتومة عندما يلقي إليهم بإجاباته الحكيمة المليئة بالملح والفكاهة. وكان يضع دائما مقامه العلمي في مرتبة أقل أهمية من حبه للمرح والمداعبة. حتى إنه كان يجد متعة في التحدث دومًا عن واقعة توضح وجهة نظره هذه. ففي إحدى محاضراته بينما كان يؤكد فكرة فلسفية مستعينا بذكر استعارة بسيطة لا تكلف فيها، إذا بأحد الطلبة يقاطعه قائلا: " ولكن سيدي الأستاذ، فلنكن جادين لحظة ".
وقلما كان يقف ثابتا وهو يحاضر. فقد كان يذرع المنصة ذهابا وجيئة. ويخطط الرسوم البيانية على الصورة، كما كان يشير بيديه كلما أراد أن يثبت
إحدى النقاط. وحدث يوما أنه لم يكن معه إلا صورة صغيرة يسهل حملها، ففي بادىء الأمر أمسكها بإحدى يديه وأخذ يكتب باليد الأخرى. فلما وجد أن هذه الطريقة مربكة إلى حد ما، ركع على أرض القاعة وبدأ يكتب. ولكن حتى هذه المحاولة لم تكن ناجحة، ولذلك تمدد على معدته وظل يكتب ويحاضر تلاميذه الذين كانوا ينصتون إليه في استغراق تام، فلم تنفرج شفاههم حتى عن ابتسامة.
وقد أحبه طلبته إلى حد العبادة، لأنه كان يتحدث وإياهم حديث الند للند، حديث الرجل للرجل. فكانوا يسمونه " الجدع الصادق غير الزائف " الذي يدرسهم " مادة صادقة غير زائفة ". وأمكنه أن يخرج بالفلسفة من حجرة الدراسة ويجعل منها مغامرة في طريق الحياة. وأكد أن كل واحد منا فيلسوف. فسواء عرفنا أم لم نعرف، فإنه يطلب إلينا على الدوام أن نتخذ قرارات في الأمور التي تخصنا. وهذه الضرورة التي تدفعنا لكي نتخذ قراراتنا بأنفسنا، و لكي نقف على أقدامنا بأنفسنا، هي التي تجعل منا جميعا فلاسفة.
وعلى ضوء هذه الحقيقة العامة، طور جيمس مذهبا من الفلسفة يمكن أن يعيننا في حل ما يحيرنا ويعرض لنا من مشكلات يومية.

وأطلق على هذه الفلسفة اسم " البراجماتية Pragmatism " وهو مأخوذ من الأصل اليوناني Pragma وهي كلمة معناها " عمل "، ونعني بهذا المذهب الفلسفة القائمة على السلوك العملي. إنها فلسفة العمل - لا بمعناه الضيق الذي ينحصر في تبادل البضائع في الأسواق - وإنما بمعناه الواسع الذي يضم التفاهم الأمين والتعامل العادل في كل معاملاتنا البشرية.

والفكرة التي تقوم عليها (البراجماتية) فكرة في غاية البساطة. فهي تخضع سلوكنا بأكمله لاختبار مادي واحد وهو أن نسأل: ألهذا السؤال ثمن مجز؟ وما هي " القيمة الفورية " لأي عمل نرغب في تأديته؟

يقول جيمس: " ولكن لا تسيئوا فهم هذه الفكرة. فإذا ما ذكرت القيمة الفورية فإنني لا أعني رد الثمن بالدولارات والسنتات، وإنما أقصد بها الجزاء في صورة صحة أسلم، وعقل أقوى وروح أجرأ ".

ولم يدفع جيمس إلى تخطيط فلسفته العملية سوى حاجته الشخصية. ففي أيام انهياره، كان يشير إلى نفسه " كنبات يتألم، لو أن هناك شيئا مثل هذا ". وكانت فلسفته العملية وسيلة للدفاع عن النفس، وتحديا لذاته لكي تنتزعه روحه من حالة القبوع التي كان يعيش فيها.

فلتعمل! ولتجرب! ولتَنْمُ! ولتمارس حرية إرادتك! وليكن اختيارك أن تكون قويا! وما هذا إلا تفسير لوصية إمرسن بضرورة اعتمادك على نفسك ومع ذلك فقد اقترب جيمس، في البداية، من هذه الفلسفة بعقل حذر. فعلى الرغم من أنه كان أمريكيا عمليا، إلا أنه أراد أن يثبت صحتها قبل أن يتقبلها شخصيا.

ونتيجة لذلك أخذ يطبق مبادىء هذه الفكرة قلبا وقالبا على نفسه في مختلف أنواع السلوك في حياته، فوجد أن الفكرة ناجحة، وقد منحته فلسفته حافزا أقوى على الحياة، وتسامحا أحكم نحو الآخرين، ونظرة أصفى إلى الكون، وآفاقا أوسع، ورضى أعمق، وسلاما أعظم. فأصبح عندئذ على أهبة الاستعداد ليلقن فلسفته للعالم. " أما وقد ثبت نفع هذه الفلسفة وعونها لي، فليس هناك ما يمنع من أن تكون عونا لكم، كذلك ".

٤

ولنفرض، إذن، أننا وضعنا هذه الفلسفة موضع الاختبار على ضوء تجاربنا الشخصية. فكيف يمكن للمذهب البراجماتي أن يساعدنا في عملنا، وموقفنا نحو أسرنا، وإيماننا (أو كفرنا) بالله؟ وفي آخر المطاف، ما هي الإجابة التي يمكن لهذه الفلسفة أن تجيبنا بها عن أكثر الأسئلة حيوية: هل الحياة جديرة بأن نحياها؟

ولنبدأ بدراسة علاقة البراجماتية بعملنا. وها هنا يحذرنا جيمس بألا نبالغ في تأكيد أهمية " تلك المعبودة المسعورة التي تسمى بالنجاح "، فيخاطبنا قائلا: لا تجعل هدفك مقصورا على النجاح وحده على حساب كل شيء سواه. فسواء كنت عاملا أو صاحب عمل، فإن الشيء الذي يدر عليك الربح الأكبر هو التعاون الودي، لا المنافسة العدائية. " فكلما ازددنا ضخامة ازددنا خوائ ووحشية ... لذا تراني ضد كل نجاح كبير وكل نتيجة عظيمة، وأميل إلى الأخذ جانب الضعفاء دائمًا ".

ولا تشته جمع المال الطائل لنفسك على حساب أقربائك. فهذا لا يجديك نفعا. " فأي خير يعود على الربح إذا كان معناه خسارة لرفاق من البشر؟ " فمهما تكن حرفتك، فإنك لا تعمل لنفسك فحسب، بل تعمل للمجتمع كله. وإنك لواجد سعادتك العظمى في مجتمع يقوم على العون المتبادل والأمانة المتبادلة والثقة المتبادلة. وفي مثل ذلك المجتمع - الذي عليك أن تساعد على خلقه - لا بد أن تكافأ على نشاطك بالحصول على أعلى الأجور في العالم. وما العملة التي تصرف بها هذه الأجور إلا راحة البال.

والبراجماتية التي تصدق على المكتب والمتجر شديدة الصلة بالبراجماتية التي تصدق على البيت. يقول جيمس: " إن فلسفتي قد علمتني أن أكون أكثر هدوءا مع أفراد أسرتي الشخصية ". وبالرغم من أنه كان يمتاز بروحه الاجتماعية، إلا أنه كان يجد في أسرته أعمق درجات الرضا. ففي الأسرة المنسجمة تظهر " القيمة الفورية " - ونعني بها رأس المال المتراكم من المحبة الموفورة. ويكتب في هذا " دين انج "، مرددا فلسفة وليام جيمس: " إن طريق التقدم تحدده المحبة الشخصية ".

ويقول جيمس إنه ليس هناك ما نخشاه ما دمنا نبقى على محبتنا، وما دام لنا بيت نمرح فيه، وأسرة نمرح معها. فهذا هو معنى البراجماتية - أي فلسفة الحياة العلمية - كما يجب أن تطبق في علاقاتنا الأسرية. فالأسرة تشبع شهوتنا الطبيعية إلى " الجماعية المنشودة ". ففي ميدان

الخدمة المتبادلة، يصل كل عضو في الأسرة المثالية إلى أكمل مرحل نموه الروحي. فيجد " الجزاء " في أن نشيع في بيتنا جوا من المرح الممزوج بصفاء المحبة.

وفي تطوير جيمس لفكرته العملية عن الصلات الأسرية، وسع حدود البيت حتى بلغت حدود العالم - وهكذا نرى أمامنا مرة أخرى فلسفة جنس بشري متحد. فهو يقول: إن العالم هو بيتنا المشترك، وسكانه جميعًا هم أفراد أسرتنا الواحدة. فأكثر جوانب الحياة نفعا، إذن، هو التبادل الودي للمحبة وحسن الطوية بين الناس جميعًا.

ويجرنا هذا إلى فكرة الفلسفة البراجماتية ومدى تطبيقها على الدين. فالدين الكامل الصحيح هو ذلك الذي يوحد الجنس البشري بأكمله ويجعل منه أسرة واحدة تعبد إلها واحدا.

إننا اليوم، كما قال جيمس، ننتمي إلى أديان متباينة، وذلك لأن لله عندنا مفاهيم مختلفة. فليس في وسع أحد - ومعرفتنا على ما هي عليه من نقص - أن يحتكر الحقيقة لنفسه. إذ أن كلا منا متفرج ينظر إلى الكون من وجهة نظر خاصة، وليس لأحد الحق في أن يزعم أن وجهة نظره هي الوحيدة المعصومة من الخطأ. " فلا يقتصر كشف الحقيقة كلها أو الخير كله على أي مشاهد واحد، ولو أن كل مشاهد يتميز بصدق البصيرة في ناحية معينة من المكان الخاص الذي يقف فيه ".

ولذلك كان علينا، بدلا من أن نتشاجر على وجهات نظرنا المختلفة، أن نضعها في صورة شاملة واحدة باشتراك البشر جميعا وإرشاد الله وهديه. وأما في حياتنا اليومية، فلكل منا أن يعتبر عقيدته ومذهبه وفكرته عن الله صحيحة بالنسبة إليه، إذا ما ما مكنه من حل مشكلاته اليومية حلا شريفا.

أما الحقيقة الكاملة عن الله، فقد لا نعرفها أبدًا. ففكرتنا عن طبيعة الله - كما يقول جيمس - شبيهة بفكرة حيوان عن طبيعة الإنسان. ولكن علينا ألا نجزع لهذا. وقد كتب جيمس في رسالة إلى ابنته يحدثها عن كلبه المدلل الذي كان يحتفظ به في منزله يقول: " إنه لا يدرك من أنا وماذا أكون. ولكنه يحس أنني صديقه. فيظل يهز ذيله طوال الوقت. وتنطبع له في ذهني صورة ملاك تلفه السحب. فهو يتوق إلى فعل الخير ".

فأنا وأنت، كذلك، كالملائكة تلفها السحب. ومهما كان الضباب الذي يلفك داكنًا، ففي وسعك أن تثق بشيء واحد، فإذا ما آمنت بالله فإن هذا الإيمان وحده لا بد أن يجعل من الله حقيقة واقعة في حياتك. وهكذا

ترى القيمة العملية لعقيدتك هي القيمة الفورية الروحية لاعتمادك على قوة خلقية تغمرك بحبها وصداقتها، وهي قوة أعظم من قوتك. إن الإيمان بالله لهو " استثمار مجز "، فهو يعود عليكم بكسب قوامه نفس مطمئنة. إنه يضع أمام عينيك هدفًا محددًا لحياتك، لأنه يزودك بمرشد قوي يهديك إلى تحقيق أسمى أمانيك.

أما إذا كنت تريد أن يكون الله في جانبك. فإن هذا رهن بأن تكون أنت في جانب الله. وهنا نصل إلى جانب من أهم جوانب فلسفة جيمس البراجماتية.

هل الحياة جديرة بأن نحياها؟ ويجيب جيمس عن هذا السؤال بواحدة من مُلَحِهِ الفكهة المعروفة عنه قائلاً: " إن هذا يتوقف على منْ ذا يحياها ".

ولكنه يعود إلى حالته الأكثر جدية فيزودنا بإجابة ملهمة عن هذا السؤال، إذ يقول: إنه لا شك في أن حياتنا جديرة باهتمامنا، لو أننا انتهجنا العيش بعون الله وأن نكون في عون الله. ولا يعتبر جيمس متشائمًا كما أنه ليس بالمتفائل، وإنما هو من " المصلحين " - إذ أنه فيلسوف لا يغمض عينيه عن شرور العالم ولكنه يعتقد أنه في وسعنا، لو أردنا، أن نصلح من هذه الشرور ونصنع عالمًا أفضل. ولما كان جيمس من أتباع فلسفة الشرق القديمة، وبخاصة فلسفة زرادشت، فإنه يرى الغاية من حياتنا هي في أن نشترك مع الله في بناء عالم كامل.

فالعالم الذي نعيش فيه لم يكتمل بناؤه بعد، إذ لا يزال أمامنا عمل هام كثير يجب القيام به قبل أن يصبح العالم تاما كاملا، والله يركن إلينا بهذا العمل لنكون عماله المخلصين، كما نتكل نحن عليه ليكون صاحب العمل الذي يغمرنا بحبه.

فلتؤدوا، إذن، عملاً طيبًا، كشركاء لله. ولتعاونوا في التخلص من كل عيب في المنزل الذي لم يكتمل بناؤه والذي قد استأجرتموه

مدي حيواتكم. ولتحاولوا أن تجعلوا منه بيتًا أكثر أمنا وأكثر جمالا وأكثر صلاحية للعيش فيه.
فحياتكم، إذن، إن هي إلا محاولة جريئة لإزالة القديم وبناء الجديد. " إنها مغامرة حقيقية يحفها خطر حقيقي ... ولكن بالرغم من ذلك فقد نجتاز المرحلة بنجاح لو أن كل عامل بمفرده بذل ما في وسعه ". ثم يستطرد جيمس بعدئذ متحديا كل واحد منا بشخصه قائلا: " هل لكم أن تلحقوا بالركب؟ هل لكم أن تثقوا بأنفسكم وتثقوا بالعمال الآخرين الثقة التي تمكنكم من مواجهة أخطر ".
وقصارى القول، فإن الفلسفة البراجماتية هي دعوة إلى بذل مجهودك الفردي في البناء المطرد لعالم أعظم وأفضل. كما أن معنى حياتك ينحصر في القيمة الفورية لما تقوم به من عمل، وهي القيمة التي تجيء على صورة من صور البهجة وفي محاولتك صنع عالم أفضل، يمكنك أن تحيا حياة شخصية أسعد.
ويلاحظ جيمس أن هذا ليس وعدًا مطلق الصدق، وإنما هو احتمال بدرجة معينة من الصدق وعلى كل حال فليس ما يهمنا هو مجد القاهر الظافر، بل هو بسالة المقاتل، إذا كان هذا المقاتل يقاتل وهو على حافة الخطر على أن فرصة النصر ما تنفك ماثلة.
ولذلك فبرغم العقبات عليك أن تجعل من حياتك مغامرة روحية ومادية على السواء، ولتستمر في مغامرتك حتى النهاية!.

٥

ولبث جيمس " يغامر " طوال حياته. ففي عام ١٩٠٦ كان يشغل منصب أستاذ بالتبادل في جامعة ستانفورد. وفي صبيحة الثامن عشر من إبريل، وهو اليوم الذي زلزلت الأرض فيه زالزاها في سان فرانسيسكو، أخذ القطار إلى تلك المدينة التي أصابها الدمار - وكان آنئذ في الرابعة والستين من عمره يعاني من علة قلبه - لكي يؤدي نصيبه الضئيل من الواجب نحو ضحايا تلك النكبة. ولاثنتي عشرة ساعة ظل يكافح وسط ألسنة اللهب المتأججة والجدران المتداعية، يقدم العون إلى المصابين ويجمع مادة لفلسفته التي تقوم على الدعوة إلى مثابرة الإنسان واحتماله وهو في أشد حالات الضيق والكرب والخطر.
وقد كان النشاط الذي قام به جيمس في أثناء النكبة التي نزلت بسان فرانسيسكو علامة مميزة لسيرة حياته كلها، وهكذا لم يكن جيمس فيلسوف أفكار فحسب، وإنما كان فيلسوف أعمال كذلك. وقد اشترك بجهوده في حركات كثيرة تستهدف إصلاح أحوال العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولم يكن يعمل من أجل أهداف مجردة فحسب، وإنما عمل أيضًا من أجل أفراد البشر. وكانت جرأته بالرغم من اعتلال صحته شرارة أشعلت في الآخرين نار الجرأة مثله. ويقول جيمس بأن لدينا جميعًا ذخيرة من الطاقة لا يستخدمها الكثيرون منا بتاتا.
فاستغل هذه القوة المدخرة في دخيلة نفسك، تدهش وقتئذ لما تراه من قدرتك على حل أصعب ما يعترضك من مشكلات. ولتقف على قدميك. ولتواجه ما يعترضك من أخطار. " ولتأخذ حياتك مأخذ الجهاد ". فلتكافح ما ينزل بك من محن وما تلاقيه من بغض العالم ورجسه.
وعملا بهذه الفلسفة، حارب جيمس الظلم الواقع على الكادحين، والتسابق على النجاح المادي وبغي الاستعمار، وجنون الحرب.
وكان يمقت الحرب. ولكنه كان يدرك أن غريزة المقاتلة عندنا قد لا يمكن استئصالها. ولذا فقد نادى بفكرة توجيه مجرى هذه الغريزة إلى ميدان " المعركة ضد الطبيعة ". وقال جيمس في هذا المقام إن على كل شاب أن يتطوع لمدة عامين في الجيش المقاتل - لا للتدمير ولكن للتعبير. فلنقم بإزالة الغابات، وتجفيف المستنقعات، وري الأراضي المهملة، وإقامة القناطر على الأنهار، والتغلب على الفيضانات، وإنتاج الطعام للجائعين، وإعداد المأوى للمشردين، ولنكرس جهودنا وأموالنا، التي تهدر بطريقة مفجعة على القتل، لما هو أكثر إنسانية فنركب الصعاب في سبيل مقاومة المرض، ولنسر معا هادفين إلى حياة أكثر ودا وسعادة وعافية.
لكن صحته، التي كانت في خطر دائم، انهارت في النهاية. ففي عام ١٩٠٧ قدم استقالته من منصب الأستاذية بجامعة هارفارد. ثم قام برحلة أخيرة إلى أوروبا، وما إن عاد حتى وافاه الأجل.
على أن عقله كان لا يزال تواقا إلى هداية الآخرين إلى فن الحياة. فقد ترك وراءه مذكرات خاصة بكتاب لم يعد في وسعه أن يكتبه. وكان العنوان المبدئي الذي تخيره أولا لهذا الكتاب هو " حمق الأثرة ".
وهكذا، حتى الرمق الأخير، كان مجاهدا في الحرب ضد الحرب.

٩.٣ الفصل الثامن والعشرون: جورج سانتيانا

الفصل الثامن والعشرون
جورج سانتيانا
(١٨٦٣ - ١٩٥٢)

كان فلسفة سانتيانا، وهو من أعظم المفكرين الأمريكيين، فلسفة للعالم كله لا لإقليم بعينه. وكان اهتمامه منصرفًا إلى الأفكار الخالدة، لا إلى المشكلات العابرة، فهو يقول: " كلما طال تفكرنا في العالم، ازددنا يقينًا بالرجوع إلى أفلاطون ومعلميه الشرقيين. فنحن لا تعوزنا فلسفة جديدة، وإنما تنقصنا الشجاعة وحدها لننظم حياتنا وفق أقدم فلسفة وأفضلها ".

ونعني بالفلسفة القديمة فلسفة التوافق والعدالة والرحمة والمحبة. ونتيجة لتربية سانتيانا تربية كاثوليكية، فقد بنى فلسفته على أساس من الثالوث العقلي الذي يضم العالم كله وأعني به الحق والجمال والخير. ولم يفته أن يلاحظ أن الفيلسوف لا يكون كذلك إلا إذا عرف الحق، وأحب الجمال وأيد الخير. " فهذه هي الحكمة، وكل ما عدا ذلك حماقة ".

وكانت حياة سانتيانا، مثل فلسفته، صدى للماضي - كأنه رنين جرس تتردد أصداؤه في جنبات الزمان. وبالرغم من أنه ولد في إسبانيا وتلقى علومه في الولايات المتحدة، إلا أنه كان أكثر من مجرد إسباني أو أمريكي؛ إذ يعتبر من الناحيتين العقلية والمزاجية على السواء، مواطنًا في عالم متحد الفكر. فلم تكن آراؤه إلا إجمالا للاتفاق الجوهري الذي تنطوي عليه جميع المذاهب الفلسفية المختلفة والعقائد المتباينة.
٢

وقبل أن يولد سانتيانا (في مدريد)، كان أبوه يعمل موظفًا إسبانيًّ في الفليبين. وكان قد أبحر عدة مرات حول العالم مما ملأ عقله بالكثير من القصص التي حوت كل ما هو غريب من أماكن وأشخاص وآراء. فما إن قص على ولده جورج هذه القصص حتى امتصها عقل الصبي المتعطش كما يمتص الإسفنج الماء. وهكذا نشأ الصبي في جو ملؤه الدهشة حيال كل الشعوب المختلفة في العالم، وتخيل بطريقته الصبيانية أن جميعهم كانوا أولاد عمومته - أي إنهم كانوا أفراد أسرة إنسانية واحدة وفيرة العدد. ولم يفارقه ألبتة هذا الإحساس الأسري نحو الجنس البشري بأكمله في أي مرحلة من مراحل عمره.

ولما كان جورج في التاسعة من عمره، انفصلت أمه عن زوجها - وقد كانت هذه هي زيجتها الثانية - وهاجرت إلى أمريكا مصطحبة أطفالها الأربعة.

وقد تلقى جورج علومه في مدرسة بوسطن اللاتينية ثم أكمل دراسته في جامعة هارفارد. ولم يكن يشترك في الألعاب الرياضية التي يمارسها الصبية الآخرون وإنما كان يستمتع بمشاهدتهم من الصفوف الجانبية. وكان له ولع خاص بكرة القدم. فإن أي مباراة كانت عنده بمثابة قصيدة مليئة بالحياة. وقد كتب في هذا يقول: " هنا على أرض الملعب ذات المساند العريضة، بعيدًا عن المدينة، حيث لا يظلك إلا السماء ولا يحيط بك عن بعد إلا التلال، وحيث الريح دائمة الهبوب، يضيف الصراع على الكرة جمالا إلى جمال الطبيعة ... هنا تلمع فضائل الأبطال في صورة مصغرة وتعود إليك النشوة الساذجة التي كانت تميز العالم القديم وكأنك في حلم ".

وفي هذا الجو الحالم لم يكن سانتيانا يشاهد مباريات كرة القدم التي يشترك

فيها زملاؤه الطلبة فحسب، بل كان يشاهد كذلك صراع المنافسة الذي يناضل من أجل كسب السبق فيه أقرانه من البشر، وكان العالم الذي يعيش فيه يبدو له كذكرى حلم قديم. فقد تختلف الظواهر لكن اللباب واحد Plus رحمه اللهa رحمه اللهPlus , hange Meme La cest رحمه اللهhose . فاللاعبون مختلفون، والقواعد مختلفة، ولكن القصة لا تزال هي القصة القديمة بعينها - كما كانت الحال قديمًا في بلاد فارس والهند واليونان، وكما هي حديثًا في إسبانيا وألمانيا والولايات المتحدة، في جميع الأماكن وفي كل العصور - ليس هناك إلا صراع لا ينتهي للوصول إلى الهدف، وإنما يتبع أنظمة تقام لتضمن الالتزام الدقيق بقواعد اللعب.

وعلى النقيض من جيمس، الذي كان لاعبًا إيجابيًّا في المباراة، كان سانتيانا يفضل أن يبقى مشاهدًا سلبيًّا. إلا أنهما اشتركا أساسًا في معتقد واحد، فعندهما أنه من الخير أن تمرن عضلات جسمك المشترك في نضال مفيد للصحة لكنه شريف، وأن تطهر نوافذ روحك

لتتمكن من مشاهدة منظر شامل واضح لجهاد الحياة خلال العصور.
ولكن ما الهدف من هذا الجهاد؟ كان جيمس يرى أنه السعي وراء العدالة، بينما كان سانتيانا يراه البحث عن الجمال. وما السبب في هذا الاختلاف إلا أن جيمس كان ينظر إلى العالم نظرة علمية، بينما ينظر إليه سانتيانا نظرة شاعرية.
وقد كان سانتيانا شاعرا يحاول جهده، ولكن دون جدوى، أن يكون ثائرًا في نظرته إلى الحياة كما كان مثاليًّا يدعي أنه مادي، ولكنه مادي يعترف بأن المادة قد تكون هي نفسها الطاقة، وأن الطاقة قد تكون هي نفسها الحياة.
وهكذا نرى أن سانتيانا كان تلميذًا محدثًا للفلاسفة القدامى القائلين بالطبيعة الحية - وهم الفلاسفة الذين كانوا يعتقدون أن الكون المادي كائن حي.
أراد سانتيانا أن يقضي حياته في " حديث هادىء مع أعلام الماضي من ذوي الروح الفلسفية ". ولكنه اضطر، بعد أن خدعه القدر، أن يعمل مدرسا وأن يقضي وقته متحدثا إلى طلابه. حتى إنه كتب في سنيه الأخيرة يقول: " لقد كنت أكره دائما أن أكون معلما ".
ومع ذلك فلم يكن أحد يرى أثرًا لذلك في محاضراته التي كانت تمتاز بالرصانة والهدوء. وقد كان من حسن الطالع لمؤلف هذا الكتاب أن يدرس على يدي سانتيانا في جامعة هارفارد. فهي تجربة لا تنسى؛ كان الفيلسوف الشاعر العالم يجلس على المنصة في قاعة إمرسن. ويداه الشاحبتان مضمومتان على مكتبه يعلوهما وجهه الشاحب، ولحيته المدببة السوداء تضفي على ملامحه مظهرا جميلا روحانيا عليه مسحة إغريقية، وقوة روحية تومض عن بعد من عينيه المتقدتين الإسبانيتين، وصوته مليء بالحكمة المنغمة ينزل على طلبته نزول البركة من السماء، وكان يتحدث بطلاقة ولكن في أناة وغير ما عجلة، وكأن الأبدية كلها بين يديه تفسح له المجال أن يلقي رسالته حرا من كل قيد زمني. وكان لكل كلمة مكانها الملائم في رسالته وكأنها جوهرة سليمة قد أحكم ترصيعها على أكمل وجه.
وأحيانا كان ينقد آراء الآخرين التي يراها خاطئة ولكنه لم يهبط ينقده ألبتة إلى مستوى القدح. فقد كانت حماقات الجنس البشري تسليه أكثر مما تغضبه.
وكان قليل الاهتمام بما يأخذ به المجتمع من أسباب الترفيه. فلم يتزوج قط، وكان يقضي معظم وقت فراغه في صحبة كتبه. ولم يكن أصدقاؤه الحميمون
سوى الأرواح الخالدة على مر العصور، فاشترك معهما في سعيها، الذي لا ينتهي، وراء الحقيقة.
لكنه سمح لنفسه بجانب واحد من " متع الحياة المعاصرة ". وذلك هو الألعاب الرياضية التي يمارسها طلبة الجامعة فقد ظل على اهتمامه بها. وحدث أن أخذت الدهشة أحد طلبته، وكان لا يعرف عن سانتيانا إلا ترفعه في قاعة الدرس، عندما وقع بصره عليه " وقد وضع على كتفيه دثاره الأجنبي وأمسك في يده بعصاه الأجنبية أيضًا " رآه وهو يدخل إلى الملعب ليشاهد مباراة كرة القدم بعد ظهر اليوم السبت. فما كان من الطالب إلا أن صاح قائلا: " هل تتخيل زرادشت أو أفلاطون يهتف كسائر الناس مشجعا فريق هارفارد ".
ولكننا إذا ما تركنا جانبا جولاته التي كان يقوم بها أحيانا في دنيا العمل المعاصرة، قلنا إنه كان يعيش معظم الوقت في عالم الفكر الأبدي. فقد قطر حكمة الماضي واستخرج منها مرشدا بعيننا في المستقبل. وإن مؤلفاته من أمثال " الإحساس بالجمال "، و" حياة العقل "، و" الشك والإيمان الفطري "، و" تفسير الدين "، و" عوالم الوجود " هي آيات بينات من النثر الفلسفي الذي يتميز بأوزان كالشعر المنظوم. ولا عجب فقد بدأ حياة الكتابة بنظم الشعر وإن كانت كل كتاباته، سواء في الشعر أو في الفلسفة، تكشف عن مزيج عجيب من الأفلاطونية والإلحاد والكاثوليكية. ومن عجب أنه يدمج خيوط فكره الثلاثة هذه التي يبدو أنه لا يمكن التوفيق بينها في نسيج واحد متماسك من الحكمة.
ولنلق نظرة إلى هذا النسيج لنرى فيه دليلا على السحر الذي استطاع سانتيانا أن يحول التنافر المضطرب في عقله إلى تناسق رزين في روحه.

٤

لقد نظر بادىء ذي بدء إلى الوجود كوحدة متماسكة - أو قل كحركة صاعدة للخليقة في سيرها نحو السمو والرفعة. قال سانتيانا: " قد لا تكون المادة موادا ". والأرجح، " أنها شحنة كهربية " - أو بمعنى آخر موجة شاملة من الحيوية تتخلل كل شيء فتصنع " النظام اللانهائي للكون ".

ويؤكد، متفقا مع أفلاطون، أن هذا النظام الجوهري إنما يقوم على تناسق الأفكار المجردة (المثل) - كما هي الحال في لوحة فنية عظيمة أو في سيمفونية رائعة، مثلا. فالفكرة (المثال) هي أهم شيء، أما المادة التي تظهر الفكرة وتحملها إلى حواسنا فإن هي إلا صورة ناقصة لها أو نسخة معيبة منها (وهكذا لا تعطينا سيمفونية يتهوفن التاسعة سوى صورة مهوشة للمثال الكائن في عقل المؤلف الذي أنتجها).

وقد استخدم سانتيانا اسما جديدا للتعبير عن مثل أفلاطون، فأطلق عليها اسم " الماهيات ". فالماهيات عند سانتيانا، شأنها شأن المثل عند أفلاطون، ما هي إلا الصور الأصلية، أو النماذج الأزلية لكل الكائنات. وقال سانتيانا إن كل واحد منا في وسعه أن يتعلم إدراك المثل التي تكون الأساس الذي تقوم عليه الأشياء - إنه هو سر النمو الذي يكمن وراء تفتح الزهرة ونداء الحياة الذي يتمثل في شروق الشمس، والباعث على الإيمان وراء ابتسامة الطفل، والدعوة إلى الله وراء تأدية العمل الجميل. وخلال هذه الومضات من الإدراك الأكثر وضوحا وصفاء، فإننا نمر بتجربة من النشوة، كأنما نبعد عن أنفسنا. " فبينما نحن نجاهد طوال طريق حياتنا الضيق الذي نسير فيه من الميلاد إلى الموت، وقد أعمانا الجهل، نجد أن في وسع أرواحنا أن ترقى بنا فوق أنفسنا بل إنها
لتسمو بنا فعلا إلى حد أنه في لحظة من لحظات كشف الحجاب نشاهد الأبدية وفي مثل تلك اللحظات التي نستغرق فيها عن أنفسنا، نرى كيف يضحك الماهيات (الأزلية) في سمائها الأفلاطونية على هذا العالم المتقلب إذا ما اختلست النظر إليه لحظة ".

على أن هذه السماء بما فيها من " ماهيات ضاحكة " تبدو لسانتيانا وكأنها عالم جميل بغير رقيب. وكما فعل " للاند " Leland عالم الفلك، فقد أخذ هو " يبحث في الكون بمجهره عن الله فلم يجده ". ولكن ذلك كمن يقول: إن العالم يبحث بمجهره عن العقل في مادة المخ فلا يجده وفي الحقيقة أن العقل هو ماهية المخ، وكما ألمح سانتيانا في مناسبات عدة - إن الله هو ماهية الكون. وقال في هذا الصدد: " إن العقل هو محاكاة الإنسان لله ولكن ما نوع هذا الإله الذي نحاكيه؟ " إنه ليس إلها في صورة البشر - وإنما هو روح تشمل كل شيء وتخلق كل شيء، روح تنسج من الكون صورة جميلة.

إن إدراك الله على هذا التصور، كما قد انتهت إليه فلسفة سانتيانا، ليس إدراكا إلحاديا. ولكنه إدراك حلولي. فسانتيانا لا يعد أفلاطونيا فحسب، وإنما هو أيضًا من أنصار سبينوزا الذي هو أعظم الفلاسفة المحدثين في نظره. فعند سبينوزا أن الله هو كل شيء، وكل شيء هو الله، وكذلك نرى سانتيانا يردد هذه الفكرة عندما يقول إن المادة والروح والله شيء واحد.

نعم، إن العالم آلة، ولكنه آلة مفكرة. ويعتقد سانتيانا أن الخليقة كلها تزداد شبها بفكرة مادية. وفي كل ذرة تكمن غاية حيوية مبدعة - أو قل حافز يدفعها للاندماج مع الذرات الأخرى في نسيج الحياة المتصل.

وهكذا يوجز هذا الكافر المؤمن عقيدته الفلسفية، فيختلف مع العلماء الذين
ينبذون الدين ولكنهم يعجزون عن تفسير تعطش الإنسان إلى الدين، فيلاحظ سانتيانا أن غريزة الجوع تدل مقدما على وجود الطعام: كذلك البحث عن الله عند الناس جميعًا إن هو إلا دليل قوي على وجود الله ". وهكذا نرى أن الإلمام بهذه الحقيقة يضع كل الملحدين - وسانتيانا نفسه من بينهم - وجها لوجه مع حقيقة وجود الله. وفي الحق، أن العقل الإنساني، ليشعر أنه " قريب الشبه بالله ".

ولذلك اعترف سانتيانا، وإن كان ذلك على مضض، بأن عقله الشاعري حفزه على الإقلاع عن شكه العلمي. " فللدين تأثيره العميق، لأن الحق ماثل في أعماقه ".

وقد عثر على هذا الحق العميق في دينه الذي كان قد تخلى عنه في شبابه. فإن ما رآه من جمال في العقيدة الكاثوليكية - وفي كل عقيدة - كان قد ترسب في أعماق نفسه. فكما لاحظ احد نقاده عندما قال متفكها: " إن سانتيانا لا يؤمن بوجود الله، ولكنه يؤمن بأن مريم أم الإله ". وبالرغم من أنه طرح الطقوس المادية للعقيدة جانبًا، فإنه ما فتىء يحب جمالها الروحي. كما أخذ عن أفلاطون مرة أخرى ما كان ينادي به من أن الجمال والحق مترادفان.

ولذلك قال سانتيانا إن العقيدة أكثر من خرافة، وإن العالم أكثر من آلة، فليس الوجود كيانا يحكم تركيبه بل يحكم نموه. ولم نر بعد آلة تنمو من بذرة كما تنبت الزهرة.

٥

وهكذا يقوم مذهب سانتيانا الفلسفي على أسس متعارضة تزعم لنفسها الاتساق، فهو يقول: إن عالم تجاربنا المادي إن هو إلا صورة

ذهنية أو لمحة
عابرة، لعالم أرواحنا الذي هو عالم ماهيات، وإننا لنلمح هذا العالم الحقيقي - عالم الماهيات - في لحظات نشوتنا. وفي مثل تلك اللحظات نتحقق من أن العالم وحدة حياة متماسكة تتحرك في تناسق متجهة نحو الله. أما ما نمر به من تنافر موقوت في تجاربنا من وقت إلى آخر - مثل الخذلان، والمرض والموت - فإن هو إلا تعارض بين النغمات الفردية التي تتكون منها سيمفونية العالم الشاملة. وما هذه السيمفونية الشاملة إلا موسيقى الحق والجمال والخير.
أما فيما يتعلق بخلود النفس الإنسانية، فإن سانتيانا يترك الرأي معلقا. ولكنه يكتفي بإدخال العزاء إلى نفوسنا بقوله: إن ما نعرفه معرفة مؤكدة عن هذا الموضوع لهو في ذاته من الحق والجمال والخير. كما يلاحظ أيضًا أن ما في طاقتنا من قدرة على الحب يجعلنا خالدين. فتيار وجودنا ينساب دافقًا في أبنائنا، فهم الصور الأجد الأفضل، نسخت من حيواتنا الشائهة التي انقضت.
ولا يكشف لنا عن معنى الحياة سوى رباط الحب بيننا وبين أبنائنا، وبين جميع أفراد الأسرة البشرية. وما جسدنا المادي إلا صورة للنفس في تجردها. و" النفس قريبة الشبه بما هو خالد ومثالي " وليس من الضروري أن تكون قريبة الشبه بإله مشخص، بل هي شبيهة بالتناغم الأزلي الذي هو روح الحب الشاملة.
ويظهر لنا سر علاقتنا بالله بأجلى ما يمكن في نشوة المتدين. وهكذا، فبالرغم من أن بعضنا قد يطرح شعائر الدين جانبا، إلا أنه في وسعنا جميعًا أن نتقبل ما جاء به الدين من حق. فإيماننا بالدين يعم الناس جميعًا، لأن الدين حاجة يحسها الناس جميعًا.
٦
وهكذا عاش سانتيانا كل حياته وهو يقف من الله هذا الموقف الذي كان يتجرد فيه وإن يكن موقفا مشوبا بالود. فلم يكن ربا لأسرة، ولا متعصبا لوطن - وبعد سنة ١٩١٢، عندما استقال من منصبه في جامعة هارفارد - لم يعد كذلك معلما بمدرسة. وقبيل الحرب العالمية الأولى غادر أمريكا واتجه إلى أوروبا ليعيش هناك. ولم يكن هذا منه انسحابا إلى نصف الكرة الآخر فحسب، وإنما كان اعتزالا إلى عالم آخر - هو العالم القديم الذي كان يعتقد دائما أنه ينتمي إليه. واستقر به المقام في روما، فهناك كان يشعر " بأنه أقرب إلى الماضي من أي مكان آخر ". واختط لنفسه في الحياة طريقا رتيبا هادئا، هو السير في خضم " الحاضر الكريه " وكأنه " روح مدخر ليوم أكثر إجلالا ". فاستأجر جناحا متواضعا في أحد الفنادق.
وإذا ما اقترح بعضهم عليه أن يشتري لنفسه منزلا، أجاب قائلا: " إن الإنسان إذا امتلك شيئا أصبح عبدًا له ". وكانت عاداته بسيطة هينة. فهو يقول في هذا الصدد: " لقد أخذت عن أبي كل صفاته وعاداته، فالولد سر أبيه ". فحدث مرة أن سألته: لماذا يسافر دوما بالدرجة الثالثة؟ فما كان منه إلا أن أجاب بقوله: (لأنه ليس هناك درجة رابعة).
وكان سانتيانا أرستقراطيا بسيطا وشاكا ورعا. فقد استقل بنفسه عن كنيسته استقلالا يكاد يكون تاما. وقد علق بقوله: " إن الجلوس على مقاعد الكنيسة سبب لي ألما في مستدق ظهري ". ولكنه من جهة أخرى كثيرً ما كان يذهب إلى أطلال البنثيون (هيكل الآلهة) ليرى تماثيل الآلهة الأقدمين، وإلى سان بِيتْرو، ليمتع النظر بتمثال موسى الذي نحته اميكل أنجلو، " وهو أسمى وأعظم ما أنجز من أعمال في ميدان النحت الديني الحديث ".
ولم يكن مأواه المفضل سوى مقعد بالقرب من أطلال معبد أسكيولابيس، إله الشفاء القديم. وهنا كان يجلس ساعات وساعات ويحلم أنه قد رجع القهقرى إلى ربيع العالم الذي قد " أبعدته عنه في كآبة وحزن " تقلبات القدر وصروف الدهر.
وبالرغم من ذلك فإن حزنه كان مشوبا دائما بشيء من المرح والفكاهة، فكان يتأمل ما يقابله من خيبة، كما يتأمل ما يقابل الآخري منها، وهو يضحك في فتور وإبهام. فعلى سبيل المثال، عندما كان يتحدث عن عدم رواج كتبه - وذلك قبل نشر الرواية الوحيدة التي ألفها بعنوان " المتزمت الأخير " - علق ضاحكا بقوله: " إن " الإحساس بالجمال " هو أول ما ألفت من كتب ولا يزال أكثرها رواجا. (فيباع منه) ما يقرب من مائة نسخة سنويا ".
وهكذا كان يتطلع إلى ذلك " المشهد الغامض " المسمى بالحياة، في هدوء حزين ولكنه من النوع الفلسفي المرح، فقال إنه إذا ما نزلت بنا أي نكبة فعلينا أن نذكر أنها عابرة. " إن هذه أيضا لا بد أن تزول ". أما ما يجب أن نهتم به فهو احتفاظنا بهدوئنا ورزانتنا وسط العاصفة.

وبالرغم من ذلك فإن نصير الهدوء والرزانة هذا عرف بمقته الشديد لشيء واحد، ألا وهو نزعتنا الإنسانية إلى الحرب. فهو يقول: " إن الحرب هي التي تبدد ثروة الأمة، وتقتل زهوها، وتحد من عواطفها، وتقضي عليها بأن يحكمها المغامرون، ثم يترك ناقصو النمو والمشوهون ومن تنقصهم الرجولة لينجبوا الجيل التالي. (لذلك)، نجد أن الأمم الحديثة إن هي إلا سلالة عبيد، بدلا من أن تكون سلالة أبطال ".

وفي إحدى قصائده القصيرة يقول: " إن الجنة هي أن تكون في سلام مع الأشياء ".

ولكي يصل إلى هذه الكفرة عن الجنة بأنها هي السلام، رجع في النهاية إلى حبه الأول - الكنيسة -. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ذهب ليعيش في دير العذراء مريم في روما. وفي هذا الدير وجد لب الإجابة عن سؤاله الفلسفي: " إن التحليل ينتهي بنا آخر الأمر إلى أن الحقيقة الوحيدة هي جمال العالم المتناسق ".

الجزء الثامن
اكتمال الدائرة
بياض بالأصل

١٠ الجزء الثامن: اكتمال الدائرة

١٠٠١ الفصل التاسع والعشرون: موهنداس ك. غاندي

الفصل التاسع والعشرون
موهنداس ك. غاندي
(١٨٦٩ - ١٩٤٨)

صرح غاندي، مثله مثل سانتيانا، بقوله، " ليس لدي جديد أعلمه للعالم " فقد رددت فلسفته حكمة العصور التي أسهم فيها معظم أعلام الفكر. وكتب غاندي في هذا المقام يقول: " إن الحقيقة وعدم استعمال العنف قديمان قدم التلال ".

ولكن هذه الفلسفة القديمة وجدت في غاندي من ينادي بها من جديد. فلم يكن يقصر نفسه على " تعليم " الحقيقة بل كان يعيشها كذلك. وبدأ يبحث عن الله، وهو شاب صغير، فوجده في وجه أخيه. " إنني أعرف أن الله يكشف عن نفسه في أدنى مخلوقاته أكثر مما يكشف عنها في ذوي الرفعة الأقوياء. ومن هنا كان ولعي بخدمة الطبقات المغلوبة على أمرها ... فإنني لست سيدًا، ولا نبيًّا ولا حكيمًا، وما أنا إلا خادم للإنسانية مجاهد، معرض للزلل ومتواضع ".

وما قصة خدمات غاندي، قولا وعملا على السواء، إلا ملحمة تصف فيلسوفًا يحج إلى مدينة الله.

٢

وقد انتقل غاندي بلحمه ودمه في رحلة حج من الهند إلى إنجلترا، ثم إلى جنوب أفريقيا، ثم عاد ثانية إلى الهند، كما انتقل بروحه إلى الأوبانيشاد، إلى بوذا، إلى عيسى، إلى سبينوزا، إلى تولستوي، ثم عاد مرة ثانية إلى الأوبانيشاد.

وكان غاندي سليل أسرة من " المحاربين والغافرين ". فأبوه الذي كان يشغل منصب رئيس وزراء حكومة الرجا في مقاطعة بوريندار الهندوكية، ذو شخصية مستقلة لا تخشى شيئًا. حتى إنه أرسل إلى السجن مرة لجرأته في الجهر بالحق. أما أمه فبالرغم من أنها كانت أقل من زوجها استقلالا في الرأي إلا أنها كانت أكثر منه رقة. فقد كانت تؤمن إيمانًا شديدًا بالمبدأ الديني " أهمسا " - الذي ينادي بعدم إيذاء الكائنات الحية جميعًا. فورث غاندي أصغر الأبناء، عن أبيه استقلال الرأي وعن أمه رقتها.

ولما كان في السابعة من عمره، انتقل والده إلى مقاطعة راجكوت حيث التحق بالمدرسة وتعلم الحروف الهجائية بكتابتها في التراب بأصابعه. فلم يكن لدى السلطات ما تستطيع به أن تزود التلاميذ بأدوات الكتابة.

وما إن بلغ الثالثة عشرة من عمره حتى تزوج " طبقًا للتقليد الهندوكي ". وكانت حفلة زفاف ثلاثية، أقامها من أجل موهنداس وأخوه وصبي آخر تجمعه بهما صلة القربى. فقد قر قرار آبائهم على أن يكون هذا " الحفل المقدس الذي تقيمه الأسرة " هو " ختام أيام حياتهم

وخيرها ".
وقد عاش موهنداس وزوجته الطفلة - التي كانت تدعى كاسترباي " حياة زوجية تحيط بها القداسة والإخلاص " بقية حياتهما الطويلة. على أن موهنداس في بداية هذه الحياة وجد من الصعب عليه أن يكون زوجًا صالحًا، وابنا بارًّا، وباحثًا يكرس وقته للتعلم. لقد كان شديد الرغبة في التعلم، ولكن كان يبدو لفترة من الزمن أن أعباء أسرته ستضطره إلى ترك المدرسة - ولكن شاء حسن الحظ أن يقدم أخوه الأكبر له يد العون فكان أن استطاع موهنداس مواصلة التعليم.
ولقد " انهمك في شهوات الشباب العارمة " وهو طالب صغير، كما اعترف بذلك. وإن لم يكن هذا الذي اسماه " بالشهوات العارمة "، من وجهة النظر الغريبة، شيئًا لا غرابة فيه، فقد أكل اللحم، ونطق بالسباب، ودخن التبغ وكانت هذه الأشياء الثلاثة محرمة بين الهندوس الأتقياء.
ولكننا نلاحظ أنه سرعان ما أقلع عن " طرق الشر " التي كان يسلكها. وحدث مرة أن أذعن لإغراء رفاقه في المدرسة فاشتركا في " مأدبة من لحم الماعز " أقيمت في بقعة منعزلة إلى جوار النهر فأحس أثناء الليلة التالية، كما كتب فيما بعد، " بأن المعزة تثغى في أمعائه ". فاعترف " بحريته " لأمه وزوجته اللتين " أنجلتاه " فعاد إلى الغذاء النباتي الذي يتمسك به الهندوس.
وكذلك نجحت هاتان السيدتان، وزوجته بوجه خاص، في تخليصه من عاداته السيئة الأخرى.
" وكنت إذا ما حاولت أن أخضع كاسترباي لإرادتي أجد أنها تنعكس الأمر علي بمقاومتها لإرادتي من جهة، واستسلامها الهادىء للعناء الذي تسببه لها حماقتي من الجهة الأخرى، وقد كان هذا التصميم من جانبها لهداية الآخرين خلال معاناتها هو الذي علمني أهم درس في حياتي - ألا وهو قيمة عدم العنف - وأعني قوة العصيان التي نستمدها من ممارستنا للدين ممارسة سلمية.
وهكذا واصل دراسته في البيت وفي المدرسة على السواء حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره، وفي عام ١٨٨٨، بفضل عون أخيه المالي، أبحر إلى إنجلترا ليدرس القانون في جامعة لندن.
٣
وفي لندن، قر قرار غاندي أن يتصرف كما يتصرف رجل إنجليزي. فأما وقد تحرر من قيود بيئته في أرض الوطن، فقد أخذ يتألق في ملبسه، فيلبس القبعة من حرير والسراويل الفضفاضة وتعلم الرقص، كما حاول أن يوطد قدميه في المجتمع البريطاني. ولكن لم يكن في وسعه أن يتخلص من لونه. أو من جنسه فكان البريطانيون ينبذونه باعتباره " شخصا أجنبيًّا دون مرتبة ". وقد علمته تجاربه في إنجلترا شيئًا جديدًا بالإضافة إلى التشريع الغربي، لحفزته أن يسعى في سبيل القانون على العدالة.
فعاد إلى الهند وقد عقد العزم على أن يكرس حياته لتحقيق هذا الهدف الإنساني. وبعد وصوله إلى بومباي بفترة قصيرة، قرأ مقالا مثيرًا عن مواطن هندوكي، يدعى فيفكاناندا، فهذا الآخذ بتعاليم الفلاسفة الهندوكيين الأقدمين كان قد ذهب إلى أمريكا ليحضر مؤتمرًا لممثلي الأديان في سوق شيكاغو العالمية. فلما وصل إلى محطة السكة الحديدية في شيكاغو، لم يكن معه ما يستأجر به غرفه فندق، فقضى الليل في مخزن للبضائع في حظيرة القطارات.
فما إن بزغ نور الفجر حتى خرج فيفكاناندا يبحث عن مكان انعقاد المؤتمر الديني. وضل طريقه عدة مرات ولكنه وصل أخيرًا في تمام الوقت المحدد لافتتاح الجلسة الأولى.
واتجه لتوه إلى المنصة وأخذ يخاطب الحاضرين. ولم يكن مزودًا أية مذكرات، بل لم يكن قد أعد أي خطاب يلقيه، فبدأ في صوت منخفض، متردد، يقول:
" أيها الأخوات والإخوة الأمريكيون ... ".
فلما قوبل بعاصفة من التصفيق ردًّا على تحميته الودية، تشجع واستطرد يقول: " إنني أدعو إلى فلسفة، وأنتمي إلى عقيدة، ليس في لغتها المقدسة، السنسكريتية، أي كلمة تعني " العزل ". أما الآلهة التي نعبدها فجميعها كائنات بشرية، هي كل الكائنات الحية في أرجاء العالم كله ".
وقد ألهب خطاب فيفكاناندا، كما لاحظ غاندي في المقال المنشور عنه، جميع المستمعين الأمريكيين إذ أنهم لم يسمعوا ألبتة كلاما مثل

هذا من قبل. ولكن الفكرة كانت مألوفة لغاندي، كما كانت لفيفكاناندا. ولم تكن إلا تعبيرًا حديثًا لفكرة الأوبانيشاد. وهي حكمة الهندوس الأقدمين. " فلا وجود لكلمة " العزل " في صحبة الكائنات الحية جميعها ". فماذا لو مضى غاندي في إتمام العمل حيث تركه فيفكاناندا؟ وماذا لو آلى على نفسه أن يلقن الدرس البسيط من جديد للناس من أبناء جيله؟.

٤

ولم يمض وقت طويل حتى حانت له الفرصة ليبدأ بث دعوته. وكان قد قام برحلة إلى بريتوريا في جنوب أفريقيا ليمثل أحد عملائه في محاكمة هامة. وفي ذلك الوقت كان يعيش في جنوب أفريقيا ما يقرب من ١٥٠٠٠٠ من الهندوس. وكان هؤلاء يتعرضون لكل صنوف الذلة والهوان على أيدي حكامهم البيض " المتحضرين " وقد عومل غاندي نفسه هناك " كأنه من حمأة الأرض ". فطرد من عربة الدرجة الأولى في القطار. وعندما ركب سيارة السفر العمومية اضطروه أن يجلس مع السائق. ولما حاول أن يسجل اسمه نزيلا في " الفندق الوطني الكبير " Hotel National Grand في جوهانسبرج أمروه بمغادرة المكان.

وكان يتقبل هذه الإهانات الشخصية ويكتمها في نفسه. ولكن ما إن قررت الحكومة أن تصدر قانونًا بحرمان الهندوس جميعًا في جنوب أفريقيا من حقوقهم السياسية حتى ثار وعصى.

واتخذ عصيانه شكلا غريبًا. فهجر مهنة المحاماة التي كانت تدر عليه ربحًا صافيًا يقرب من ٢٥٠٠٠ دولار سنويًّا، ونظم إضرابًا سلميًّا ضد سياسة العنف أو قل لمقاومة الوحشية بقوة الروح، وأصبح ذلك قائد نوع جديد من الجيوش - يتألف من جنود مسالمين يمسكون عن قتل النفوس، ولكنهم لا يخشون الموت. كما زود هذا الجيش بنوع جديد من السلاح - هو سلاح روحي ذخيرته المقاطعة السلبية. " فهكذا انتصر المسيحيون الأولون على الرومان، وهكذا سوف ننتصر نحن على أهالي جنوب أفريقيا ".

كان نوعًا جديدًا من السلاح، ونوعًا جديدًا من الحرب - فلما جعل غاندي اعتماده على الفلسفة وتأثيرها ضد القوة، فقد تجاوز بذلك إلى حد بعيد عن فكرة الاقتصار على المقاومة السلبية. فلم يكتف بالصفح عن عدوه، ولكنه كان يمد له يد المساعدة إذا وقع في ضيق. وسار على المبدأ القائل بأن أحسن سبيل لكسب الحرب ليس هو بقتل عدوك، وإنما هو بقتل عداواته. فقد حدث إبان العصيان الهندوكي ضد الحكومة في جنوب أفريقيا، أن تفشى الطاعون في جوهانسبرج، فما كان من غاندي إلا أن أرجأ الخصومة لتوه، ونظم أتباعه في فرقة طبية تقدم العون للعدو وتواسيه.

وفي بادىء الأمر لم يستطع لا الهندوس ولا البيض أن يفهموا هذا النوع الجديد من الحروب، ومن ثم فقد هاجمه المتعصبون من كلا الفريقين، فضرب، وسجن، وكاد ذات مرة يموت رجمًا بالحجارة. ومع ذلك لم يرفع غاندي ولا أتباعه أيديهم لرد العدوان بالعدوان، بل ردوا الظلم بالرحمة، والعنف بالعطف والكراهية بالحب.

ولكنهم أبوا أن يطيعوا القوانين الظالمة. ونجحت الفكرة. إذ أن غاندي وجيشه من غير المتعاونين المسالمين قد أخجلوا العدو حتى الهزيمة، ففي أول الأمر كان الجنرال سمطس، قائد القوات ضد غاندي ينظر إلى خصمه غير المسلح نظرة احتقار. ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ الجنرال يتبين " قوة سلاح غاندي الذي تندمل به الجروح، بالقياس إلى أسلحتنا الواهية التي تقتل ". وفي النهاية كان النصر حليف غاندي في ثورته البيضاء. وفي ذلك يقول الجنرال سمطس: " إنني لا أحب قومك ولا أكترث لمساعدتهم ألبتة. ولكن ماذا أنا فاعل بك؟ إنك تقدم يد العون لنا في يوم الضيق. فكيف نستطيع أن نلقي القبض عليك؟ كم كنت أتمنى أن تنزع إلى العنف، إذن لعرفنا كيف نتخلص منك. ولكنك لا توقع الأذى حتى بعدوك، بل ترغب في الظفر عن طريق تعذيب النفس وحده، ولا تتجاوز ما وضعته لنفسك من حدود المجاملة والمروءة. وذلك هو ما أوصلنا إلى ما نحن عليه من عجز تام ".

وفي عام (١٩١٤) بات الهندوس في جنوب أفريقيا أحرارا. وهكذا كان النصر التام حليف غاندي ضد سياسة العنف. ولم يوفق غاندي في أداء هذا العمل العظيم بمقاومته للشر، وإنما وفق في أدائه ببذر الخير في نفوس خصومه.

٥

ولما عاد غاندي إلى الهند، أخذ ينظم الحرب عن طريق المسالمة على نطاق أوسع بكثير من ذي قبل. فكان الهندوس يعانون الأمرين من جور حكامهم البريطانيين. ولكم حاولوا الثورة ولكن دون جدوى، فلم تكن نتيجة التجائهم إلى القوة، إلا الهزيمة على أيدي قوات

أكثر منهم قوة. فدعاهم غاندي إلى أن يحاولوا طريقته الجديدة. وهو يقول: " إن هذه الطريقة الجديدة تستند إلى صوت الدين - وأعني جميع الأديان العظيمة في العالم ... فكثيرون هم أولئك الذين ألموا من الدين بالقدر الذي يجعلهم يكرهون بعضهم بعضا، ولكنهم لم يلموا منه بالقدر الكافي الذي به يحبون بعضهم بعضا. وغايتي هي أن أدخل طريقة الحب في مشكلاتنا اليومية ".

وكان يحب الاستشهاد بكلمات شاعر هندوكي، هو شملال بهات التي يقول فيها:

إن كرام النفوس ليرون الناس رجلا واحدا، ويردون الشر بالخير في رضا.

ويرى غاندي أنه لو أن الناس فهموا هذه الكلمات ومارسوها، لبزغ على الجنس البشري فجر عهد جديد.

ولذلك أخذ يدعو أمته إلى اتباع " القاعدة الذهبية " التي تصدق على الناس جميعًا، ضاربا بنفسه المثل. " لقد حاولت أن أعلم بني وطني نوعا جديدا من الثورة، وذلك بألا نوجه الكراهية ضد حكامنا، بل نوجهها ضد كراهية حكامنا. إنني سوف أخدمهم كإخواني، ولكنني لن أخضع لهم كسادتي ".

وتحقيقا لهذه الفلسفة، بدأ " حربه " ضد إنجلترا بشن حملة من " العداء

الودي ". وفي عام (١٩١٤) أنشأ فرقة مستشفى ميدان منتقل من الهنود عونا لإنجلترا في حربها ضد ألمانيا. فما كان من إنجلترا بدورها إلا أن وعدت بمنح الهند استقلالها بعد الحرب.

ولكن ما إن أعلن السلام حتى نقض المستعمرون البريطانيون عهدهم. فقد كان بعضهم مدفوعا بروح الجشع الأناني. فالهند غنيمة أكبر من أن يتركها مستغلوها المعتدون. فكان بعضهم الآخر يعتقد أن الهند لم تكن عندئذ مهيأة للاستقلال. وكان هؤلاء يظنون أنه لو تركت الهند وشأنها في ذلك الوقت، لكان معنى هذا دعوة صريحة إلى حرب أهلية. ومهما يكن من أمر، فقد زالت غشاوة الوهم عن الهندوس وكان لذلك أثره الفظيع. فاندلع لهب الثورة في أجزاء كبيرة من البلاد. وأصر معارضو غاندي من الهندوس على أن طرقه السامية قد أخفقت.

ولكن غاندي كان قد تعلم صبر الشرق. وصرح بقوله: " إن الحروب لا تكسب في يوم وليلة ". وظل يتابع خطة العصيان السلمي. وحتم على أتباعه - وكان عندهم لا يتعدى بضعة أفراد في تلك الآونة - أن يؤدوا يمين الساتياجراها المقدسة - أي قوة الروح - ويتخذوا منها سلاحهم الوحيد ضد القوة الوحشية. كما أخذ يدربهم على اتباع مبدأ " أهمسا "، أي مقابلة الكراهية بالحب. وبنى معسكرا " لجنوده " وعائلاتهم في أحمد أباد. وفي هذا المعسكر علمهم كيف يصنعون الأحذية والملابس لكسب قوتهم، كما فتح مدرسة تعلم التسامح وعدم استخدام العنف لأطفال المعسكر ولآبائهم على السواء. ولم يكن الانضمام إلى المعسكر والمدرسة مقصورا على الطبقات والطوائف العليا فحسب، وإنما سمح غاندي بالدخول أيضًا لمن يدعون بالمنبوذين وطريدي المجتمع.

ولقد أثار قبول غاندي انضمام المنبوذين إلى معسكره عاصفة من الغضب

الجنوني حتى بين أصدقائه الحميمين، فرفض بعض المشتركين معه " أن تدنسهم حثالة المجتمع "، فهجروا المعسكر. كما توقف تجار أحمد أباد الأثرياء عن تقديم معوناتهم المالية بعد أن كانوا يقومون بالإنفاق على جماعة المعسكر. وحتى زوجته كاستراباي أصرت هي الأخرى على طرد المنبوذين من مقار إقامتهم.

ولكن غاندي تمسك بمبادئه، إلى حد أنه هدد بترك أسرته والانتقال إلى أحياء " المنبوذين " القذرة في أحمد أباد، فاضطرت زوجته في النهاية أن تذعن " لرأيه الأفضل ". كما أرسل إليه صديق رفض أن يذكر اسمه مبلغا من المال يكفي لتغطية نفقات المعسكر. وهكذا استطاع غاندي أن يواصل حربه السلمية ضد الظلم والكراهية.

٦

كان الخامس عشر من إبريل عام ١٩١٩ عطلة قومية في الهند وكان غاندي قد أعلن القيام بإضراب عام Hartal في جميع أنحاء البلاد. وفي مدينة أمرتسار تجمع حشد من الناس - رجالا ونساء وأطفالا - وساروا في مظاهرة سلمية في طريق عام. فأمر قائد القوات البريطانية في تلك المدينة، وهو الجنرال داير بالهجوم على الهندوس غير المسلحين. وتنفيذًا للأمر أطلق جنوده نيران المدافع الرشاشة كما اكتسحتهم الطائرات بالقنابل التي أسقطتها عليهم. وكان أن بلغ عدد القتلى في هذه المذبحة ما يقرب من خمسمائة.

فوضعت هذه المأساة مبدأ غاندي موضع الاختبار - وكان أشق اختبار. فاحتج الكثيرون من مواطنيه متسائلين: " وما نفع عقيدتك الآن أمام قوة رصاص العدو وقنابله؟ "

وبالرغم من ذلك ظل غاندي مصرا على خطئه. " لم يكن الطريق الذي وعدت أن أقودكم فيه إلى النصر طريقا سهلا لا شوك فيه. هذه هي الحرب. فالجنود في كل حرب على أهبة الاستعداد للموت. بل إننا جميعًا نفقد أرواحنا آخر الأمر في معركة الوجود الشاملة. أما معركتنا نحن فسوف لا يعتمد كسبنا لها على عدد الأعداء الذين نقتلهم، بل يعتمد على عدد الأعداء الذين نقتل في نفوسهم الرغبة في القتل ".

وهكذا واصل حربه الغريبة ضد الحرب. " إننا نرحب بالأجانب في أرضنا ضيوفا، ولكننا لا نود بقاءهم حكاما غاصبين ". ولقد أعاد وساما ذهبيا كان قد أهداه البريطانيون إليه لما قام به من عمل إنساني لمعاونتهم في أثناء الحرب العالمية الأولى. فاستردت الحكومة البريطانية وسامه ثم قدمت إليه هدية أخرى - هي الأمر بسجنه، وألقي القض عليه مع ٢٥٠٠٠ آخرين من الهنود، فلم يأبهوا لذلك، بل كانوا ينشدون الأغاني وهم يقتادونهم إلى السجن.

وفي المحاكمة أقر غاندي بأنه مذنب. وخاطب القاضي برومفليد قائلا: " أما وقد ثرت على حكومتك فإنني قد خرجت على القانون عن عمد. إنني لا ألتمس رحمة ... فالسبيل الوحيد أمامك، يا سيدي، هو أن توقع على أقصى عقوبة أستحقها لما قمت به مما يعده القانون جريمة عن عمد، لكنه في حسابي أسمى واجبات الوطن ".

فأجاب القاضي برومفيلد في شهامة لا تقل عن شهامة غاندي قائلا: " إنه لمحال علينا أن نتجاهل حقيقة كونك في نظر الملايين من مواطنيك وطنيا جليا وزعيما عظيما. وحتى أولئك الذين يختلفون وإياك في السياسة يعدونك رجلا ذا مثل عليا وحياة فاضلة ".

وبعد ان امتدح القاضي غاندي لعدالة قضيته أصدر حكمه بسجنه لسلوكه المخالف للقانون. وهكذا نرى بوضوح أن خطوط المعركة في القضية كانت قد رسمت بدقة عنف قانون البلاد الوقتي ضد سلمية قانون الإنسانية الأبدي.

وتشبثا بهذا القانون الأبدي، تابع المحارب الفيلسوف قتاله السلمي ضد الظلم. وزج به في السجن مرارا. وبالرغم من ذلك فكلما أطلق سراحه مرة، ألقى نفسه إلى قلب المعركة من جديد. وقد أضاف غاندي آنئذ سلاحا جديدا إلى أسلحته - ألا وهو الصيام. وقال في هذا الصدد: " إن ما أعانيه من عذاب سوف يلين قلوب أعدائي ".

وبينما هو في طريقه المليء بالآلام هادفًا نحو السلام، كثيرا ما أصيب بأمراض خطيرة. وكثيرا ما دفعته إلى حافة القبر هذه النوبات المرضية التي كانت تزيد من خطورتها فترات صيامه الطويلة. وذات مرة، عندما توقع أن يموت خلال بضع ساعات، قال ناصحًا: " إن رسالتي الأخيرة إلى الهند هي أنها سوف تجد خلاصها في سياسة عدم العنف، وبهذه السياسة وحدها سوف ترشد الهند بقية العالم إلى طريق الخلاص ".

٧

كان غاندي فيلسوفا فرض عليه القدر أن يحمل عبء السياسة. ولم يكن اهتمامه بمصير بلاده إلا جزءا من اهتمامه الأكبر بمصير الجنس البشري. كما كان هدفه الرئيسي أن يعمل رسولا للسلام العالمي. فكتب يقول: " يربطني بالهند رباط مقدس متين لأنني أعتقد أن لها رسالة عليها أن تؤديها إلى العالم. لكن بحثي عن السلام والعدالة والحق ... لا تحده حدود جغرافية. وإنني لأومن إيمانا قويا بهذا المسعى الذي يفوق كل شيء حتى حبي للهند نفسها ".

وكانت فلسفة غاندي النابعة من عقيدته، تقوم على المبدأ القائل بأن الشري جميعًا ليسوا وحدهم أفراد أسرة واحدة، وإنما تشترك وإياهم جميع المخلوقات الحية. وكان من أشد توصياته أنه لا بد من تربية الناس على توقير الحياة. " لا تهلك الحياة في أية صورة من صورها .. فما دامت تعوزنا القدرة على الخلق، فليس من حقنا أن نقتل ".

ولما كان غاندي يأخذ عن الفلاسفة الهنود الأولين - والكثير من الفلاسفة الغربيين المحدثين، فقد آمن أن " الحياة كلها وحدة واحدة ". وكان كل كائن حي عند غاندي بمثابة " قصيدة موضوعها الرحمة "، إذ كان يدرك اللغة التي تعبر عن شقاء الإنسان، بالقلب الرقيق الذي يدرك به صرخة الحيوان التي لا تفصح باللفظ، سواء بسواء.

وكان عطف غاندي على كل ما هو حي يقوم أيضًا على إيمانه بالتناسخ. وقد قال في هذا الصدد: إن كل روح فردية إنما هي على سفر تحج بها على مراحل من حيوات كثيرة متتابعة - فأحيانا تتخذ صورة الإنسان وأحيانا أخرى تتخذ صورة حيوان. وكل عمل تقوم به الروح في كل حالة من حالات التناسخ هو الذي يحدد صورة التناسخ التالي: فالإنسان الذي يعلي من شأن العدالة ويحب الرحمة، يولد مرة ثانية في صورة إنسان أكثر نبلا وسعادة. أما إذا ما احتفى بالشر، انحط فصار " ابن عرس أو فأرًا " فليست الجنة والنار، إذن، خارج أنفسنا، ولكنهما في طويتنا. كما أن الثواب والعقاب على كل عمل ليسا مجرد تجريدات في علم الأخلاق وإنما هما حقيقتان عمليتان. والحياة الإنسانية في مرحلة واحدة من مراحل الطريق، مثلها مثل الفصل الواحد من كتاب، هي شذرة من كل، ولذلك يكتنفها غموض. أما إذا كملت حلقات السلسلة من حيوات إنسان كان ذلك شبيها
بكتاب اكتملت فصوله، ذي ترابط منطقي، أسهم في نسجه كل خيط في كل فصل منه. فإذا ما عومل إنسان معاملة ظالمة في حياته الحاضرة، فما هذا إلا نتيجة أعماله الظالمة في حياة سابقة. وهذا هو قانون الكرما - ومعناه مكافأة كل فضيلة بما تستحق من ثواب، ومجازاة كل رذيلة بما تستحق من عقاب.

ولا تبلغ حياة الإنسان حد الكمال إلا إذا أكمل جميع فصول كتابه، وطهر نفسه من شهواتها الأنانية، وأدمج نفسه المنفصلة في محيط الوجود الشامل ألا وهو روح الله. وتلك هي علامة انتهاء الميلاد المتعاقب في حيوات فردية.

وذهب غاندي إلى أن للبشر جميعًا مصيرًا واحدًا في نهاية الأمر. " فالجميع يولدون لكي يعلموا كيف يخدمون الله في تدبيره ". وكل حياة من حيواتنا بمثابة مهمة خاصة ألقيت علينا لتكون وسيلة إلى تربيتنا على العيش بطريقة تعاونية. وأعظم واجباتنا هو أن نعلم ونصادق إخوتنا - الأقل منا حظا، وبخاصة المنبوذين من المجتمع. وكتب غاندي يقول: " إنني لا أرغب في أن أولد من جديد. ولكن إذا كان علي أن أولد من جديد، فإنني أفضل أن أكون واحدًا من المنبوذين، وذلك لكي أستطيع أن أشاركهم في أحزانهم ... ولكي أحاول أيضًا أن أحررهم من بؤس حالهم ".

وقصارى القول، فإن الهدف من حياة الإنسان هو تخفيف ويلات إخوانه من البشر.

٨

وهكذا عاش غاندي ومات وهو يؤدي هذه المهمة السامة، ولم تكن حربه التي خلت من العنف ضد البريطانيين إلا تطبيقًا عمليًّا لفلسفته. وإنها لفلسفة
تفرعت عن الحقيقة الكلية التي تنطوي عليها جميع الأديان العظيمة. " فالسلاح الفعال الوحيد ضد الكراهية هو الحب ". فبهذا السلاح وحده أمكنه في عام (١٩١٤) أن يحصل لرفاقه الهندوس في جنوب أفريقيا على حقهم في الحرية. وأخيرًا في عام ١٩٤٧، استطاع أن ينال استقلال الأمة الهندية كلها باستخدام السلاح نفسه، سلاح المقاومة السلبية. ففي الخامس عشر من أغسطس في ذلك العام اعترف البريطانيون رسميًّا بالهند دولة حرة مستقلة.

ونادى به قومه مخلصًا لهم. " فلم يظهر في الهند منذ بوذا رجل عومل بمثل هذا التوقير من الناس أجمعين ". ومع ذلك فقد قابل غاندي نصره الشخصي، كما سبق أن قابل عذابه الشخصي، في دعة هادئة. وكان مما قاله في تواضع: " إني أدعى مهاتما Mahatma أي (الروح العظيمة)، ولكنني لست إلا رجلا عاديا، فكثيرًا ما أخطأت وزللت ". لكنه قد أقام الدليل على ما كان في رأيه حقيقة راسخة: " لن يكون خلاص العالم باستخدام قوة البدن، بل سيكون خلاصه باستخدام قوة الروح ". كان النصر الذي ناله في الهند نتيجة ترويض روحه إلى الحد الأقصى. وقد كتب في " موعظة البحر " يتساءل: " أي الموقفين يتطلب الشجاعة الفائقة؟ أن تمزق أجسام الآخرين إربا إربا وأنت تقف خلف مدفع، أم أن تتقدم والابتسامة تعلو شفتيك صوب مدفع فيمزق جسمك إربًا إربًا؟ ".

ولم تمض خمسة أشهر على نصر غاندي حتى وضعت شجاعته موضع الاختبار الحاسم. فقد دب القلق بقومه نتيجة للاستقلال الذي حصلوا عليه. فبدأ المسلمون والهندوس يقاتلون بعضهم بعضًا ليحسموا ما بينهم من منازعات دينية وسياسية فبذل جهده لوقف القتال بين الجانبين. وذات صباح بينما كان في زيارة أحد
الأصدقاء في نيودلهي، شق طريقه إلى الحديقة التي قرر أن يعقد فيها اجتماعا للصلاة من أجل إقامة سلام وتعاون دائمين بين أبناء

الوطن الواحد. وهنا اندفع هندوكي متعصب كان يكره المسلمين ويعارض صداقة غاندي لهم، نحو المهاتما وأطلق عليه ثلاث رصاصات استقرت في جسمه، ولم تمض ثلاثون دقيقة على هذا الهجوم الغادر حتى مات القديس الفيلسوف الذي بشر بعالم تنعدم فيه الكراهية. وكان مما قاله غاندي: " إن فكرتي ستظل باقية. فإن سيف المقاومة السلبية ذو نعمة مزدوجة. فهو نعمة لمن يستخدمه، ونعمة لمن يستخدم ضده ".

ومهما يطل الزمن " فإن هذا السلاح الذي يستخدم في الحرب السلمية، التي لا تراق فيها نقطة واحدة من الدماء، هو الذي يؤدي بالعالم إلى نصره العظيم ".

١٠٠٢ الفصل الثلاثون: الخاتمة - هداية من الفلاسفة

الفصل الثلاثون
الخاتمة - هداية من الفلاسفة

ها نحن أولاء قد أكملنا الدائرة. فقد بدأنا دراسة أعلام الفلاسفة في العالم بهذا السؤال الهام: هل تهيء مذاهب الفلسفة المتباينة، بالرغم مما بينها من تضارب كثير، مثالا مشتركا من الحكمة، مما يجوز أن تكون فيه الهداية للحائرين؟ وبعبارة أخرى، هل هناك أساس عام مشترك تقوم عليه فلسفات العالم المختلفة، كما هي الحال في أديان العالم المتباينة التي تقوم على أساس عام مشترك؟ والإجابة عن هذا السؤال هي بالإيجاب القاطع. فإن هذا الاتفاق ليظهر عند النقطة نفسها التي تلتقي فيها الفلسفة بالدين. والحكمة، شأنها شأن العقيدة، تيار متحد يخدر إلينا عبر القرون. أما الفلاسفة المختلفون فهم أشبه ما يكونون براصدين اتخذوا لأنفسهم مراكز مختلفة من ذلك التيار. ولذا فهم يرون الحقيقة من زوايا متباينة. لكن الحقيقة، من أية زاوية ننظر إليها، تظل في جوهرها ثابتة.

وإن هذه الحقيقة الفلسفية المشتركة لتتبدى لنا إذ نستعرض في إيجاز الآراء المختلفة لأعلام الفلاسفة. ويمكن تلخيص هذه الأفكار تحت رءوس ثلاثة هي:

ما وراء الطبيعة، أو لغز الوجود، وعلم الأخلاق، أو معنى مواصفاتنا السلوكية، ثم علم اللاهوت، أو سر الإله.

لغز الوجود

منذ بزغ فجر التأمل الفلسفي حتى يومنا هذا نلاحظ أن هناك إيمانًا فطريًّا بأن الكون كله كائن حي. " فالسماء تمتد حولنا في طفولتنا " - ولا نعني

بذلك طفولة الإنسان الفرد وحده، بل نعني كذلك طفولة الجنس البشري كله. فالأولون من المصريين والفرس والهنود والصينيين والعبرانيين - بالرغم من سيرهم في طرق مختلفة - قد أدت بهم سبلهم إلى عتقاد واحد: هو وجود قوة حياة كلية مقدسة تعم كل شيء وتخلل في كل شيء. وقوة الحياة هذه إن هي إلا محيط واحد تقسمه موجات كثيرة، أو قل إيقاع واحد يتألف من ضربات كثيرة، أو روح واحدة تنتشر في أجسام كثيرة، أو وجود واحد تدركه عقول كثيرة.

ولهذا التيار العام للحياة تفسيرات تختلف باختلاف مدارس الفلاسفة الأولين. ولما كان لهؤلاء وجهات نظرهم المختلفة التي ينظرون منها جاز أن يشتجروا بسبب اختلاف الزوايا التي ينظرون منها. ولكنهم لا يختلفون على الحقيقة الأساسية. ففكرة المصريين عن النجوم بأنها أجسام واعية لها أرواح وهاجة، ووصف الفرس لقوى الطبيعة بأنها كائنات أحياء تعاون الله في بناء الكون بناء يتقدم على أساسه، ونظرية الهندوكيين في المطابقة بين الروح الفردية وروح العالم، وإدراك الصينيين لتيار الطاقة الحية الذي ينتقل بلا توقف من الكل إلى الجزء ومن الجزء إلى الكل، وتصوير العبرانيين للإله الواحد على أنه خالق الحياة والنور من الفوضى والظلام - أقول إن كل هذه التصورات تجتمع في فكرة أساسية واحدة: هي أن كل شيء حي، وأن الحياة تسير قدمًا إلى الأمام.

وإلى جانب هذه الفكرة الأساسية نجد فيما أنتجه الفلاسفة الأولون نظريتين ثانويتين، هما:

١ - أن الحياة في تطوير مستمر كالنبات. فهي تنمو - أو تتطور -

من صور دنيا إلى صور عليا. وروح الإنسان، مثلها مثل اللهيب، تتجه إلى أعلى دائمًا. أما عملية الحياة كما يتخيلها الفلاسفة، سواء في صورة تناسخ أم في صورة نشوء وارتقاء، فإنها في حركة متواصلة تحاول بها التخلص من النفوس الدنيا للكثرة وتتحد مع النفس السامية

للواحد.
٢ - أن في وسعنا أن ندرك هذا المعنى الكلي السامي للوجود، كما يقول الفلاسفة الأولون، بوساطة حاسة سادسة - ألا وهي حاسة التأمل الباطني. فنحن نستطيع أن نرى الحق، لا بعين الجسم الخارجية، ولكن بعين العقل الداخلية. ولقد مر كل فرد، تقريبًا فيلسوفًا كان أو نبيًّا أو فنانًا أو شاعرًا أو قديسًا، بلحظات نادرة من إدراك البصيرة بتجربة هذه الوحدة الصوفية بين الفرد والكل، أو بين الإنسان والله.
وهكذا تحاول الفلسفة أن تبني بالعقل ما يتقبله الدين على أساس العقيدة.
وهكذا نجد اتفاقًا داخليًّا يجمع بين كل الخلافات الظاهرية التي فرقت بين معظم الفلاسفة الأولين. فإذا ما نظرنا إلى العالم من وجهات نظرهم المختلفة تبين لنا أنها تلتقي في بؤرة واحدة من الطاقة المتجددة في عالم حي - أو قل تلتقي في بؤرة الحياة التي تتحرك أبدًا إلى الأمام لتصل إلى هدف سام.
وإذا ما تقدمنا من الفلاسفة الأولين إلى أفلاطون وأرسطو، وجدنا أن نقطة الالتقاء لم تتغير جوهريًّا. فما عالم أفلاطون إلا عالم مثل حية - أو قل هو بناء منسق من الخير والعدالة والجمال هو الذي نحاول بفطرتنا أن نبثه في حيواتنا اليومية. فالوجود، بعبارة أخرى، هو السعي ورء مثل أعلى - أو قل هو حركة الروح إلى أعلى تجاه الكائن الأسمى. أما عالم أرسطو، فبالرغم من
أنه يبدو وقد انشق على أفلاطون، إلا أنه نفس العالم الأفلاطوني تحت اسم مختلف. فأفلاطون يشير إلى ماهية الحياة على أنها مثال تدركه خطة إلهية، بينما كان يعتبرها أرسطو صورة يدركها العقل الإنساني. وهكذا، بالرغم من تناقض الفيلسوفين الظاهر. فهما متفقان في النقطة الرئيسية، وهما على اتفاق أيضًا في هذه النقطة مع كل الفلاسفة القدامى الآخرين تقريبًا: إذ أن الحياة تيار سام يهبط دافقًا من السماء إلى الأرض، ثم ارتفاع أبدي من الأرض إلى السماء. وثمة غاية حية حافزة لنا - أو قل إن ثمة منولا يشكل مصيرنا ويهدينا سواء السبيل.
وبعد أفلاطون وأرسطو نلتقي بالشكاك والكلبيين. وإذا ما توخينا الدقة، قلنا إن هؤلاء لم يكونوا فلاسفة جادين ولكنهم كانوا مراقبين للمنظر الكوني من غير ما غرض. أما الشكاك فقد طرحوا لغز الوجود جانبًا على أساس أنه فوق إدراكهم، وأما الكلبيون فكانوا يسخرون مما لم يستطيعوا إدراكه.
وكان المفكر اليوناني الهام الذي جاء بعد ذلك هو أبيقور، أو المادية التي تتعارض مع المثالية التي نادى بها بعض الفلاسفة الأولين. ومع ذلك فنلاحظ أن الجوهر المادي في فلسفة أبيقور قد صيغ على نظام عقلي. وكما قال أبيقور فإن العالم يتكون من جواهر فردة. ولكن هذه الجواهر الفردة ليست أجزاء عديمة الحياة في التركيب الآلي. بل على النقيض من ذلك مشبعة بالغاية الحية وبالإرادة الحرة التي تتحرك بها في الاتجاه الذي تختاره، ثم الاتحاد بعضها مع بعض في سير واحد على طريق التطور.
وإذا ما انتقلنا من مادية أبيقور إلى رواقية أوريليوس، فإننا نواجه مرة
أخرى الفكرة الرئيسية عن العالم الحي. وليس لهذا العالم، كما قال مارقوس أوريليوس، جسم مادي فحسب، وإنما له نفس روحانية كذلك. ومهمة روح العالم هي ضم البشر جميعًا في إخاء الإنسانية الواحدة، وضم الإنسانية كلها في وفاق مع الله.
والمذهب الفلسفي العظيم الذي يتلو ذلك هو المسيحية التي جاءت عن طريق الوحي بالحقيقة عينها. وإنك لتجد التفسير الكامل لهذه الفلسفة في رسائل القديس بولس - تلميذ الشرق ومعلم الغرب. وطبقًا لما ذكره القديس بولس، فإن روح الإنسان لا تموت، لأنها تسير في رحلة تحج بها إلى الروح الإلهية الذي منه قد أتت. فالله أبدًا يخلق العالم من محبته الأبدية، وكل المخلوقات تسعى أبدًا، عن طريق حب بعضها بعضًا، لأن تصبح أقر ما تكون شبهًا بالله.
وببزوغ فجر العصر العلمي، اتسعت نظرتنا الفلسفية خلال المنظار المقرب والمجهر وأنبوبة الاختبار. لكن لب الحقيقة، كما يشاهد خلال هذه الآلات الجديدة، يظل هو بعينه، فقد رأى فلاسفة عصر النهضة في العالم جوهرا كليًّا حيًّا يتحرك بهداية عقل كلي. وما الحياة الفردية إلى خيط مزود بإرادة تدمجه في النسيج الإلهي الذي يضم الجميع - وهو فكرة الإله الخلاقة.

وإن هذه الفكرة الإلهية لتظل هي نقطة التجمع لكل المذاهب الفلسفية تقريبًا التي ظهرت بعد النهضة. فبالرغم من أن كلا من فرانسيس بيكون , وديكارت، وسبينوزا، ولوك - كان ينظر إلى العالم من برج المراقبة الخاص بعقله الفردي - إلا أنه جميعًا وصلوا إلى نتيجة إجماعية. ولئن كان الفلاسفة المختلفون قد عبروا عن هذه النتيجة بطرق مختلفة إلا أنه يمكن تلخيصها كما يلي:

لأول وهلة يبدو العالم وكأنه ثالوث من المادة والروح والله. ولكن التحليل آخر الأمر يرد هذا الثالوث إلى وحدة حية - فالمادة والروح والله كلها واحد.

هذا الحكم الذي كان ينعقد عليه إجماع الفلاسفة، ينال تأييدًا آخر عند مذاهب من يسمون بالمفكرين المستنيرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وما فكرة إرادة الحياة الكلية إلا الحكم المشترك بين فلسفة روسو الطبيعية، وفلسفة فولتير العقلية، ومذهب كانت الذهني، وتشاؤم شوبنهاور، وحتمية سبنسر، وواقعية نيتشه. ومهما يحدد المعجم من معان لتلك الألفاظ التي عنونت بها آراء هؤلاء الفلاسفة، فإن المعنى الأساسي لفلسفتهم جميعًا واحد بعينه، إذ أننا في في كل أوهامنا عن الوجود نرتكز على أساس من الحقيقة - هو الحياة الكلية. فما رحلتنا عبر العالم سوى مشهد عابر سريع في تمثيلية ضخمة. وقد عبر عن موضوع هذه التمثيلية أحسن تعبير الشاعر الفلسفي، تنيسون، الذي يؤكد لنا:

أن لا شيء يمشي على قدمين غير هادفتين.

وأن لا حياة مصيرها إلى فناء.

أو يلقى بها كالنفاية إلى الفضاء.

ما دام الله قد أقام البناء كاملا.

وتكمن هذه الفكرة أيضا في لب مذاهب الفلسفة الأكثر حداثة، من برجسون إلى غاندي. فينتهي آخر الفلاسفة المحدثين حيث بدأ أوائل الفلاسفة القدامى. ومن البدء حتى النهاية نجد أن كل واحد من الفلاسفة قد نظر إلى

العالم، من برج مراقبة مختلف. فنظرتنا الخاصة اليوم، إذن، ما هي إلا صورة تتركب أجزاؤها من وجهات نظرهم المتباينة. وهذه الصورة، كما نراها الآن، هي حل الفلاسفة للغز الوجود:

فالعالم وحدة من المادة، والطاقة، والروح - أو قل كلمة وحركة وحياة. وليس لكل منها كيان منفصل وإنما هي جميعا ماهية واحدة في صور شتى. وكلما تعمقنا في دراسة المادة ازداد فهمنا لها كصورة من الطاقة، وكلما ازداد علمنا بالطاقة ازددنا إدراكا بأنها صورة من صور الحياة. ويعرف برجسون، حامل لواء الفكرة الدينية في الفلسفة الحديثة، ماهية العالم ذات الأوجه الثلاثة المتحدة في ماهية واحدة، " بالدافع الحيوي " عليه الصلاة و السلامVital lan - ومعناه التطور الخلاق، والنمو المقدس. وحتى سانتيانا، المدافع عن الحقيقة العلمية، يعترف بقوله: " قد لا تكون المادة موادا ". والأرجح " أنها شحنة كهربية "، أي إنها سيال من الطاقة يتخلل كل شيء، فهو " نظام وحيوية لا نهاية لهما في العالم الذي أعيش فيه ".

وهكذا نجد أن حكم الفلاسفة بأن المادة والطاقة والروح والكلمة والحركة والحياة إن هي إلا ألفاظ مختلفة تحدد الحقيقة عينها. فإذا ما نظرنا إلى هذه الحقيقة من إحدى نواحيها، وجدناها تظهر في صورة سحابة، أو صخرة، أو غابة، أو نيزك، أو كوكب، أو نجم. أما إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى، فإنها تظهر لنا في صورة قصيدة لشكسبير، أو سيمفونية لبيتهوفن، أو معادلة رياضية لأينشتين، أو مثل من أمثال عيسى، فهي كلها تطلع الإنسان إلى الله. وإذا أنت نظرت إلى الحقيقة في مجموعها المتكامل، ظهرت لك كتيار حياة أبدي يتدفق من الله ويعود إليه.

معنى الأخلاق

الأخلاق هي فلسفة الصلاح والاستقامة في السلوك الإنساني. ولكلمة " الأخلاق " معنى ديني، لا معنى قانوني. ويمكن توضيح الفرق بين ما هو مباح قانونا وما هو صحيح أخلاقيا بهذه القصة الصغيرة: حدث ذات يوم أن فسر أحد أساتذة القانون في جامعة هارفارد لطلبته حكم إحدى المحاكم في فعل قام به أحد الموظفين العموميين، وكانت وجهات النظر مختلفة بالنسبة لهذا الفعل. فما إن انتهى الأستاذ من تفسيره حتى علق أحد الطلبة قائلا: " إن هذا الحكم، يا سيدي، يبدو قانونيا سليما. ولكن أهو قرار عادل؟ ".

فأجاب الأستاذ قائل: " أيها الشاب، إننا هنا في كلية الحقوق. أما إذا كنت تبغي العدالة فلتعبر الشارع إلى كلية اللاهوت ".
ولقد وقف الفلاسفة بالنسبة إلى العدالة إلى جانب رجال الوعظ الديني أكثر مما وقفوا إلى جانب رجال القانون المحترفين. ففي صميم التعاليم الأخلاقية التي نادى بها الفلاسفة نجد هدفا واحدًا - هو إقامة معيار سليم للعدالة. وفي عبارة أخرى يوجه الفلاسفة سؤالاً واحدًا يهم كل واحد منا: " أيوجد قانون محدد يعين الفرق بين الصواب والخطأ؟ ".
ولأول وهلة يبدو لنا أن أي طفل يعرف الإجابة عن هذا السؤال. ولكن برنارد شو، يقول في مسرحيته Major رضي الله عنarbara : إنه لم يستطع أحد بعد أن يكشف عن هذا السر بعقله. وإليكم شخصيتين في المسرحية، هما " أندرشافت " و" ستيفن "، يتحادثان عن فكرة الأخلاق.
أندرشافت: أهناك ما تعرفه أو ما تهتم به؟
ستيفن: نعم، إنني أعرف الفرق بين الصواب والخطأ.
أندرشافت: أحقا ما تقول! فأنت، لا قدرة لك على العمل، ولا إلمام بالقانون، ولا تذوق للفن، ولا ادعاء بالفلسفة، لا تعرف إلا شيئا بسيطا عن السر الذي حير جميع الفلاسفة، وأعيا جميع رجال القانون، وحير جميع رجال الأعمال، وأفقر جميع الفنانين، سر الصواب والخطأ. إذن، أيها الرجل إنك عبقري، بل أستاذ الأستاذة، بل إله!
فما يبدو صوابا لإنسان قد يبدو خطأ لإنسان آخر. وما يعتبر خيرا في أحد العصور أو الأماكن قد يعتبر شرا في مكان أو عصر آخر. ففي الشرق تعتبر تغطية الرأس علامة على الاحترام، بينما في الغرب يعتبر كشف الرأس علامة الاحترام. وفي ميلانيزيا كان يعتبر قتل المرضى والشيوخ لتخفيف
" العبء " من الأصحاء والشباب عملا أخلاقيا سليما، وفي الصين كان إهداء النعش إلى قريب عليل عملا واجبا، وفي جزر سليمان لم يكن خطيئة أن تسمن الشابات، كما تسمن الديكة الرومية استعدادًا لذبحها. وحتى في أوروبا وفي أمريكا فإننا نجد أن المستويات الأخلاقية في تغير مستمر من وقت إلى آخر. فعلى سبيل المثال، تتحول رذائل السلم كالغش والسرقة والقتل، إلى فضائل في وقت الحرب، فمسألة الصواب والخطأ، إذن، تعتمد إلى حد بعيد على الزمان، والمكان، والظروف، ووجهة النظر الفردية.
وبهذا يسلم الفلاسفة إلى حد كبير، ولكنهم لا يسلمون تسليما كاملا. وذلك لأن في مشهد المدركات الخلقية المتغيرة توجد مبادىء ثابتة محددة - هي أشبه ما تكون بمعالم الطريق التي تشير إلى طريق الخروج من ظلمة الأهواء الإنسانية إلى نور العقل الإنساني. ويمكن أن تجمع هذه المبادىء تحت رءوس موضوعات ستة: هي الواجب، وتبادل المعاملة، والمودة، والعدالة، والرحمة والمحبة. كما يمكن أن تختصر هذه الموضوعات أكثر من ذلك فتصبح مدركا واحدا: هو أن الشفقة
هي النور الذي يسير على هداه الجنس البشري.
وما هذه إلا طريقة أخرى للتعبير عن القاعدة الذهبية - عامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به. فمن البداية حتى النهاية نلاحظ أن جميع الفلاسفة قد قدموا هذه الفكرة أساسا للسلوك الإنساني. فكتب بتاح - حتب المصري يقول: " عش في بيت المودة. فامتلاء قلبك بالعطف أثمن امتلاء خزانتك بالثروة ".
أما الفيلسوف الفارسي زرادشت الذي ظهر قبل المسيح بما يقرب من ألف سنة، فقد عبر عن الفكرة نفسها في كلمات أقرب ما تكون شبها بكلمات القاعدة الذهبية. فصرح بقوله: " ذلك الرجل الذي لا يقدم للآخرين عملا لا يعتبره خيرا لنفسه، هو وحده الرجل الصالح، لأن البشر جميعا ينتمون إلى أسرة واحدة ".
وفي فلسفة الهندوس نجد مثلا يوضح العلاقة الوثيقة بين الإنسان وأخيه الإنسان. فيحكى أن صيادا باغته مرة ضباب كثيف. وفجأه لمح في الضباب الذي يغلقه خطوطا غير واضحة لجسم وحش غير مألوف له. وكان الوحش المخيف يتقدم بسرعة نحوه، فما كان من الصياد المذعور إلا أن رفع رمحه وقذف الحيوان به، فأصاب الرمح من الحيوان مقتلا وسقط صريعًا.
وبعدئذ، بينما يقترب الصياد من فريسته، انقشع الضباب، ففزع الصياد عندما وقع بصره على " الوحش المخيف غير المألوف " واكتشف أنه لم يكن غير أخيه الذي كان في طريقه إليه من مدينة مجاورة، يبغي زيارته.

وهذه القصة التي تصور ضباب سوء التفاهم تصدق على المذهب الأخلاقي الصيني، والمذهب الأخلاقي الهندي سواء بسواء.
ويوجز الفيلسوف مو - تي الفكرة بما يلي: " إن الهجمات المتبادلة بين
دولة وأخرى، واغتصاب السلطة المتبادل من أسرة إلى أخرى، وامتناع التراحم بين الأب وابنه وبين الأخ وأخيه هي الأشياء التي تحطم سعادة العالم ". وقد عرف لاو - تسي هذه الفكرة بأنها البحث عن طريق البر والصلاح، ثم هذبها كونفوشيوس وصاغها بطريقة أخرى قريبة من القاعدة الذهبية فقال: " لا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن تفعله بنفسك ". وقد سمى هذا التبادل في حسن النية " الوفاق العظيم في التفاهم المتبادل ".
أما فلاسفة العهد القديم فقد عبروا عن هذه الفكرة بالوصايا العشر. وأقاموا الوصايا على أساس جوهري - هو قانون عام واحد للحقوق المتبادلة.
ولما جاء فلاسفة اليونان، من أفلاطون إلى أبيقور، أكدوا هذا المبدأ الأخلاقي في الصورة التي رسموها للرجل المثالي الكامل. فعند أفلاطون يمثل الرجل المثالي، رجل العدالة - الشخص الذي تتآلف أفكاره ومشاعره الداخلية بعضها مع بعض، وتتناسق مصالحه الخارجية مع مصالح العالم. أما عند أرسطو، فإن الرجل العادل يصبح رجلا متزنا ثابت الجأش - وهو الشخص ذو المزاج السوي الهادىء الذي يستطيع أن يكبح جماح طموحه وعواطفه المفرطة. فالرجل الكامل عند أرسطو رجل دمث رقيق. أما عند أبيقور، فالرجل المثالي رجل محبة - وفي عبارة أخرى هو الشخص الذي تصنع قدرته على كسب الصداقات من العالم مجتمعا متحدا من الجيران الصالحين.
وبعد ذلك طور المسيحيون الأولون هذه الفكرة إلى المثل الأسمى للحياة الكاملة، فقد حاول المسيحيون أن يحيوا حياة مشتركة. أي أن يعيشوا طبقا للقاعدة الذهبية. فإذا ما ترجمت هذه القاعدة إلى اللغة اليومية العادية، أمكن إجمالها في الكلمات التي تحدث ها عيسى (عليه السلام) في العشاء الأخير حين
قال: " هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضا ". وكان المسيحيون الأولون يحيون على ملكية مشتركة - بالمعنى الحرفي - في أمتعتهم في مجتمع متحد يسوده حسن النية.
ثم تلا هؤلاء مفسر هام آخر هو سبينوزا الذي رأى في الرحمة علامة مميزة للجنس الشري. وقد قيل عن هذا الفيلسوف (اليهودي) إنه " أعظم مسيحي بعد المسيح ". ويقوم مذهبه الأخلاقي على ما يسمى الآن " بالأثرة المستنيرة ". قال سبينوزا: " إن سعادة الإنسان تنحصر في ازدياد قوته خلال حب الذات " وليست هي الذات الفردية التي تعزل نفسها عن الآخرين، ولكنها الذات الجامعة التي تشمل الجنس البشري. ويعتقد سبينوزا متفقا في هذا مع القديس بولس وأنبياء العهد القديم، ومتمشيا مع أعلام الفلاسفة الآخرين في الشرق والغرب، أقول يعتقد أننا أعضاء كل واحد، وأنه إذا ما آذى إنسان إنسانا آخر فإنما هو يؤذي نفسه، ولذلك، " فإن الإنسان، مسترشدا بالعقل، لن يرجو لنفسه شيئا لا يرجوه كذلك لبقية الجنس البشري ".
وهذا القانون العام للأخلاق دفع لوك إلى إعلانه الفلسفي للحرية والاستقلال. فالناس جميعا، كما قال، يولدون في مجتمع عالمي يضم إخوة أحرارا متساوين. ولذلك نجد أن على كل فرد واجبا مزدوجا نحو المجتمع: عليه أولا ألا يمتلك شيئا لم يجد ويكدح للحصول عليه، وعليه ثانيا ألا يأخذ إلا نصيبه من متاع الدنيا حتى يتمكن الآخرون كذلك من أن يستمتعوا بأنصبتهم العادلة. وبعبارة أخرى فإن القانون الأخلاقي كما فسره لوك يتطلب إدخال أكبر قدر من السعادة إلى قلوب أكبر عدد من الناس وتخفيف الألم عن الجميع.
أصبحت هذه الفكرة التي تنادي بأكبر قدر من السعادة لأكبر عدد
من الناس، أصبحت أمرًا خلقيًّا عند كانت. فعند كانت أن إحساسنا بالواجب إن هو إلا صوت يصدر من داخل نفوسنا ينبهنا إلى أن حياة الرحمة المتبادلة أمر واجب. والسعادة الحقيقية الوحيدة هي في إسعاد الآخرين. ويلاحظ الفيلسوف الألماني أنه في مجتمع يقوم على هذا المبدأ لن يعتبر الفرد وسيلة لإشباع جشع فرد آخر، وإنما ينظر إليه على أنه " غاية في نفسه " أو قل سيد له حقوقه الخاصة ويؤدي عمله المستقيم ثم ينال ثوابه الحلال. ويمكن تلخيص أخلاق كانت في وصية سامية واحدة هي: لا تسخر جارك ولا تستغله. " فليس هناك أبشع من أن يخضع سلوك إنسان لإرادة إنسان آخر ".

وترى في أخلاق سبنسر أن علم التطور يعزز نفس الفكرة، ويوضح لنا سبنسر أنه في الحقب الأولي من التاريخ كثيرًا ما كان من الضروري أن يقتل الإنسان لكي يعيش. ولكن بينما نحن نتقدم نحو المدنية فإننا نتبين أنه في وسعنا أن نبقى على قيد الحياة في عون متبادل، لا في عداء متبادل. ويؤكد سبنسر أنه إذا ما بلغنا من المدنية حد الكمال فإننا لا بد أن نوجه كل جهودنا نحو بناء عالم يظلله السلام. وستقوم هذه الحال المثالية على أساس دستوري بسيط: هو أن يكون كل إنسان حرًّا في تنفيذ إرادته على شريطة ألا يعوق أو يتدخل في حرية أقرانه من البشر. وبعبارة أخرى فإننا سوف نتقدم معًا، ولكن على ألا يعتدي أحدنا على الآخر.

وعندما نصل إلى القرن العشرين، فإننا نرى تحولا محددًا من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية. وما هذا إلا تكرار حديث للمبدأ الخلقي القديم الذي يقول: إن الخلاص الفردي يعتمد على العون المتبادل. فيؤكد برجسون، وكروتشي، وجيمس، وسانتيانا الفكرة نفسها، وهي أن تمتد الوصايا العشر وتتسع فتتغير فيها " أنت " إلى " أنتم ". فقد انكمش العالم وأصبح

جيرة بل ضاحية واحدة بفضل وسائل النقل والاتصال التي نستخدمها. فإن سكان أقصى الجزر في المحيط الهادي لا يبعدون عن ديارنا سوى رحلة يوم. وآمالهم مشمولة في آمالنا الأسرية، فجوعهم جوعنا، وخيرهم خيرنا، وآلامهم آلامنا. وكما عبر وليام جيمس: " فإنه لا يمكن أن يوجد خلاف في أي مكان إلا تراه يسبب خلافًا في كل مكان ".

وبعبارة أخرى، فإن أسمى الأخلاق اليوم لا تقرر واجب الإنسان الشخصي فقط، بل تقرر مسئوليته الاجتماعية كذلك. فعليه أن يطيع القوانين الصالحة ويحاول أن يعدل القوانين الفاسدة. أما المعيار الثابت للتمييز بين ما هو صالح وما هو فاسد، فليس هو ما يحصل عليه الفرد من متعة، وإنما هو ما يدخل إلى قلب المجتمع ككل من سعادة.

وينقلنا هذا فورًا إلى آخر الفلاسفة الشرقيين، ثم يعود بنا القهقرى إلى أوائلهم، فنجد أن فيفكاناندا وغاندي، مثلهما مثل بوذا وزرداشت وكونفوشيوس، يرون جميعًا في الإنسانية جسما واحدًا وروحًا واحدة. وهاك ما قاله فيفكاناندا: إنني أدعو إلى فلسفة لا تعرف لغتها كلمة

" العزل ". ثم ردد غاندي الفكرة نفسها في مبدئه الذي نادى بنوع جديد من مقاومة الشر - المقاومة السلمية. فهو يقول: " لا تقتل خصمك بالسيف، بل اقتل كراهيته بالحب، فبهذه الطريقة ستقضي على عدو وتربح صديقًا ".

هذا هو المبدأ الخلقي للخليقة، كما هو القانون الميتافيزيقي لها. وما نشاطنا الإنساني اليومي، شأنه شأن حركة النجوم الأزلية، إلا عملية تطور من التنافر إلى التناسق. ويتفق الفلاسفة على أنه لو عرف كل إنسان هذه الحقيقة لنزلت فردوس السماء واستقرت على الأرض.

سر الدين

لقد آمن الفلاسفة الأولون بإله واحد، مثلهم مثل الرواد الدينيين الأولين، ولم تكن الآلهة المتعددة التي عبدها من كانوا يسمون بالوثنيين إلا صورًا للقوى المتعددة الوجوه التي يتميز بها رب الكون وسيده الواحد.

ونشأت فترة التوحيد هذه في مصر قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألف وخمسمائة عام. وقال الفيلسوف المصري، أخناتون، في هذا الصدد: " في الحقيقة، ليس هناك إلا سيد واحد للكون، إله واحد، أب واحد للجنس البشري كله ".

ثم تابع الفلاسفة الفارسيون فكرة التوحيد هذه بتصويرهم اهورا مازدا إلهًا أعلى للنور. وهذا الإله هو " خالق الكون الذي يحدد أفلاك النجوم ويدعم الأرض والسماء، ويجري المياه في مجاريها، ويهدي عقول البشر إلى الحكمة المقدسة ". وبعبارة أخرى، فإن إله الفرس هو مجموع القوى التي تخلد جمال العالم وجلاله.

وقد أسهم الهندوكيون في رسم نفس صورة الإله فاعتبروه خالق الأشياء كلها، ومتحدا مع خليقته في هوية واحدة فكل صور الحياة واحدة. وإذا بدت مختلفة فما هذا إلا نتيجة نقص في إدراكنا. ولتوضيح هذه النقطة، ذكر الفلاسفة الهنود، قصة العميان الستة الذين وضعوا أيديهم على ستة مواضع مختلفة من جسم الفيل، فكان الفيل عند الرجل الذي لمس أذنه، مروحة للنسف، بينما كان بالنسبة للرجل الذي لمس ساقه، عمودًا مستديرًا. وهكذا أخذ كل منهم يصف الحيوان وصفًا يختلف عن وصف الآخرين. ولم يدرك أحد منهم أن الحيوان وحدة تتكون من أجزاء متصلة.

كذلك صور الصينيون الله كوحدة - شانج - تي - أي القوة الخلاقة العليا المسيطرة على الكون. فقالوا إن السماء ليست مكانًا منفصلا عن الأرض، ولكنها إرادة الله الخيرة. كما نبهوا إلى أن كل من يسير في حياته وفق هذه الإرادة المقدسة لا يقرب نفسه من السماء، وإنما يقرب السماء من نفسه.

ويسند عادة إلى فلاسفة العهد القديم فخر البدء بالمناداة بفكرة الإله الواحد. ولكنهم، كما رأينا، لم يقوموا إلا بإعادة الكشف - أو بالأحرى متابعة الكشف - عن حقيقة قديمة عرفها الفلاسفة في جميع أنحاء العالم. فالأنبياء الأولون كانوا يخشون الله باعتباره ملكا صارما شديدا. ثم جاء عاموس وهلّيل ونظرا إلى الله على أنه أب رقيق شفيق. أما أشعياء فكان يبجّله بقوله: رب السلام. وبالرغم من ذلك فقد اتفق جميعهم على أن الله هو الخالق لعالم واحد، والروح المرشدة الهادية لشعب عام واحد - ألا وهو الجنس البشري وعندما يدرك الجنس البشري هذه الحقيقة - " ويكون في آخر الأيام، أن تجري إلى جبل الرب كل الأمم، ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله، فيطبعون سيوفهم سككا (أي محاريث) ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فيما بعد ".

وهذا الجد في طلب التآلف والوئام قديم قدم الزمن. فقد عرف الفلاسفة اليونان، مثل أسلافهم الشرقيين، هذا المبدأ العام للتآلف والوئام على أنه فكرة الله الخلاقة. ومما هو جدير بالملاحظة أنه بينما كان الشعب اليوناني يؤمن بتعدد الآلهة، كان الفلاسفة اليونان يناصرون فكرة التوحيد. فنجد أن سقراط، مثلا، يستخدم اللفظ المفرد Theos - بمعنى الله - عندما يشير إلى " الصوت المقدس " الذي يتحدث في دخيلة نفسه.

ومنذ ظهور المسيحية حتى عصرنا هذا، نلاحظ أنه فكرة التوحيد قد

توطدت أركانها كأساس تشيد عليه الفلسفة وقاعدة يقوم عليها الدين. فالغالبية العظمى منا يعرفون مبدأ مقدسا واحدا، ولو أن الكثيرين منا قد يختلفون في اختيار الطرق المتباينة التي تؤدي عليها. فالدين، إذا ما تحدث بلسان الإيمان، يؤكد لنا عناية الله الشخصية بنا في كل ما نتعرض له من محن. " اطمئنوا ولا تحزنوا، فأنا دائما معكم ". وكذلك الفلسفة، تحثنا بصوت العقل، فتؤكد لنا من جديد عناية الله المقدسة. " فوجود الله واضح جليّ في كل ما ينقذنا، ويعيننا على النهوض، في كل ما يخضع نفوسنا ويخفف عنا ويعزينا ".

وتعبر عن هذه الفكرة تعبيرا رائعا الشاعرة الفلسفية، إليزابث باريت براوننج في هذه الكلمات المنظومة:

الأرض مفعمة بالسماء ..... وكل نبتة عابرة تفيض بنور الله

ولكن السيدة براوننج تؤكد أن الأمر يحتاج منا إلى بصيرة وتفكير لكي نثق بصدق هذه الحقيقة الشاملة:

فالذي يرى هو وحده الذي يخلع حذاءه.

أما الباقون فيجلسون في دائرة يقطفون ثمر العليق.

ولفترة من الزمن كان من يدعون بالواقعيين يهتمون بقطف ثمار العليق (التوت البري) أكثر من اهتمامهم ببهجة العليق. وكانت تشغلهم إلى حد بعيد مظاهر الحياة المادية بغية التعرف على حقائقها الروحية. فحاول فولتير وماركس ونيتشه أن يؤسسوا فلسفة العقل من غير ما عقيدة. ولكننا نجد أن المفكرين الأحداث منهم قد نبذوا هذه " الفلسفة الواقعية "، وعادوا إلى فكرة الأوبانيشاد والقديس بولس. ثم كان أن أوجز سانتيانا في تعاليمه حكم الفلسفة الحديث تثبيتا للدين. ولقد قضى هذا الملحد - الكاثوليكي طيلة حياته يبحث

عن الله الذي أنكر وجوده. ولما قاربت حياته النهاية لم يجد ما يقوله عن ضالته المنشودة إلا هذه الكلمات: " إنني لا أوافق على الثقافة الشائعة بين الحصفاء من الشباب والساخرين من الشيوخ الذين نخرهم السوس. فهؤلاء وأولئك يزهون عندما يكشفون عن قصور الدين من الناحية العلمية. ولكنهم يتجاهلون عادات الفكر التي نبعت منها تلك المبادىء (الدينية)، ويتركونها من غير كشف " وقد أحس سانتيانا أن الدافع الفطري العام للاتجاه نحو الله هو دليل كاف على حقيقة وجود الله. فقال في هذا المقام إن ما يهمنا في الواقع هو الحقيقة التي تقرر أن كل المفكرين يتوقون إلى الكشف علة حياتنا الأرضية وخطة سيرها، وبعبارة أخرى فهم يشتعلون حماسة للعثور على الله.

وهكذا نرى أن هناك علاقة وثيقة بين الفلسفة والإيمان. وكما يتسع ويمتد مفهومنا عن الكون كذلك الحال أيضا في إيماننا بمرشد

للكون. فجنبا إلى جنب مع نضجنا العقلي تمشى نظرتنا الناضجة إلى الدين. وديننا الذي ننادي به للجميع هو الكشف عن نظام كوهني يتفق والجمال، كما يتفق والأمل في خلود للنفس الإنسانية.

فالفلسفة الحقة، إذن، دينية الطابع، كما أن الدين الحق فلسفي الطابع. والحياة الفلسفية أو الحياة الدينية على السواء إن هي إلا حياة من الإخلاص الفعال يشترك فيه أعضاء الإنسانية جميعا. فروح الإنسان تلتمس في النشاط الشريف منفذا لنفسها دائما. كما أن أعلام المفكرين في العالم يقررون أن هذه الروح يجب ألا تخنق أبدا تحت ضغط المصالح الذاتية، أو المبادىء الآسنة، أو المذاهب العتيقة. وعلى النقيض من ذلك يذكرنا الفلاسفة بأن رغبتنا الإنسانية الغريزية في مجتمع إنساني يسوده الود، يجب أن يلقى إليها بزمامنا في كل اتصالاتنا العامة والشخصية.

فالحياة تسير تجاه " صحبة لا نهائية ". وليس لنا من وراء التراحم وحكمته إلا الكسب، كما أنه ليس لنا من وراء الحقد وحماقته إلا الخسارة. وكما يذكرنا وليام جيمس فإن خديعة إخواننا في الإنسانية أو كراهيتهم أو قتلهم ليس عملا غير خلقي فقط، إنما هو كذلك عمل لا يفيد، فلم يشهد التاريخ حالة واحدة من الاضطهاد أو القتل أو الحرب قد عادت بالنفع في النهاية.

وهكذا، نجد في كل من الفلسفة والدين مبدأ واحدا بعينه " فليكن أمامنا نور نهتدي به " فإننا في حاجة إلى نظرة أكثر استنارة لنكشف بها الصلة الحقيقية بين الفرد والمجتمع. ولقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا جيدا الفيلسوف الفرنسي، أوجست ساباتييه عندما قال: " إن المجتمع الذي يضيق الخناق على أرواح أفراده ويضحي بحقوقهم وثقافتهم في سبيل هدوئه، بغية الإبقاء على نفسه يكون شبيهًا بأم تلتهم صغارها. كذلك الفرد الذي يستغل ويدمر الرباط الاجتماعي بأنانيته، إن هو إلا طفل متمرد، عديم الاكتراث يشعل النار في منزل أبويه، بغية تدفئة نفسه ".

فما هي، إذن، وظيفة الفرد؟ فعل الخير. وما هي وظيفة المجتمع؟ التعاون في فعل الخير. وما غاية الكون؟ فعل خير لا حدود له. وما هدف الفلسفة العملي؟ أن تريد وتعيش حياة خيِّرة صالحة - حياة مليئة بالنفع الودي والعاطفي والاجتماعي. وبعبارة أخرى: عش ودع غيرك يعيش وعاون غيرك ليعيش، لأنك جزء في كل واحد مقدس، أنت وجارك على السواء، سواء كان داخل حدود الوطن أم خارجها. ومهما كانت لغة هذا الجار، أو مذهبه، أو لون بشرته، أو شكل أنفه فإن كليكما تنتميان إلى الجسم الكوني نفسه، وإلى الروح الكونية نفسها. ولتسائل نفسك عن الأيام التي كنت فيها موفقًا في حياتك. أهي الأيام التي نجحت في أن تشق لنفسك فيها طريقًا للنجاح؟ أم هي الأيام التي

سحقت فيها منافسًا؟ أو نفَّست فيها عن كرهك وتعصبك وازدرائك؟ كلا ولا ريب. وإنما أيامنا الجليلة التي نعتز بذكرها هي تلك التي فيها نعطي بسخاء من وجودنا وخيرنا ورضانا، هي الأيام التي فيها نفتح قلوبنا لنشوة المصاحبة. فعندئذ نلمس السماء بأناملنا. وعندئذ نعيش بعقولنا وبعقيدتنا الدينية، وهما في أحسن حالاتهما.

وهكذا نصل إلى نهاية عرضنا الفلسفي. وكما رأينا، فإن أعلام الفلاسفة الذين ظهروا في أزمنة مختلفة وأماكن متباينة قد استطاعوا أن يصلوا إلى النتيجة النهائية عينها. وقد بلغوا هذا الإجماع على الرأي بالرغم من كون الكثيرين منهم لم يكونوا - على الأرجح - قد قرأوا أو سمعوا عن مؤلفات الآخرين. ومع ذلك فإن إجماعهم ليس حدثًا عارضًا، لأنهم جميعًا قد درسوا كتابًا مشتركًا واحدًا - ألا وهو كتاب الخليقة - الذي سطرت مقاطع كلماته من النجوم المتوهجة والنفوس الطامحة.

وهذا هو الحل الواحد الذي وجده الفلاسفة يكشفون به سر المسرحية الكونية: إله واحد، وعالم حي واحد، وإخاء بشري واحد، وقانون سماوي واحد. ولقد أسماه كونفوشيوس وأفلاطون وسانتيانا بالتناغم، بينما أطلق عليه بوذا والقديس بولس وغاندي اسم: المحبة.